

جامعة الزيتونة
كلية اللغة العربية
مكة المكرمة

المعتمدات والقائمات في الشعر الجاهلي

بحث مقدم من الطالب

محمد الشيخ محمود صبيح

لنيل درجة الدكتوراه في الآداب



إشراف الأستاذ الدكتور

محمد بن عبد الجواد

١٤٠٢ هـ

١٩٨٢ م

السِّفْرُ الْأَوَّلُ

(د)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

الحمد لله أهل الحمد ، وبه نستعين . والصلاة والسلام
على المادق الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين
الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وعلى من سلك سبيلهم ، وانتهج
طريقهم ، واهتدى بهديهم - الى يوم الدين .

و بعد ، ، ،

فقد عجز مجتمع القبائل العربية في العصر الجاهلي ، بخليط عجيب
وفيض غريب من المعتقدات والتصورات ، والتقاليد والعادات ، والأوابد
والترهات ، والأساطير والخرافات .

ففي الوقت الذي كان فيه كثير من القوم ، يؤمنون بالله سبحانه
وتعالى ، كانت ثلة قليلة منهم هي التي توحدته وحسب ، أما الأكثرية
الساحقة ، فقد كانت تشرك معه الأنصاب والأصنام والأوثان ، وغيرها من
الجمادات ، والجن والملائكة ، وغيرهم من المخلوقات . وصدق الله
العظيم اذ يصور حالهم تلك بقوله : " وَمَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ " (١) .

وشد انتباهي انتشار تلك الظاهرة في أشعار القوم انتشارا واسعا .

فبينما يقول لبيد بن ربيعة - موحدا - : (٢)

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ - لَامِحَالَةٌ - زَائِلٌ

يقول أوس بن حجر - مشركا - : (٣)

(١) سورة يوسف آية ١٠٦ (٢) ديوان لبيد ص ٢٥٦

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٣٦

(ه)

وَبِاللَّاتِ وَالْعِزَّى وَمَنْ دَانَ بَيْنَهُمَا ۖ وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مِنْهُمْ أَكْبَرُ

وبينما يقول قس بن ساعدة الياضى - مؤمنا بالبعث والنشور - : (١)

يَا نَاعِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدِّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَزْمِهِمْ خِرْقٌ
لَعْنَهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُّ بِهِمْ ۖ كَمَا يُنْبِئُهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصِّقُّ

يقول عبد الله بن الزبعرى - كافرا بذلك - : (٢)

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ ۖ حَدِيثٌ خَرَّافَةٌ يَا أُمَّ عَمْرٍو

الى غير ذلك مما سنراه فى موضعه من هذا البحث باذن الله تعالى .

وغص مجتمع القوم فى الجاهلية كذلك ، بفيض زاخر من القيم الاجتماعية الرفيعة ، من فروسية وشجاعة وكرم وسخاء ، الى نجدة وأنفة وعزة وابساء . ومن غيرة ورجولة وعفة وحياء ، الى حلم ورزانة وصدق ووفاء . وشد انتباهى أيضا ، انتشار هذه القيم الرفيعة - هى الأخرى - فى أشعار القوم فى ذلك الزمان ، انتشارا واسعا كذلك .

فهذا يقول : (٣)

وَإِنْ قَصْرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ۖ خَطَانَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ نَضَارِبُ

وذاك يقول : (٤)

فَلَمَّا نَاتَعْنَا الْعَشِيرَةَ كُلَّهَا ۖ أَنْخَنَا فَحَالَفْنَا السُّيُوفَ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ۖ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجَفُونَ عَلَى وَتَرِ

والثالث يقول : (٥)

وَلَا تَرَى مَعَشْرًا نَبِيكِي لِمَيْتِهِمْ ۖ إِذَا تَوَلَّى وَهُمْ يَبْكُونَ مَوْتَانَا

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٣٣ (٢) ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٠

(٣) هو الأخنس بن شهاب - انظر شرح اختيارات المفضل الضبي للتبريزى ٩٣٧/٢

(٤) هو موسى بن جابر الحنفى - انظر المنازل والديار لأسامة بن منقذ ص ٢٥٠

(٥) هو أسير بن مغراء السعدى - انظر العباب الزاخر للحسن الصغانى ص ٤٩

(و)

والآخر يقول : (١) **إِنَّا نَعِفُّ فَلَا نَرِيبُ حَلِيفْنَا** وَنَكْفُشِحْ نَفْسِنَا فِي الْمَطْمَعِ

أما أقوال عنتر بن عمرو بن شداد وغيره ، في الفروسية والعفة والحياء ،
وأقوال حاتم الطائي وغيره ، في الكرم والجود والسخاء ، وأقوال عامر بن
الطفيل ، وعمرو بن كلثوم ، وغيرهما ، في الشجاعة والبطولة ، والعزة
والرجولة ، والأنفة والاباء ، فهي أكثر وأشهر من أن يتمثل ببعضها في
هذا المجال الضيق . وسنجد ذلك أيضا في موضعه باذن الله .

ان انتشار هاتين الظاهرتين ، المعتقدات الدينية ، والقيم

الاجتماعية في الشعر الجاهلي ، قد شد انتباهي لدرجة شجعتني على جعلهما
موضوع دراستي . حتى اذا تفضل سعادة الدكتور حسن محمد باجودة - المشرف
على هذا البحث - بالموافقة والتشجيع ، غمرني سرور لا يعدله سرور ، وبدأت
العمل فورا ، وذلك قبل أن أنتهي من رسالتي السابقة - الماجستير - ببضعة
أشهر .

وما كان أشد سروري حين تفضلت المجالس المختصة ، في فرعنا وقسمنا
وكليتنا الرشيدة ، بالموافقة على هذا الموضوع ، فكانت هذه الرسالة :

المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي

ولقد قسمتها خمسة أبواب ، في كل باب ثلاثة فصول . جعلت الباب الأول
منها للمعتقدات الدينية ، ففصل لموضوعاتها ، وهي الله جل شأنه ، والملائكة
وبعض الرسل السابقين عليهم السلام ، والجن والشياطين ، والموت والبعث

(١) هو الحادرة الذبياني ، انظر ديوانه ص ٥١

(ز)

والحساب ، وتقديس البيت الحرام والحج اليه والوقوف بالمشاعر . وفصل
لمصادر تلك المعتقدات ، من بقية دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ،
أو من أثر اليهودية والنصرانية ، أو من التحنف والتأله وما اليهما ،
أو من هذا وذاك جميعا . والفصل الأخير من ذلك الباب ، عقدته لدراسة أشعار
تلك المعتقدات الدينية ، فى ضوء قضية الانتحال .

أما الباب الثانى فقد جعلته للمعتقدات الخرافية ، فصل للكهانة

والعرافة والزجر والطيرة والتعائم ، التى انتشرت بين القوم فى ذلك
الزمان ، وفصل للأصنام والأنصاب والأوثان ، والفصل الأخير من هذا الباب
عقدته للخرافات والأساطير الأخرى التى وجدتها فى أشعار القوم .

وجعلت الباب الثالث للقيم الاجتماعية ، رفيعها ووضيعها ، فصل

للكرم والشجاعة والغيرة ، وفصل للقيم الرفيعة والخلال الحميدة الأخرى ،
وعقدت الفصل الأخير من هذا الباب ، للقيم الوضيعة والخلال الذميمة التى
انتشرت بين بعض القوم فى ذلك العصر .

ثم أفردت بابا خاصا هو الباب الرابع ، لدراسة الخصائص الفنية
لشعر المعتقدات والقيم فى الجاهلية . فصل للألفاظ والأساليب والموسيقى
والبحور والاوزان ، وفصل للأفكار والمعانى ، وعقدت الفصل الأخير للتصوير
والخيال والعاطفة .

أما الباب الأخير ، فقد جعلته لدراسة هذه المعتقدات والقيم فى ضوء
الاسلام . فصل لموقف الاسلام من معتقدات العرب فى الجاهلية ، وفصل لموقفه
من خرافاتهم وقيمهم الوضيعة وأخلاقهم الذميمة ، وعقدت الفصل الأخير لموقف
الاسلام من القيم الرفيعة والأخلاق الحميدة ، التى سادت القوم فى ذلك العصر .

(ح)

والحقيقة أن في منهج هذا البحث ، مفايرة واضحة لمناهج أكثر الباحثين في المجال الأدبي ، إذ يقتصر بعضهم على دراسة الظاهرة - أي ظاهرة - دراسة تاريخية ، كجانب من جوانب تاريخ الألب وحسب . ويقتصر البعض الآخر على دراسة النصوص الأدبية لتلك الظاهرة ، من الناحية النقدية وحسب أيضا . وقد يجمع البعض الآخر بين هاتين الناحيتين .

أما أن يدرس أحد الظاهرة من الناحية التاريخية الأدبية ، ويدرس شعرها من الناحية النقدية ، ثم يعرضها على ميزان السلام ، لتتضح فيها السمنة من الغثاثة ، والحق من الباطل ، والخير من الشر ، وبذلك ينجلي خطها ، ليوء من خطرها ، فهو منهج فريد ، تفضل سعادة الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة - المشرف على هذا البحث ، فنبهني اليه وشجعتني عليه ، وذلك حتى لا تظل الدراسة الأدبية عقيمة جافة . وصبغها بالمبغة الأخلاقية يجنبها ذلك العقم ، وينقذها من ذلك الجفاف .

*

هذا عن هذه الرسالة ... فماذا عن الذين هبوا لي فرصة الانتهاء منها ؟!

ان نفرا من الأتذة الفضلاء ، والمربين الأجلاء ، المسئولين في هذه الجامعة بعامة ، وفي كليتنا بخاصة ، وفي قسم الدراسات العليا على وجه الخصوص ، قد اهتموني بعناية طالما قادتني الى السداد والرشاد ، وأحاطوني برعاية كانت لي زادا وأى زاد .

فلهم منى الشكر الجزيل ، وجزاهم الله عنى خير الجزاء ، وأجزل لهم من فضله العطاء ، وتقبل فيهم منى صالح الدعاء .

(ط)

ومن بين أولئك وهو علاء ، أخص بشكري الجزيل - على ما حبانى به
من كريم عطفهما ، وشديد لطفهما - مربيين جليلين ، هما الدكتور
عليان محمد الحازمي ، والدكتور حسن محمد باجودة .

أما الأول ، فقد تولاني برعايته الكاملة ، وتوجيهاته وتشجيعاته

المتواصلة .

وأما الثاني ، فله على البحث دأب عجيب ، وصبر غريب . ولذا فقد
حملني على مواصلة البحث بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل . وجعلني أصل
الليالي بالأيام ، ولم يترك لي فرصة لراحة أو استجمام . حتى اذا اطمان
على بحثي هذا ، ولم يبق له عليه أى اعتراض ، أجازته وهو عنه راض .

هذان الكريمان ، سأترك ما بيني وبينهما الى الله سبحانه وتعالى ،

ليتولى مكافأتهما عنى - وعن جميع زملائي - بالحفظ والتوفيق وطول البقاء ،
والأجر والثواب وخير الجزاء .

بقى أن أذكر بالخير الذى يليق بهم - نفرا من أعز الأصدقاء

وأود الاخوان ، الذين قليلا ما يوجد بمثلهم الزمان . يعملون فى
صمت بعزائم قوية ، ونفوس مخلصه أبية . فجزاهم الله عنى خير الجزاء ،
اذ لم يثنوا على بأى مساعدة ، مادية أو معنوية . ودأبوا على ذلك
حتى كمل هذا البحث ، وبلغ الغاية المرجوة .

ضارعا الى الله أن يكلا جميع أساتذتى واخوانى برعايته ، وأن
يشملهم بعنايته ، وأن يجعل بحثى هذا فاتحة خير لبحوث أخرى ، نخدم
بها ديننا ودموتنا ، ونرفع بها شأن بلادنا وأمتنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد صيام

الباب الأول

المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

الفصل الأول : موضوعات المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

الفصل الثاني : مصادر المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

الفصل الثالث : المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي ووضعية الانتحال

الفصل الأول

موضوعات المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

- الله جل شأنه .
- الملائكة والرسل عليهم السلام
- الجن .
- الموت والبعث والحساب .
- تقدس البيت الحرام ، والحج
- إليه ، والوقوف بالمشاعر .

الفصل الأول

موضوعات المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

تمهيد ..

نعنى بالمعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي بالذات ، تلك الأمور التي لها صلة بالدين ، سواء اعتقدها الشاعر بقلبه ، وعبر عنها بلسانه ، وبدت آثارها في أفعاله ، أم كان يعتقدها بقلبه ، ويعبر عنها بلسانه ، ثم يبدر من أفعاله ما يناقضها . وتلك طبيعة في البشر أصيلة . وقد كان بين الشعراء الجاهليين ، من يفعل هذا ومن يفعل ذاك

وأصل كلمة المعتقدات في اللغة من العَدَّ ، وهو نقيض الحل (١)

قال الشاعر (٢)
لا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بِنَا ۖ الخَيْرُ تَعَادُ التَّمَائِمَ ۝

(١) انظر لسان العرب - لابن منظور - عقد - ، وتهذيب اللغة للأزهري -

١٩٦/١ - عقد - ، وتاج العروس - للزبيدي - عقد - ، أو خزائن لؤنان كما
(٢) هو المرقش كما في عيون الأخبار لابن قتيبة ١٤٥/١ ، أو خزائن لؤنان كما
في المؤلف والمختلف للامدي ص ١٤٣

وَعَقَدَ الْحَبْلَ شَدَّهُ ، وَعَقَدَ الْعَهْدَ وَالْيَمِينَ ، وَعَقَدَهُمَا أَكْنَهُمَا . والمعاهدة
المعاهدة والميثاق ، وَتَعَقَّدَ الْإِيمَانَ بَيْنَهُمْ اسْتَحْكَمَ ، واعتقد أمرًا
بقلبه إذا ارتآه .

ومن ذلك العقود ، وهي العهود أو الفرائض التي يلزمها
الناس ، قال الله سبحانه وتعالى (١) " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا
بِالْعُقُودِ " . قال العلماء في تفسيرها أي التي يعقدها الله عليهم ،
أو التي يعقدها بعضهم على بعض . (٢)

ومن ذلك اصطلاح على أمور الإيمان بكلمة العقيدة ، لما فيها من
تصديق بالقلب واقتناع لا يقبل الشك ، وجزم فيه استيثاق وعزم وتصميم (٣)
ومن هذه أيضا المعتقد ، وهو كلما ارتآه الانسان بقلبه ثم عقد عليه
العزم والتصميم .

وقد كان للعرب في الجاهلية - كما تصور أعمارهم - معرفة
بكثير من المعتقدات الدينية التي لا يعرفها الا أصحاب الديانات السماوية ،

(١) غرة سورة المائدة

(٢) ابن كثير في تفسير القرآن العظيم - دار المعرفة - ٣/٢ والزبيدي
في تاج العروس - عقد - ، والشوكاني في فتح القدير - ٣/٢

(٣) انظر العقائد الاسلامية للشيخ سيد سابق - هامش ص ٨

وان كانوا قد خلطوا تلك المعتقدات الدينية بمعتقدات خرافية -
 وأسطورية - كما سنرى في حينه بان الله . وانتشرت تلك الخرافات
 والأساطير في أشعارهم ، انتشار المعتقدات الدينية أو يزيد .

أما المعتقدات الدينية التي عرفوها فهي كثيرة ، منها الله
 جل شأنه ، ومنها كثير من صفاته وقدراته - سبحانه وتعالى - . ومنها
 الملائكة ، وبعض الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام . ومنها عالم
 الجن والشياطين . ومنها قضية الموت والفناء ، والبعث والحساب ، ومنها
 تقديس البيت الحرام ، والحج اليه ، والوقوف بالمشاعر ، وغير ذلك

وسنفرد لكل واحد من هذه المعتقدات ، مبحثا خاصا ، نضرب فيه
 الأمثلة ، لما دار على السنة الشعراء الجاهلين من أشعار تتحدث عن
 ذلك المعتقد .

وأقول أمثلة وحسب ، لأن الهدف ليس استقصاء ما قال الجاهليون
 في المعتقدات الدينية ، ولكن الهدف هو التمثيل على وجود تلك المعتقدات
 في أشعارهم .

أما من أين تسربت هذه المعتقدات الدينية اليهم ، وما هي
 المؤثرات التي كانوا يقعون تحتها ، وهم ينطقون بتلك المعتقدات
 في أشعارهم ، فهو ما سنبحث القول فيه - بان الله تعالى - في الفصل

القادم .

الله - جل شأنه :

لقد انتشر لفظ الجلالة الكريم "الله" في أشعار الجاهليين
انتشارا واسعا ، ينم عن معرفة غالبيتهم بالله جل شأنه ، ومعرفة
كثير من صفاته وقدراته .

فقد عرفوا أن الله موجود ، وعرفوا أنه حق ، وما عداه الباطل ،
وعرفوا كذلك أنه سبحانه باق وخالد ، وأن ما عداه فان . قال زهير
ابن أبي سلمى (١) :

بَدَأَ لِي أَنْ اللَّهَ حَقٌّ فَزَادَنِي إِلَيْهَا لِحَقِّ تَقْوَى اللَّهِ مَا قَدْ بَدَأَ لِيَا
وقال لبيد بن ربيعة (٢) :

أَلَا كَلْفِي مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ - لِمَحَالَةٍ - زَائِلٌ
وقالت الخنساء (٣) :

لَاشَى يَبْقَى غَيْرُ وَجْهِ مَلِيكِنَا وَلَسْتُ أَرَى شَيْئًا عَلَيَّ لَدُنَّ خَالِدَا

(١) ديوان زهير - ص ٢٨٧
(٢) ديوان لبيد - ص ٢٥٦
(٣) ديوان الخنساء - ص ٣٢

وقد أفاد كل من زهير وليبيد والخنساء ، من معرفتهم بالله تعالى ، فذهب
 زهير يدعو الى جانب من جوانب الإصلاح في مجتمعه ، كما تذكر أخباره ،^(١)
 وأدرك لببيد الاسلام فأسلم وحسن اسلامه^(٢) ، وكذلك فعلت الخنساء رضى
 الله عنها^(٣)

وعرف الجاهليون كذلك ، أن الله هو الذي خلق السموات والأرض
 ومن فيهن ، وأنه المهيمن عليهن ، قال أمية بن أبي الصلت :^(٤)

إِذَا قِيلَ مَنْ رَبُّ هَذِي السَّمَاءِ فليس سِوَاهُ لَهُ مُضْطَرِبٌ
 وَلَوْ قِيلَ رَبُّ سِوَى رَبِّنَا لَقَالَ الْعِبَادُ جَمِيعًا كُذِّبُ

وقال^(٥) :

مَلِكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ تَعَنُّوا لِعِزَّتِهِ الْوَجُوهَ وَتَسْجُدُ

^(٦)

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :
 وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ ضَخْرًا ثِقَالًا
 نَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَلَّهَا بِأَيْدِي وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

^(٧)

وقال لببيد :
 وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ مِمَّا دَارَاسِيًّا ثَبَتَتْ خَوَالِقَهَا بِصَمِّ الْجَنْدَلِ^(٨)

- (١) انظر الأغاني - ثقافة - ١٠ - ٣١٨
 (٢) انظر المصدر السابق ٢٩٧/١٥ (٣) انظر مقدمة ديوان الخنساء ص ٥
 (٤) ديوان أمية ص ٣٤٣ - ٣٤٤ (٥) المصدر السابق ص ٣٦١ ، وانظره
 في فتح القدير للشوكاني ٣٨٧/٣ باختلاف في الرواية .
 (٦) فتح القدير للشوكاني ٣٧٩/٥ (٧) ديوان لببيد ص ٢٧٢
 (٨) قال لفيروزبا د في القاموس المحيط : "وخوالقها في قول لببيد، أي جبالها
 المُلس (انظر القاموس المحيط - فصل الخاء - باب القاف - ٢٢٨/٣ -
 مطبعة السعادة بمصر).

فالله سبحانه وتعالى - باعترافهم - هو رب السموات والأرض ، وهو الذى خلقهن وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :^(١)
 " وَلَسْتُ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيُقُولَنَّ اللَّهُ " .

والسموات والأرض - باعتراف الجاهليين كذلك - هن من آيات الله ، التى لا يملك العباد - معهن الا أن يسجدوا لعزته سبحانه وتعالى .

روى أبو الفرج الأصفهاني ، فى أغانيه ، عن يزيد بن عبد المديان ابن الديان ، أنه سئل عن جده الديان ، ما ذا كان يقول - فى الجاهلية اذا أصبح ، فقال " كان يقول : آمنت بالذى رفع هذه - يعنى السماء ، ووضع هذه - يعنى الأرض ، وشق هذه - يعنى أصابعه - ثم يخر ساجدا ويقول : سجد وجهي للذى خلقه ... " (٢)

ولم تقتصر معرفة الشعراء الجاهليين لآيات الله على السماء والأرض ولكنهم عرفوا من آياته الشمس والقمر ، والعمري وآيات آخر . قال النمر بن تولب :^(٣)
 يَا قَوْمِ إِنِّي رَجُلٌ عِنْدِي خَبْرٌ
 وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَآيَاتُ الْآخِرِ
 اللَّهُمَّ مِنْ آيَاتِهِ هَذَا الْقَمَرُ

(١) سورة الزمراية ٣٨

(٢) الاغانى - دار الثقافة - ١٧١٢

(٣) ديوان النمر بن تولب ص ٦٩

ومن هذه الآيات الأخر ، الماء والنار ، ومنها كذلك الليل والنهار . يقسول لبيد : (١)

وَالْمَاءُ وَالنَّيْرَانُ مِنْ آيَاتِهِ فِيهِنَّ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ لَمْ يَجْهَلِ

ويقول النايفة الجعدى (٢) :
 الْمَوْلُجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ نَهَارًا يُفْرَجُ الظُّلْمَا
 ثم اعترف الشعراء الجاهليون ، بأن الله سبحانه وتعالى - هو خالق الناس ، وهو الذى يصورهم فى الأرحام كيف يشاء . قال أمية بن أبى الصلت (٣)

وَبَثَّ الخُلُقَ فِيهَا إِذْ نَحَاها فَهُمْ سَكَانَهَا حَتَّى التَّنَادَى

وقال النايفة الجعدى (٤) :
 الخَالِقُ البَارِىُّ فِي المَصُورِ فِي الأَرْحَامِ مَا حَتَّى يَصِيرَ نَمَا
 واعترفهم هذا ، هو مصداق لقول الله تعالى (٥) " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ .. لَيَقُولُنَّ اللهُ ... " .

والحقيقة أن المشركين من عرب الجاهلية - كما تذكر الأخبار الصحيحة - لم يكونوا يزعمون أن أحدا غير الله سبحانه وتعالى - له قدرة على خلق نفسه ، فضلا عن أن تكون له قدرة على خلق شئ من هذا العالم .

(١) ديوان لبيد ص ٢٧٢
 (٢) ديوان النايفة الجعدى ص ١٣٢
 (٣) ديوان أمية ص ٣٨٣ ، وروايته فى فتح القدير ٣٧٩/٥ "فهم قطانها"
 (٤) ديوان النايفة الجعدى ص ١٣٣ (٥) سورة الزخرف آية ٨٧

ذكر ابن تيمية في الجواب الصحيح " أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهًا آخر، مساويًا له في الصفات والأفعال . بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم . ولا أن الأصنام تخلق شيئًا من العالم ". (١)

وإذا كانت الأصنام والشمس والقمر والكواكب وغير ذلك مما عبده من دون الله ، أو تصوروا أن له قدرة ما ، لم يخلق هذا العالم باعترافهم ، فمن الذي خلقه - إن - غير الله سبحانه وتعالى ..

(٢)
 روى ابن كثير في تفسيره ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :
 " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يحدث عن امرأة ، كانت في الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها يرعى غنمًا . فقال لها ابنها يا أمه .. من خلقك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبي ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقني ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السموات ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : فأنسى أسمع لله شأنًا .."

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ١٢٠/١ وانظر كذلك مقالته في الرسالة التلمزية ص ٥٦

(٢) تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - دار المعرفة - ١٥٢/٣ في ثنايا تفسيره للآية (٨٦) من سورة المومنون " قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ "

هذا هو الله - سبحانه وتعالى - ، الموجود ، الحق ، الخالق
 باعتراف الجاهليين - فهل عرفوا من صفات الله ، ومن قدراته شيئا غير
 ذلك !!

نعم ... لقد عرفوا أنه الرزاق ، الذى يسوق الغيث ، ويوجد
 الرزق . يقول حاتم الطائي (١)

كُلُّوا الْآنَ مِنْ رِزْقِ الْإِلَهِ وَأَيِّرُوا فَإِنَّ عَلِيَّ الرَّحْمَنِ رِزْقُكُمْ غَدًا
 ويقول عبيد بن الأبرص: (٢)

مَنْ سَأَلَ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَأَلَ اللَّهَ لَا يَخِيبُ
 ويقول زيد بن عمرو بن نفيل: (٣)

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمِزْنَ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
 وتقول الخنساء: (٤)

سَقَى إِلَهِ ضَرِيحًا جَنَّ أَعْظَمَهُ وَرُوحَهُ بِغَزِيرِ الْمِزْنِ هَطَالًا

فهو الرزاق سبحانه ، الذى يستجيب لمن يطلب نواله ، والذى لا يرد لسائل
 سؤاله . بل انه الرزاق لكل الخلائق ، سألوه أولم يسألوه . وهو الذى
 يسوق المزن ، فتتهطل على الناس بذلك الغيث العميم ، وذلك مصداق
 لقوله تعالى: (٥) " قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. فَيَقُولُونَ لِلَّهِ .. "

(١) ديوان حاتم الطائي - دار صادر وبيروت - ص ٤١

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٥

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٥٩

(٤) ديوان الخنساء ص ٩٩

(٥) سورة يونس آية ٣١

ليس هذا وحسب ، بل لقد ذكر الشعراء الجاهليون لله - سبحانه
وتعالى - صفات كثيرة أخرى ، فهو الواقى ، وهو المعين ، وهو الغالب
وهو النصير . وذلك لأنه سبحانه أكثر القوم عدا ، وأقواهم جندا ، وهو
القريب وهو المستجيب ، وهو الذى بيده الخير ، وهو الذى له فى خلقه

النهى والأمر . يقول أفنون التغلبى : (١)
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِى الْفَتَى كَيْفَ يَتَقَى إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا
ويقول أبو قيس ، صيفى بن الأسلت : (٢)

وَأَحْرَزْنَا الْمَغَانِمَ وَاسْتَبَحْنَا حِمَى الْأَعْدَاءِ ، وَاللَّهُ الْمُعِينُ

س ويقول نفيل بن حبيب ، وذكر أبرهة الأشرم ، وما حدث لأصحاب الفيل (٣)
أَيْنَ الْمَغْرُ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

س ويقول خدش بن زهير : (٤)
رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوِلَةٌ ، وَأَكْثَرَهُمْ عِدِيدًا
تَفَوُّهُ أَيْهَا الْفِتْيَانُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ غَلَبَ الْجُدُودَا

تلك القوة التى عرفها الجاهليون - لله سبحانه وتعالى هى التى

جعلت عدى بن يزيد يستنصره فى قصيدته البائية التى يقول فيها : (٥)
سَعَى الْأَعْدَاءُ لَا يَأْلُونَ شَرًّا عَلَيَّ وَرَبِّ مَكَّةَ وَالصَّلِيبِ

اذ يقول : (٦)
فَإِنِّي قَدْ وُكِّلْتُ الْيَوْمَ أَمْرِي لِلْعَرَبِ قَرِيبٍ مُسْتَجِيبِ

- (١) المؤلف والمختلف للامدى ص ٢٢٥ ، وانظر المفضلية ٦٥
(٢) ديوان أبي قيس - صيفى بن الأسلت - ص ٩١
(٣) تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - دار المعرفة - ٥٥٠/٤
(٤) الأثر فى اللغة لابن زيد ص ٢٧ والبيتان فى المسلسل فى غريب لغة العرب
لابى طاهر التميمى ص ٢٠٥ ، والاول فى شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك
١٧/١ ٤ شاهد رقم ١١٢ وهذه رواية النوادر ، ورواية غيره "وأكثرهم جنودا"
والبيت لثانى فى الممتع فى التصريف لابن عصفور الكندي ٢٢٣/١
(٥) ديوان عدى ص ٤١ والقصيدة فى الاغانى دار الثقافة - ٩٣/٢
(٦) نفس المصدرين السابقين .

وهي التي جعلت عبدا للمطلب بن هاشم - جد رسول الله صلى الله عليه وسلم
لا يستنصر الا الله ، حين غزا الأحباش البيت الحرام ، عام الفيل اذ يقول (١)

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، حِينَ غَزَا الْأَحْبَاشَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، عَامَ الْفِيلِ إِذْ يَقُولُ (١)
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، حِينَ غَزَا الْأَحْبَاشَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، عَامَ الْفِيلِ إِذْ يَقُولُ (١)
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، حِينَ غَزَا الْأَحْبَاشَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، عَامَ الْفِيلِ إِذْ يَقُولُ (١)

وفيها يقول: (٢)

وَأَنْصُرْ عَلَيَّ آلَ الصَّلِيبِ وَعَايِدِيهِ الْيَوْمَ آتِكَ

ليس هذا وحسب ، أيضا ، بل إن الله سبحانه وتعالى - باعتراف الجاهليين
هو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويفعل ما يشاء . كيف لا ، وهو
الذي بيده كل خير ، وهو الذي له في عباده النهي والأمر . إن مشيئته
هي المشيئة النافذة ، سواء في خلقه أو في أرضه أو في سائه ، وإن قضاءه
هو القضاء المبرم ، ولا راد لقضائه .

يقول لبيد: (٣)

أَحْمَدُ اللَّهُ فَلَا نِدَّ لَهُ يَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلَهُ
مَنْ هَدَاهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّهُ

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١/٣٥ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير -
دار المعرفة - ٤/٥٥٠ ، والآيات أيضا في السيرة النبوية لابن هشام
بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد - ١/٤٥ ، والبستان الأول والثاني في الزاهر
لابن الأثير (١٠٧-١٠٢) وانظر دلائل النبوة للبيهقي ١/٥٨
(٢) الروض الأنف للسهيلى ١/٧٠ (٣) ديوان لبيد ص ١٧٤

ويقول أيضا : (١)

لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ مَحْوَ كِتَابِهِ أَنَّى ، وَلَيْسَ قَضَاؤُهُ بِمَبْدَلٍ

- ويقول عنتره : (٢)
وَمَا قَدْ رَحَلْتَ الْيَوْمَ عَنْهُمْ وَأَمَرْنَا إِلَى مَنْ لَهُ فِي خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
ويقول يزيد بن زُرح السَّكُونِيُّ (٣)

أَلَا هَلْ أَتَاهَا وَالْحَوَاثِجَةُ وَمَهْمَا يَرْتَهُ اللَّهُ يَمْضُ وَيَفْعَلُ

ويقول قيس بن الخطيم (٤)

يُحِبُّ الْمَرْءُ أَنْ يَلْقَى مِنْهَا وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا يَشَاءُ

ثم ان الله - باعتراف الجاهليين كذلك - هو الذي يعلم الغيب ، كل الغيب ، بل لا يعلم الغيب إلا هو . يقول المخبل السعدي (٥)

وَلَيْتَنِي بَنَيْتُ لِي الْمَشْقَرُ فِي هَضْبٍ تَقْصُرُ دُونَهُ الْعَصَمُ
لَتَنْقِبَنَّ عَنِّي الْمَنِيَّةُ إِنْ أَلَّ اللَّهُ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ

ويقول الأعشى : (٦)

عَطَاءُ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهِ يَسْمَعُ فِي الْغَامِضَاتِ السَّرَارَا

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧٢

(٢) ديوان عنتره ص ٢٥٥ (٣) الموتلف والمختلف ص ١٧٤

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ٩٨ (٥) المفضلية رقم ٢١

(٦) ديوان الأعشى ص ٩٩

ويقول ذوالإصبع العدواني: (١)
 اللَّهُ يَعْلَمُنِي وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّي وَيَجْزِينِي

ويقول زهير: (٢)
 فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ

ويقول حاتم الطائي: (٣)
 أَمَا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرَهُ وَيَحْيِي الْعِظَامَ الْبَيْضَ وَهُرْمِيمَ

وأخيرا يقول لبيد بن ربيعة: (٤)
 إِنَّمَا يَحْفَظُ التَّقَى الْأَبْرَارُ وَإِلَى اللَّهِ يَسْتَقِرُّ الْقَرَارُ
 وَإِلَى اللَّهِ تَرْجَعُونَ وَعِنْدَ اللَّهِ وَرْدُ الْأُمُورِ وَالْإِسْكَارُ
 كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَى كِتَابًا وَعِلْمًا وَلَدَيْهِ تَجَلَّتِ الْأَسْرَارُ

بهذه الأسماء والصفات والأعمال ، وبكثير غيرها (٥) ، عرف الجاهليون
 الله سبحانه وتعالى ، كما ذكرت أشعارهم .

أمامدى ما استيقنته أنفسهم من هذا الذى عرفوه ، ومدى تفاوتهم
 فى ذلك أفرادا وقبائل ، فليس هنا مجال البحث فيه . ولكن يكفى أن نعرف
 هنا أنهم - لماعرفوا من صفات الله وقدراته التى ذكرنا ، كانوا باسمه
 يبدون ، وكانوا له يسبحون ، وكانوا آياه يدعون ويستغفرون .

(١) المفضلية رقم ٣١ (٢) ديوان زهير ص ١٨ (٣) ديوان حاتم الطائي
 دار صابروبيروت ص ٨٦ (٤) ديوان لبيد ص ٤١
 (٥) فقد ذكروا أن الله هو خالق الزمان ، قال الأعشى (ديوانه ص ٨١) :
 فلعمري من جعل الشهور علامة قدرا فبين نصفها وهلالها
 وذكروا أن الله هو الذى يعلم أين يكون الخير وأين يكون الشر . قال
 عامر بن الطفيل (ديوانه ص ٧٥) :
 قضى الله فى بعض المكاه للفتى يرشد ، وفى بعض الهوى ما يحاظر
 وذكروا أن الله قد استأثر بالوفاء المطلق والعدل المطلق ، قال الأعشى
 (ديوانه ص ٢٨٣)
 استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى العلامة الرجلا
 وغير ذلك ..

قال الدكتور ناصر الدين الأسد ، فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى (١)
 " وقد كانوا يبدءون كتبهم هذه ب (باسمك اللهم) " .

وفى ما كان من سهيل بن عمرو مع رسولا لله صلى الله عليه وسلم ، يوم
 الحديبية ، خير دليل على ذلك . فقد كان سهيل كما هو معروف على رأس -
 مفاوضى قريش ، ولما أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يفتح وثيقة
 الصلح بالبسملة ، قال لعلى بن أبى طالب رضيا لله عنه " اكتب بسم الله
 الرحمن الرحيم " ، فأخذ سهيل بن عمرو بيده وقال : " ما نعرف الرحمن
 الرحيم . اكتب فى قضيتنا ما نعرف . فقال : اكتب باسمك اللهم " . فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اكتب باسمك اللهم " . (٢)

أما تسبيح القوم لله سبحانه وتعالى ، فهو كثير . ومن ذلك -
 قول أمية بن أبى الصلت (٣)
 سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ وَقَبْلُنَا سُبْحٌ الْجُودَى وَالْجَمْدُ
 ومنه كذلك قول ورقة بن نوفل (٤) :

سُبْحَانَ ذِي الْعَرْشِ سُبْحَانًا يَدُومُ لَهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمْدٌ
 وأما استغفارهم الله سبحانه وتعالى ، فقد كان هو الآخر كثيرا . ومن ذلك
 قول أمية بن أبى الصلت : (٥)

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا الْمَا

(١) مصادر الشعر الجاهلى - للدكتور ناصر الدين الأسد - ص ٧٣
 (٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/١٩٢ ، ١٩٦ تفسير الآيتين ٢٤ ، ٢٥ من سورة الفتح
 (٣) ديوان أمية ص ٣٧٦ (٤) الزاهر لابن الأنبارى ١٨٠/١ ، وهو فيه ١٤٥/١ لزيد
 ابن عمرو بن نفيل (٥) ديوان أمية ص ٤٩١ ، والبيت له فى القرطبي
 ١٠٧/١٧ برواية اخرى هي " ان يغفر الله يغفر جما "

وقول عدى بن زيد: (٢)
 فَاسْتَعْتَبُوا وَاشْكُرُوا لِلَّهِ نِعْمَتَهُ تَلْفُوا إِلَيْهِمْ لِلظُّلْمِ غَفَارًا

وقول عبيد بن الأبرص (٢)

يَا صَاحِمْ مَهْلًا أَقِلِ اللَّوْمَ يَا صَاحِمْ وَلَا تَكُونَنَّ لِي بِاللَّائِمِ اللَّاحِي
 حَلَفْتُ بِاللَّهِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ ذُو نَعْمٍ لِمَنْ يَشَاءُ وَذُو عَفْوٍ وَتَصْفَاحِ

وفى ديوان أمية بن أبي الصلت، نصوص كثيرة ، تدل على أن القوم كانوا
 يقرّون بنزوبهم ، ويقرّون بأن الغفران بيد الله وحده (٣)

ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، كما تصوره أشعار الجاهليين ، فهو
 حق أى حق ، بل إنه الحق المطلق ، وما عداه باطل . وهو باق خالد ، وما
 سواه فان . وهو رب السموات والأرض ، ومن فيهن ، فهو الذى خلقهم وخلقهن .
 وهو الرزاق الذى بيده الخير ، وهو الذى ينزل الغيث ويعلم السر ،
 ويعاقب من يشاء بما يشاء ، وهو المعين وهو النصير ، وهو الواقى واليه
 المصير . وهو الذى يبذل العسر باليسر ، وله فى خلقه النهى والأمر .

وهو القريب المستجيب ، ومشيئته هى النافذة ، وقضاه هو المبرم ،

فلا راد لقضائه وليس كحكمه حكم . والله هو الذى يدفع الكروب ويغفر

(١) ديوان عدى ص ٥٥ (٢) ديوان عبيد ص ٣٨

(٣) انظر ديوان أمية ص ٣٥٣ حيث يقول :

«اعلم بأن الله ليس كصنعه صنع ولا يخفى عليه ملحد
 وانظر أمثال ذلك فى ديوانه ص ٣٦٧ ، ٤٧١ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ وغيرها

الذنوب ، واليه سيرجع الخلق أجمعون ، الى غير ذلك مما كانوا يذكرون .
 وأقول يذكرون ، حتى لا تنصرف الأنظار الى أن القوم كانوا موحدين ،
 فان تلك المعتقدات في الله - جل شأنه - من غير شرك هي غاية التوحيد
 ولكن القوم لم يكونوا كذلك .

بل ان العجب العجاب أن يرى أولئك القوم ، وقد عرفوا لله ما
 عرفوا ، واعترفوا له بما اعترفوا - يتدنون الى عبادة غيره من المخلوقات
 التي كانوا يقرون - هم أنفسهم - بأنها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا
 عن أن تقدم - لمن يعبدونها - خيرا ، او تدفع عنهم شرا .

وسرى في حينه بان الله ، كيف أنهم شابوا معتقداتهم
 في الله سبحانه وتعالى ، بمعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان ، حين
 جعلوا لله الذي عرفوا له ما ذكرنا من صفات وقدرات - شركاء ما خلقه ،
 والتمسوا لذلك ما التمسوا من المعاذير .

على أن ذلك لم يمنع من ظهور أفراد يعلنون التوحيد ، ويذكرون
 الناس بالله ، ويدعونهم الى خشيته وتقواه . وأولئك هم الذين عرفوا
 بالحنفاء . وهم الذين أنفوا أن يشوبوا ما استقر في نفوسهم عن الله
 سبحانه وتعالى من معرفة وتصديق وخشية وإيمان ، بالكدر الذي غاص
 فيه معاصروهم ، من عبادة للأصنام والأوثان .

وفى مبحث قادم بانن الله - سنعود لهؤلاء الحنفاء ، لنرى
شيئا من أقوالهم ، ونعرف مصادر أفكارهم - والله المستعان .

* * *

الملائكة :

لم ينتشر ذكر الملائكة في الشعر الجاهلي ، ذلك الانتشار الذى
رأيناه للفظ الجلالة "الله" سبحانه وتعالى . بل لا يكاد ذكرهم يدور الا
على السنة أناس معدودين ، من أولئك الشعراء ، كمثل أمية بن أبى الصلت
مثلا ، فهو يقول : (١)

مَلَائِكَةٌ أَقْدَامُهُمْ تَحْتَ عَرْشِهِ
رَقِيَامٌ عَلَى الْأَقْدَامِ عَانِينَ تَحْتَهُ
بِكْفِيهِ لَوْلَا اللَّهُ كَلُوا وَأَبْلَدُوا
فَرَأَيْتَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ تَرَعَدُوا

أما عند غير أمية بن أبى الصلت ، فقد كان ذكر الملائكة قليلا ، بل نادرا
ولا يعنى هذا أن العرب فى الجاهلية كانوا يجهلون الملائكة ، بل كانوا
يعرفونهم ، وكانوا يذكرونهم ، وكان لبعضهم فيهم رأى ذكره القرآن
الكريم - وليس هنا مجال الخوض فيه ، وهو قولهم بأن الملائكة بنات الله
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . (٢)

(١) ديران أمية ص ٣٦٨ - ٣٦٩

(٢) انظر فى ذلك تفسير القرطبي ١٠٤/١٧ ، وتفسير الفخر الرازى ٠٧٧/٢١

ولكن الشعراء الجاهليين - كما يبدو من تصفح أشعارهم - لم يكن
يعنيهم هذا الأمر ، ولذلك لم يخوضوا فيه . واكتفوا - كما رأينا عند أمية
ابن أبي الصلت - بذكرهم وحسب . بل لقد ذكروا أسماء بعضهم ، كجبريل
وميكال عليهما السلام .

فهذا خويلد بن أسد ، يخاطب عبد المطلب ، جد النبي صلى الله عليه
وسلم ، وكان قد عرف بحفر بئر زمزم ، فيقول : (١)

أَقُولُ وَمَا قَوْلِي عَلَيْكُمْ بِسَبِّهِ ۖ إِلَيْكَ ابْنَ سَلْمَى أَنْتَ حَافِرُ زَمْزَمِ
حَفِيرَةَ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ ابْنِ هَاجِرٍ ۖ وَرُكُضَةَ جِبْرِيلَ عَلَى عَهْدِ آدَمِ

وهذا أمية بن أبي الصلت يقول : (٢)

وَسَبَّطُ صُوفٍ يَنْظُرُونَ قَضَاءَهُ ۖ يُصَيِّخُونَ بِالْأَسْمَاعِ لِلْوَحَى رُكْدُ
أَمِينِ ۖ لَوْحَى الْقَلَمِ جِبْرِيلَ مِنْهُمْ ۖ وَمِيكَالُ ذُو الرُّوحِ الْقَوِيِّ الْمُسَدَّدِ

وقد وقف أمية بن أبي الصلت في قصيدته الدالية ، التي منها هذان البيتان
أبياتاً كثيرة أخرى على الملائكة . يذكرهم بما جبلوا عليه من العبادة
الدائمة لله سبحانه وتعالى ، والطاعة المطلقة لأوامره جل شأنه ، وغير
ذلك مما خلق الملائكة من أجله . وفيها يقول : (٣)

مَلَائِكَةٌ لَا يَفْتَرُونَ عِبَادَةَ ۖ كَرُوبِيَّةٌ مِنْهُمْ رُكُوعٌ وَسُجُودٌ
فَسَاجِدُهُمْ لَا يَرْفَعُ النَّهْرُ رَأْسَهُ ۖ يُعْظَمُ رَبًّا فَوْقَهُ وَيُجَدُّ
وَرَأْسُهُمْ يَعْنُو لَهُ النَّهْرُ خَاشِعًا ۖ يَرُدُّ آيَةَ الْإِلَهِ وَيَحْمَدُ

(١) الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري ٢٠٢/١
(٢) ديوان أمية ص ٣٦٩ (٣) نفس المصدر ص ٣٧٠
(٤) الكروبيون هم سادة الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل واسرافيل
عليهم السلام (أنظر اللسان كريب)

وهي ظاهرة لاتوجد عندغير أمية بن أبي الصلت من شعراء الجاهلية ، وان كان ذكر الملائكة لم يقتصر على أمية بن أبي الصلت ، أو على غيره من الشعراء الذين وسوا بالتدين ، أو الذين اشتهروا بشعر المعتقدات الدينية - بتعبير أصح - ولكنه تعداهم الى شاعر كالأعشى ، وهو من هومن الانحلال والبعد عن التدين .

(١) يقول الأعشى ، وهو يمدح النعمان بن المنذر:

فَلَا تُحْسَبُنِي كَافِرًا لَكَ فِعْمَةٌ عَلَى شَاهِدِي يَا شَاهِدَا لِلْوَفَا شَهْدٍ
قال ابن قتيبة ، وهو يتحدث عن الأعشى في الشعر والشعراء: (٢) وهو ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره " . ودلل ابن قتيبة على ما قال ، بأن روى بيت الأعشى السابق ، ثم قال: (٣) قوله : على شاهدي ، يريد على لساني . يا شاهد الله : يريد الملك الموكل به .

والأعشى ينقل شعره هذا ، بالطبع ، أمورا كانت معروفة في مجتمعه ، كما أقر بذلك العلماء ، ونطقت به النصوص التاريخية . فقد روى ابن النديم في الفهرست ، قال (٤) : " وكان في خزنة المؤمن كتاب بخط عبدالمطلب بن هاشم ، في جلد من آدم ، فيه ذكر حق عبدالمطلب بن هاشم

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة - دار المعارف - ٢٦٦/١ ، والبيت في

ديوان الأعشى ص ٢٤٣ وروايته فيه " عَلَى شَهِيدٍ شَاهِدَا لِلَّهِ فَأَشْهَدُ "

والمعنى واحد .

(٢) الشعر والشعراء ٢٦٦/١ (٣) الشعر والشعراء ٢٦٦/١

(٤) الفهرست - لابن النديم - طبع طهران - ص ٨٠

من أهل مكة ، على فلان بن فلان الحميرى ، من أهل وزل صنعاء ، عليه ألف درهم فضة ، كيلا بالحديده ، ومتى دعاه بها أجاب . شهد الله والملك ان

وخلط الجاهليون فى معرفتهم للملائكة - الحقائق بالأساطير .
فها نحن قد رأينا معرفتهم لهم واعترافهم بهم ، كما رأينا معرفتهم لأسماء بعضهم ، واقترامهم بالملكين الكاتبين الشاهدين . وهذه كلها حقائق لا مسارة فيها .

أما الأساطير فيكفى أن نذكر منها - على سبيل المثال - ما زعموه عن قبيلة جرهم ، وكيف أنها كانت من نتاج ما بين الملائكة والانس . يقول حمزة بن الحسن الأصفهاني ، فى كتابه الدرّة الفاخرة فى الأمثال السائرة : (١)

” وزعموا أن جرهما من نتاج ما بين الملائكة والانس . قالوا : والسبب فى ذلك أن الملك من الملائكة الذين عند الرحمن ، كان اذا عصى ربه أهبطه من السماء الى الأرض ، فى صورة رجل وفى طبيعته . كما صنع بهاروت وماروت ، حتى كان من شأنهما وشأن الزهرة ما كان (٢) .

(١) الدرّة الفاخرة فى الامثال السائرة - للأصفهاني . - ٥٥٦/٥٥٥/٢
(٢) لذلك حديث طويل ، ذكره ابن كثير فى تفسيره لقول الله تعالى فى سورة البقرة ” وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكِينَ مِنْ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ” آية ١٠٢ وقد عزاه ابن كثير الى الامام احمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . (انظر تفسير القرآن العظيم - دار المعرفة - ١٣٨/١) .

قالوا فعصى الله ملك من الملائكة ، فأهبطه الى الأرض فى صورة رجل ، فتزوج أم جرهم ، فولدت جرهما . قال الشاعر ، يذكر ذلك :

لَهُمْ إِنْ جَرَّهُمَا رِعْبَادُكَ النَّاسُ طَرَفٌ وَهُمْ تِلَادُكَ

وخلصة القول فى الأمر ، هى أن الجاهليين قد عرفوا الملائكة ، وقد ذكروهم فى أشعارهم . بل لقد ذكروا أسماء بعينها منهم كجبريل ، وميكال عليهما السلام ، والملكين الموكلين بالإنسان . ولكن شعرهم فيهم قليل للغاية ، اذا ما قيس بأشعارهم فى المعتقدات الدينية الأخرى

* *

الرسل السابقون - عليهم الصلاة والسلام :

لم يكن حظ الرسل السابقين عليهم السلام من الشعر الجاهلى بأوفر من حظ الملائكة - الا قليلا . وذلك بحسب ما تشهد به النصوص التى بين أيدينا ، فنحن اذا استثنينا أمية بن أبى الصلت ، وما قال فى الأنبياء السابقين من أشعار ، لا يبقى للأنبياء السابقين من ذكر فى الشعر الجاهلى الا النصف القليلة ، ولكنها موجودة على أمية حال

فهذا بشر بن أبى خازم الأسدى ، يذكر يوسف وإخوته ، أبناء يعقوب عليهم السلام ، وهو يعتذر لأوس بن حارثة بن لأم الطائى ، وكان

(١)

قد هجاه - يقول :
 فَعَلَّ كَالَّذِي قَالَ ابْنُ يَعْقُوبَ يُوسُفُ وَإِخْوَتَهُ وَالْحُكْمُ فِي ذَلِكَ الرَّاسِبِ
 فهو يريد ممن يعتذر اليه أن يصفح عنه ، كما كان يوسف عليه السلام قد صفح
 عن اخوته .

وهذان الأثنى والنابغة ، يذكر كلمتهما نوحا عليه السلام . يقول
 الأثنى: (٢)

جَزَى إِلَهًا إِيَّاسًا خَيْرَ نِعْمَتِهِ كَمَا جَزَى لِمَرْءٍ نُوحًا بَعْدَمَا شَابَا
 فِي فُلِكِهِ إِذْ تَبَدَّاهَا لِيَصْنَعَهَا وَظَلَّ يَجْمَعُ الْوَاحَا وَأَخْشَابَا

ويقول النابغة: (٣)

فَجِئْتُكَ عَارِيًّا خَلَقًا ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تَظُنُّ بِي الظَّنُونُ
 فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخْنُهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

وقد عرض النابغة كذلك ، لسليمان عليه السلام ، في داليتة المشهورة
 ومن ذلك قوله: (٤)

إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ إِلَهُ لَهُ قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَأَحْدَثْنَا عَنْ لَفَنْكِرٍ
 وَخَيْسِ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَنْمُرًا بِالصَّفَاحِ وَالْعَمَلِ (٥)

هذا ، وقد ورد ذكره لبعض الأنبياء الآخرين ، او لقصص من قصصهم عند غير
 من ذكرنا من الشعراء . فهذا لبيد بن ربيعة يقول: (٧)

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٤٢

(٢) ديوان الأثنى ص ٤١٥

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٢٦٥ (٤) المصدر السابق ص ٦

(٥) احدها: أي منسوبا ، وحده: منعه (انظر اساس البلاغة للزمخشري - ص ١١٦
 والفتد - كالمعرض: الانحراف وخطا الراي والعجز والتخليط) انظر اساس البلاغة
 ص ٤٨٢ - فتد

(٦) الخيس - كالفيل: الجمة ، او موضعها لاسد من الجمة ، والتخيس: الخيس
 والسجن (انظر اساس البلاغة ص ١٧٩ - خيس) والصفاح والصفائح: الحجارة الغراض
 (انظر اساس البلاغة ص ٣٥٦ - صفح) (٧) ديوان لبيد ص ٣٤

قَضَى الْأُمُورَ وَأَنْجَزَ الْمَوْعُودَ وَاللَّهُ رَبِّي مَا جِدَّ مُحَمَّدٌ
 وَلَهُ الْفَوَاحِشُ وَالنَّوَافِلُ وَالْعُلَا وَلَهُ أَثْبُتُ الْخَيْرِ وَالْمَعْدُودُ
 وَلَقَدْ بَلَّغْتُ أَرْمَ وَعَادَ كَيْدَهُ وَلَقَدْ بَلَّغْتُ بَعْدَ ذَلِكَ ثَمُودَ

فهو يذكر عاداً وشموداً ، ويذكر ما حل بهما من عذاب الله جل شأنه .
 أفكان ذلك يتيسر للبيد ، لولا معرفته بقصة كل قبيلة من تينك القبيلتين
 مع نبيها؟! لقد كان لبيد اذن يعرف هوداً ، ويعرف صالحاً ، عليهما السلام .

وهذا الممزق القرشي ، وهو عبد الله بن حذافة السهمي - أحد
 شعراء قريش - يقول : (٢)

وَتِلْكَ قَرِيشٌ تَجِدُ اللَّهَ حَقَّهُ كَمَا جَدَّتْ عَادٌ وَمَدْيَنُ وَالْحِجْرُ

فهو يذكر قريشاً بجحود أولئك الأتوام ، وانكارهم لحقوق الله ، وقد عرفوها
 من أنبيائهم .

أفكان ذلك أيضاً ، يتيسر لعبد الله بن حذافة السهمي هذا ، لولا
 معرفته بقصة كل قبيلة مع نبيها؟! لقد كان هذا الشاعر اذن يعرف هوداً ،
 الذي أرسله الله الى عاد . ويعرف شعيباً ، الذي أرسله الله الى مدين (٣)

(١) هو عليه السلام ، هو النبي الذي أرسله الله الى عاد ، حيث يقول سبحانه
 هود - آية ٥٠ - " وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا " وصالح عليه السلام هو النبي المرسل
 الى ثمود - حيث يقول الله جل شأنه - هود آية ٦١ " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ
 صَالِحًا "

(٢) المؤلف والمختلف ص ٢٨٤

(٣) قال تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا " سورة هود - آية ٨٤

ويعرف صالحا ، الذى أرسله الله الى ثمود ، وهم أصحاب الحجر (١) . لقد كان هذا الشاعر ان يعرف أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكذلك جاء ذكر كثير من الأنبياء السابقين عليهم السلام ، على لسان السموءل بن عاديا ، فى قصيدته التائية . فقد ذكر فيها داود ، وسليمان ، ويحيى ، ويعقوب ويوسف ، والأنباط ، وموسى ، وغيرهم (٢) . وان كانا السموءل يهوديا - كما نعرف - ، والأنبياء الذين ذكرهم هم من أنبياء بنى إسرائيل . الآن هذا لا يمنع أن يكون ذكر هؤلاء الأنبياء وغيرهم ، عليهم السلام جميعا ، قد انتشر بين العرب فى الجاهلية . بطريقتة أو بأخرى

أما أمية بن أبى الصلت ، فله مع كثير من الأنبياء السابقين - وقفات متعددة ، فقد ذكر موسى عليه السلام حيث يقول :

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْلٍ مِنْ وَرَحْمَةٍ بَعَثْتَ إِلَى مُوسَى رَسُولًا مِنْ دِيَارِ
فَقُلْتَ لَهُ : يَا أَهْبْ وَهَارُونَ فَانْعُوا إِلَى اللَّهِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ ظَالِمًا غِيًّا

ثم ذكر لوطا عليه السلام ، حيث يقول : (٤)
ثُمَّ لُوطًا أَخَا سُدُومٍ أَتَاهَا إِذْ أَتَاهَا بِرِثْيَاهَا وَهَذَا هَا
وذكر كذلك نوحا (٥) ، وإبراهيم (٦) ، وهودا (٧) ، وداود (٨) ، وشيثا من قصة ثمود مع الناقة (٩) ، كما ذكر عيسى ابن مريم وأمه ، عليهما السلام (١٠) .

- | | |
|------|--|
| (١) | انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار المعرفة ٥٥٦/٢ |
| (٢) | انظر ديوان السموءل بن عاديا ص ٨٢ |
| (٣) | ديوان أمية بن أبى الصلت ص ٥٣٩ |
| (٤) | ديوان أمية بن أبى الصلت ص ٥٢٢ |
| (٥) | المصدر السابق ص ٤٤٠ ، ٤٤٣ |
| (٦) | المصدر السابق ص ٤٤٤ |
| (٧) | المصدر السابق ص ٤٨٤ |
| (٨) | المصدر السابق ص ٤٠٥ |
| (٩) | المصدر السابق ص ٤٤٤ |
| (١٠) | المصدر السابق ص ٤٠٥ |

وهكذا كانا العرب في الجاهلية - كما ذكرنا - يعرفون كثيرا من الأنبياء ، بل لقد كانوا يعرفون كذلك ، أن الأنبياء كانوا جميعا من الرجال دون النساء . ذكر الشوكاني في فتح القدير قال : (١)

» وقد كان بعثة الأنبياء ، من الرجال دون النساء ، أمرا معروفا

عند العرب . حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبية :

أَضَحَّتْ نَبِيَّتِنَا أَنْثَى نَطِيفٍ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذَكَرَانَا

*

تلك هي بعض الأشعار ، التي ذكر فيها الجاهليون بعض الأنبياء السابقين - عليهم السلام . وهي كما ترى أشعار قليلة ، إذا ما قيست بالأشعار التي ذكروا فيها الله سبحانه وتعالى . وهي قليلة كذلك إذا ما قيست بالأشعار التي ذكروا فيها الجن - كما سنرى بعد قليل .

بل هي قليلة أيضا ، إذا ما قيست بأعداد الأنبياء والرسل الذين سبقت بعثاتهم زمن الشعر الجاهلي ، والذين بلغت أعدادهم عشرات الألوف ، كما يقول العلماء .

(١) فتح القدير للشوكاني ٦٠/٣ والبيت في الأغاني - دار الثقافة

٣٧/٢١ لأحد بني تميم .

روى ابن قتيبة في المعارف ، وأبو الحسن لما وردى في أعلام النبوة
 أن وهب بن منبّه قد ذكر " أن الأنبياء كلهم ، مائة ألف نبي ، وأربعة
 وعشرون ألف نبي ، والرسل منهم ثلاثمائة نبي ، وخمسة عشر نبيا " (١)
 جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام .

* * *

الجن

لقد تعرض الشعراء الجاهليون للجن في أشعارهم أكثر بكثير من
 تعرضهم للرسل أو للملائكة ، وذلك لأنهم - كما تنطق تلك الأشعار - تصورهم
 يشاطرونهم الحياة في صحرائهم ، ويزاحسونهم عليها . وان كانوا قد قصرُوا وجودهم
 المكثف في أوديتها المخيفة ، وبلاقمها الخربة ، وطرقها الوعرة .

قال زهير بن أبي سلمى : (٢)
 وَبَلَدَةٌ لِأَنْرَامٍ خَائِفَةٌ
 تَسْمَعُ لِلْجِنِّ عَارِزِينَ بِهَا
 زَوْرَاءَ مَغْبِرَةٍ جَوَانِبِهَا
 تَضُحُّ مِنْ رَهْبَةٍ تُعَالِبِهَا

فهاهم الجن يوجدون بحرية تامة ، في تلك البلدة المهجورة المخوفة المنزوية
 عن الطريق ، والتي لأنيس بها - كما يقول زهير - حتى أن الثعالب فيها ، لتضبح
 من شدة الخوف .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٥٦ ، وأعلام النبوة - للما وردى - ص ٥٣
 والنص للما وردى في أعلام النبوة . وانظر البدء والتاريخ ٧/٣
 (٢) ديوان زهير ص ٢٦٥

وهذا المعنى ليس خاصا بزهير، ولكنه يتكرر عند غيره من الشعراء

الجاهليين اذ يقول الأعشى: (١)

إِنَّا لَتَعَالِبُ بِالضُّحَى
يَلْعَبْنَ فِي أَبْوَابِهَا
وَالْجِنُّ تَعْرِفُ حَوْلَهَا
كَالْحَبِشِ فِي مِحْرَابِهَا

أما الطرق المخوفة في الصحراء العربية ، والتي يتخذونها الجن مساكن لهم ، وأماكن لعزفهم ولهوهم - فهي كثيرة - كما يزعم الشعراء الجاهليون ، وكأني بهم يريدون أن يبرهنوا - بذكرها - على مهارتهم في اختراقهم لها ، ويدللوا على شجاعتهم في تعسفها واجتيازها .

(٢)

يقول طرفة بن العبد :
وَرَكُوبٌ تَعْرِفُ الْجِنُّ بِهِ
قَبْلَ هَذَا الْجِيلِ مِنْ عَهْدِ أَبَدٍ
قَدْ تَبَطَّنَتْ بِطَرْفٍ هَيْكَلٍ
غَيْرِ مِرْبَابٍ وَلِجَابٍ مُكْدٍ (٣)

(٤)

ويقول الشنفرى :
وَوَادٍ بَعِيدًا لَمَعَتْ مِنْهُ جَمَاعُهُ
بِوَادِيهِ لِلْجِنِّ وَالْأَسْدِ لَفٍ (٥)
تَعَسَفَتْ مِنْهُ بَعْدَمَا سَقَطَ النَّدَى
غَمًّا لَيْلٍ يَخْشَى غَيْلَهَا الْمُتَعَسَفُ

ولست أدري أى للرجلين أشجع ، أطرفة وهو يتبطن بحصانه الذى وصف ، ذلك الطريق المخيف ، غير هباب من الجن وهى تعزف فيه . أم الشنفرى وهو يتعسف ذلك الوادى ، غير مكترث بالأسد التى تزار فى أجامه ، ولا

(١) ديوان الأعشى ص ٣٠١ (٢) ديوان طرفة - طبعها القاهرة - ص ٢٧٢-٢٨٢
(٣) الركوب الطريق المزدك ، وعزيف الجن أصواتها ، والطرف (كالجسم) الفرس والهيكل الطويل ، والمرباب (كالشهاب) المتناقل فى مشيه ، والجاب (كالدرج) القليظ ، والمكد : الذى يركل بالساق أو يضرب بالسوط .
(٤) الأغاني - دار الثقافة - ٢١/٢١٤

(٥) جماعه أى جميعه ، وفي رواية مجازه أى اجتيازه ، والتعسف ركوب المفازة وقطعها من غير توخى طريق مسلوكة وكذلك العسف والاعتساف (اللسان - عسف) =

بالجن التي تعرف فوق روابيه وتعيث في مختلف نواحيه ..

هذا ، وقد خلط الشعراء الجاهليون في أحاديثهم عن الجن أيضاً الحقائق بالأساطير . فهذا شمر بن لعاث الطائي يقول : (١)

أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ : مَنْوَنَ أَنْتُمْ فَقَالُوا : الْجِنُّ ، قَلَّتْ عَمُوا ظُلُمًا
فَقُلْتُ إِي لِي الطَّعَامُ فَقَالَ مِنْهُمْ زَعِيمٌ : تَحْسُدُ الْإِنْسُ الطَّعَامَا

فهاهم الجن - كما يزعم شمر بن لعاث - يبادرون الناس بالزيارات ، بهدفة إقامة علاقات اجتماعية معهم ، ويحاول الرجل أن يكرمهم ، كما يفعل عادة مع ضيفه من الأنس ، ولكنهم يعتقدون بحسرة كما يزعم ..

وفي هذا القول كما نرى - تختلط الحقائق بالأساطير ، فالجن

كما يقول العلماء : " من لعالم الناطق المميز ، يأكلون ويتناكحون ،

ويتناسلون ويموتون . وأشخاصهم محجوبة عن الأَبصار ، وان تميزوا

بأفعال وآثاره . الا أن يرض الله تعالى برويتهم من شاء ، وانما عرفهم

(٢)

الانس من لكتب الالهية .

والضما ليل الروابي واحدها نُجْلُول - بالضم - كألهوب وعرقوب
(اللسان - غيل) ، والغيل الاجمة ، وموضع الاسد ، والجمع غيول - كسيول
(اللسان - غيل) .

(١) - شرح المفصل لابن يعيش ١٦/٤ - ١٧ ونسبها صاحب الجمان في تشبيهات
القرآن كسمير بن لعاث - انظر الجمان ص ٤٠ .
(٢) أبو الحسن الماوردي في أعلام النبوة - ص ١٤١

فكيف يزعم شمر بن العارث أنهم يحسدون لانس الطعام ، وهم يأكلون
كما يأكلون؟! ، هذا اذا سلمنا بأن الله قد خصه برويتهم ، فزاروه كما
زعم ..

ليس هذا وحسب بل لقد زعم الأعشى - فيما زعم - أن رسوله الى
من يحب كان واحدا من الجن ، وأنه كان أمينا على الرسالة التي بعثه بها
يقول: (١)

فَبِعَثْتُ جَنِيًّا لَنَا يَا تِي بِرَجْعِ جَوَابِهِهَا
فَمَشَى وَلَمْ يَخْشِ الْإِنْسَ فزارها وَخَلَابِهَا

ولقد تجاوز العرب ذلك ، فجعلوا لكل شاعر رثيًّا من الجن ، يوحى اليه
بشعره ، واختلفوا لكل منهم اسما خاصا به . فصاحب الأعشى اسمه مِسْحَلٌ
وصاحب امرئ القيس اسمه لَاقِطٌ ، وصاحب كل من بشر وعبيد اسمه هَبِيدٌ ،
وصاحب النابغة اسمه هَادِرٌ ، وهو الذي استنبحه كما يزعمون . (٢)

ويكفى للاستدلال على ذلك أن نستعيد قول الأعشى في صاحبه مسحل

اذ يقول: (٣)

وَمَا كُنْتُ شَاخِرًا وَلَكِنْ حَسِبْتَنِي إِذَا مِسْحَلٌ سَدَى لِي الْقَوْلَ أَنْطِقُ
شَرِيكًا نِ فِيمَا بَيْنَنَا مِنْ هَوَانَةٍ صَفِيَانِ جَنِّي وَإِنِّي مُوفَّقٌ
يَقُولُ فَلَا أَعْيَا لَشَيْءٍ أَقُولُهُ كَفَانِي لَاعِيٌ وَلَا هُوَ أَخْرَقُ

(١) ديوان الأعشى ص ٣٠٣ (٢) انظر جمهرة الأشعار لابن زيد القرشي ٤٩/
(٣) ديوان الأعشى ص ٢٥٧ (٤) الشاعر: المتعلم

فها هو ذا الاعشى يعترف صراحة ، بأن مسحلا هو الذى يسدى له ما يقول من الشعر فهو ليس متعلما حتى يقول ما يقول من تلقاء نفسه . ولكن توافقت فصاحته مع راحة عقل صاحبه ، فكان هذا الشعر الذى نرى

وهو دعوى لم يقم عليها دليل ، وسنعرض لها عند الحديث عن الاساطير فى الشعر الجاهلى ، ولكن الذى نستفيد من ذكرها هنا ، هو التدليل على ان الجاهليين كانت لهم بالجن معرفة ما ، وقد صور شعرا وهم ألوانا من تلك المعرفة .

وفى قصة اسلام سواد بن قارب ، دليل آخر على ان العرب كانت لهم معرفة بالجن ، بل وفيها دليل على انه كان لبعضهم بالجن صلة .

روى البراء رضى الله عنه قال: ^(١) " بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ قال: أيها الناس ، أفيكم سواد بن قارب؟! قال فلم يجبه أحد تلك السنة ، فلما كانت السنة المقبلة ، قال: أيها الناس ، أفيكم سواد بن قارب؟! قال : فقلت يا أمير المؤمنين ، وما سواد بن قارب؟! قال: فقال له عمر رضى الله عنه : ان سواد بن قارب كان بدءا اسلامه شيئا عجيبا . قال فبينما نحن كذلك ، اذ طلع سواد بن قارب . قال له عمر رضى الله عنه : يا سواد محدثنا ببدء اسلامك كيف كان . قال سواد رضى الله عنه : فانى كنت نازلا بالهند

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار المعرفة - ١٦٨/٤

وكان لى رُئسى من الجن ، قال فبيننا أنا ذات ليلة نائم ، اذ جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم واعقل ان كنت تعقل ، قد بعث رسول من لوى بن غالب^(١) ، ثم روى سواد شعرا لذلك الجنى .

قال : ثم انبهنى فأفزعنى ، وقال ياسواد بن قارب ان الله عز وجل بعث نبيا فانفض اليه ، تهتد وترشد ، فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى^(٢) ، ثم روى سواد شعرا آخر لذلك الجنى^(٣) . ثم قال : فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى^(٤) - ثم روى سواد شعرا ثالثا لذلك الجنى^(٥) . قال فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة بعد ليلة وقع فى قلبى حب الاسلام ، من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله ، قال فانطلقت الى رحلى ، فشددته على راحلتى ، فمأحلت نسعة^(٦) ، ولاعقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو بالمدينة - يعنى مكة - والناس عليه كعرف الفرس . فلما رآنى النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مرحبا بك يا سواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك» . قال : قلت يا رسول الله ، قد قلت شعرا فاسمعه منى ، قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد فقلت :

(١) ، (٢) ، (٣) أشعار الجنى فى المصدر السابق ١٦٨/٤ ولم نروها لعدم الحاجة اليها هاهنا . وانظر فى حديث سواد بن قارب وأشعاره - الرضى الأندلسى للسهيلى ٢٤٣/١
(٤) النسع (كالنبر والعهن) : السير الذى تشد به الرجال ، والجمع انساع ونسوع ونسع (ككلم) والقطعة منه نسعة (كخرقة وفتنة) .

أَتَانِي رَيْسِي بَعْدَ لَيْلٍ وَهَجَعَةٍ وَلَمْ يَكُ فِيمَا قَدِّبَلُوتُ بِكَانِدٍ
ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ (١)
فَشَمَّرَتْ عَنْ مَارِقِي الْأَزَارِ وَوَسَّطَتْ رَبِّي الذُّعْلَبُ الْوَجْنَاءُ بَيْنَ السَّبَبِ

- الى آخر هذا الشعر - .

قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى بدت نواجذه وقال لي :
أفلحت يا سواد . فقال له عمر رضي الله عنه : هل يأتيك رثيك الآن ؟
فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتيني ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل
من الجن . (٢)

* * *

(١) التوسيط أن تجعل الشيء في الوسط (اللسان - وسط) والذعلبة -
بكسر الذال واللام وسكون العين - الناقة السريعة الفتية الشابة
(تهذيب اللغة ١/ ٣٥٣) ، والجمع الذعاليب ، وبالذال غير المعجمة
كذلك (اللسان - نعلب) ، والناقة الوجناء التامة الخلق الصلبة
الشديدة ، يقال ناقة وجناء وجمال أوجن (اللسان - وجن) ، والسبب
القفر والمفازة ، وجمعه سباب (اللسان - سبب) .

(٢) قال ابن كثير في تعقيبه على الحديث " ثم أسنده البيهقي من وجهين
آخرين " ا (انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار المعرفة - ١٦٨/٤)

الموت والبعث والحساب :

لقد وقف الشعراء الجاهليون ، عند حقيقة الموت ، مواقف مليئة بالعبرة والعظة ، وتعرضوا للقضاء وللنهاية المحتومة للإنسان بأشعار شديدة التأثير . ولم يقتصر ذلك على الشعراء المستقيمين أو المتدينين منهم - انا صح هذا التعبير - ، ولكنه شمل أغلب شعرائهم ان لم يكن جميعهم .

(١) فهذا طرفة بن العبد ، وهو الفتى المعروف بلهوه ولا مبالاته يقول :

لَعَمْرُكَ إِنَّا لَمَوْتٌ مَا أخطأُ الْفَتَى لَكَالطَّوْلِ الْمُرْحَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
فالموت لا يخطئ أحدا من الناس ، ولكنه يؤخرهم لآجالهم المحددة ، ونفوس الخلائق في يد مُقَرِّرِ الموت ، كالخِيَّوَانِ في يد صاحبه ، يطيل له من حباله كما يشاء ، ثم يجره اليه حين يشاء .

ويقول طرفة أيضا : (٢)

أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النَّفُوسِ وَلَا أَرَى بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ لِيَوْمٍ مِنْ غَدٍ
وعجيب أمر طرفة هذا ، وهو فتى للهو والملذات المعروف ، الذي كان يفترون كل فرصة ليقتنص كل لذة ، والذي كان يبكت من يلومه على إيغاله

(١) ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلام الشنمري - تحقيق درية الخطيب

ولطفي الصقال - طبع دمشق ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ص ٣٧

(٢) المصدر السابق ص ٤٨

فى تلك اللذات ، والذى كان - لولاهذه اللذات - لايهتم بموت أو حياة ، الى غير ذلك من السير فى الغي واللامبالاة . فكيف وصلت به تأملاته الى أن يقول فى الموت ما رأينا ! .

لعل ظروف الحياة فى مجتمعه ، وحالة الحرب التى لم يكن يسكت لها أوار ، ولا تنطفىء لها نار ، والغزو المستمر الذى كان يقدم عليه القوم ، ومصارع الأبطال التى كانت تحدث أمامه كل يوم ، لعل هذا كله - كما سنرى فى الفصل القادم ان شاء الله - هو الذى كان يوحى لطرفة ، ولغيره من شعراء الجاهلية ، بما كانوا يقولون عن حقيقة الموت .

(١)

يقول الدكتور شوقى ضيف ، فى كتابه (العصر الجاهلى) : " وقد وقف شعراؤهم كثيرا عند فكرة الحياة والموت ، والدمر وما يرمى به الناس وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ، ولا حيلة منه . فلا ينفج إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة . وكثيرا ما يذكرون من سبقهم اليه ، متخذين من ذلك عظمتهم " .

ليس هذا وحسب ، بل لقد رد الشعراء الجاهليون أمر الموت

(٢)

لله سبحانه وتعالى ، كما رأينا عند المخبل السعدي فى قوله :

لَتَنْقَبَنَّ عَنِّي الْمَتَابِعُ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ

(١) العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ٨٧

(٢) انظرا المفضلية رقم ٢١

(١)
وكما نرى عند عنتره (من عمرو) بن شداد فى قوله :
إِذَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ أَمْرًا يُقَدَّرُ فَكَيْفَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْهُ وَيَحْذَرُ
وَمَنْ ذَا يَرُدُّ الْمَوْتَ أَوْ يَدْفَعُ الْقَضَا وَضَرْبَتَهُ مَحْتَوِمَةً لَيْسَ تَعْتَسِرُ

فالمخيل السعدى يؤكد أن المنية من أحكام الله ، التى فرضها على الانسان
فاذا أوفى مواعدها ، نقيت عن صاحبها أينما كان . وعنتره يعد المنية من
القضاء الذى حتمه الله على العباد ، واذا نزل فلا مانع له ولا راد ، ومن
الذى يرد أمر الله ، أو يمنع قضاء الله !.

ولعنتره فى الموضوع نص آخر ، يرد به على صاحبته التى تنفسي
عليه شجاعته ، وتلومه على اقدمه ، حبا عليه واشفاقا وخشية . يقول : (٢)

بَكَرْتُ تَخَوِّفُنِي لِحَتُوفِ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحَتُوفِ بِمَعزِلِ
فَأَجِبْتَهَا إِنْ لَمَنِتْ مِنْهُلْ لَأَبْدَأَنَّ أَسْقَى بِكَاسِ الْمَنهَلِ
فَأَقْنِي حَيَاةً لَا أَبَالِكِ وَأَعْلِمِي أَنِّي أَمْرُوسًا مَوْجِبًا لَمْ أَقْتَلِ

والمنية عند عنتره فى هذا النص - منهل لابدمن وروده ، وعنتره لشجاعته
يحب أن يرده مقتولا .

ومن رد أمر الموت للخالق سبحانه وتعالى - الأعشى كذلك
اذ يقول : (٣)

(١) ديوان عنتره ص ٢٤٤

(٢) ديوان عنتره ص ٤٤-٤٥

(٣) ديوان الأعشى ص ٨٣

وَعَلِمْتُ أَنَا لِنَفْسٍ تَلْقَى حَتْفَهَا مَا كَانَ خَالِقَهَا الْمَلِيكَ قَضَى لَهَا
 أما عبيدبن الأبرص ، فله هو الآخر وقات مع الموت ، يُذكر الناس فيها
 بأنهم اليه صائرون ، فلما نا انن يجزعون . يقول: (١)

فَأَبْلَغُ بَنِي وَأَعْمَاهُمُ يَا نَا لِمَنَابِيَا هِيَ السَّوَارِدَةُ
 لَهَا مَدَّةٌ فَنَفُوسُ الْعِبَادِ إِلَيْهَا وَإِنْ كَرِهَتْ قَاصِدَةً
 فَلَا تَجْزَعُوا لِجَمَامِ ذَنَا فِلْمُوتٍ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ

فالناس صائرون الى منابياهم - وان كرهتها نفوسهم ، أو جزعوا من لقاتها
 وهم يعلمون ذلك ويرونه في حياتهم . الأيرون أن كل مسافر يعود ، مهما
 امتد سفره أو طال ، أما مسافر الموت فعودته من المحال ! . يقول عبيد: (٢)

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ

والتفت الشعراء الجاهليون الى أمر آخر من أمور الموت ، التفتوا الى مَنْ
 يظن أن الثراء وكثرة المال ، أو النجاح في الحياة وكثرة الرجال ، قد ترد
 الموت عن الرجل ، أو تؤخره على الأقل .

التفت الشعراء الجاهليون الي مَنْ يقول ذلك ، فردوا زعمه وكذبوا

(٣)

ظنه . يقول النابغة :
 وَكُلُّ فِتْنٍ سَتَّعَبَهُ شَعُوبٌ وَإِنْ أَثْرَى وَإِنْ لَقِيَ الْفَلَاكَ

(١) ديوان عبيدبن الأبرص ص ٦٢

(٢) المصدر السابق ص ١٣

(٣) ديوان النابغة ص ٢٥١

(١)

ويقول بشر بن أبي خازم :

هَلْ لِعَيْشٍ إِذَا مَضَى لِزَوَالٍ مِنْ جُوعٍ . أَوْ هَلْ فَتَى غَيْرُ بَالٍ (٢)
لَا أَرَى النَّأْتِ بَاقِعَةً حَيًّا لِعَدِيدٍ وَلَا لِكثْرَةِ مَمَالٍ (٣)

وصدق أولئك الشعراء فيما قالوا ، فان الموت على الناس قدر لا يرد ، ولا يمتنع منه صحيح جسم أو عليه ، ولا كثير مال أو قليله . ولن يمتنع منه كذلك الذين ينزلون الحصون الحصينة ، ولا الذين يلبسون الدروع القوية المتينة ، فان هؤلاء وهؤلاء أمام الموت سواء .

(٣)

وخير مثال على ذلك قول حاتم الطائي :

وَمَا أَهْلُ طُودٍ مُكْفَهَرٍ حِصُونُهُ مِنْ الْمَوْتِ إِلَّا مِثْلَ مَنْ حَلَّ بِالْحَصْرِ
وَمَا دَارِعُ إِلَّا كَأَخْرَ حَاسِرٍ وَمَا مُقْتَرٌ إِلَّا كَأَخْرَ ذِي وَفْرِ
تَنُوطٌ لَنَا حُبَّ الْحَيَاةِ نَفُوسُنَا شَقَاءٌ وَيَأْتِي الْمَوْتَ مِنْ حَيْثُ لَانْدَرِي

تلك هي نظرات القوم الى قضية الموت ، وهي نظرات صائبة الى حد كبير ، يعرف أصحابها القضاء ، ويذكرون الناس به ، وكأنني بهم يريدون أن يخففوا ما يرونه منهم على الحياة من تصارع وتكالب ، كما يريدون أن يهونوا عليهم ، ما يلاقونه فيها من مصاعب ومصائب .

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٧١

(٢) عَرَيْنَ أَي أَبْقَيْنَ (٣) ديوان حاتم الطائي - دار صادر وبيروت - ص ٤٥

أما البعث والحساب ، فلم يكن يعرض له الا لمن تأله من الشعراء
 في الجاهلية ، وان كان أكثرهم يعرفونه . ولكن يظهر أن تقادم العهد على
 دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، الذي كان العرب يدينون به من
 ناحية ، وعدم اقتناعهم بما كان يقول اليهود والنصارى في قضايا البعث
 والحساب من ناحية أخرى ، جعل القوم ينسون الحساب أو يتناسونه .

وهذا ما جعل بعضهم يصيح في الناس في ذلك الزمان ، يذكرهم
 بذلك اليوم الذي تشيب له الولدان ، يقول المخيل السعدي (١)

فَلَا تَدْخُلَنَّ النَّهْرُ قَبْرَكَ حَوْبَةً ۖ يَقُومُ بِهَا يَوْمًا عَلَيْكَ حَسِيبٌ (٢)

فهو يذكر الناس بيوم الحساب ، ويعظمهم به ، وينهاهم عن اقتراف الآثام
 حتى لا يعرضوا أنفسهم للجزاء والانتقام .

(٣)

يقول أمية بن أبي الصلت :
 رَبِّ إِنْ تَعَفُّ فَالْمُعَافَاةُ ظَنِّي ۖ أَوْ تَعَارِقْ فَلَمْ تَعَارِقْ بَرِيئًا

فهاهو ذا أمية يعترف بذنوبه ، ويعلن للناس أن العقاب لا بد واقع .

ولن يكون ذلك بالطبع - الا في يوم الحساب

(٤)

ويقول ورقة بن نوفل ، لزيد بن عمرو بن نفيل :

رَشِدْتِ وَأَنْعَمْتَ ابْنُ عَمْرٍو وَإِنَّمَا تَجَنَّبْتِ تَنْوَرًا مِنَّا لِنَارِ حَامِيَا
 بِدِينِكَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّ كَمَثَلِهِ ۖ وَتَدْرِكُ جَنَانًا لِحَبَالِ كَمَا هِيَا

(١) الزاهر لابن انباري ٩٧/١ ، وأما لي القالي ٢٦٢/٢ ، واللسان - حوب -

باختلاف يسير في الرواية .

(٢) قال ابن منظور في اللسان - حوب - : " وَالْحَوْبُ الْيَوْمُ وَالْحَابُّ الْإِثْمُ ...

وَالْحَوْبَةُ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهُ " (٣) ديوان أمية ص ٥٢٦

(٤) المعارف لابن قتيبة ص ٥٩

فقد أعجبه فيه تعففه وتعففه عن عبادة الأوثان ، كما أعجبه مجافاته
لشياطين الانس ، الذين لا يريدونها الا عوجاً ، ولا يأمرؤن الناس الا بالفساد .
وحين أعجبه ذلك فيه بشّره بالثجاة من النار .

(١)

ويقول حاتم الطائي :
فَأَصْدُقُ حَدِيثَكَ إِذَا الْمَرْءُ يَتَّبِعُهُ مَا كَانَ يَبْنِي إِذَا مَا نَعَشَهُ حِمْلًا
وهي كلمة صادقة ، فالمرء اذا ما حمل على نعشه ، يتبعه - كما في الأثر -
أهله وماله وعمله . فانا وسد الثرى ، رجع أهله وماله ، ولم يبق معه
الاعمله . وقول حاتم هذا يعنى : اذا حسن عمل المرء دخل الجنة ، واذا ساء
عمله دخل النار . وان كان لم يصرح لا بالجنة ولا بالنار .

واذا لم يكن حاتم قد صرح بالجنة أو النار ، فقد صرح بهما غيره
من الشعراء الجاهليين ، أما النار فقد صرح بذكرها ورقة بن نوفل فى شعره
الذى رأينا ، وأما الجنة فقد صرحت بها الخنساء ، وهى ترثى أخاها صخر ا

(٢)

اذ تقول :
فَأَنْهَبُ حَرِيبًا جَزَاكَ اللَّهُ جَنَّتَهُ عَنَا وَخَلَدْتُ فِي الْفِرْدَوْسِ تَخْلِيدًا
(٣)

وهكذا كان الجاهليون يعرفون البعث والحساب ، وكان شعراؤهم
يعبرون عن تلك المعرفة بمثلها رأينا من الأشعار ، وكأنى بهم كانوا يعظون

(١) ديوان حاتم الطائي - دار صادر وبيروت - ص ٣٣
(٢) ديوان الخنساء ص ٤٠
(٣) الحريب: السليب

بها مجتمعهم ، لينقذوه مما تردى فيه من الانحراف عن دين الله ، والبعد
عن منهجه وهناه .

على أن ذكر الحساب والعقاب ، وإن كان يردُّ عابراً عند بعض أولئك
الشعراء ، بيد أنه كان يُقصد لذاته عند بعضهم الآخر ، مثل أولئك الذين
كانوا يتألهون في الجاهلية ، كما كان الحال عند زهير بن أبي سلمى ، على
سبيل المثال .

قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء : (١) " وكان زهير يتأله

ويتعفف في شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث ، وذلك قوله :

وَأَسْأَلُكَ وَوَهَّوهُ فِي كِتَابٍ فَيُنْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ وَيُعْجَلُ فَيُنْقَمُ (٢)

ومن أولئك الشعراء الذين كانوا يتألهون في الجاهلية - كما سنرى - قس
ابن ساعدة الأيادي ، وهو الذي يقول : (٣)

يَا نَاعِي المَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدِّ عَلَيْهِمْ مِنْ قَابَا بِزِهِمْ خِرْقٌ
نَعْمٌ فَإِنْ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ كَمَا يَنْبَغُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصِّقْ (٤)

*

ولانريدان تنصرف الأثمان ، إلى أن العرب في الجاهلية - وقد
عرفوا البعث والحساب - كانوا بهما مؤمنين ، ولكننا نريدان ندلل على
أنه كان في القوم ، من يؤمن بذلك ، ويعظ به الآخرين .

(١) الشعر والشعراء ١٣٩/١ (٢) انظر البيت في ديوان زهير ص ١٨
(٣) معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٢٣ (٤) الجذث (كالقلم) القبر (اللسان =

أما الكثيرون منهم ، فقد كانوا كما ذكر القرآن الكريم عنهم :
 " وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا
 لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ " (١)

نعم .. بل كان فيهم أيضا من يقول: " إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ
 وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ " (٢)

روى ابن هشام في السيرة النبوية ، ان شداد بن الأسود ، قال
 وهو يرثى قتلى بدر من المشركين :
 (٣)

يُخْبِرُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةٍ أَسَدًا وَهَامٍ

فها هو ذا يعبر عما كان يعتقد كثير من القوم ، وهو تكذيبهم لأمر البعث
 وتكذيبهم بالتالى لأمر الحساب

وصدق الله العظيم اذ يقول فى هؤلاء : " زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ
 يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ، ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ
 يَسِيرٌ " (٤)

تلك هى قصة الموت والبعث والحساب ، كما كانت فى المجتمع
 الجاهلى وكما عبر عنها الشعراء الجاهليون ، فمن متأمل فى قضايا الموت
 غير عابى بقضايا البعث والحساب ، ومن موقن بأن الذى كتب الموت على
 العباد ، لابد وأن يردهم الى معاد .

== جث (، والبز (كالخز) الثياب (اللسان بزز) ، والخرق (كاللعلل)
 جمع خرقة (كفدية) وهى المزقة من الثوب (اللسان خرق) ، والصَّعِقُ العنقى
 عليه تقول صَعِقَ الإنسان صَعَقًا وَصَعَقًا وَصَعَقَةً (اللسان صعق) .
 (١) الجاثية ٢٤ (٢) المؤمنون ٢٧ ، وانظرا الآية ٢٩ من سورة الانعام
 (٣) السيرة النبوية لابن هشام - بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد - (٢٧٥/٢)
 (٤) التغابن ٧

ومضى أمثال هؤلاء ، يذيعون في مجتمعاتهم ما آمنوا به ، واستيقنته أنفسهم ، لعلمهم كما تصوروا - يهدون القوم الى سوا السبيل ، أو يردونهم على الأقل - عما غرقوا فيه من ضلال ، واعتقدوه من أباطيل.

ولكن التيار الجارف لم يكن مع هؤلاء ، فقد كان من قومهم من لفظوا من أنماهم فكرة البعث والحساب ، وعاشوا ليومهم وحسب ، وورثوا هذا لأبنائهم من بعدهم ، فلما جاء الاسلام الحنيف ، وجد من مثل أولئك استجابة واقبالا ، ووجد من مثل هؤلاء رفضا واعراضا ومقاومة وقتالا.

*

تقدیس البيت الحرام ، والحج الیه ، والوقوف بالمشاعر :

كان للبيت الحرام في نفوس العرب في الجاهلية ، مكانة خاصة وتقدير زائد ، لاتصل اليهما مكانة أو تقدير أي مكان في الأرض كلها . وكانت هذه المكانة وذلك التقدير ، منتشرين بين أغلب القبائل العربية ، ان لم يكن بينها جميعها .

ولذلك فقد انتشر ذكر البيت الحرام في اشعارهم انتشارا واسما وكان ذلك الانتشار لا يكون الا في مواطن التقدير والاحترام . فهم يُقْسِمُونَ به ويمدحون القائمين عليه ، ويفخرون بما يقدمون له من كسوة أو هدي ، ويبكون لفراقه ، ويعترفون بحرمة ، ويحجون اليه ، ويَطْوِفُونَ به ،

ويسألون الله أن يحميه ممن يريد به بشر ، وغير ذلك .

(١) فمن أمثلة قسمهم به قول زهير بن أبي سلمى:
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
رِجَالٌ مِنْ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرَاهُمْ

(٢) وقول النابغة :
حَلَفْتُ بِمَا تُسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا
وَرَبِّ الرَّاغِمَاتِ بِكُلِّ سَهَبٍ
عَلَى التَّأْوِيبِ بِعَصْمِهَا الدَّرِينِ (٣)
بَشَعَتِ الْقَوْمِ مَوْعِدَهَا الْحَبْسُونَ

(٤) وقول قيس بن الخطيم:
وَاللَّهِ ذِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
إِنِّي لَأَهْوَاكَ غَيْرَ ذِي كَنْبٍ
وَاللَّهِ ذِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
إِنِّي لَأَهْوَاكَ غَيْرَ ذِي كَنْبٍ
جَلَلٌ مِنْ يَمْنَةٍ لَهَا خَنْفٌ (٥)
قَدْ شَفَّ مِنِّْي الْأَخْشَاءُ وَالشَّفَفُ

فزهير يحلف بالبيت الحرام الذي كان بناته وأهل جيرته من قريش وجرهم ، لا يملون الطواف به ، والنابغة يقسم بالبيت الذي يساق له الهدى ، ليذبح في رحابه ، ثم يؤكد قسمه ذلك ، فيقسم بسرب الابل التي تحمل القوم وتتجه بهم الى مكة ، بقصد الحج ، وما منهم الا أعتا أغبر من أثر السفر ، لقدومهم من مختلف أنحاء الجزيرة .

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٤ (٢) ديوان النابغة ص ٢٦٣
(٣) التأويب السير بالنهار ، ونظيره الإشاد وهو السير بالليل ، تقول أوب القوم وأسأدوا ، (اللسان - أوب) ، والدرين يببر الحشيش كناية عن الشطف (اللسان - درن) (٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ٦٠ - ٦١
(٥) من يمنة أي من اليمن . والخنف ثياب من كتان . واحدا خنيف (اللسان خنف) .

أما قيس بن الخطيم فإنه يقسم بالله رب المسجد الحرام ، كما يقسم بالكعبة التي تجلجل بهن الأثواب اليمانية . وهو قسم عظيم عنده ، لأنه يقسم به على شيء عزيز عليه ، وهو حبه من يهوى

ومن تقديس العرب للبيت الحرام ، وقسمهم به ، قسمهم بكل ما يمت له بصلة . فهذا عوف بن الأوص يقول :^(١)

وَإِنِّي وَالَّذِي حَجَّتْ قَرِيْشٌ مَّحَارِمُهُ وَمَا جَمَعَتْ حَرَاءُ

فهو لا يقسم بالبيت وحسب ، ولكنه يقسم بكل ما حوله من المقدسات والمشاعر .^(٢)

وسمعت أعرابية في الجاهلية وهي تقول :

أَحْلِفُ بِالْمَرْوَةِ يَوْمًا وَالصَّفَا إِنْكَ خَيْرٌ مِنْ تَفَارِيْقِ الْعَصَا^(٣)

ولئن دل ذلك على شيء ، فإنما يدل على تقديس القوم للبيت الحرام .

أما مدحهم لسنة البيت ، فيكفي للتدليل عليه قول عمرو بن

بيضاء :^(٤)

وَلَدْنَاكَ يَا شَيْبَةَ الْمَكْرَمِ تِ ، سَأَقِي زَوَارِ أَهْلِ الْحَرَمِ
فَأَكْرَمُ بِشَيْبَةَ بَيْتِ الْإِلَهِ وَأَنْتِ بِنَفْسِكَ بَيْتَ الْكَاكِرِمِ

فهو يخاطب عبدالمطلب بمن هاشم - جد النبي صلى الله عليه وسلم - واسمه

^(٥)

شيبه كما هو معروف وكان قدولى لسقاية والرفادة ، بعدمه المطلب ،^(٦)
" فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباءهم يقيمون قبله لقومهم من أمرهم "

(١) المفضلة رقم ٣٥ (٢) البيان والتبيين للحافظ ٤٩/٣ وثمار القلوب -
للثعالبي ص ٦٢٧ ولللسان - فرق (٣) كان لتلك الاعرابية ابن شقي كثير
المتفليت اليها الناس على ضعف فيه ، فكان كلما قطع غلام عضوا منه كأنفوا وان
تاخذانه ديه ذلك حتى كثير ما لها وحسن جالها فقالت ذلك البيت وتفاريق العصا
هي ما تقطع وتقسم اليه من اوتا دوخشب كثير ليستفاد منه . انظر القصة في البيان
والتبيين ٤٩/٣ ، وثمار القلوب ص ٦٢٧ (٤) حلية المحاضرة لابن المظفر
الحاتمي ٣٥٤/١ (٥) انظر السيرة النبوية لابن كثير ١٢٧/١
(٦) المصدر السابق ١٢٧/١

وكان قد من الله عليه فوفقه لحفر زمزم (١) ، فزاد شرفا الى شرفه ، كما زاد
اكراما لزوار البيت ، واستحق أن يمدح بهذا الشعر .

وأما افتخار العرب بما كانوا يقدمون للبيت من هدي أو أكسية
تقربا منهم الى الله سبحانه ، وتقديسا لبيته الحرام - فهو كثير . يقول
أحد تبايعة اليمن : (٢)

فَكسونا البيت الذي حرم الله ملاء معضدا وبيرودا
ويقول أبو قيس ، صفي بن الأسلت (٣)

نسوق الهدى ترسف منعنات مكشفة المناكب في الجلول (٤)

فذاك يصيح من أقصى الجنوب ، مفتخرا بما قدمه قومه للبيت ، من ملاء وبرود
يكسونه بها ، وهذا يهتف من يثرب ، مفتخرا بما كانوا يسوقونه للبيت
من القرايين .

وهذا وذاك ، ما كانا ليفعلا ما فعلا ، ولا ليقولا ما قالوا لولا حب
البيت المتأصل في النفوس ، وتقديسه المتمكن من القلوب

وأما هيامهم بالبيت الحرام ، وبكأؤهم لفراقه ، فكثير هو
الآخر . يقول مضاء بن عمرو الجرهني (٤)

فَسَحَتْ لَمَوْعُ الْعَيْنِ تَجْرِي لِبَلَدَةٍ بِهَا حَرَمٌ أَمِنٌ وَفِيهَا الْمَشَاعِرُ
حتى إن هذا الهيام بالحرم ، قد سلخ بهم - فيما يقول العلماء - السي

(١) انظر في ذلك تاريخ البعقوبي ٢٥١/١ وانظر الروض الأنف للسيبلي ٤٠/١
(٢) المعارف لابن قتيبة ، ص ٦٢٥
(٣) ديوان أبي قيس بن الأسلت ص ٨٨
(٤) الجلول : جمع جُلٌّ - بالضم وهو ما تلبسه الرابطة لضمان به - اللسان جهل -
(٥) معجم البلدان - لياقوت - حجن - .

عبادة الأوثان ، وذلك " انه كان لا يظعن من مكة طاعن ، الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصباة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها ، وصباة بالحرم ، وحباله" (١)

وقد أيد شعر طرفة بن العبد ، احترام العرب للحرم ، وتقديسهم اياه ، بحيث لم يكن يسمح فيه لفاحش أن يفحش ، ولا لجاهل أن يجهل ، وبحيث أصبح هو المثل الأعلى ، الذي يتشبه به كل مجلس كريم . يقول طرفة : (٢)

نَزَعُ الْجَاهِلُ فِي مَجْلِسِنَا فَتَرَى الْمَجْلِسَ فِينَا كَالْحَرَمِ

وهذا القول من طرفة بن العبد البكري - من ربيعة - له دلالة أخرى ، وهي أن تعظيم البيت الحرام وتقديسه ، لم يكونا قصرا على أناس دون أناس ، من العرب في الجاهلية ، ولم تختص بهما قبيلة دون أخرى ، وإنما كانا شائعين فيهم ، على تفاوت بينهم .

فليس من المعقول أن تتساوى قريش وهم سدنته وخدمه وأهل جيرته مع بقية العرب - الذين يزورونه حجاجا ومعتمرين ، وكيف يتساوى في ذلك العاكف والباد ؟!

وأما التفاف العرب حول الحرم ، وضاعتهم إلى الله أن يحميه من الغازين ، ويرد عنه المعتدين ، وبفضهم لكل من يناله بسوء ، أو

(١) الأضنام لابن الكلبي ص ٦

(٢) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١١١

من يريد فيه بالحاد بظلم ، أو من يقدم عوناً لمن يريد به سوء ، فإن قصة أصحاب الفيل ، خير الشواهد على ذلك .

فقد انبرى أكثر من زعيم من زعماء القبائل العربية ، يقاتلون أبرهة الحبشى ، ويجاهدونه عن بيت الله الحرام . انبرى له ذو نَفرٍ أحد زعماء العرب في اليمن ، بمن تبعه من أهل اليمن . وانبرى له نَفيْلُ بنِ حَبِيبِ السُّخَمي ، ومن ناصره من العرب ، كلهم يتطوع للدفاع عن البيت الحرام ، رغم علمهم بقوة أبرهة وكثرة من معه من الحبش اللثام (١) .

أما قريش ، فقد نزل بها من لهم والغم ، وأصابها من الغضب لنية أبرهة وعزيمه ، ما لو أطاق معه القنال لما توانت ، مهما كان سيكلفها ذلك .

لقد كان انزعاج العرب من فعل أبرهة ، وغضبهم عليه أمراً عاماً يقول ابن كثير في تفسيره ، بعد أن وصف الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء :

” وعزم أبرهة الأشرم ، علواً أن يصرف حج العرب إليها ، كما يُحج إلى الكعبة بمكة ، وناذى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً ” (٢)

(١) انظر في قتال من ذكرنا لأبرهة تفسير ابن كثير (٥٤٩/٤) والسيرة النبوية له (٣١/١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - ٥٤٩/٤

ويقول أيضا : " فلما سمعت العرب بمسيره ، أعظموا ذلك جدا ، ورأوا أن حقا عليهم ، المحاجبةُ دون البيت ، وردُّ من أرادَه بكيد " . (١)

هذا مظهر من مظاهر تضحية العرب في سبيل البيت الحرام ، بكل غال ونفيس . فقد هزمهم ابرهة جميعا ، وقتل منهم وأسر . فما لانت لهم عريكة ، ولا هدأت لهم نائرة ، ولا سكت لهم غضب حتى أنزل الله غضبه على ابرهة ومن معه ، وأهلك أصحاب الفيل .

وأما المظهر الثاني ، فهو تباح العرب بقتل أبي رغال ، دليل الحبشة الى مكة . فقد قال أمية بن أبي الصلت :

وَهُمْ قَتَلُوا السَّبِيَّ أَبَا رِغَالٍ بِعُخْلَةٍ جِئِنِ إِذْ وَسَقَ الْوَضِينَا (٣)

ليس هذا وحسب ، بل لقد رجموا قبره ، بعدما قتلوه ، كما يقول المورخون وفي ذلك يقول جرير (٥)

إِذَا مَا تَ الْفَرَزْدَقُ فَارْجَمُوهُ كَرَجْمِكُمْ لِقَبْرِ أَبِي رِغَالٍ

وأما المظهر الثالث من مظاهر حب العرب للبيت الحرام ، كما يستقى من قصة أصحاب الفيل ، فهو تشبث عبدالمطلب بن هاشم ، بأستار الكعبة المشرفة ، يستنصر الله على أصحاب الفيل ، ويسأله أن يردهم عن بيته الحرام

(١) نفس المصدر السابق ٥٤٩/٤ (٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٥٠٩
(٣) ذكر أبو زيد القرشي هذا البيت في جمهرة الأشعار (٥١٣/٢) برواية أخرى وقال في شرحه : "أبورغال هو دليل الحبشة الى الكعبة ، ونخلت اسم موضع . ووسق جمع والوضين حزام الرجل ، وهو كناية عن الجموع التي قبل فيها " (انظر جمهرة الأشعار ٥١٣/٢)
(٤) انظر السيرة النبوية لابن كثير (٢٢/١) (٥) المصدر السابق (٢٢/١) والبيت في ديوان جرير ص ٣٤٢ وعجزه فيه "كما ترثمون قبر أبي رغال"

وهو يردد تلك الأبيات ، المزروجة بالضراعة والخوف والرجاء ، والتي يقول فيها :^(١)

وَوَسَّ سَا لَاهُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَا مَنَعَ رِجَالَكَ
لَا يَغْلِبُنَّ صَلْبِيَهُمْ وَمَحَالَهُمْ غَدَاً مَحَالَكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقَبِلْتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَالَكَ

وهناك مظهر آخر من مظاهر حب العرب للبيت الحرام ، يُستقى من قصة أصحاب الفيل ، ذلك هو فرحتهم جميعا بالهزيمة التي حلت بأبرهة ، والهلاك الذي لحق بجنده ، وكانت فرحتهم غامرة وعامة .

وقد عبر عن تلك الفرحة العامة شعراء العرب من مختلف أنحاء الجزيرة ، بما قالوه في هلاك أصحاب الفيل من أشعار .

ولا نريد أن نستعيد هنا ما قالوا في هلاك أبرهة وجنده ، ونجاة البيت من تدبيره وكيدته . وللمستزيد أن يعود الى ابن هشام في السيرة النبوية^(٢) ، وابن كثير في كل من السيرة النبوية^(٣) ، وتفسير القرآن العظيم .^(٤) وسيجد هناك أمثلة واضحة على ما نقول .

سيجد عبدالله بن الزبير السهمي من مكة ، وأميرة بن أبي الصلت الثقفي من الطائف ، وأبا قيس صرمة بن أبي أنس من يثرب وغيرهم ... يعبرون عن فرحة العرب العامة بنجاة البيت .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٣٥/١
(٢) السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق طه عبدالرؤف سعد (٥٠/١)
(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٣٩/١) (٤) تفسير القرآن العظيم (٥٥٢/٤)

ومن حب العرب وتقديسهم للبيت الحرام كذلك ، تعظيمهم للأشهر الحرم ، والحج الى البيت فيها ، والوقوف بالمساعرة وغير ذلك مما له صلة بالبيت الحرام .

ونحن معنون هنا بذكر تلك الأمور - كما كانت عندهم ، وكما تصورها أشهارهم - غير متعرضين لنقدها ، وتبيين ما فيها من صحة أو اعوجاج تاركين ذلك لموضعه ان شاء الله ، حين نزن معتقدات الجاهليين وقيمهم بميزان الاسلام .

فأما تعظيم الأشهر الحرم ، فقد كان سائدا بينهم جميعا ، الا ما كان من شأن بعض القبائل من قضاة ، قال الغوث بن مر المضرى (١) :
لَهُمْ إِيَّائِي تَابِعٌ تَبَاعَةٌ وَإِنْ كَانَ إِثْمٌ فَعَلَى قَضَاعَةٍ
وذلك أن الغوث بن مر هذا ، كان يلى الاجازة للناس بالحج من عرفة ، فكان اذا دفع بهم يقول ذلك . ويعنى به أن يقع الائم على قضاة ، التى كانت ختم وطى ومن قبائلها يستحلون الأشهر الحرم . (٢)

وتعظيم الأشهر الحرم كان يقتضى من العرب عدم القتال فيها ، قال الشمشاطى فى " الأنوار ومحاسن الأشعار " : " كانت العرب فى الشهر الحرام تأتى عكاظ ، وقدأ من بعضهم بعضا ، وهم متقنعون كيلا يعرفوا " (٣)

(١) السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق طم عبدالرزاق وسعد ١١٧١
(٢) انظر المرجع السابق (١١٧١) (٣) الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى ٩٦

بل وكان ذلك موسماً للمتدينين والكرماء ، ليجودوا على الناس
ويحسنوا اليهم ، ويطعموهم ، ولينذروهم ويعظوهم ويوجهوهم . فأما الوعظ
والتوجيه ، فنستدل عليه بحديث قس بن ساعدة الأيادي ، الذي كان يقف
للناس في سوق عكاظ فيعظهم ، وينذرهم ، ويوجههم (١) كما سئرى في حينه
بانن الله .

وأما الجود والاحسان والاطعام ، فيستفاد من خبر حاتم الطائي
الذي ذكره القالي في ذيل أماليه قال : " كان حاتم الطائي اذا اهل الشهر
الأصم وهو رجب ، الذي كانت العرب تعظمه في الجاهلية ، نحر كل يوم عشرة
من الابل ، فأطعم الناس " (٢)

ولما كان العرب في الجاهلية ، أصحاب حروب وغارات وغزوات ، فقد
استثقلوا توالي الأشهر الحرم المتواليات ، فكانوا ينسئونها . وذلك بأن
يؤجلوا حرمة الشهر الذي يريدون الغزو فيه ، الى الشهر الذي يليه
قال ابن أبي ليثان ، في كتابه " الثقفية في اللثة " :

" والانساء التأخير ، ومنه أخذ النسئ ، الذي كان يفعلُه أهل
الجاهلية في الأشهر الحرم . فكان أحدهم اذا أراد الغارة في المحرم ، أجله
وحرم صفراً ، وان أرادها في رجب ، أجله وحرم شعبان ، وانما فعل ذلك

(١) انظر خبره في البيان والتبيين للجاحظ ١/٣٠٨ - ٣٠٩
(٢) ذيل الامالي والنوادر ص ١٥٢

حذيفة بن عدى الكنانى ، قال ابن جذل الطعان الكنانى :
 وَنَحْنُ لِنَسْتُونَ عَلَى مَعْدٍ شُهُورًا لِحَلِّ نَجْعِهَا حَرَامًا (١)

*

وأول أمرالنسيء - كما يذكر العلماء - أنهم كانوا إذا صدروا من
 منى ، يقوم أحد بنى كنانة ، فيقول للناس : أنا الذى لايعاب ، ولا يرد
 لى قضاء . فيقولون له : أنسنا شهرا ، أى آخر عنا حرمة المحرم واجعلها
 فى صفر ، فيحل لهم المحرم ، وهكذا . (٢)

أما أفعال العرب فى الحج ، فكانت كثيرة ، منها الطواف بالبيت ،
 روى ابن كثير عن مجاهد رضى الله عنه قال : (٣) " وكان أهل الجاهلية
 يطوفون بالبيت ، وهم يقولون :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ بَجَسًا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَاءَ ؟ (٤)

ومنها التلبية ، وقد حفظ لنا العلماء فى مؤلفاتهم ، ألوانا من تلبياتهم
 فقد ذكر ابن الكلبي فى "الأصنام" (٥) ، والشهرستانى فى "الملل والنحل" (٦)
 وابن تيمية فى "الرسالة التدمرية" (٧) ، ان العرب فى الجاهلية ، كانت
 إذا لبثت وهلت قالت :

(١) التقفية فى اللغة ص ٥٩ ، والبيت لعمر بن قيس جذل الطعان فى شرح القصائد
 السبع الطوال لابن الأنبارى ص ٢٥٨ وصدرة فيه "السنا الناسئين على معد" وهو كذلك
 فى معجم الشعراء ص ٧٢ واللسان - نسا - (٢) انظر فى ذلك شرح القصائد السبع
 الطوال لابن الأنبارى ص ٢٥٧-٢٥٨ ، وأما لى القالى (٤/١) وتفسيرا لقرطبي ١٣٧/٨
 (٣) تفسيرا القرآن العظيم ٢٥٦/٤ (٤) المستلزمة بنابى الصلت فى ديوانه ص ٤٩
 (٥) الأصنام ص ٧ (٦) الملل والنحل ص ٨٢
 (٧) الرسالة التدمرية ص ٥٦

لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك
 الا شريكاً هو لك تملكه وما ملك (١)

*

والمعروف أن هذه كانت تلبية القبائل العدنانية ، كما ذكر العلماء أيضا . (٢) أما القبائل القحطانية في الجنوب ، فقد كانت لها تلبية أخرى . ذكر ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ، قال : (٣)

” وكانت تلبية أهل اليمن في الجاهلية هذا :

جاءت إليك عانيسة عبأدك اليمانية
 كيما تحج الثانية على قلايين ناجية (٤)

وقد ذكر ابن الكلبي في «الأصنام» شيئا مثل ذلك . (٥)

ومن أعمال عرب الجاهلية في الحج . كذلك ، الوقوف بالمشاعر ، ورمي الجمار ، ونحر الهدى ، وحلق الرؤوس ، وغير ذلك من المناسك فكانوا يقفون بعرفة ، ولا يجيزون منها ، الا اذا أجاز آل صوفة من مضر ، وكانت الاجازة للناس من عرفة فيهم . وفي ذلك يقول أوس بن تميم بن مغيرة :

(١) لم يذكر ابن تيمية في نص تلبيتهم «لبيك اللهم لبيك» ، وذكر الباقي فقط
 (٢) انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٧ (٣) معجم المقاييس - (٤/١٤٧ - عنى)
 (٤) حاء في لسان العرب عن ابن الهيثم «العانى الحاضج» ، والعانى العبد
 (اللسان - عنى) والقلوص الفتحة من النوق والجمع قلائص وقلص وقلص -
 تهذيب اللغة ٣٦٨/٨ ، وجمهرة اللغة ٨٤/٣) والناجية والنجاة ، الناقة
 السريعة التي تنجو بمن ركبها . والبعير ناج (انظر اللسان - نجا)
 (٥) قال - الأصنام ص ٧ ” وكانت تلبية عك ، اذا خرجوا حجاجا ، فتمسوا
 امامهم غلامين اسودين من غلمانهم ، فكانا امام ركبهم ، فيقولان :
 نحن غرابا عك فتقول عك من بعدهما : عك اليك عانيسه عبأدك اليمانية
 كيما تحج الثانية ..

السعدى يمدحهم (١):

لَا يَبْرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا مَعْرِفَهُمْ حَتَّى يَقَالَ أَجِيزُوا آلَ صُوفَانَا
وذلك أن الناس كانوا إذا أذف النفر قالوا : أجيزى صوفة . (٢)

ثم يفيضون من معرفة الى مزدلفة ، وكانت لهم نار يهتدون بها
اذ ذاك ، تسمى نار المزدلفة . قال القلقشندى فى نهاية الأرب (٣) : « وهى
نار توقد فى المزدلفة ، ليراها من دفع من معرفة ، أول من أوقدها قصى
ابن كلاب » (٤)

ومن أعمالهم كذلك الافاضة من جمع غداة النحر الى منى . وكان
الذى يلى لهم ذلك بنوعدوان من قيس عيلان . وكان آخر من ولى ذلك منهم
رجل يقال له أبو سيارة ، وكان فيما ذكر ابن الانبارى فى شرح القوائد
قد دفع بالناس - على حمار له ، أربعين سنة ، فقال القائل :
نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ حَتَّى أَفَاضَ مَجْرِيًا حِمَارَهُ (٥)

ومن أعمالهم كذلك الاقامة بمنى ، ويظهر أنها كانت لعدة أيام . حتى
كان الشعراء فيها يلتقون بمن يحبون ، ويقولون ما يقولون . قال قيس بن

(١) السيرة النبوية - لابن هشام - بتحقيق طه عبدالرؤف سعد - ١١٢/١
والبيت له فى شرح القوائد السبع الطوال لابن الانبارى ص ٢٥٦ ، وصدده
فيه : « فلا يبريمون فى التعريف موقفهم »

(٢) انظر فى ذلك السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق طه عبدالرؤف سعد

(٣) نهاية الأرب للقلقشندى ص ٤٦٢ ، وانظر نهاية الأرب للنويرى ١٠٩/١

(٤) لم يذكر الحافظ فى حيوانه هذه النار ، مع أنه ذكر أربع عشرة نارا

كانت للعرب فى الناهلية (انظر الحيوان ٤٦٦/٤ وما بعدها ١١٤/٥)

(٥) شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانبارى ص ٢٥٧ .

الخطيم (١) :

دِيَارُ الَّتِي كَادَتْ وَنَحْنُ عَلَى مَنِيِّ تَحُلُّ بِنَالِ لَوْلَا نَجَاءُ الرَّاكِبِ

وقال مزاحم بن الحارث العُقَيْلِيُّ: (٢)

وَقَالُوا تَعْرِفُهَا الْمَنَازِلَ مِنْ مَنِيِّ وَمَا كُلُّ مَنْ وَافَى مَنِيَّ أَنَا عَارِفٌ

أما خُفَّافُ بْنُ نُدْبَةَ (٣) فقد استمتع بالنظر إلى محاسن صاحبته في موسم

الحج ، سواء أكان ذلك في منى أم في غيرها . يقول: (٤)

وَأَبْدَى شُهُورَ الْحَجِّ مِنْهَا مَحَاسِنًا وَوَجَّأَ مَتَى يَحْلِلُ لَهُ الطَّيِّبُ يَشْرِقُ
وفي هذا البيت أيضا ، دليل على ما كان القوم يحرمونه على المحرم بالحج
من طيب وغيره .

ومن أعمالهم كذلك رمي الجمار ، يقول عمرو بن أحمد (٥)

كَحَجَّةِ أُمِّ شَعْلٍ حِينَ حَجَّتْ بِكَلْبَتِهَا فَلَمْ تَرَمْ الْجَمَارًا

قال شارح الديوان : " كما حجت أم شعل في الجاهلية بكلبتها ، وهي مدلة
بنفسها ، تظن أنها ترجع ، فماتت فلم تدرك الحج " (٦)

هذا وقد ذكر القرطبي في تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: (٧)

" فَادْكُرُوا لِلَّهِ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ " قال : " كانت عادة العرب إذا قضت
حجها تقف عند الجمرة ، فتفاخر بالآباء ، وتذكر أيام أسلافها ، من بسالة

- | | |
|-----|---|
| (١) | ديوان قيس بن الخطيم ص ٣٤ |
| (٢) | الشاهد رقم ٩١ من شواهد شرح شذور الذهب ص ١٩٥ |
| (٣) | من قيس عبلان ، ونُدْبَةُ أُمُّهُ . وقد أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه |
| (٤) | ديوان خُفَّافُ بْنُ نُدْبَةَ ص ٢٩ |
| (٥) | ديوان عمرو بن أحمد ص ٧٤ (٦) المصدر السابق ص ٧٤ |
| (٧) | البقرة ٢٠٠ |

وكرم وغير ذلك» (١)

ومن أعمالهم كذلك نحر الهدى ، وتحلاق الرؤوس . فأما نحر الهدى

فقد رأيناه في قول أبي قيس - صيفى بن الأسلت : (٢)

نَسَقُ الْهَدَى تَرْسُفٌ مُدْعِنَاتٍ مَكْشَفَةُ الْمَنَاكِبِ فِي الْجَلُولِ

وأما الحلق ، فقد قال أحدهم وهو يصف الحجارة (٣) :

جَنَادِلُ أَمْلَاءٍ الْأَكْفُ كَأَنَّهَا رُؤُوسُ رِجَالٍ حَلَقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

التي غير ذلك من الأقوال والأفعال ، التي كان العرب يعظمون بها الأشهر الحرم ، ويقدمون بها البيت الحرام ، ويرددونها ويفعلونها وهم يطوفون به ويقفون بالمشاعر ، ويؤدون المناسك .

وبهذه الأعار ، وبكثير غيرها ، تحدث الشعراء الجاهليون

عن المعتقدات الدينية ، التي سادت عصرهم . أو قل - بتعبير أدق - تحدثوا

عن المعتقدات الدينية ، التي كانت معروفة في مجتمعهم .

فذكروا الله سبحانه وتعالى ، وذكروا كثيرا من صفاته وقدراته ،

وذكروا الملائكة والرسل السابقين ، أو قل بعض الرسل السابقين - عليهم

جميعا الصلاة والسلام .

وذكروا الجن والشياطين ، وخاضوا في قضية الموت والبعث

والحساب ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ، ويقدمون البيت الحرام ،

(١) تفسير القرطبي ٤٣١/٢
 (٢) ديوان أبي قيس - صيفى بن الأسلت - ص ٨٨
 (٣) الأشباه والنظائر - للخالدين - ١٣٤/١

ويحجون اليه ، ويقفون بالمشاعر ، وينحرون الهدى ، ويرمون الجمار ، ويحلقون
رؤسهم فى الموسم ، وغير ذلك .

١٩ فمّن أين تسربت الى عرب الجاهلية ، هذه المعتقدات الدينية ..
وماهى أصولها ، ومنابعها ؟!

وبتعبير آخر - ماهى المؤثرات التى كان شعراء الجاهلية
يقعون تحت أسرها ، وهم ينطقون بهذه الأشعار ، ويقومون بتلك الأعمال ؟!

من أين عرفوا الله سبحانه وتعالى ؟! ومن أين عرفوا الملائكة ؟!
حتى نطقوا بأسماء بعضهم .. ومن أين عرفوا الرسل السابقين ؟! ومن أين
عرفوا الجن ؟! ومن أين عرفوا البعث والحساب ؟!

من أين عرفوا قدسية البيت الحرام ؟! ومن أين أخذوا الحج إليه ؟!
من أين عرفوا كل هذا ؟! وعن أى طريق وصلهم ؟!

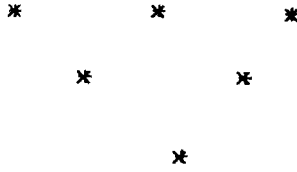
أفكان ذلك بسبب البقية التى ورثها العرب من دين أبويهم
ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ؟!

أم كان ذلك بسبب التحنّف والحثنث اللذين ظهرا عند بعضهم
من تلك البقية التى ورثوها ، ومن تأملاتهم فى الحياة ؟!

أم أن ذلك قد وجد فيهم لتسرب بعض المعتقدات من لديا نتيين
اليهودية والنصرانية ، وكانوا قد عرفوها ؟!

أفكان ذلك بسبب واحد من تلك الأمور ؟! أم أنه كان بسبب هذه
الأمور مجتمعة ؟!

هذا ما سنبحث الحديث فيه في الفصل التالي باذن الله
تعالى ..



الفصل الثاني

مصادر المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

- بقية دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
- اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.
- الخنقاء.

الفصل الثاني مصائد المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي

لأنه بعيدا اذا قلنا ان البيئة العربية في العصر الجاهلي
كان لها أثر ما في دوران ألوان من شعر المعتقدات الدينية على السنة
الشعراء الجاهليين.

تلك البيئة بصحرائها المترامية الأطراف ، من مياه بحر العرب في الجنوب
الى بلاد الشام في الشمال ، ومن مياه البحر الأحمر في الغرب الى أطراف
العراق في الشرق .

تلك البيئة بتضاريسها التي تتعاقب وتتلون بشكل عجيب ، فسهول
(١)
وجبال ، وهضاب وتلال ، وواحات ورمال ، ووديان وتلاع ، وقيعان وبقاع ،
وطرق مخوفة مهجورة ، وأخرى مسلوكة معمورة ، الى غير ذلك ..

تلك البيئة ، التي يكاد طيرها يملاء الفضاء ، ويكاد حيوانها
ينتشر في كل مكان في الصحراء . فالصقور والغربان ، والنسور والعقبان ،
والجمل والحمام ، والحبارى والنعام ، والحيوان المستأنس الأليف

(١) البقاع ما ارتفع وأشرف من الأرض . وجبال يَفَعات ويا فعات : مشرفات
(اللسان يفع) .

كالخيل والأنعام . والحيوان الشارد المتوحش الناد ، كالضباع والنمور
والأساد ، والحمير والبقر والثيران الوحشية ، والذئاب والثعالب ،
والظباء والأرانب ، وغيرها من الحيوانات البرية .

تلك البيئة التي تتردد أصوات مظاهر الطبيعة فيها ، تردداً عجيباً ،
وتجاوباً أصداؤها تجاوباً رهيباً . فتذاؤب الرياح وأزيزها وعصفها ،
وزمجرة الرعود وهديرها وقصفها ، وحفيف أوراق الأشجار ، وطلوع الحسب
وهطول الأمطار ، ولمع البرق ، وثورة العواصف ، واشتداد الأعاصير ، وغير
ذلك الكثير .

تلك البيئة التي تتناثر في أنحاءها ، آيات الله سبحانه وتعالى ،
بسمائها التي تصحو أياماً ، وأياماً تتلبد بالغيوم ، وليلها الذي يدجو
تارة (١) ، وتارة يضيئه القمر والنجوم . تلك البيئة بشمسها الحارة ،
الشديدة الحرارة ، اللى أيام قليلات ، من أيام الشتاء .

تلك البيئة التي هذه أوصافها ، كانت تجعل أهلها بلاشك - أو قل
أكثر أهلها بتعبير أدق - على صلة ما بالخالق سبحانه وتعالى . وكانت
تطلق السنة شعرائها - وهم أكثر الناس احساساً بالظواهر والمؤثرات ، ليصوروا
تلك الصلة بطريقة أو بأخرى

(١) لجا الليل يدجو نجواً - كفزا يغزو غزوا - ونجواً (كعلا يعلو علوا)
(فهو داج ونجى) - اشتد سوانه وظلمته . مع غيم فيه . (اللسان - دجا) .

وإذا ما رجعنا إلى أشعارهم التي ذكرنا بعضاً منها في الفصل السابق ، فسنجد أدلة حية ، وشواهد بينة على ما نقول . فقد بهر القوم خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والماء والنار ، وغير ذلك من الآيات التي يرونها صباح مساء . فتأثروا بها ، ورددوا أمرها في أشعارهم ، وضربوا خلقها مثلاً على قدرة الله جل شأنه ، وخير الأهلّة ما استمد من البيئة .

وهكذا كان شاعر المعتقدات الدينية في الجاهلية ، ابن بيئته التي لانفارقها ولا يفارقها ، فهذا مثلاً زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد أراد أن يذكر قومه بالله سبحانه وتعالى ، وقدراته المتعددة ، ويعلن لهم إيمانه به ، ويحبب إلى نفوسهم ذلك الإيمان ، لعلمهم يقبلون عليه ، ويتفاعلون معه - فلم يجد أمامه أقرب من البيئة يستعين بها ، على إيصال هذه الأفكار للناس . يقول : (١)

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ	لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ	لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
نَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا	بِأَيْدِي وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

لقد بهرته صورة الأرض ، وقد تناثرت على صفحاتها صم الجنادل ،

(١) البيت الأول في المعارف لابن قتيبة ص ٥٩ ، والبيتان بعده في " فتح

القدير " للشوكاني ٣٧٩/٥

وقامت في أنحائها الراسى الشامخات ، كما بهرته صورة السحب ، وهى
تحمل ذلك الغيث الفرات .

وكأنى به يريد أن يقول للقوم : ان هذا الصنيع البديع ،
يحتاج الى قوة غير قوة البشر المعهودة ، و طاقة فوق طاقتهم المحدودة ،
انها قوة الله التى لامثيل لها ، وطاقته التى لا حدود لها ، نعم ! انها قوة
الله التى لامثيل لها ، وطاقته التى لا حدود لها .

وهناك شاعر آخر ، وهو المخبل السعدى ، أراد أن يبين لصاحبه
التى تلومه على البطولة والشجاعة والمغامرة والاقدام ، ان العنية أمر
محتوم ، اذ شاءها الله لانسان ، فلن يعصمه منها عاصم ، ولن يحميه منها
حام . فلم يستعن الا بالبيئة ، والبيئة القريبة منه ، بتضاريسها
وحيوانها . يقول :
(١)

وَلَيْتَنِي بَنَيْتُ لِي الْمَشْفَرِ فِي هَضْبٍ تَقْصُرُ دُونَهُ الْعَصْمُ
لَتَنْقِبَنَّ عَنِّي الْمَنِيبَةُ إِنْ اللَّهُ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ

لم يطلب الشاعر من صاحبه ، أن تبني له ذلك القصر فى أعماق
البحار ، أوفى أواسط الغابات ، لأنه من ناحية ، وصاحبه التى تسمع
لقوله من ناحية أخرى ، لا يعرفان أعماق البحار ، لبعدها عن ناظرهما ،

كما لا يعرفان عن الغابات الا ما تنقله الأخبار اليهما .

أما المشقر ، ذلك القصر المنيف ، فالكل في بيئة الشاعر يعرفه ويسمع به ، وهو عندهم مثال على عظمة البناء وقوته . وأما الهضاب - من تضاريس صحرائهم - والوعول العصم من حيواناتها - فليست غريبة على أحد .

فاذا اجتمعت القوة المتمثلة في المشقر ، والعلو المتمثل في الهضاب ، والخطورة والوعورة المتمثلة في الوصول اليها - حتى إن العصم من الطباء والوعول لتقصّر دون ذلك وهي التي لا يعجزها ارتفاع ، ولا تمتنع منها حزون أو يفاع .

إذا كان المكان بهذه القوة والمتانة والحصانة ، ثم ان المنية تصل اليمن فيه ، أتراها تقصر عن دونه ؟! لقد تأثر الشاعر ببيئته فاستفاد منها ، ليبلغ ما يريد .

وهذا شاعر آخر (١) ، يريد أن يذكر قومه بالنهاية المحتومة لكل إنسان ، وأنه لا بقاء لأحد من الناس على هذه الأرض ، إذ كل من عليها فان ، فلم يجد له معيناً على ذلك أكثر من مظاهر الطبيعة التي يحسها ويراهها ،

(١) هو أحد تبا بعة اليمن في المعارف لابن قتيبة ص ٦٣٠ ، وهو أسقف نجران في البيان والتبيين للجاحظ ٣/٣٤٣ ، وفي الحيوان ١٨٨/٣

فتفكر فى شروق الشمس فى الصباح ، وغروبها فى المساء ، وربط بين ذلك وبين قضية الفناء ، يقول : (١)

مَنْعَ الْبَقَاءِ تَقَلَّبُ الشَّمْسُ وَطَلُّوعَهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَمْسِي
تَبْدُو لَنَا بَيْضًا بَارِزًا وَتَغِيْبُ فِي صَفْرًا كَالْوَرْسِ
تَجْرِي عَلَيَّ كِبِدًا لِسَاءٍ كَمَا يَجْرِي حِمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ

أرأيت إلى أى حد يتضح أثر البيئة ، وأثر مظاهر الطبيعة المختلفة فيها ، فى شعر المعتقدات الدينية عند الجاهليين ؟! ولولا الخوف من طول المقال فى هذا المجال ، والاستطراد الذى قد يودى إلى الملل ، لما اكتفينا بهذه الأمثلة . ولكن الفصل السابق ، وهو موضوعات شعر المعتقدات ، فيه ما يشبع رغبة المستزيد ، إذ أنه سيجدا الأمثلة التى يريد .

وهناك مؤثر آخر كان له مفعوله ، فى بروز ألوان من شعر المعتقدات ودورانها على لسان الشعراء الجاهليين ، ذلك هو ظروف الحياة الاجتماعية .

فان حركة الغزو المستمر مثلا ، التى كانت دأب القبائل العربية فى ذلك العصر ، وما كان يستتبع ذلك الغزو من حروب وغارات ، وهزائم وانتصارات ، ودفاع واعتداء ، واراقة لكثير من الدماء ، كان كل ذلك يحرك فى نفوس الشعراء ما سكن من أمور التدين ، ويثير فيهما ما وكن من ضروب المعتقدات .

كان ذلك يحتاج إلى الاستعانة ، وقد استقر فى نفوس القوم من قديم

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٣٠ ، والبيان والتبيين للجاحظ

٣٤٣/٣ ، والحيوان ٨٨/٣ .

أن الله هو المعين ، فلذلك استعانوا به وقت حاجتهم الى ذلك . يقول
أبو قيس - صيفى بن الأسلت (١)

وَأَحْرَزْنَا الْمَغَانِمَ وَاسْتَبَحْنَا حِمَى الْأَعْدَاءِ وَاللَّهُ الْمُعِينُ
وحاشى لله أن يعين على ظلم ، ولكن الشاعر لم يكن يعد استباحة حِمى أعدائه
من القبائل الأخرى ، واحراز المغانم وثها - ظلما من الظلم .

وكانت ظروف الحرب كذلك تقتضى التوقى وطلب الحماية ، وكان قد
استقر فى نفوس القوم أيضا من قديم ، أن الحامى هو الله ، وأن الواقى
هو الله ، يقول أفنون التغلبى : (٢)

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هَوْلَهُ يَجْعَلُ لَهُ اللَّهُ وَاقِيًا

وكانت تلك الظروف كذلك ، تقتضى تعزية الناس ، وتصبيرهم
ومواساتهم على ما يفتقدونه من مال وبنين ، فى مجتمع تتجدد فيه كل يوم
حوادث فقد المال والبنين . يقول لببيد بن ربيعة : (٣)

وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ وَلَا بَدِيومًا أَنْ تَرُدَّ الْوَدَائِعُ

وكانت تلك الظروف أيضا ، تقتضى أن يهب المصلحون ، ليحققوا
الدماء ويوقفوا الحروب ، ويصلحوا بين المتحاربين ، وكانت تقتضى أن يهب
الشعراء المتألهون الذين يحبون أن يسود مجتمعهم الوثام ، ويزولما بين
قومهم من خصام ، كزهير بن أبى سلمى مثلا - ليشجعوا الصلح ، ويمدحوا
القائمين عليه ، ويحذروا من الغدر ، ومن نقض العهود ، ومن تببيت نوايا

(١) ديوان أبى قيس - صيفى بن الأسلت ص ٩١ (٢) المفضلية رقم ٦٥ والمؤتلف
والمختلف ص ٢٢٥

(٣) ديوان لببيد ص ١٧٠

السوء ، فان الله المطلع على السرائر ، لن يفلت من عقابه أى غادر .

والأمر له سبحانه وتعالى ، فهو إما أن يأخذ الغادرين ونقضه
العهود ، فيعجل لهم العقاب ، وإما أن يؤخرهم ليوم الحساب . يقول زهير^(١) :

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى ، وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخِّرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ وَيُعْجِلُ فَيُنْقِمُ

وفى معلقة زهير المشهورة ، أبيات كثيرة أخرى ، من شعر المعتقدا
الدينية ، لها ارتباط وثيق بظروف المجتمع الجاهلي ، وعلى الأخص بحالة
الحرب المستمرة ، التي لم يكن يهدأ هديرها ، أو تطفأ نارها أو يسكت أوارها .

وما دنا نتحس أثر الظروف الاجتماعية ، فى شعر المعتقدا ت
فى الجاهلية ، فلا يجب أن ننسى حالة الشظف التي كانت تتمثل فى تلك
البيئة . فقد تضن سماءها بالمطر ، فيموت كثير مما فيها من نبت وشجر ،
وقد تجذب مراعيها ، فينفق كثير من أنعامها ومواشيها .

فاذا ما حدث هذا ، تحركت الناحية الدينية فى نفوس القوم ،
ولجأوا الى الله جل شأنه ، يستسقونه ويستطعمونه . وفى حديث عمران
ابن حصين ، رضى الله عنهما دليل صادق على هذا .

(١) ديوان زهير ص ١٨ .

(١) روى ابن حجر فى الاصابة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (١)
 " يَا حُصَيْن ! كَمْ تَعْبُدُمِنِ إِلَهٍ ؟! قَالَ : سَبْعًا فِي الْأَرْضِ ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ .
 قَالَ : فَإِذَا أَصَابَكَ الضَّرُّ مِنْ تَدْعُو ؟! قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ . قَالَ : فَإِذَا
 هَلَكَ الْمَالُ مِنْ تَدْعُو ؟! ، قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ . قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ) : فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ ، وَتَشْرِكُهُمْ مَعَهُ ؟!"

فانا كانا لقوم - أكثرهم - يتذكرون الله وقت الشدة ، فقد كان
 عقلاؤهم وفضلأؤهم وكثير من شعرائهم يتذكرونه وقت الرخاء ، ويرجعون اليه
 الفضل فى ذلك الرخاء .

(٢)

يقول حاتم الطائي :

كُلُوا الْآنَ مِنْ رِزْقِ الْإِلَهِ وَأَيِّرُوا فَإِنَّ عَلِيَّ الرَّحْمَنَ رِزْقَكُمْ غَدًا

(٣)

ويقول عبید :

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُ مَوْهُ وَسَائِلُ اللَّهِ لِإِيخِيهِ

(٤)

ويقول الآخر : فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَأَرْضِينِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعَسْرُ إِذْ دَارَتْ مِيَا سِيرُ

فحاتم يرد الرزق لله ، بثقة المطمئن الى جانبه ، الواثق فيه . وعبيد -
 يذم البخل فى الناس ، وينوّه الى الاعتماد على الله ، والآخر يبحث الناس على
 طلب العطاء من الله ليس إلا ، ويحثهم على الرضا بما قسم سبحانه وتعالى

(١) أخرجه ابن حجر فى الاصابة فى تمييز اصحابه (٢٣٧/١) وعزاه الى ابن خزيمة

(٢) ديوان حاتم الطائي - دار مادروبيروت ص ٤١ (٣) ديوان عبيد ص ١٥

(٤) هو عثير بن لبيد العذري - كما ذكر ابن حبه الحموي فى ثمرات الاوراق ، - على
 هامش المستطرف للابشيبي ٢٩/٢ . والبيت هو رقم ١٢٢ من شواهد مغنى للبيب

٨٢/١ - بدون نسبة -

فان مع العصر يسرا . الى غير ذلك ، من الأمثلة التي تدل على أن ظروف الحياة الاجتماعية ، كان لها تأثيرها في بروز المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي .

أضف الى ذلك ما كان يحدث للقبائل عامة ، وللشعراء خاصة ، من ظعن وترحال ، وتنقل وتجوال ، إن هربا من الغارة والاعتداء ، أو انتجاعا لمواطن الكلاء والماء ، أو طلبا للجدود والعطاء ، الذي كان يتعرض له بعض الشعراء .

هذه الرحلة كان لها هي الأخرى ، أثرها في تحريك نفوس الشعراء ولهج أسنتهم ببعض المعتقدات ، سواء عرفوها ، أو نقلوها ممن يلتقون بهم في ترحالهم وتجوالمهم . يقول اليعقوبي في تاريخه^(١) : « وكانت أديان العرب مختلفة ، بالمجاورات لأهل الملل ، والانتقال الى البلدان ، والانتجعات » .

ولكن تلك البيئة التي عرفنا ، وتلك الظروف الاجتماعية التي رأينا ، وحتى هذه الرحلة والتنقل والتجوال ، التي كانت شأن الكثيرين منهم ، لم تكن هي المصدر الرئيسي ، ولا المنبع الأساسي ، لتلك المعتقدات التي وجدت في أشعار الجاهليين . وانما كانت كما قلنا - من المؤثرات التي كانت تبرز تلك المعتقدات وتحرك ألسنة الشعراء بذكرها .

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١

فما هي المصادر الأساسية ، وما هي المنابع الحقيقية ، لمعتقدات
الجاهليين الدينية؟! ، لانتجاوز الحقيقة اذا قلنا : انه كان للمعتقدات
التي عرفها الجاهليون ، وذكرها شعراؤهم - مصدر أساسي ، وآخر إضافي .

فأما المصدر الأساسي ، فهو الأثر^ة التي بقيت للعرب ، من دين
أبويهم الكريمين ، ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وأما المصدر الإضافي
فهو ما تسرب اليهم من معتقدات أهل الكتاب من يهود أو نصارى

أما أدلتنا على ذلك ، فهي ما نأمل أن نوفق في عرضه ، في الصفحات
القائمة بانن الله ، مسترشدين بالنصوص الشعرية ذاتها ، لانتجاوزها
الالهيا يوضحها أو يؤيدها .

بقية دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام :

لقد ورث العرب منذ القدم ، دين أبيهم ابراهيم عليه السلام ،
وهو دين حنيف ، فومنهج مستقل ، ليس الى اليهودية ، ولا الى النصرانية ،
وذلك مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى : (١) " مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " .

وكان اسماعيل عليه السلام ، على نفس دين أبيه ، وعلى نفس منجه ، وكأنه امتداد له . وسارت القبائل العربية في الزمان القديم ، على ما كان عليه ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، من توحيد لله ، واستقامة على الطريقة ، وغير ذلك مما تقتضيه الحنيفية السمحة .

وخير دليل على ذلك ، اجماع القبائل العربية في مختلف أنحاء الجزيرة ، على تقديس البيت الحرام ، والحج اليه في كل عام ، كفرية من الفرائض التي جاء بها امام العلة الحنيفية ، سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

فابراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي أعده للعبادة من صلاة وطواف ، بأمر أيضا من الله سبحانه وتعالى ، يقول أصدق القائلين : " وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١) "

قال العلماء في تأويل ذلك : " بوأنا لابراهيم مكان البيت ، أي أريناه أصله ليبنيه " (٢) . وتطهيره تنزيهه عن أن يعبد فيه صنم ، وكان القوم قبل ابراهيم عليه السلام ، قد اتخذوا أصناما لهم محل البيت وحوله (٣) . ثم شاء الله ببعثة ابراهيم أن يرد الناس الى التوحيد .

ثم إن العهد قد طال على هذه العلة الحنيفية ، ونسيت القبائل كثيرا من شرائعها ، وعلى الأخص بعد أن أدخل أحد شياطين الانس - وهو عمرو بن لحي الخزاعي عبادة الأصنام الى أرض العرب . (٤)

(١) الحج ٢٦ (٢) تفسير القرطبي ٣٦/١٢ (٣) انظر تفسير القرطبي ٣٧/١٢ (٤) انظر تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١

لهذه الأسباب ، لم يكن قد بقي للعرب في العصر الجاهلي ،
الاثارة من دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . هذه الاثارة هي التي
حفظت لهم بعض الشرائع والمعتقدات ، وبعض المناسك والعبادات .

ومن ذلك الدين ، عرف العرب الله سبحانه وتعالى ، وظلموا
يحفظون ويتناقلون كثيرا من صفاته وقدراته التي رأينا في الفصل السابق .

ومما عرفوه عن الله سبحانه وتعالى ، من ذلك الدين أيضا ، أنهم
كانوا لا يسوون به غيره من المعبودات الأخرى . يقول النابغة : (١)
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رَبِيَّةً وَلَيْسَ وِرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَنَهَبٌ
ومنها كذلك معرفتهم اسلام الأمر لله ، كما رأينا في أبيات زيد بن عمرو بن
نفييل السابقة . (٢)

فمن أين عرف زيد بن عمرو ذلك ، ان لم يكن من بقية دين
ابراهيم عليه السلام ، وهو الذي قال الله فيه : (٣) " وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِّي فَلْيَقْرَأْ
ابْرَاهِيمَ الْأَمِنَ سَفَهَ نَفْسَهُ . وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ "

ومنها كذلك معرفتهم لتقوى الله ، ووصفهم من لا يتقيه بالفسق
والفجور ، يقول المسيب بن علس : (٤)

(٢) انظر ص ٦٤ من هذا البحث
(٤) التفقيه في اللغة ص ٦٢٠ واللسان -
بلل - بدون نسبة

(١) ديوان النابغة ص ٧٦
(٣) البقرة ١٣٠-١٣١

أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ يَا آلَ عَامِرٍ وَهَلْ يَتَّقِي اللَّهَ الْإِبِلَ الْمُصَمَّمُ (١)
ومنها الاستعاذة به سبحانه وتعالى ، كما كان يفعل عبدا لمطلب بن هاشم
جد النبي صلى الله عليه وسلم - اذ يقول : (٢)

عَدْتِ بِمَا عَاذَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ وَهُوَ قَائِمٌ
ومنها معرفتهم أن الله حَسْبُ من يتولاه ، لا يرد سائليه ، ولا يخذل مستنصره .
يقول عبيد : (٣)

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلِ اللَّهِ لَا يَخِيبُ

ويقول الأعشى : (٤)
بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ لِشَرِيكَ لَوَجْهِهِ يَكُنْ لَكَ فِيهَا تَكْدِحٌ لِيَوْمٍ رَاعِيَا

فمن أين عرف القوم أن الله هو الحسيب ، وأنه هو الراعى ، وأن
الانكال لا يكون الا عليه وحده ، ان لم يكن من بقية دين ابراهيم ، الذى ثبت
عنه أنه قال حين ألقى فى النار : « حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » (٥)

وقد ذكر ابن تيمية ، فى التوسل والوسيلة ، أن جبريل عليه السلام
قد جاء سيدنا ابراهيم عليه السلام ، حين أراد قومه أن يقذفوا به فى النار
فقال له : « هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ ! قَالَ : أَمَا إِلَيْكَ فَلَا » (٦)

- (١) الإبل : الفاجر ، والشديدا الخصومة ، والشديدا للوم ، والانشى بلاء
اللسان - بلل
(٢) المعرب للجواليفى ص ٦١ (٣) ديوان عبيد ص ١٥
(٤) ديوان الأعشى ص ٣٧٩
(٥) التوسل والوسيلة لابن تيمية ص ٣٥ (٦) المصدر السابق ص ٣٥

ومما ورثه العرب كذلك من دين ابراهيم عليه السلام ، اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض ، - كما قد رأينا آنفا - فمن أين أخذوا ذلك ، ان لم يكن من قول ابراهيم - كما روى القرآن الكريم عنه - " إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (١) وَجِئْتُ بِهَدْيٍ لِّلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)

ومما أخذوه أيضا من دين ابراهيم ، اعترافهم بأن علم الله محيط بكل شيء ، يتضح ذلك من قول زهير الذي رأيناه سابقا (٢) ويتضح كذلك من قول ذى الابع العدواني (٣)

اللَّهُ يَعْلَمُنِي ، وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّي وَيَجْزِينِي

ويتضح أيضا من قول قيس بن الحداية الخزاعي (٤)
فَقَالَتْ وَعَيْنَاهَا تَفِيضَانِ عَبْرَةً بِنَفْسِي بَيْنَ لِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ
فَقُلْتُ لَهَا وَاللَّهِ مَا مِنْ مَسَافِرٍ يُحِيطُ بِعِلْمِ اللَّهِ مَا اللَّهُ صَانِعٌ

ويتضح كذلك من قول الأعشى (٥)
عَطَاءُ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهِ يَعْلَمُ فِي الْغَامِضَاتِ السَّرَارَا

فمن أين أخذوا ذلك .. ومن أين عرفوه ، ان لم يكن من قول ابراهيم - فيما حكى عنه القرآن الكريم (٦) " وَحَاجَهُ قَوْمُهُ ، قَالَ أَتَحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ، إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ " .

(١) الأنعام ٧٩ (٢) انظر ص ١٥٠ ٦٩ من هذا البحث
(٣) المفصلة رقم ٢١
(٤) معجم الشعراء ص ٢٠٢ - والحادية أمه
(٥) ديوان الأعشى ص ٩٩
(٦) الأنعام ٨٠

كل هذا الذى عرفه العرب فى الجاهلية ، من صفات الله وقدراته سبحانه وتعالى ، كان قد بقى لهم من دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . فاذا انتقلنا الى الملائكة ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون ما عرفوه عنهم ، بعضه أو كله - قد ورثوه عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

وقد رأينا كيف أن الأعشى ، كان - فيما ذكر عنه ابن قتيبة - " ممن أقر بالملكين الكاتبين فى شعره " (١) . وذلك حيث يقول : (٢)

” عَلَى شَاهِدِي يَا شَاهِدَ اللَّهِ فَاشْهَدِ ”

وبعد أن شرح ابن قتيبة بيت الأعشى قال : (٣) ” وكان هذا من ايمان العرب بالملكين ، بقية من دين اسماعيل صلى الله عليه وسلم ” .

وليس هناك أيضا ما يمنع ، من أن يكون ما وصل الى العرب من معرفة بالجن والشياطين ، هو أيضا بقية من دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

أما البعث والجزاء والجنة والنار ، فليس هناك شك فى أنها معتقدات موروثه عن ابراهيم واسماعيل ، اللذين كانا على الحنيفية السمحة . يقول البغدادى فى خزنة الأئب - وذكر النايفة الجعدى : ” كان النايفة يذكر فى الجاهلية دين ابراهيم والحنيفية ، ويصوم ويستغفر فيما

(١) الشعر والشعراء ٢٦٦/١٤ (٢) الشعر والشعراء ٢٦٦/١٤ وصوره : فَلَاتَحْسَبْنِي كَأَفْرًا
لَكَ نِعْمَةٌ .

(٣) الشعر والشعراء ٢٦٦/١٤

ذكروا . وقال في الجاهلية كلمته التي أولها :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ لِأَشْرِيكَ لَكُم مِّن لَّمْ يَقْلَهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمًا (١)
 وفيها ضروب من دلائل التوحيد ، والاقرار بالبعث والجزاء والجنة والنار
 وصفة بعض ذلك .» (٢)

وقد رأينا الكثيرين - غير النابغة الجعدي - من الشعراء الجاهليين
 ممن أقرروا بالبعث والحساب ، وذكروها في أشعارهم . يقول ابن قتيبة
 عن زهير بن أبي سلمى : (٣)

« وكان زهير يتأله ، ويتعفف في شعره ، ويدل شعره على إيمانه بالبعث »
 ومن أولئك أيضا الأعشى ، كما ذكر ابن حبيب في المحبر (٤) ، وذلك
 في قوله فيمن مدح : (٥)

بِأَعْظَمَ مِنْهُ تَقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النِّسَاءُ نَفَضْنَ الْعِبَارَا

ومنهم كذلك الأخنس بن شهاب في قوله : (٦)

وَعَلِمْتُ أَنَّ لِلَّهِ جَارَ عَبْدَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ

ولم يكن الإيمان بالبعث والحساب مقصورا على أولئك الشعراء ، وإنما كان
 أحدا للمعتقدات التي ورثها القوم عن إبراهيم وإسماعيل ، فحفظها أناس ،
 ونسيها آخرون ، وانتدب الذين حفظوها ، للتذكير بها ، وهكذا .

(٥) ديوان الأعشى ص ١٠٣
 (٦) المحبر لابن حبيب ص ٣٣٣

(١) ديوان النابغة الجعدي ص ١٣٢
 (٢) خزائن الألب للبيضاوي ١٧٢/٢
 (٣) الشعر والشعراء ١٣٩/١
 (٤) المحبر لابن حبيب ص ٣٢٢

فقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل ، أن عبدالمطلب بن هاشم - جد النبي صلى الله عليه وسلم - كان " يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيا الأمور " (١) وكان يقول لهم فيما يقول : " والله إن وراء هذه الدار ، داراً يُجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب فيها المسيء بإساءته " (٢)

هذا بعض ما كان قد بقي للعرب ، من دين أبويهم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام في المعتقدات ، فإذا كان قد بقي لهم في الشرائع والمناسك والعبادات ؟!

كان ابراهيم عليه السلام حنيفاً كما عرفنا ، والحنيفية ملة لها ارتباط وثيق بالاسلام ، فهي واياه يلتقيان في التوحيد ، ويتشابهان في الشرائع والمناسك الى حد بعيد .

ودليل ذلك الحج الذي يقوم به المسلمون اليوم ، كركن أساسي من أركان الدين ، فقد نزل أول ما نزل - كما سنرى في حينه - على ابراهيم عليه الصلاة والسلام اذ يقول الله له : " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّلَ رَجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " (٣) . ثم تنزلت الآيات الكريمة على المسلمين ، من قوله تعالى " وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ " (٤) الى قوله : " وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " (٥) ، لتوضح الصلة الوثيقة بين الملتين ، بل لتؤكد كونهما ملة واحدة .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٨٣ (٢) المصدر السابق ص ٨٤
(٣) الحج ٢٧ (٤) البقرة ١٩٦
(٥) آل عمران ٩٧

وتلك قضية معروفة من قديم الزمان ، وليست في حاجة الى دليل
أو برهان ، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله : (١) « وَقَالُوا
كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

ويقول جل شأنه : (٢) « إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ ، لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » . وفي حديث أبي امامة
الباهلي رضى الله عنه ، فيما أخرج الامام أحمد في مسنده ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « ^(٣) إِنْ نِيَّ لَمْ يُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ ، وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ ،
وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » .

ولذلك فقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل ، أن النبوة حين
انتهت لابراهيم ، اجتمع هو وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، « فرعوا
قواعد البيت ، على مقتضى اشارة الوحي ، صرعيا فيها جميع المناسبات ،
التي بينها وبين البيت المعمور . وشرعا المناسك والمشاعر ، محفوظة
فيها جميع المناسبات التي بينها وبين الشرع الأخير » (٤)

وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه العزيز (٥)

(١) البقرة ١٣٥

(٢) آل عمران ٦٨

(٣) مسند الامام أحمد - دار صادر وبيروت - ٢٦٦/٥

(٤) الملل والنحل ص ٧٧ (٥) البقرة ١٢٧ ، ١٢٨

” وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ، وَإِنَّا مَنَاسِكُنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ” .

واذن فان ما كان لدى لعرب فى الجاهلية من شرائع وعبادات ومناك لها صلة من قريب أو بعيد بالاسلام - فان مرجعها الى دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام - شأنها فى ذلك شأن معتقداتهم فى الله وملائكته ورسله وغير ذلك .

ومن ذلك ألوان من الصوم ، والصلاة ، والزكاة ، على تفاوت بعيد البون - بين ما كان عندهم ، وما هو موجود فى الاسلام من هذه العبادات .

أما الصوم فليس أدل على وجوده عندهم ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فيما أخرج الامام البخارى فى صحيحه - قال ، قالت : ” كان عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه . فلما نزل رمضان ، كان من شاء صامه ، ومن شاء لا يصومه ”^(١)

ولم تكن قريش تكفى بالصوم فى هذا اليوم ، بل كانت تفعل فيه أيضا ما تعظم به البيت الحرام . فقد أخرج البخارى أيضا ، من حديث

(١) صحيح البخارى - باب أيام الجاهلية - ٥٧٥ من طبعة كتاب الشعب

عائشة رضی اللہ عنہا ، قالت : " كانوا يصومون عاشوراء ، قبل ان يفرض
رمضان ، وكان يوماً تستر فيه الكعبة " (١)

وأما الصلاة فقد كان القوم يعرفون ألواناً منها كذلك ، كاللحاء
والسجود والتسبيح ، يقول الأعشى : (٢)

يُراوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جَوَارًا

ويقول أيضا : (٣)

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعِشْيَاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدُ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاحْمَدًا

وفى معنى الدعاء يقول الأعشى ، وقد نعت له ابنه عند سفره : (٤)

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَرَبْتُ مَرْتَحَلًا يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجْعَا
عَلَيْكَ مِثْلًا لِذِي صَلِيَةٍ فَاعْتَمِضِي يَوْمًا فَإِنَّ لِحْنَبَ الْمَرْءِ مَضْطَجَعًا

هذا وقد تحولت صلاة القوم - عند البيت الحرام - بمرور الزمن

الى تصفير وتصفيق . ولم تبقى كما تركهم عليها ابراهيم عليه السلام .
يقول الله سبحانه وتعالى : " (٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْأَمْكَا
وَتَصَدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ " .

(١) صحيح البخارى - كتاب الحج - باب قوله تعالى: جعل الله الكعبة

البيت الحرام قياما للناس - ١٨٢/٢ ، من طبعة كتاب الشعب

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٣

(٣) ديوان الأعشى ص ١٨٧

(٤) المصدر نفسه ص ١٥١

(٥) الأنفال ٣٥

يقول ابن عباس رضي الله عنهما ، في معنى هذه الآية ، فيما ذكره عنه ابن كثير في تفسير القرآن العظيم : (١) " كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، تصفر وتصفق . والمكاء الصغير ، والتصدية التصفيق " .

وأما الزكاة فلم يتيسر لي من أشعارهم فيها ، الاقول أمية بن أبي الصلت : (٢)

المَطْعَمُونَ الطَّعَامَ فِي السَّنَةِ الْأَزْمَةِ وَالْفَاعِلُونَ لِلزَّكَاةِ
والزكوات مفردها الزكاة . وهي بلاشك ليست الزكاة المعروفة في الاسلام . وانما هي الصدقة واطعام الطعام ، وفعل الخيرات بشكل عام .

وخير دليل على ذلك ، ما أخرجه الامام البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير ، أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال : (٣) " يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ صَلَّةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ هَلْ لِي فِيهَا أَجْرٌ ؟ ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَسَلَّمْتَ عَلَيَّهَا سَلَفٌ مِنْ خَيْرٍ " .

وكانت في العرب أيضا أمور أخرى ، لها نظائرها في الاسلام ، وما لاشك فيه أنها ما كان قد بقي لهم من دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وليس يعنى ذلك أنهم كانوا يلتزمون بها ، ولكن الذى نعتيه أنهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٦/٢ (٢) ديوان أمية ص ٣٤٥
(٣) صحيح البخاري - كتاب الألب - باب من وصل رحمه فى الشرك ثم أسلم من طبعة كتاب الشعب ٧/٨

عرفوها ، وأن بعضهم كان يطبقها ، أو كان يطبق بعضها .

ومن ذلك قطع يد السارق ، وتحريم أكل الميتة ، والوفاء بالعقود ،
 وتحريم الخمر ، وعدُّ عبادة الأصنام خروجاً على الحنيفية التي ورثوها .
 ومن تلك الأمور كذلك ما كانوا يصنعونه من سنن الفطرة بأنفسهم ، والتي
 جعلها الإسلام الحنيف من سننه . قال محمد بن حبيب في كتابه "المحبر" ^(١) :
 " وكانت العرب دون غيرها من الأمم ، تصنع عشرة أشياء ، منها في الرأس -
 خمسة ، وهي المضمضة والاستنشاق ، والسواك ، والفرق ، وقص الشارب .
 وفي الجسد خمسة ، وهي الختانة وحلق العانة ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار
 والاستنجاء . خست بهذا العرب ، دون سائر الأمم ."

وقال أبو حيان التوحيدى في البصائر والنخائر ^(٢) " يقال رئيس سنن
 العرب ، المضمضة والسواك والاستنجاء " .

والحقيقة أن هذه الأعمال ، وعلى رأسها الاستنجاء بالماء ، الى
 جانب دلالتها على النظافة الجسمية ، فانها تدل - كما يقرر العلماء ^(٣) - على
 الطهارة النفسية ، والمروءة الآمية . ولذا فقد مدح الله المتصفين بها
 من الأوس والخزرج ، حين أنزل في مسجد قبا " قوله تعالى " فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ
 أَن يَتَّطَّهَرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ " ^(٤) .

(١) المحبر ص ٣٢٩ (٢) البصائر والنخائر ٤٤٩/١
 (٣) انظر تفسير القرطبي ٢٦٧/٨ (٤) التوبة ١٠٨

وقد نهب العلماء الي أن سنن الطهارة هذه ، هي ما ابتلى الله به ابراهيم عليه السلام . فقد ذكر الطبرى فى تفسيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ " (١) قال : ابتلاه الله بالطهارة ، خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد " . ثم ذكر الطبرى تلك العشرة التى ذكرها ابن حبيب . (٢)

والشواهد الشعرية على تلك الأمور كثيرة ، فقد ذكر ابن حبيب أن قريشا قد قطعت فى الجاهلية ، أيدي رجال سرقوا ، ومنهم مليح بن شريح ابن الحارث بن أسد ، وعوف بن عبيدالمخزومي ، وكان يلقب درواسا ، وفى ذلك يقول مالك بن عميلة بن السباق بن عبدالدار ، وذكر حميد بن زهير ، ابن عم مليح المذكور : (٣)

تَمَنَّىٰ حَمِيدٌ أَنَّهُ كَانَ حَيْضَةً	لِيَأْتِي بَانَتٌ مِنْ مَلِيحٍ أَصَابِعُهُ
لِيَأْتِي بَانَتُ كَفِّهِ وَذِرَاعُهُ	فَأَصْبَحَ لَا يَدْفَعُ لِقَرْنٍ يَنَازِعُهُ
وَيُرْوَأَسَ مَخْرُومٌ تَرَكَنَا مَجْدَلًا	بِمَا قَدَّمْتَ أَظْفَارَهُ وَأَشَاجِعَهُ (٤)
فَأَمْسَى تَلِيلًا لِلسَّبَاعِ تَنُوبُهُ	تَسِيلُ نَمًا آرَابُهُ وَكَرَاسِعُهُ (٥)

وكان درواس هذا فيما ذكر ابن حبيب - قد " قطع مرارا ، ثم سرق . فرجم حتى مات " (٦)

- (١) البقرة ١٢٤ (٢) انظر تفسير الطبرى - طبع دار المعارف ٩/٣
 (٣) المحبر لابن حبيب ص ٣٢٨
 (٤) الجدل - كالضرب - : الصرع ، وهو مجدول ومجدل (انظر اللسان - جدل) والاشاجع - عظام المابغ او عروقها - واحدها اشجع - كالببيض - (انظر اللسان نجع)
 (٥) تله يتلأ تلا - من باب رد - فهو متلؤل وتليل : صرعه (اللسان تل) وتنوبه : تلم به " انظر اللسان - نوپ " ، والآراب : الاعضاء - واحدها ارب - كجسم - (انظر اللسان - ارب) والكراسع : مفاصل الاطراف واحدها كرسوع - بالضم - (اللسان - كرسع) .
 (٦) المحبر لابن حبيب ص ٣٢٨ .

وأما تحريم الميتة ، والوفاء بالعقود ، فقد ذكرهما حارثة

ابن أوس الكلبي في قوله (١)

لَا أَكَلُ الْمَيْتَةَ مَا عَمِرَتْ نَفْسِي وَإِنْ أَبْرَحَ أَمْلَاقِي (٢)
وَالْعَقْدَ لَا أَنْقُضُ مِنْهُ الْقَوَى حَتَّى يَرَى الْقَبْرَ أَطْبَاقِي (٣)

وأما تحريم الخمر ، فكما كان ينتهجه الكثيرون ، ذكره في شعرهم أيضا الكثيرون .

يقول قيس بن ضبابة الكفاني : (٤)

رَأَيْتُ الْخَمْرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا خِصَالُ كُلِّهَا دَنَسٌ نَمِيهِمْ
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي طَوَالَ النَّهْرِ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

(٥)

ويقول عفيف بن معد يكره ، الكندي :

وَقَاتِلِي هَلُمَّ إِلَى التَّصَابِي فَكَلْتِ عَفَفْتَ عَمَّا تَعْلَمِينَا
وَوَدَعْتُ الْقِدَاحَ وَقَدْ أَرَانِي بِهَا فِي النَّهْرِ مَشْفُوفًا رَهِينَا
وَحَرَمْتُ الْخُمُورَ عَلَيَّ حَتَّى أَكُونَ بِفَقْرٍ مَلُحُودٍ دَفِينَا

قال ابن حبيب : " وبهذا سمي عفيفا ، وكان اسمه شراحيل " (٦)

وكان صفوان بن أمية أيضا ، ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وهو

الذي يقول : (٧)

رَأَيْتُ الْخَمْرَ مَالِحَةً وَفِيهَا مَنَاقِبُ تَفْسِدُ الرَّجُلَ الْكَرِيمَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي وَلَا أَشْفِي بِهَا أَبَدًا سَقِيمَا

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩ (٢) البراج : الظهور والانكشاف (النظر
اللسان - بريح ، والاملاق الفقر (انظر اللسان - ملق)
(٣) اللطائف : أعضاء جسم الانسان ، واحدها طبق - بفتحين - وطابق بكسر
الباء وفتحها (انظر اللسان طبق) .
(٤) معجم الشعراء ص ٤٣٤ (٥) المحبر لابن حبيب ص ٣٣٩ ، وأما القالي
(٦) المحبر ص ٣٣٩ (٧) انظر أمالي القالي ٢٠٤/١ ٢٠٥/١

وهناك غير هؤلاء كثيرون ممن حرموا الخمر في حياتهم ، وقد قالوا في ذلك أشعارا كثيرة ، ذكرها العلماء في مصنفاتهم . ومن أراد الاستزادة من ذلك ، فليرجع الى ابن حبيب في المحبر^(١) ، والجاحظ في البيان والتبيين^(٢) وأبي علي القالي في أماليه^(٣) ، وأبي الفرج الأصفهاني في أغانيه^(٤) ، والنهشلي في الممتع^(٥) ، وأسامة بن منقذ في البديع^(٦) ، وغيرهم .

هذه وأمور غيرها ، سنعرض لذكرها حين نزن معتقدات الجاهليين بميزان الاسلام ، ان شاء الله تعالى ، هي أبرز ما ورث العرب في الجاهلية من دين ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

على أن أهم ما ورثوه ، وأبرزه على الاطلاق هو تقديسهم للبيت الحرام ، وجههم اليه ، الذي رأينا طرفامنه في الفصل السابق . يقول ابن الكلبي في الاضنام^(٧) : " وهم بعدُ ، يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتَمرون ، على إرث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام " .

-
- (١) انظر المحبر ص ٣٣٧ ، وما بعدها
(٢) انظر البيان والتبيين ٣/٢٤٧ - ٢٤٨
(٣) أمالي القالي ١/٢٠٤ وما بعدها
(٤) انظر الاغانى - دار الثقافة ٢٢/٢٧
(٥) انظر الممتع في علم الشعر وعمله - لعبدالكريم النهشلي - ص ٦٢ ، ٦٣
(٦) انظر البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ص ٦٣
(٧) الاضنام لابن الكلبي ص ٦

ويقول في موضع آخر (١): " وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم
واسماعيل يتنسكون بها ، من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة
والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البُدن ، والاهلال بالحج والعمرة
مع ادخالهم فيه ما ليس منه "

أما الشواهد الشعرية على ذلك فهي كثيرة ، يقول عبدالمطلب

ابن هاشم (٢):

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي كَعْبَتِهِ لَمْ يَزَلْ ذَاكَ عَلَى عَهْدِ بَرِّهِمْ

ويقول أبوطالب ، وذكر أصحاب الفيل - (٣):

يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ لَهُمْ سَبِيلًا عَلَى بِنَائِهِ لَمْ يَزَلْ مَاهُولا
قَدْ كَانَ بَانِيَهُ لَكُمْ خَلِيلًا

فهاهو ذا أبوطالب يضرع الى الله جل شأنه ، ألا يمكن أصحاب الفيل
من البيت الحرام ، الذي بناه خليل الرحمن ، ابراهيم عليه السلام ، ثم انه
يذكر أن البيت لازال مأهولا ومعمورا ، وكأنى به يريد أن يقول : انه لا يزال
يتعبد فيه على هدى بانيه ، ابراهيم عليه السلام .

ولم يكن هذا الأمر قصرا على قريش ، فقد رأينا في الفصل السابق
أن القبائل العربية كلها ، كانت تقدر البيت الحرام وتحج اليه . بل ان
القبائل العربية قبل قريش ، من لدن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام
كانت في صراع حول القيام بأمر البيت ، وكانت تعتر بذلك وتفاخر به .

(١) الأضداد ص ٦ (٢) المعرب للجوالقي ص ٦١ وتفسير البحر المحيطة

لابن حبان (٣٢٢)

(٣) الأضداد لابن الأثير ص ١٨٣

اذ المعروف أن اسماعيل قد ولى البيت بعد ابيه ابراهيم ، قال ابن الانبارى فى شرح القوائد السبع الطوال (١) " ومن حول مكة يومئذ جرهم ، فنكح اسماعيل عليه السلام امرأة منهم " وفى ذلك يقول عمرو ابن الحارث بن مظاهر الجهمى : (٢)

وَصَاهِرُنَا مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ وَالِدًا فَأَبْنَاوَهُ مِنَّا وَنَحْنُ الْأَصَاهِرُ

وقد ولى بعد اسماعيل ابنه نابت (٣) ، ولما مات غلبت جرهم - أخواله على ولاية البيت ، وفى ذلك أيضا يقول عمرو بن مظاهر الجهمى (٤)

وَكُنَّا وِلَاةَ الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ نَطُوفُ بِذَاكَ الْبَيْتِ وَالْخَيْرُ ظَاهِرُ

ثم ان جرهم لم يراعوا حرمة مكة ، فأجلت بهم عنها خزاعة ، وفى ذلك يقول أحدهم : (٥)

وَنَحْنُ وَلِينَا الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ جَرِّهِمْ لِنَمْنَعَهُ مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَمُلْحِدٍ

ويقول أيضا : (٦)

وَادٍ حَرَامٍ وَطَيْرِهِ وَوَحْشِهِ نَحْنُ وَلِينَاهُ فَلَا نَغْشُهُ

ويقول عمرو بن الحارث بن عمرو الخزاعى : (٧)

وَنَحْنُ وَلِينَا الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ جَرِّهِمْ وَنَقْبَلُ مَا يَهْدَى لَهُ لَأَنْمُسَهُ
لِنَمْنَعَهُ مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَأَثِيمٍ نَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ عِنْدَ الْمُحَارِمِ

وظلت ولاية البيت فى خزاعة ، حتى احتال قصى بن كلاب لذلك ، فاختطفها منهم ، وحولها الى قريش .

(١) شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٥٣

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٣

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٣ والسيرة النبوية لابن كثير ١/٥٧٠ وانظر كذلك -

شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ٢/٣٣

(٤) شرح القوائد السبع الطوال لابن الانبارى ص ٢٥٤

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٦ (٦) المطر السابق ص ٢٥٦

(٧) معجم الشعراء ص ٥٧

وتفصيل ذلك - فيما يذكر العلماء - أن أبا غبشان - وكان يلى
أمر الكعبة لخزاعة ، اجتمع مع قصى بن كلاب فى شرب بالطائف ، فخدعه
قصى عن مفاتيح الكعبة ، بأن أسكره ثم اشترى منه المفاتيح بزق خمر
وقعود ، وأشهد عليه (١)

(٢)

وفى ذلك يقول الشاعر :
بَاعَتْ خَزَاعَةُ بَيْتَ اللّٰهِ إِذْ سَكِرَتْ بِزِقِ خَمْرٍ فَبَيْتَتْ صَفْقَةَ الْيَأْدِي
بَاعَتْ سَدَانَتَهَا بِالْخَمْرِ وَأَنْقَرَضَتْ عَنِ الْمَقَامِ وَظِلَّ الْبَيْتِ وَالنَّارِي
وقد بات العرب يتندرون بهذه الصفقة ، ويقولون : " أخس من صفقة
أبى غبشان " (٣) .

ولما غضبت خزاعة ، وقالت : " لا ترضى بما صنع أبو غبشان " لم
تجد من يناصرها على قريش ، وفى ذلك يقول بعضهم (٤)

أَبُو غَبْشَانَ أَظْلَمَ مِنْ قَصِيٍّ وَأَظْلَمَ مِنْ بَنِي فِهْرِ خَزَاعَةَ (٥)
فَلَا تَلْحَوْهُ أَقْصِيًّا فِي سِرَاهُ وَلَوْ مَوَّأَ شَيْخُكُمْ إِذْ كَانَ بَاعَهُ (٦)

وظلت ولاية البيت فى قريش حتى جاء الله بالاسلام ، ورفرفت راياته
على مختلف أنحاء الجزيرة .

ولعلنا نستشف من هذا التسلسل التاريخي ، أن القبائل العربية
ظلت فى الجاهلية تتناقل حب البيت الحرام ، وتعظيمه وتقديسه ،
بقيّة من دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، بل لقد ظلت كذلك تحتفظ

- (١) انظر الدرّة الفاخرة للاصبهانى ١٣٩/١ ، وتاريخ اليعقوبى ٢٣٩/١
- (٢) الدرّة الفاخرة للاصبهانى ١٣٩/١ (٣) تاريخ اليعقوبى ٣٣٩/١
- (٤) المصدر السابق ٣٣٩/١ - ٢٤٠
- (٥) بنو فهر هم قريش ، نسبة الي أحد أجدادهم ، وقدينسبون الي قصى نفسه ، كما
قال ابن الزبير "الهي قصيا عن المجدد لاساطير" ويعنى قريشا
- (٦) لحا الرجل أخاه يلحاه - لحوا : شتمه أولامه وعذله (انظر اللسان لحا)

بأمور كثيرة ، من معتقداتها الدينية ، بقية من ذلك الدين .

ولسائل أن يسأل : هل كان العرب - كل العرب ، أوجتى أكثر العرب ، يلتزمون هذا الذى ورثوه عن أبويهم الكريمين؟! أم أنهم كانوا جميعا يلتزمون بعضه ، وأن قليلا منهم - من كان يلتزم أكثره ، وأن النادر منهم ، من كان يلتزمه كله؟!!

ونحن نرجى الجابة عن هذه الأسئلة ، اليا بعد الحديث عن أثر الديانتين ، اليهودية والنصرانية ، فى معتقدات العرب الدينية فى الجاهلية .

وسنجيب عن تلك الأسئلة ، ان أعان الله وشاء ، ونحن نتحدث عن الفئة التى عرفت بين العرب فى الجاهلية - بالحنفاء .

*

*

اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب :

ليس المجال هنا - فى الحقيقة - مجال تأريخ لوجود الديانتين اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، ولكنه مجال استنطاق النصـوص الشعرية الجاهلية ، عما قد يكون أهل تينك الديانتين ، قد تركوه من آثار على معتقدات العرب فى الجاهلية .

اذ المعروف الذى لايشك فيه ، أن الديانتين قد عرفتا عند القبائل العربية فى العصر الجاهلى ، بل وقد انتشرت فى بعضهم ، وأثرتا فيهم بشكل أو بآخر .

* أما فيما يختص باليهودية :

فيقول الدكتور جواد على فى كتابه " المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام " (١) " وقد عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم فى الشعر الجاهلى ، لأنهم كانوا - كما سنرى - يسكنون فى مواضع عديدة معروفة تقع ما بين فلسطين ويشرب ، كما سكنوا فى اليمن وفى اليمامة وفى العروض وكان تجار منهم يقيمون فى مكة ، وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب للتجار واقراض المال برىبا فاحش للمحتاجين اليه " .

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٥١٧٦

أما من أين جاءت اليهودية الى بلاد العرب ، فيقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى " دائرة معارف القرن العشرين " (١) " فان السريانيين واليونان ، طردوا اليهود من بلادهم ، فقابلهم بنواسماعيل بالترحيب وتهود منهم كثير ، لما رأوه فى كتب اليهود القديمة ، من تعظيم للاله الذى اهتدى الخليل (عليه السلام) الى عبادته (سبحانه) .

وانتشر هذا الدين بالجهات ، لاسيما الحجاز ونواحي خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ، ذوات الشوكة المتأصلة هناك من زمن مديد كما اشتهر بجزء عظيم من قبائل اليمن ، بعد أن نقله التبابعة الى ممالكهم فى سنة ٢٢٥ و ٣٠١ و ٤٩٥ بعد الميلاد .

ويقول الدكتور اسراييل ولفنسون ، فى كتابه " تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدرا الاسلام " ، فيما نقله عنه العلامة ابو الحسن الندوى فى كتابه السيرة النبوية (٣) : " بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة من اليهود ، بلاد العرب ، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى - يوسى فوس - الذى شهد تلك الحروب ، وكان قائدا لبعض وحداتها " .

(١) دائرة معارف القرن العشرين - بعث -

(٢) السيرة النبوية لآبى الحسن الندوى ص ١٤٥ - ١٤٦ .

وهكذا انتشر بعض اليهود فى الجزيرة ، وكانوا ينتجعون مواطنى
المياه والعيون ، وهناك يحطون الرحال ، ويبنون الحصون والقلاع ، لحماية
أنفسهم وأرضهم وزروعهم من اعتداء الأعراب عليهم (١)

وقد كان لهم فى الوصول الى مآربهم من الاستقرار من ناحية ،
وكسب العرب من حولهم من ناحية أخرى ، حيل كثيرة . منها اتفاقهم مع
رؤساء القبائل الساكنة فى جوارهم ، على دفع الاتاوات ، وتقديم الهدايا
لاسترضائهم وكسب تأييدهم . (٢)

ومنها التحالف مع القبائل ، للاستئجار بها ، والاحتما من
غضباتها . يقول ابن تيمية : (٣) " وكانوا يحالفون العرب ، فيحالف كل
فريق فريقا ، كما كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج"
ومنها كذلك التفريق بين الرؤساء ، وإثارة ما بين القبائل من
زعات وشحناء ، حتى لا تصفوا الاحوال ، أو يحدث اتفاق بين القبائل ، لئلا
يكون فى ذلك الاتفاق خطر على اليهود - كما كانوا يظنون - (٤)

ومنها الحيلة والتأثير والضغط بشكل أو بآخر ، على بعض
الزعماء ، لكسبه الى جانبهم ، والتكليل بواسطته بمن يناوئهم أو يناصبهم
العداء . وخير دليل على ذلك ما فعلوه مع ذى نواس فى اليمن . يقول الدكتور

(١) انظر المفصل فى تاريخ العرب - جواد على - ٥١٦/٦

(٢) انظر المصدر السابق ٥١٦/٦

(٣) التوسل والوسيلة لابن تيمية ص ١١٦

(٤) انظر المفصل فى تاريخ العرب - جواد على - ٥١٦/٦

(١)

شوقى ضيف فى كتابه (العصر الجاهلى) :
 " وقد استطاع يهود اليمن ، فى أوائل العصر الجاهلى ، أوبعبارة
 أخرى ، فى أوائل القرن السادس الميلادى ، أن يؤثروا فى ملك من ملوك
 التبابعة هو ذو نواس ، وأن يدخلوه فى دينهم . وقد دفعوه دفعا الى التنكيل
 بنصارى نجران ، وتحريقهم . وفى ذلك نزلت الآيات الكريمة : " قُتِلَ
 أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ . النَّارُ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا
 يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَمِيدِ " . (٢)

هذا وقد انتشرت اليهودية ، كما ذكر المؤرخون ، فى بعض القبائل
 العربية نفسها . كحمير وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكنسدة ،
 وغان . (٣) قال اليعقوبى فى تاريخه (٤) " ثم دخل قوم من العرب
 فى دين اليهود "

ثم قال (٥) " فأما من تهود منهم ، فاليمن بأسرها ، كان تبع
 حمل حبرين من أخبار اليهود الى اليمن ، فأبطل الأوثان ، وتهود من ياليمن
 وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن ، لمجاورتهم يهود خيبر
 وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب ، وقوم من غسان ،
 وقوم من جذام " .

(١) العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ٩٧

(٢) سورة البروج الآيات ٤ - ٨

(٣) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٢١ ، والبصائر والنخائر لأبى حيان

التوحيدى ٢/٤٥ ، والبدء والتاريخ لابن طاهر المقدسى ٣٧٤

(٤) تاريخ اليعقوبى ١/٢٥٧

(٥) المصدر السابق ١/٢٥٧

نعم ، لقد تهود بعض القوم ، ^سإمّا عن رغبة منهم ، أو بحكم
النشأة فى البيئة اليهودية ، أو بتأثير المصاهرة والزواج . ومن أوضح
النماذج على ذلك كعب بن الأشرف ، التاجر الكبير ، والشاعر المشهور ، فهو
أصلاً من قبيلة طيء ، تزوج أبوه فى بنى النضير ، فنشأ كعب هذا يهودياً
متحمساً . (١)

ومن العجيب أن تؤثر هذه القبائل العربية فى اليهودية ، أكثر مما
تتأثر بها . يقول الدكتور جواد على : (٢) " ويلاحظ أن يهود الجاهلية ، لم
يحافظوا على يهوديتهم ، وعلى خصائصهم التى يمتازون بها ، ويحافظون
عليها محافظة شديدة ، كما حافظوا عليها فى الأقطار الأخرى . فأكثر أسماء
القبائل والبطون والأشخاص ، هى أسماء عربية ، والشعر المنسوب الى شعراء
منهم ، يحمل الطابع العربى ، والفكر العربى " . ويتابع الدكتور جواد على
قوله ، فيقول : " وفى حياتهم الاجتماعية والسياسية ، لم يكونوا يختلفون
اختلافاً كبيراً عن العرب ، فهم فى أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين .
ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم ، وكثرتهم بالنسبة الى من
كان من أصل يهودى . مما سبب تأثيرهم وهم ذوو أكثرية فى اليهود الاميلين
الذين أثروا فيهم فأدخلوهم فى دينهم ، فأثروا هم وطبعوهم بطابع
عربى " . (٣)

(١) انظر السيرة النبوية لابي الحسن الندوى ص ١٣٧

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٣٧٦

(٣) المصدر السابق ٥٣٧٦ - ٥٣٢

ولعل هذا هو ما جعل المؤرخين ليهود أنفسهم - كالـدكتور اسراييل ولقنوس- فيما ذكر الدكتور جواد على^(١) - يرون " أن يهود جزيرة العرب ، كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال ، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن يهود الجزيرة العربية مثلهم في العقيدة ، بل رأوا أنهم لم يكونوا يهودا ، لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ، ولم يخضعوا لأحكام التلمود " (*)

من هذه العجالة التاريخية ، عن اليهود في بلاد العرب أيام الجاهلية ، نستطيع أن نستنبط أنه كان لهم أثرما ، في معتقدات القوم مهما يكن ذلك الأثر ضعيفا ، فها هو ذا السموءل بن عاديا ، الشاعر اليهودي المعروف يقول :^(٢)

نُطِفَةٌ مَا مَنِيَّتْ يَوْمَ مَنِيَّتْ أُمِرَتْ أَمْرَهَا وَفِيهَا بَرِيَّتْ
كُنَّهَا اللَّهُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ وَخَفِيَ مَكَانُهَا لَوْ خَفِيَّتْ
مَيْتَ نَهْرٍ قَدْ كُنْتُ ثُمَّ حَيِّتْ وَحَيَاتِي رَهْنٌ بِأَنْ سَأْمُوتْ

ثم يقول :^(٣)

لَيْتَ شِعْرِي ، وَأَشْعُرَنَّ إِذَا مَا قَرَّبُوهَا مَنشُورَةً وَدَعِيَّتْ
إِلَى الْفَضْلِ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حَوَّ سَبَّتْ إِيَّايَ عَلَى الْحَسَابِ مُقْبِيَّتْ

فهذه النطقة التي هي أصل الانسان ، والتي أراد الله أن تكون في

مكان خفي ، وقرار مكين ، ابتداء بصلب أبيها وانتهاء برحم أمها ،

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥١٥/٦
(٢) ديوانا عروة بن الورد والسموئل ص ٨١ (٣) المصدر السابق ص ٨١
(*) تيسر لي - وصفحات هذه الرسالة ماثلة للطباعة - الاطلاع على هذا

الرأى عند صاحبه الدكتور اسراييل ولقنوس في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب ، طبع القاهرة ١٩٢٧م - ص ١٣ .

وهذا الايمان بالقدر المحتوم ، وبالموت الذى هو نهاية كل انسان
طالت به حياته أم قصرت ، وهذا الايمان بالبعث والحساب ، وهذا التصوير
لمشهد من مشاهد القيامة ، والصحف تنشر على الناس ، ويدعى كل منهم الى
قراءة ما فى صحيفته ..

كل هذا وغيره من معتقدات ، كان بالطبع قد وصل الى السموءل من
ديانة قومه . ثم إن شعر السموءل كان معروفا بين العرب فى الجاهلية
بل وكانوا يتناقلونه ويتناشدونه . أفيعقل إن الأيتأتأثروا بما فيه من
معتقدات ، بشكل أو بآخر؟!!

وقد التفت علماؤنا الأفاضل الى ذلك الأمر ، فوضعوا أيديهم عليه
ونبهوا من جاء من بعدهم اليه . يقول الأصفى فى فحولة الشعراء ^(١) :
" جامع زهير قوما من يهود ، أى قاربهم ، فسمع بذكر المعاد ، فقال فى
قصيدته :

يُوخِرُ فَيُوضِعُ فِي كِتَابٍ فَيُنْخِرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجِّلُ فَيُنْقِمُ ^(٢)
ويقول ابن سلام فى " طبقات الفحول " ^(٣) . " وكان أمية بن أبى الصلت كثير
العجائب . يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر
من ذلك ما لم يذكره أحسن الشعراء . وكان قد شام أهل الكتاب ^(٤) "

(١) فحولة الشعراء للأصفى ص ١٧ (٤) البيت معروف النسبة لزهير انظر
(٣) طبقات فحول الشعراء - لابن سلام ٢٦٢/١ - ٢٦٣ ديوانه ص ١٨

(٤) يقال: شامت فلانا ، إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختبار والكشف .
- اللسان شمس -

ولم يقتصر التأثير بمعتقدات اليهود على زهير بن أبي سلمى ، أو أمية بن أبي الصلت . ولكنه تعداهم الى غيرهم من شعراء الجاهلية . ذكر العلماء أن الخطيئة كان واحدا منهم . فقد حكى أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه ، عن عثمان بن أبي عائشة أنه قال : سمع كعب الخبز رجلا ينشد بيت الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعمِدُ جَوَازِيَهُ لَا يَنْهَبُ الْعَرْفَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ (١)
والذي نفسى بيده ، ان هذا البيت لمكتوب في التوراة (٢)

وذكر أبو الفرج في موضع آخر قال: (٣) " أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه ، عن أبي عبيدة قال : بلغني أن هذا البيت في التوراة ، ذكره غير واحد عن أبي كعب "

ثم روى أبو الفرج عن بعض العلماء قال: (٤) " والذي صح في التوراة : لا ينهب العرف بين الله والعباد . "

يمثل هذه المعتقدات وبغيرها ، أثر اليهود في معتقدات الجاهليين ولكنه يظل تأثيرا محدودا ، اذا ما قيس بتلك المعتقدات الدينية الكثيرة التي كانت منتشرة بين العرب . بل انه يظل محدودا أيضا ، اذا ما قيس بما وجد في الشعر الجاهلي من اشارات للنصارى ومعتقداتهم .

(١) البيت في ديوان الخطيئة ص ٢٨٤ (٢) الاغانى مدار الثقافة ١٤٦/٢

(٣) المصدر السابق ١٤٥/٢ (٤) المصدر السابق ١٤٦/٢

والسبب في ذلك يرجع الى اليهود أنفسهم من ناحية ، والى العرب من ناحية أخرى . أما اليهود فاقراً عن تسببهم في ذلك قول أحد مؤرخيهم المعاصرين . وهو الدكتور اسرائيل ولقنسون ، فيما نقله عنه الأستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه " السيرة النبوية " اذ يقول :^(١)

" لاشك أنه كان في المقدرة اليهودية ، أن تزيد في بسط نفونها الدينية بين العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه ، لو توافرت عند اليهود ، النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة . ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود ، يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام ، الى ارغام الأمم على اعتناق دينها . وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه ، محظور على اليهود " ^(٢)

هذا من ناحية اليهود ، أما العرب ، فقد كرهوا اليهود هذذ عرفوهم . كرهوا فيهم " الأثانية ، والزهو والتيجح ، والترفع عن الغير ، واعتبارهم أنفسهم فوق الناس ، وعدم الاندماج الصادق مع أحد ، وعدم الولاء الصادق لأحد .^(٣)

(١) السيرة النبوية ص ١٥٠ ، والنص مأخوذ من كتاب " تاريخ اليهود في بلاد العرب - لاسرائيل ولقنسون - طبع القاهرة ١٩٢٧ ص ٧٢ - كما هو

مثبت في هامش ص ١٥٠ من السيرة النبوية لأبي الحسن الندوى .
(٢) لقرئيشري الطلاع على نسخة من الكتاب المنقول عنه هذا النص ، بعد طبع هذا البحث .

(٣) تاريخ بنى اسرائيل - محمد عزة دروزة - ص ٤٣٨

وكرهوا فيهم " التزليل والتدليس ، والدس والشره الشديد الى
ما فى أيدى الغير ، والحسد الشديد لهم ، ولو تمتعوا أنفسهم بأوفر النعم " (١)
وكرهوا فيهم " اللعب فى وقت واحد على كل حبل ، وفوق كل مسرح ، واستحلالهم
لما فى أيدى الغير " (٢)

وكرهوا فيهم " اندماجهم فى كل موقف مهما دنو وفجر ، وكان فيه كفر
وفسق ، وخيانة وغدر ، فى سبيل الزكايه بهن ينا وئونه ، ونقضهم لمبادئ
دينهم فى سبيل مكايده " (٣)

وكرهوا فيهم " عدم تقيدهم بأى عهد ووعده وميثاق وعدل وواجب وأمانة " (٤)
كما كرهوا فيهم " تشجيعهم لكل حاقد وفساد ومنافق وساس ومتآمر " (٥) . وكل
هذا فى سبيل التهديم " من ناحية ، " وشفاء لداء الحسد والحقد والخداع
المتأصل فيهم " من ناحية أخرى " (٦)

تلك هى أخلاق اليهود بصفة عامة ، ويهود الجزيرة العربية فى ذلك
الزمان بصفة خاصة . والعجيب أنها أخلاقهم حتى اليوم ، مع توسع فى
الغايات الخبيثة الجهنمية ، وتنوع فى الأساليب الشيطانية .
أفتريد من شعراء الجاهليين - بعد هذا - أن يتأثروا بمعتقدات
القوم ، أكثر مما تأثروا !!؟

-
- (١) تاريخ بنى اسرائيل - محمد عزة دروزة ص ٤٣٧
(٢) المصدر السابق ص ٤٣٨ (٣) المصدر السابق ص ٤٣٨
(٤) المصدر السابق ص ٤٣٩ (٥) المصدر السابق ص ٤٣٩
(٦) المصدر السابق ص ٤٣٩ .

أما فيما يختص بالنصرانية :

فقد وُجِدَتْ هي الأخرى في بلاد العرب ، في العصر الجاهلي . غير أنها لم تدخل الجزيرة بالهجرة - كما كان الشأن مع اليهود - ، ولكنها دخلتها بالتبشير والتجارة ، وتجارة الرقيق الأبيض بالذات (١)

كما دخلتها عن طريق بعض الرهبان والنسك ، الذين لجأوا الى الجزيرة ، ليعيشوا بعيدين عن ملذات الدنيا (٢)

ولم يكن رهبان النصارى وهم يبشرون بدينهم ، متزمتين كأخبار اليهود ، ولكنهم كانوا أوسع أفقا وأكثر تسامحا وأقل تزمتا . إذ أنهم لم يفرضوا على من يتبعهم قيودا تضبط حركاته وسكناته ، أو فروضا تثقل كواهلهم ، كما كان يفعل اليهود .

ولذلك فقد رغب كثير من العرب في النصرانية ، فدخلت فيها بعض قبائلهم . ومن تلك القبائل كما يذكر المؤرخون " ربيعة وغان وبعض قضاة " (٣) ومنها كذلك قوم من قريش ، وبعض من تميم (٤)

والأدلة على ذلك كثيرة ، سواء من الحواث التاريخية أو من الشواهد الشعرية الجاهلية . فقد ذكر المؤرخون أن القبائل العربية عندما أخذت وفودها تُرْمَلُ بالمدينة ، لتعلن إسلامها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، كان رئيس وفد عبد القيس - مزبيعة - نصرانيا . (٥)

- (١) انظر المفصل في تاريخ العرب - جواد على - ٥٨٧/٦
 (٢) انظر المصدر السابق ٥٨٧/٣
 (٣) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٢١ ، والبدء والتاريخ لابن طاهر المقدسي ٣٧٤ ، والبصائر والتخائر لابي حيان ٤٥/٢ ، وتاريخ بن خلدون ١٠٤/٢
 (٤) انظر تاريخ يعقوبى ١ ٢٥٧/ (٥) تاريخ بن خلدون ١٠٤/٢

وذكر ابن تيمية كذلك في الجواب الصحيح (١) ، أن رئيس وفد
نجران كان نصرانيا . وقد فدعلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرتجزه :
إِلَيْكَ تَغْدُو قَلْبًا وَضِيْنَهَا (٢) مُعْتَرِضًا فِي بَطْنِهَا جَنِيْنَهَا
مُخَالِفًا دِيْنِ النَّصَارَى دِيْنَهَا

بل لقد كان بعض شعراء القوم يتباهون بنصرانيتهم ، يقول خرطوم الحباري
أحد بني نهل بن شيبان - من ربيعة (٣)
وَمَا ذَنْبَنَا فِي قَوْمِنَا غَيْرَ أَنَّا زَكَوْطُنَا زَرْعَ الْمَسِيْحِ بْنِ مَرْيَمَ
ومما لاشك فيه أن النصاري من العرب - كما يذكر المؤرخون (٤) ، كانوا يحترمون
رجال الدين منهم ، ويتقربون اليهم ، ويتبركون بهم ، حتى كان الصبيان
منهم اذا نزل الراهب من صومعته ، أحاطوا به فرحين ، وتجاذبوا ثيابه
متبركين ، حتى إنهم ليمزقوا ثيابه عليه .

يقول امرؤ القيس ، وهو يصف ما فعلت الكلابها لحمار الوحشي (٥)
فَادْرَكْنَهُ يَأْخُذُنِ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبْرَقُ الْوَلْدَانِ ثَوْبَ الْمُقْلِسِ
قال صاحب التاج في المقدس : " هو الراهب ينزل من صومعته الى بيت المقدس
فيمزق الصبيان ثيابه تبركابه " (٦)

- (١) الجواب الصحيح لابن تيمية ٥٨٧١ والرجز في اللسان - وضم - .
(٢) الوضين سير من جلد تشد به اليهودج والرجال ، (اللسان وضم) ، أراد أنها
قد هزلت ودقت للسير عليها ، فأصبحت وضمها تتحرك من هزالها .
(٣) الموتلف والمختلف للامدي ص ١٦١
(٤) انظر المفصل في تاريخ العرب - جواد على - ٦٥٨٧
(٥) ديوان امرؤ القيس ص ١٠٤ (٦) تاج العروس - شبرق

وقال ابن قتيبة في « المعاني الكبير » بعد أن روى بيت امرئ القيس : « كان لراهب ينزل فيذهب الى بيت المقدس ، فيتمسح به الصبيان حتى يمزقوا ثيابه » (١) .

هذا وقد اشتهر من بين نصارى العرب ، قوم عرفوا بالعباديين أو العباد ، وهم - كما يذكر ابن منظور في اللسان (٢) - قوم من قبائل شتى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية ، فأنفوا أن يتسموا بالعبيد ، وقالوا : نحن العباد . وقد استوطن أولئك القوم الحيرة ، ونبغ ممن بينهم أهم شعراء النصارى العرب في ذلك الزمان ، وهو عدى بن زياد العبادي .

وانعشرت آثار النصارى في الشعر الجاهلي ، كما لم تنتشر آثار اليهود . وعرف الشعراء الجاهليون كثيرا من طقوس عباداتهم وأسمائها وضمنوها أشعارهم - كما لم يفعلوا مع اليهود . وذلك لمخالطتهم للنصارى ، أكثر من مخالطتهم لليهود .

فقد ذكروا الحبر والراهب ، والمتبتل والصورة ، والإبيل والابيل ، وغير ذلك من الأسماء والصفات ، التي تطلق على رجال الدين عند النصارى .

(٣) ففي الراهب المتبتل يقول امرؤ القيس :

تُضِيءُ الظَّلامَ بِالْعِشاءِ كَأَنَّها مَنارةٌ مُمسِي رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ

(١) المعاني الكبير لابن قتيبة ٧٦٤/٢

(٢) اللسان - عبيد

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٧

ويقول: (١)
يُنِي سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيْطُ فِي الذَّبَالِ الْمَفْتَلِ

وفي الأخبار والرهبان يقول النابغة الجعدي: (٢)
وَطُوْفَتْ فِي الرُّهْبَانِ أَعْبَرُ دِينَهُمْ وَسِيْرَتْ فِي الأَخْبَارِ مَا لَمْ تَسِيْرَا

وفي الراهب الصرورة يقول النابغة: (٣)
لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدًا لِإِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدٍ

وفي الأبيلى يقول الأعشى: (٥)
وَمَا أَهْبَلِي عَلَى هَيْكَلٍ بِنَاهُ وَصَلَبِ فِيهِ وَمَصَارِي (٦)
بُرَاوِحٍ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ ، طَوْرًا جُودًا وَطَوْرًا جُورًا

وفي الأبيلى يقول الأعشى: (٧)
فَأَنَّى وَرَبِّ السَّاجِدِينَ عَشِيَّةً وَمَا صَكَ نَاقُوسِ النَّصَارَى أَبْيَلَهَا (٨)

ويقول الخمر: (٩)
وَمَا سَبَّحَ الرُّهْبَانَ فِي كَلْبِيَّةٍ أَبْيَلِ الأَبْيَلِينَ لَسِيحِ بَنِي مَرْيَمَا

بل وحتى ثياب الراهب السوداء قد عرفها القوم وذكروها في أشعارهم
يقول أحد الهذليين يصف ضاعا: (١٠)

سُوْدٌ سَحَالِيْلٍ كَانَ جُلُوهُنَّ ثِيَابَ رَاهِبٍ (١١)
بل وقد اعتبروا ثياب الراهب شيئا مقدسا ، فجعلها الأعشى نظيرة الكعبة
في قسمه إذ يقول: (١٢)

فَأَنَّى وَثَوْبِي رَاهِبِ اللُّجِّ وَالتِّي بَنَاهَا قَمِي وَالْمَضَامِرُ مِنْ جَرْمِ

(١) ديوانه ص ٢٤ (٢) ديوانه ص ٣٦ (٣) ديوانه ص ٣٣

(٤) الصرورة الذي ترك النساء (اللسان - صرر) (٥) ديوانه ص ١٠٣

(٦) الأبيلى والأبيلى هو صاحب الأبيلى وهي عما الناقوس ، ويعنى

به الراهب (انظر المعرب للجوااليقي ص ٢٩) (٧) ديوان الأعشى ص ٢٢٧

(٨) الأبيلى الراهب - فارسي معرب - انظر المعرب للجوااليقي ص ٢٩

(٩) هو عمرو بن عبد الجن التنوخي كما ذكر أبو طاهر التميمي في كتابه

المسلسل في غريب لغة العرب ص ١٦٦ (١٠) ديوان الهذليين ٨٠ / ٢

(١١) سحاليلى تعنى قليلات الشعر ، أو مسرعات نشيطات ، أو الأمرين

معا ، (انظر القاموس المحيط - مطبعة السعادة - ٣٩٤ / ٣ - فصلا السين

باب اللام ، وأساس البلاغة ص ٢٨٤ - سحل) (١٢) ديوان الأعشى ص ٢٢٥ .

كما ذكروا البيعة والصلبان والهيكل والدارات والنواقيس، وهي من أمكنة العبادات وأدواتها عند القوم . ففي البيعة - غير ما ذكرنا - يقول ورقة بن نوفل :^(١)

أَقُولُ إِذَا صَلَّيْتُ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ تَبَارَكْتَ قَدًا كَثُرَتْ بِاسْمِكَ دَاعِيَا^(٢)
وفي الدارة يقول النابغة الجعدي^(٣) :

وَمَا زِلْتُ أَسْمَى بَيْنَ بَابٍ وَدَارَةٍ بِنَجْرَانٍ حَتَّى خِفْتُ أَنْ أَتَنَصَّرَا
وفي البيعة والصلبان يقول بشر بن أبي خازم - وذكر قوما عرجانا^(٤)

إِذَا غَدَوْا وَعَصَى الطَّلْحِ أَرْجُلَهُمْ كَمَا تَنْصَبُ وَسَطَ الْبَيْعَةِ الصَّلْبُ
وذكر الشعراء الجاهليون أيضا البرانس والجلابيب، وهي ملابس النصرانيات

في ذلك الزمان . تقول إحداهن :^(٥)

تَمْشِي النَّسُورَ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى الْعِذَارَى عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيْبُ
ويقول المهلهل، وهو يرثى كليبا :^(٦)

وَإِذَا تَشَأُّرَأَيْتَ وَجْهًا نَاعِمًا وَذِرَاعَ بَاكِيَةٍ عَلَيْهَا بَرْنَسُ

قال النهشلي في اختيار الممتع :^(٧) " قوله : وذراع باكية عليها برنس يعني أنهن كنن نصارى يلبسن البرانس ."

(١) الأغانى - دار الثقافة - ١١٩/٣

(٢) يقول لقد خلقت كثيرًا من المخلوقات التي تسبح باسمك

(٣) ديوان النابغة الجعدي ص ٦١

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٢٦

(٥) هي أخت ذى الكلب، كما ذكر ابن المظفر الحاتمي في حلية المحاضرة

(٦) ١٧٩/١ (٦) اختيار الممتع ص ١٦٠

(٧) المصدر السابق ص ١٦٠

كما ذكر الشعراء الجاهليون بعض كتب النصارى ، وبعض أعيانهم ،
لما عرفوه عندهم من مجاورتهم لهم واختلاطهم بهم . فمن الكتب ما كنى عنه
النابغة الذبياني بالمجلة حين قال : (١)

مجلتهم نأت الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

ومن الأعياد الفصح والسباسب . أما الفصح فهو معروف الى اليوم ، وفيه
يقول أوس بن حجر : (٢)

عليه كمصباح العزيز يشبه الفصح ويحشوه الذبال المفتلا

ويقول الأعشى : (٣)

بهم تقرب يوم الفصح ضاحية ير جوا إله بما سدى وما سنعنا

وأما السباسب ، فهو ما يعرف عندهم بالسعانيين ، وفيه يقول النابغة : (٤)
رقاق النعال طيب جزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب (٥)
قال ابن منظور في اللسان : " ويوم السباسب عيد للنصارى ، ويسمونه يوم

السعانيين " (٦) .

وما دام الشعراء الجاهليون قد عرفوا كل ذلك من معتقدات
النصارى ، وطقوس عباداتهم ، وأسماء أمكنتها وأدواتها والقائمين عليها
فهل هناك ما يمنع من أن يكونوا قد تأثروا في معتقداتهم الدينية ببعض
أفكارهم ؟!

(١) ديوان النابغة ص ٥٦ - على إحدى الروايات

(٢) ديوان أوس بن حجر ص ٨٤

(٣) ديوان الأعشى ص ١٦١

(٤) ديوان النابغة ص ٦٣

(٥) الحجزة - كالحجرة - هي معقد السرور والازار من الانسان ، والجمع حجرات
وقول النابغة إشارة الى فروج القوم ، يريدانهم اغفاء عن الفجور (انظر اللسان
حجزة)

(٦) - اللسان سباسب -

لقد كان النصارى يبذون للخطايا ، ويطعمون فى منفرة الله ، يقول

عدى بن زيد: (١)

رَحِمَ اللهُ مِنْ بَكَى لِلْخَطَايَا كُلُّ بَاكٍ فذَنْبُهُ مَغْفُورٌ

وكانوا يعرفون الجنة والنار ، يقول عدى بن زيد أيضا : (٢)

أَعَاذِلُ مَنْ قَدَّتْ لَهُ النَّارُ يَلْقَاهَا كِفَاحًا ، وَمَنْ يَكْتُبُ لَهُ السَّعْدُ يَسْعُدُ

كما كانوا يوقنون بالفناء الذى سيلحق بالعباد ، يقول عدى بن زيد: (٣)

لَا أَرَى حِصْنًا يُنَجِّى أَهْلَهُ كُلُّ حَيٍّ لِفَنَاءٍ وَنَفْسٌ

أهناك ما يمنع من أن تكون مثل هذه الأفكار والمعتقدات التى عبر عنها عدى ابن زيد ، الشاعر النصرانى المعروف - قد تسربت الى أقرانه من الشعراء الجاهليين ، وشاعت فى مجتمعهم !

وقد ضربنا عدى بن زيد وشعره مثلا على شيوع تلك الأفكار والمعتقدات بين العرب فى الجاهلية ، لأن شيوعها بالشعر ، كان بلا ريب - أكثر بكثير من شيوعها بالكتب أو بالوعظ والتبشير .

وهناك أمثلة شعرية كثيرة على انتقال أفكار النصارى - الى

الجاهليين وشيوخهم فىهم . تقول الخرنق بنت بدر بن هفان - وهى من ربيعة

التي فشت النصرانية فيها: (٤)

أَلَا لَاتَفْخَرَنَّ أَسَدٌ عَلَيْنَا بِيَوْمٍ كَانَ حِينًا فِي الْكِتَابِ

ويقول عامر بن صعصعة الفقعسى: (٥)

وَكُلُّ ذِي غَايَةٍ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ وَالْخَيْرُ وَالسَّرْفِيُّ الْأَلْوَا حِ مَكْتُوبٌ

(١) ديوان عدى بن زيد ص ٨٦ (٢) المصدر السابق ص ١٠٣

(٣) المصدر السابق ص ٤٣

(٤) ديوان الخرنق ص ٣٣ (٥) حلية المحاضرة ١/٢٤٢

فمن أين عرف هؤلاء الشعراء الدُّتَابَ ، والألواح ، ان لم يكونوا قد تأثروا بما كان عندا لنصارى من معتقدات؟!؟

بل لقد بين العلماء ذلك حين ذكروه صراحة عند بعض الشعراء الجاهليين . ذكر أبو الفرج الأصفهاني ، في أغانيه ، أن راوية الأعشى قال :
" وكان الأعشى قديرا حيث يقول :

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْلِ وَوَلَّى الْمَلَمَةَ الرَّجُلَ

قال سيّاك بن حرب : فقلت له : من أين أخذ هذا؟! فقال : أخذه من أساقفة نجران ، وكان يعود في كل سنة الى بنى عبد المداّن ، فيمدحهم ، ويقيم عندهم . ويشرب الخمر معهم ، وينالهم . ويسمع من أساقفة نجران . فكل شئ في شعره من هذا ، فمنهم أخذه " (١)

تلك هي بعض آثار معتقدات النصارى في عرب الجاهلية ، كما تنطق به النصوص الشعرية . واذ كان العرب - أكثر العرب - قد تأفخوا عن التشبيه باليهود ، معتقدات ومسلكا - كما رأينا ، فقد ترفع كثير منهم أيضا عن التشبيه بالنصارى ، وان كان لترفعهم هنا ، أسباب مختلفة عن أسباب تأفهم هناك وقد عرفنا أسباب تأفهم عن التشبيه باليهود . فما هي الأسباب التي جعلتهم يترفعون عن التشبيه بالنصارى؟!؟

لعل من أهم تلك الأسباب ، أن بعض الرهبان قد وصل بهم الأمر الى إساءة التصرف في الأموال التي كانت تقدم الى الدير والهيكل والبيع ، فأصبحوا يعيشون بها ، كما يذكر المورخون ، "عيشة مترفة ، لا تتفق مع ما ينادون به من التقشف والزهد والعبادة" . (٢)

(١) الأغاني - دار الثقافة - ٤٣/١٢

(٢) المفصل في تاريخ العرب - جواد علي - ٦٤٣/٦

وصدق الله العظيم ، حين يصفهم بذلك فيقول : (١) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَعْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ، لِيَأْكُلُوا مَوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... »

كما وصل الأمر ببعض الرهبان الى الترفع عن الناس ، والتكبر عليهم
 " حتى جعلوا أتباعهم يحيطونهم بهالة من التقديس والتعظيم ، الى درجة
 صيَّرتهم أربابا على هذه الأرض " (٢)

فأحلوا للقوم ما حرم الله ، وحرموا عليهم ما أحل . وكان أتباعهم
 يطيعونهم في ذلك طاعة غير راشدة ، بل لقد وضعوا عيسى عليه السلام في
 موضع لا يليق الا بالله - جل شأنه - وأطاعهم القوم في ذلك أيضا .

وصدق الله العظيم اذ يقول : (٣) « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
 أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ... »

واتخاذ المسيح عليه السلام ، الهامن دون الله ، أو تسميته ابنا
 لله - ، تعالى الله عن ذلك وتنزه سبحانه - أمر في غير حاجة الى دليل
 فهو من الترهات التي يهذى بها النصارى حتى اليوم . أما اتخاذ الأعبار
 والرهبان أربابا من دون الله ، فمعناه طاعتهم العمياء فيما حرّموا من
 الحلال وأحلوا من الحرام .

(١) التوبة ٣٤ (٢) المفصل في تاريخ العرب - جواد على - ٦٤٣/٦

(٣) التوبة ٣١

ودليله حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه . فقد دخل على النبى
صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ " ، فتعجب عدى من ذلك ، لأنه لم يدرك المراد من الآية الكريمة ،
حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما روى عدى نفسه : " (١) أَمَا
إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ
وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ " . فعرف عدى أن طاعتهم فى ذلك هى بمثابة
عبادتهم لهم ، واتخاذهم اياهم أربابا من دون الله .

ولم يقف الأمر بترهات الرهبان وصرعاتهم عند حد ، فقد بالغ
بعضهم فى الترهب والتزهد " فخصى نفسه ، ووضع السلاسل فى عنقه ، وأوفى
بيديه وأوفى رجليه ، ليحبس نفسه ، وامتنع عن المآكل والأطياب ، مكتفيا
بقليل من الماء ، وبشيء من الخبز الخشن " (٢) .

وكان منهم كذلك من هجر هذه الدنيا ، وهجر من فيها من الناس
و " امتنع عن الكلام ، وصام معظم أوقاته ، وأابتعد عن الناس ، متخذا من
الكهوف والجبال ، والمواضع النائية الخالية ، أماكن للتأمل والتعبد (٣)
وكل هذه الأعمال بالطبع ، لم يكن يعجب العرب فى الجاهلية . وكيف
يعجبهم هذا النفاق الذى كان فى أخلاق الرهبان ، حيث يدعون الى التعفف

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير ، عند الحديث على آية ٣١ من سورة التوبة

(٢) المفصل فى تاريخ العرب - جوادعلى - ٦/٦٤٤

(٣) المصدر السابق ٦/٦٤٤

والتقشف والزهادة ، وهم يَلْعُونُ في الأموال التي تهدي إلى أمكنة العبادة !

كيف يعجب العرب مثل هذا النفاق ، وهم الذين قد فطروا على

الصراحة والوضوح !!

بل كيف يعجب العرب - وهم الذين جيلوا على الأثفة وحب المساواة -

ذلك التكبر والترفع .. والتعاطم على الناس ، الذي كان يتخلق به كثير من

رهبان ذلك الزمان !!

ومن المسلم به كذلك الا يُعْجِبُ العربُ أن يتأسوا بهذا النوع من

الرهبان الذي خصى نفسه ، وامتنع عن لطيبات ، من المأكول والمناكح ، اذ

كيف يُعْجِبُ العرب بذلك ، أو كيف يتأسون باصحابه ، وهم الذين عشقوا

الرجولة واعتزوا بها ، وتفاخروا بمظاهرها . كما لم يفعل ذلك أحد

غيرهم !

وكذلك لم يكن يعجب العرب ، الانقطاع عن الدنيا ، ومفارقة

الناس . اذ كيف يعجبهم ذلك ، وهم الذين كانت تَعَجُّ بهم منتدياتهم

وتزخر بهم حلقات سرهم ، وتَفَضُّ بهم مجالس لهمهم وشرابهم ، بل كان ذلك

من لمظاهرها الأساسية في حياتهم الاجتماعية .

أفكانوا يتركون ذلك ، ليتأسوا بالرهبان ، الذين كانوا

يأخذون أنفسهم بتلك الأمور الشديدة ، من تقشف وانقطاع عن الناس ، وعيش

في الأمكنة النائية ، البعيدة !!!

لهذا كله ، عزف الكثيرون من العرب ، عن تشبهه بالنصارى ، أو الانغماس معهم في معتقدا تهم ، مكتفين ببعض التأثير بتلك المعتقدات ، كما رأينا فيما مضى من صفحات

تلك هي فيما نعلم - والله أعلم - أهم المصادر التي استقى منها العرب في الجاهلية ، معتقدا تهم الدينية • ولكن الذي نود أن نشير إليه ونذكر به الاثمان ، هو أن سائس العرب - كما يذكر المؤرخون - كانوا عباداً أوثاناً .^(١)

سواء منهم من كان يزعم أنه على دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، أو من تأثر بمعتقدات اليهود أو النصارى • وصدق الله العظيم حين وصف كل أولئك بقوله : ^(٢) " وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ الْإِلَٰهَ الْأَوْهَمَ مَشْرِكُونَ " .

ولم ينج من ذلك الظلام العقديّ الدامس ، والفرق إلى النواصي في عبادة الأصنام والأوثان ، والأنصاب والصلبان • في الجزيرة كلها - إلا ثلة لا تكاد تتجاوز في عددها رؤس الأمايع - كما يقول المؤرخون ^(٣) وأولئك هم الذين عرفوا بالحنفاء •

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١ - ٢٥٥

(٢) يوسف ١٠٦

(٣) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٤٨

الحنفاء :

الحنفُ في اللغة من الأضداد ، فهو الميل والاستقامة في آن واحد .
فقد ذكروا عن الأصمعي ، أن الحنف في الأرجل هو ميل كل واحدة نحو أختها . (١)
وأشدوا لِدَايَةِ الأحنف بن قيس وكانت ترقصه : (٢)

وَاللَّهُ لَوْلَا حَنْفُ بَرِّجِلِهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ (٣)
وبذلك سمي المائل من خير إلى شر ، ومن شر إلى خير حنيفا ، كما قال أبو عمرو .
وأما الحنف بمعنى الاستقامة ، فقد ذكروه عن أبي زيد ، وأنشدوا (٤) :
تَعَلَّمْ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا طَرِيقٌ لَا يَجُورُ بِكُمْ حَنِيفٌ (٥)
قال ابن منظور : " وإنما قيل للمائل الرجل أحنف ، تفاعلاً بالاستقامة "

وأما الحنيف اصطلاحاً ، فهو الذي يتحنف عن الأديان ، أي يميل إلى الحق . وقيل : هو المخلص المستقيم ، وقيل : كل من أسلم لأمر الله ، ولم يلتو ، فهو حنيف . (٦)

وقيل : " الحنيف العادل عن دين ، وبه سميت الحنيفية ، لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية " . (٧)

وقد كان الحنيف في الجاهلية ، هو الذي يعتزل الأثنام ويتعبد .
وقيل : هو الذي كان يستقبل البيت الحرام ، على ملة إبراهيم عليه السلام .
وقيل : بل هو الذي كان يختن ويفتسل من الجنازة ويحج البيت . قال الأفش : " لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية ، بشيء من دين إبراهيم ، غير

(١) انظر حميرة اللغة لابن دريد ١٧٨/٢ ، وتهذيب اللغة للأزهري ١٠٩/٥ ، واللسان - حنف
(٢) تهذيب اللغة ١٠٩/٥ ، واللسان - حنف . وهو في التاج - حنف " في صبيبتكم "
(٣) انظر تهذيب اللغة ١٠٩/٥ ، واللسان - حنف
(٤) تهذيب اللغة ١١٠/٥ ، واللسان - حنف . والتاج - حنف
(٥) اللسان حنف (٦) اللسان - حنف ، وتاج العروس - حنف
(٧) قاله ابن دريد في حميرة اللغة ١٧٨/٢

الختان وحج البيت . فكل من اختتن ، وحج ، قيل له حنيف «(١)

والحقيقة أن العرب في الجاهلية ، كانوا يتمسكون بأمور من دين
ابراهيم عليه السلام ، أكثر مما قاله الأئمة . فقد رأينا سابقا أنهم تمسكوا
بأمور أخرى غير الاختتان والفصل من الجنازة وحج البيت . ومع ذلك لم يكونوا
من الحنفاء . وذلك لأن أهم ما تعنيه الحنيفية هو التوحيد . ولم يكن العرب
في جاهليتهم موحدين ، بل كانت أكثريةهم الساحقة - كما عرفنا - تعبد الأصنام .

أما زعمهم في الجاهلية بأنهم حنفاء ، فقد كان بسبب تمسكهم
بتلك الأثارة التي بقيت لهم من دين ابراهيم عليه السلام . يقول أبو قيس -
صيفى بن الأسلت : (٢)

أرب الناس ، أما إذ ضللنا	فيسرنا لمعروف السبيل
فلولا ربنا كنا يهودا	وما دين اليهود يدي شكول
ولولا ربنا كنا نصارى	مع الرهبان في جبل الجليل
ولكننا خلقنا إذ خلقنا	حنيفا ديننا عن كل جيل
نسوق الهدى ترسفا مدعيات	مكشفة المناكب في الجلول

(٣)

ويقول اليعقوبى في تاريخه :

«فكانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان ، على بعض دين ابراهيم
يجنون البيت ، ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ، ويعظمون الأشهر الحرم
وينكرون الفواحش ، والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم ، فلم

(١) تهذيب اللغة ١١٠/٥ ، واللسان - حنف .

(٢) ديوان أبي قيس - صيفى بن الأسلت ص ٨٧ - ٨٨

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١

يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت» .

ومع كل هذا ، لم يعدهم القرآن الكريم من الحنفاء ، اذ الحنيفية كما قلنا - هي التوحيد ، والتوحيد بالذات ، وما يستلزمه التوحيد من معتقدات وعبادات . ولذلك الأمر لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين كانوا يزعمون بأنهم حنفاء ، وهم يتخذون مع الله معبودات أخرى بقوله تعالى : « حَنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ، أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » (١)

فالحنفاء انن ، هم أولئك القوم الذين لا يشركون بالله شيئاً . أما العرب - في الجاهلية - ، الذين تمسكوا ببقية من الحنيفية التي كان عليها ابراهيم عليه السلام ، ثم أحاطوا الكعبة البيت الحرام ، بجيش هائل من الأصنام (٢) ، العرب الذين كانت كل قبيلة منهم قد اتخذت لها صنما تصلى اليه ، والذين عظم بينهم شأن تلك الأجار البغيضة ، حتى درج القسّم بها على ألسنتهم ، وكأنها في القدسية شريكة لله - سبحانه وتعالى قال أوس بن حجر : (٣)

وَبِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا
وَبِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَنْهَنْ أَكْبَرُ
العرب الذين كان هذا شأنهم ، لم يكونوا حنفاء . فمن هم الحنفاء انن ؟!

لقد نقلنا لتاريخ لنا - فيما نقل - أخبار ثلة قليلة من القوم في ذلك العصر ، تنزهوا عن عبادة الأوثان ، ونهبوا يتأملون في ملكوت الله ،

(١) الحج ٣١

(٢) انظر في ذلك تاريخ العيقوبي ٢٥٤/١ - ٢٥٥

(٣) ديوان اوس بن حجر ص ٣٦

وينقبون عن الهدى في كل مكان ، ويبحثون عن دين هو أهدى مما كان عليه قومهم في ذلك الزمان .

ولم يكن هؤلاء يألون جهدا في دعوة قومهم الى نبذ عبادة الأصنام والترفع عن السفه الذي غرقوا فيه ، وانحرفوا به عن منهج الله سبحانه وتعالى ، بل وكانوا يفترون كل فرصة ، ويستغلون كل مناسبة ، ليذكروا قومهم بأنهم قد بعدوا عما تركهم عليه أبوهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

ولعل أهم أولئك الحنفاء ، كما ذكر كثير من العلماء : رثاب بن البراء : أحد بنى عبدالقيس - من ربيعة - ، وأسعد أبو كرب الحميري ، من اليمن ، وخالد بن سنان - أحد بنى عيس بن بغيض ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس - أحد بنى النجار - ، وقس بن ساعدة الايادي ، وزيد بن عمرو ابن نفيل ، وورقة بن نوفل .

أولئك هم الذين يستحقون أن يلقبوا بالحنفاء ، وذلك لما نطقت به أشعارهم ، وتحدثت به أخبارهم - من توجههم الى الله وحده بالعبادة ، وتنزههم عن عبادة الأصنام ، وغير الأصنام ، وتسفيهم لأحلام قومهم ، وقلائم لكثير من أفعالهم ومسالكتهم وأخلاقهم .

وفي ظني - والله أعلم - أن هؤلاء لو كانوا أدركوا الاسلام لسارعوا اليه واعتنقوه ، وآزروه وناصروه ، بل لقد فعل ذلك حقاً من أدركه منهم كما سنرى

أما أولئك النفرا الذين اتَّعوا الحنيفية ، وكانوا في الجاهلية على كثير مما كان عليه الحنفاء الحقيقيون ، ولكنهم لما ظهر الإسلام ، اعترضوا عنه ، ولم يعتنقوه ، بل قاوموه وحاربوه ، كأمية بن أبي الصلت مثلا - فلم أعرض لذكرهم ، لأن الأيام أثبتت أن تحنفتهم كان كاذبا .

واكتفيت في هذا المبحث ، بالحديث عن هؤلاء الكرام ، الذين لم أجد في معتقداتهم أو مسالكهم وأخلاقهم ، أو سيرتهم في قومهم - ما يؤخذ عليهم ... قياسا الى جمهور الناس في ذلك الزمان .

(١) فأما رثاب بن البراء ، فقد كان - فيما يذكر ابن قتيبة في المعارف على دين المسيح عليه السلام . وقد هلك قبل الإسلام ، ولذلك فليس له مع - المسلمين حديث .

وأما أسعد أبو كرب الحميري ، فكان كما ذكر ابن قتيبة أيضا : " أول من كسا البيت الأنطاع والبرود " (٢) ، وكان قد بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه بزمان طويل . (٣)

وأما خالد بن سنان ، فقد هلك أيضا قبل الإسلام ، وقد وفدت ابنته على النبى صلى الله عليه وسلم - فيمن وفد - ، فسمعه يقرأ " قل هو الله أحد " - فقالت : كان أبى يقول هذا . (٤)

وأما أبوقيس - صرمة بن أبى انس ، فقد " ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ، وهمَّ بالنصرانية ، ثم امسك عنها ، ودخل بيتا له ، فاتخذ

(٢) المصدر السابق ص ٦٠

(٤) المصدر السابق ص ٦٢

(١) انظر المعارف ص ٥٨

(٢) المصدر السابق ص ٦٠

مسجدا ، لا يدخل عليه طامث ولا جنب . وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم - المدينة ، أسلم وحسن إسلامه ^(١)

(٢)

وهو القائل في جاهلية :

سَبِّحُوا اللَّهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ طَلَعَتْ شَمْسُهُ وَكُلَّ هَيْلَالٍ
يَا بَنِيَّ الْأَرْحَامِ لَا تَقْطَعُوهَا وَصَلُّوْهَا قَصِيْرَةً مِنْ طَوَالٍ

وأما قس بن ساعدة الأيادي ، فهو أحد خطباء العرب المعدودين ، وأحد حكمائهم المشهورين . وكان فيما يبدو ، موقنا بآيات الله سبحانه وتعالى . وهو الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين - ^(٣) " رأيت بسوق عكاظ على جمل أحمر ، وهو يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت " .

(٤)

وذكر ابن كثير في السيرة النبوية ، عن عبادة بن الصامت قال :

لما قدم وفد اياد على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : يا معشر وفد اياد ؛ ما فعل قس بن ساعدة الأيادي؟! قالوا : هلك يا رسول الله . قال : لقد شهدت يوما بسوق عكاظ ، على جمل أحمر ، يتكلم بكلام مُعْجِبٌ مُوْنِقٌ ، لا لأجدني أحفظه " .

وخطبة قس بن ساعدة الأيادي في ذلك اليوم ، معروفة مشهورة ،

(٢) المصدر السابق ص ٦٢

(١) انظر المعارف ص ٦١

(٣) البيان والتبيين ٣٠٨/١

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ١٤٧١

(٥) المرنق والانيق - هو كل شيء يعجبك ، من لأنق وهو الاعجاب بالشيء - اللسان أنق -

وهي منثورة في بطون الكتب الكثيرة (١) وفيها الكثير من التدبر في آيات الله ، وحث القوم على سلوك ما يكسبهم رضا ، وتذكيرهم بمصائر الأقسام ، مثل عاد وثمود ، ووعظهم بمن مات من الآباء والأجداد .

وفيها كذلك تبكيت القوم على " المعروف الذي لم يشكر ، والظلم الذي لم ينكر " . ثم يقسم في آخرها بقوله : " أَقْسَمُ قَسًا بِاللَّهِ ، قَسًا لَارِيبَ فِيهِ ، إِنْ لِلَّهِ دِينَاهُ أَرْضَى مِنْ دِينِكُمْ هَذَا ، ثُمَّ أَنْشَدَ :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأُولَى مِنْ الْقُرُونِ لَنَا بِمَآثِرِهِ
لَمَّا رَأَيْتُ مَكْوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُهُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمُضِي الْأَغَارُ وَالْأَكَابِرُهُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنْ لِبَاقِينَ غَابِرُهُ
أَيَقْنَتُنِي لِامْحَالَةِ - حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُهُ

وأما زيد بن عمرو بن نفيل ، فهو أبو الصحابي الجليل سعيد بن زيد رضي الله عنه ، أحد العشرة المسمين للجنة (٢) وكان زيد قد " اعتزل الأوثان والميتة ، والدم ، والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن الموءودة " (٣) . وكان يعجب مما ذبح على النصب ، وَيُعْجِبُ الْقَوْمَ مِنْهُ بقوله : " يامعشر قريش ، أيرسل الله قطرا السماء ، وينبت بقل الأرض ، ويخلق السائمة فترعى فيه ، وتذبحونها لغيره . والله ما أعلم على ظهر الأرض ، أحدا على دين إبراهيم غيري " (٤)

(١) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٣٠٨/١ - ٣٠٩ ، والأغانى لأبي الفرج - دار الثقافة (١٩٢/١٥ - ١٩٣) والسيرة النبوية لابن كثير ١٤٧/١ - ١٤٢٦ ، ١٤٧ - ١٤٨ - وغيرهما .
(٢) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٥٩ (٣) المحبر لابن حبيب ص ١٧١
(٤) الأغانى - ثقافة - ١١٧/٣

وكان الخطَّابُ بن نفيل عم زيد هذا ، " قد أخرج زيد بن عمرو من مكة ،
وجماعةٌ من قريش ، ومنعوه أن يدخلها ، حين فارق أهل الأوثان . وكان أشدَّهم
عليه الخطَّابُ بن نفيل " (١)

وكان زيد إذا خلا إلى البيت استقبله ثم قال : " لبيك حقا حقا ،
تعبدنا ورقا " (٢) ، وكان يقول : " اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك
سجدت إليه ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته " (٣)

ويظهر أن زيدا - لما لم يعجبه دين قومه - خرج إلى الشام
يبحث عن الهدى ، ويسأل عن الدين ، قال أبو الفرج : " فلقى عالما من اليهود
فسأله عن دينهم فقال : لعلي أدين بدينكم فأخبرني بدينكم . فقال اليهودي :
انك لاتكون على ديننا ، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال زيد بن عمرو :
لا أفر الأمن غضب الله . وما أحمل من غضب الله شيئا أبدا وأنا أستطيع .
فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟ قال : ما أعلمه الآن يكون حنيفا .
قال : وما الحنيف ؟! قال : دين ابراهيم .

فخرج من عنده وتركه ، فأتى عالما من علماء النصارى ، فقال له
نحو مما قال لليهودي . فقال له النصراني : انك لن تكون على ديننا حتى
تأخذ بنصيبك من لعنة الله . فقال : اني لا (أحمل من) لعنة الله ولا من
غضبه شيئا أبدا وأنا أستطيع . فهل تدلني على دين ليس فيه هذا ؟! فقال

(١) الأغانى - ثقافة - ١١٧/٣

(٢) انصدر السابق ١١٨/٣

(٣) المحبر لابن حبيب ص ١٧١

له نحوا مما قال الميهودى : لا أعلمه الآن يكون حنيفا .

فخرج من عندهما ، وقدرضى بما أخبراه ، واتفقا عليه من دين ابراهيم . فلما برز رفع يديه وقال : اللهم انى على دين ابراهيم ^(١)

وفى البلقاء من أرض الشام - كما يذكر العلماء - لقي زيد راهبا عالما ، فقال له : " قد أظلك زمان نبسى يخرج فى بلادك ، يدعوا الى دين ابراهيم " ^(٢) . فعاد زيد مسرعا يريد مكة ، ولكن نصارى الشام عدوا عليه فقتلوه ^(٣) .

^(٤) ومن تحنف زيد بن عمرو هذا ، قوله - كما سبق أن ذكرنا :

وَأَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ	لَهُ الْمَزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالًا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ	لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالًا
نَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَهَا	بِأَيْدِي وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

وأما ورقة بن نوفل ، فهو أيضا " أحدمن اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين ، وقرأ الكتب . وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان " ^(٥) وهو الذى يقول : ^(٦)

(١) الاغانى - ثقافة - ١٢٠/٣ - ١٢١

(٢) المحبر ص ١٧٢ ، وانظر المعارف لابن قتيبة ص ٥٩

(٤) البيت الأول فى المعارف لابن قتيبة ص ٥٩ ، والبيتان بعده فى فتح القدير للشوكانى ٣٧٩/٥

(٥) الاغانى - ثقافة - ١١٣/٣

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٧/٢ ، والبيت الاخير فى تفسير الطبرى ٢٦/٣ برفع "مئاب" ، والبيت الاخير فى تفسير البحر المحيط لابن حيان ٣٨٠/١ ، وهو فى اللسان (ثوب) منسوب لابى طالب

فَمَتَّبِعْ دِينَ الَّذِي أُسِّرَ إِلَيْنَا وَكَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ رَاجِحٌ
وَأَسْرَ بَنِيَانًا بِمَكَّةَ ثَابِتًا تَلَا فِيهِ بِالظَّلَامِ الْمَصَابِحُ
مَثَابًا لِأَفْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا تَخَبَّرَ إِلَيْهِ الْيَعْمَلَاتُ الطَّلَاحُ (١)

ولورقة بن نوفل هذا ، مع النبي صلى الله عليه وسلم ، عندبعثته الشريفة ، موقف كريم رائع ، يدل على صدق تحنفه ، وصحة منهجه .

أخرج الامام البخارى فى صحيحه ، من حديث ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما نزل عليه الوحي أول ما نزل ، وعاد الى أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها - وهو خائف يرتجف ، انطلقت به خديجة رضى الله عنها " حتى أتته ورقة بن نوفل ، بن أسد ابن عبد العزى ، ابن عم خديجة . وكان امرؤاً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ، ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقال له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى . يا ليتنى فيها

(١) الْيَعْمَلَةُ من الابل النجبية المطبوعة على العمل والجمع اليعملات - اللسان عمل - والطلاحة - كالساحة - الاعياء والسقوط من السفر وهو طَلْحٌ وَطَلِيحٌ وَطَلْحٌ وَطَالِحٌ - والجمع الطلاح - اللسان طلح .

جذع (١) . ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أَوْمَخِرَجِيَّ هُمْ** . قال : نعم !
لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى . وان يسدركنى يومك ، أنصرك نصرا
موزرا . ثم لم ينسب ورقة أن توفى (٢) .

أولئك هم الثلة القليلة ، الذين عرفوا فى الجاهلية بالحنفاء ،
والذين كانوا - وسط ذلك الليل الداغى - يتلمسون البصيص من الضياء .
فقد انحدر قومهم فى معتقداتهم اليوثنية بغيضة حمقاء ، سفهت الأسلام
وأزرت بالعقول ، وأنهلت العقلاء .

ونزلوا فى مسلكهم الى **دَرْكٍ سَحِيقٍ** من **دُنْيَا** الأمور ، كلعاب الميسر
وارتكاب الفواحش ، وتشراب الخمر .

وأصبح العقلاء والمصلحون والحنفاء ، يقلبون وجوههم فى السماء ،
لعل الله الذى لاتحصى أياديه البيضاء ، ينظر اليهم ، وينقنم مما كانوا
فيه من البلاء .

*

(١) وردت هذه الكلمة منصوبة فى الطبعة التى رجعت اليها من صحيح البخارى
(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي - ٤٣ / ١ - من طبعة كتاب الشعب

فجأة ، وأشرق فجر الاسلام على الجزيرة ، فبدد كل

ظلماتها ، وأضاء مختلف أنحاءها ، ثم شع منها فأضاء

بأقى المعمورة •

وهكذا رحم الله العرب ، بل الناس أجمعين ، بعد ليل

طويل من الظلام الدامس ، فبعث اليهم بهذه الرسالة الخاتمة ،

وهذا النور المبين - سيد الخلق ، وخاتم الرسل ، عليه الصلاة

والسلام • والحمد لله رب العالمين •

* * *

* *

*

الفصل الثالث

المعتقدات الدينية في شعر الجاهليين
وقضية الانتحال

- شعر الجاهليين وقضية الانتحال
- معتقدات الجاهليين وقضية الانتحال

الفصل الثالث

المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي وقضية الانتحال

كانت المعتقدات الدينية المتناثرة في الشعر الجاهلي، من أسباب الشك فيه عند بعض الباحثين . بل لقد عدَّ أولئك الغلاة وجود مثل تلك المعتقدات في ذلك الشعر، من الشبه التي دفعتم لرده جملة وتفصيلاً ..

ولكون هذه القضية ذات صلة وثيقة ببحثنا هذا ، وذات أثر خطير على تراثنا الأدبي ، وثروتنا اللغوية ، أحببت - مستعينا بالله - أن أبسط الحديث فيها . وذلك من حيث مساسها بالشعر الجاهلي عامة ، وبشعر المعتقدات الدينية على وجه الخصوص .

الشعر الجاهلي وقضية الانتحال

لقد عرفت قضية الشك في الشعر الجاهلي - بنظرية الانتحال والانتحال في اللغة معناه ادعاء ما للغير من أشعار أو أقوال ، ونحلّه القول - كنعته - نسبه إليه . قال ابن منظور في اللسان : " وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعاه أنه قائله . وتَنَحَّلَهُ ادعاه وهو لغيره " (١)

(١) اللسان - نحل

وقال : " وَنَحَلْتَهُ الْقَوْلَ إِذَا أَضْفَتُ إِلَيْهِ قَوْلًا قَالَهُ غَيْرَهُ ، وَادْعَيْتَهُ عَلَيْهِ .
ويقال : نُحِلُّ الشَّاعِرُ قَصِيدَةً إِذَا نَسَبَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ " (١)

وقد عرف العرب الانتحال منذ القديم ، وكانوا يعدونه من الأعمال
المنمومة ، التي يُعَيَّرُ صاحبها بها . يقول الأعشى : (٢)

فَكَيْفَ أَنَا وَأَنْتِ حَالِي الْقَوَائِي بَعْدَ الْمَشِيبِ ، كَفَى ذَاكَ عَارًا

ولقد شغلت قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ، أنهان الباحثين ، منذ
كان عهد التدوين . وذلك بسبب الظروف والملابسات التي أحاطت بذلك الشعر
منذ تلفظ به الشعراء أنفسهم ، ولأسماع روايتهم ، وحتى أصبح مكتوبا
ومدونا في مجاميع العلماء واختياراتهم ومصنفاتهم .

ومن ذلك ما ذكره ابن سلام في طبقات فحول الشعراء عن ذلك الشعر
قال : (٣) " فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد
وغزو فارس والروم ، ولهبت عن الشعر وروايته . فلما كثرت الاسلام ، وجاءت
الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثربوا الى
ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ... فالفوا ذلك ، وقد هلك من العرب
من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، ونهب عليهم منه كثير " .

(١) اللسان - نحل (٢) انظر اللسان - نحل ، والبيت في ديوان

الأعشى ص ٥٣ باختلاف يسير في الرواية .

(٣) طبقات فحول الشعراء ٢٥/١٠

والحقيقة أن الرواية الشفوية ، وهي التي غلبت على الشعر الجاهلي ، لها بعض المحاذير . فقد ينسى الرواة أو يتزيدون ، وقد يخطئ النقل^١ والمتحدثون ، ومن هذا المدخل الضيق نشأت قضية الانتحال .

ونقول المدخل الضيق ، لأن رواية تلك الأشعار ، ونقلها الأخبار - من الجيل الأول - كانوا من الثقة بحيث شهد لهم بذلك معاصروهم من العلماء والمحققين . فقد تفرغوا لذلك الشعر " وكلفوا به وتعشقه ، فاحتضنوه ، وأذاعوه ، وأقبلوا عليه بكل ما فيهم من شغف ونهم ، ينشدونه في كل مجتمع ويتعصبون له ولقائله " (١)

روى ابن قتيبة في الشعر والشعراء قال (٢) " حدثنا سهل بن محمد ، حدثنا الأصمعي - حدثنا ركردين بن مسمع^(٣) ، قال : جاء فتيان إلى أبي ضمض بعد العشاء . فقال لهم : ما جاء بكم يا خبيثاء ؟! قالوا : جئناك نتحدث . قال : كذبتم ، ولكن قلتم : كبر الشيخ فنتلعه^(٤) ، عسى أن نأخذ عليه سقطة . فأنشدهم لمائة شاعر - وقال مرة أخرى لثمانين شاعرا - كلهم اسمه عمرو "

أرأيت إلى أي مدى عشقا لرواة ما يحفظون ؟! وإلى أي مدى كانوا يحرصون على أدائه أحسن أداء ؟! وإلى أي حد كانوا يخشون السقطات والأخطاء ؟!

(١) الدكتور عبد الحميد المسلول - نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ص ٢٢ دار القلم بالقاهرة .

(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ - ٦١ (٣) كردين - كصفين - هو مسمع نفسه ، كما جاء في طبقات الفحول إذ يقول ابن سلام في الطبقات (١٦٠/١) : " حدثني مسمع بن عبد الملك ، وهو كردين " ويقول فيه (٤٣٥/١) : " وحدثني مسمع بن عبد الملك ، وهو كردين "

(٤) اللعب معروف ، وهو ضد الجد . وتلعب - كتقدم - أي لعب مرة بعد أخرى اللسان - لعب -

فاذا أضيف لذلك ، أن بعض هذا الشعر كان مدونا منذ القديم ،
ازدادت ثقتنا فى صحته من ناحية ، وصحة نسبه الى أصحابه الجاهليين
من ناحية أخرى . قال ابن سلام : " وقد كان عند النعمان بن المنذر منه
ديوان ، فيه أشعار الفحول ، وما مُدِحٌ هو وأهل بيته به " (١)

ولكن هذا لم يكن يمنع بعض الرواة من النسيان ، كما لم يكن يمنع
بعضهم الآخر من التزويد والنقصان . قال ابن قتيبة - وهو يعقب على خبر
أبي ضمض السابق : " فهذا ما حفظه أبو ضمض ، ولم يكن بأروى الناس .
وما أقرب أن يكون من لا يعرفه من المسميين بهذا الاسم ، أكثر ممن عرفه " (٢)

وهناك غير النسيان الذى كان يوقع الرواة فى النقصان - أسباب
أخرى للانتحال ذكرها محمد بن سلام . منها الشعر الذى أدخل على بعض العلماء
غفلة منهم أو جهلا بوضعه وانتحاله - كما فعل بابين اسحق فى السيرة النبوية . (٣)

ومنها اختلاط الأمر على بعض الرواة ، فقد يروون شعرا لشاعر ،
وهو لشاعر آخر . (٤) . ومنها محاولة بعض القبائل الاستكثار من أشعارهم
الماضية ، والتزويد فى وقائعهم وأخبارهم . (٥) ومنها كذلك طمع بعض الرواة فى
الكسب المادى الذى كانوا يحظون به ، سواء من الناس أو من لولاة . (٦)

(٢) الشعر والشعراء ٦١/١

(٤) المصدر السابق ٤٩/١

(٦) " " ٤٨/١

(١) انظر طبقات فحول الشعراء ٢٥/١

(٣) طبقات فحول الشعراء ٨١

(٥) المصدر السابق ٤٦/١

وكان ابن سلام يضرب لكل سبب من هذه الأسباب مثلاً ، بحادثة رآها
 أو علمها . وهذه الأسباب - كما نرى ينصب أكثرها ، بل كلها - على الرواة ،
 الذين لولاهم لما كان ينفذ الى الشعر ما كان ينفذ اليه من التزويد والخلط
 والنسيان ، ولما كان يقع فيه - ما وقع - من الخطأ والنقصان . فالسبب
 الأساسي ان للانتحال عند العلماء القدماء هم الرواة .

” وهذا هو الذي جعل القدماء يتتبعونهم بالبحث ، ويتعقبونهم
 بالنقد والتمحيص ، لتخليص هذه الثروة مما لحقها من شوائب ، أو ساورها
 من كدر وتعكير . بل هذا الذي جعل هؤلاء الرواة ، يتعقبون بعضهم ويكشفون
 عما قد يكون لحق روايتهم من خطأ أو كذب أو تزيف ” . (١)

ولقد كثر هذا التتبع والتعقب من العلماء الأوائل ، لرواة الأشعار ،
 ومن الرواة لبعضهم - بالنقد والتمحيص ، حتى لم يبق لمنصف بعد ذلك أي
 حق في أن يشك في ما ثبت لدى أولئك العلماء ، والرواة المحققين من أشعار .

والأمثلة على ذلك التتبع والتحقق والتعقب كثيرة . منها على سبيل
 المثال ، قصيدة طرفة بن العبد التي مطلعها : (٢)
 سَأَلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا بِقَوَانَا يَوْمَ تَحْلَقُ اللَّمَمُ

(١) الدكتور عبدا حميدا لمسلوت - نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي - ص ٥٣

(٢) ديوان طرفة طبع دمشق ص ١٠٩ .

فقد قال الأعلام الشنتمرى فى تقدمته لها : ^(١) " وزعم الأصمعى أنها مصنوعة ، وأنه أدرك قائلها ، وأثبتها أبو عبيدة والمفضل وغيرهما " وقال ابن السكيت فى تقدمته لنفس القصيدة : ^(٢) " أثبتتها أبو عبيدة ، والمفضل ، وأبو عمرو والشيبانى ، وزعم الأصمعى أنها مصنوعة وأنه أدرك قائلها . "

وهناك قصائد أخرى ، عند طرفة وغير طرفة من الشعراء الجاهليين ، تتبعها العلماء بالنقد والتمحيص ، ليخلصوها مما زيد فيها ، وينفوا عنها ما ألحق بها وليس لصاحبها . قال ابن قتيبة ، بعد أن روى للأعشى أبياتا مطلعها : ^(٣)

بِأَنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مَرَّتْ حَلًّا وَأَنَّ فِي السَّفَرِ مَا مَضَى مَهَلًّا
قال : ^(٤) " وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئا يستحسن الاقوله :
يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ الْمَطَى وَلَا يَشْرَبُ كَأَسَا بِكَفٍّ مِنْ بَخِلَا

تلك أمثلة على تتبع العلماء والرواة المحققين للقصائد والمقطوعات . أما تتبعهم للأبيات ، فهو يند عن الحصر . ومن أمثلة ذلك ، بيت طرفة ابن العبد : ^(٥)

وَأَصْفَرَّ مَضْبُوحٌ نَظَرَتْ حَوَارَهُ عَلَى النَّارِ وَاسْتَوْدَعَتْهُ كَفَّ مَجِيدِ

- (١) ديوان طرفة طبع دمشق ص ١٠٩
- (٢) انظر ديوان طرفة بشرح ابن السكيت - مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٢ أدبش - ورقة ٣٥ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٦ أدبش ورقة ٣١
- (٣) انظر هذه القصيدة فى ديوان الأعشى ص ٢٨٣
- (٤) ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٦٩/١
- (٥) صلة ديوان طرفة - طبع دمشق ص ١٥٠

فقد قال ابن السكيت بعد أن رواه : " لم يروه الأعمى ، ولا ابن جيب ، ولا ابن الأعرابي ، وهو في روايتهم لعدي بن زيد " (١)

ويقول ابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال قبل أن يروى ذلك البيت " وروى أبو عمرو والشيباني هاهنا بيتا لم يروه الأعمى ولا ابن الأعرابي " (٢)

وفي آخر شرحه لمعلقة طرفة يقول ابن السكيت " حدثني رجل من أمصاخ قال : " قدم علينا جرير فقلنا له : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يقول :
 " غَدُ مَا غَدُ مَا أَقْرَبُ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ " قال الأعمى : لم يأت بهذا البيت غير جرير . وروى أبو عبيدة صدر البيت الذي لم يعرفه الأعمى ولم يأت به جرير " (٣)

ومن أمثلة هذا التبع أيضا البيت الذي نسبه لطرفة ، أبو زيد الأنصاري في " النوادر " وهو : (٤)

أَضْرِبْ عَنْكَ الْهَمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبِكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسِ الْفَرْسِ

فقد قال أبو زيد نفسه بعد أن أنشده : " وزعم التحويون أنه مصنوع " وقال عنه ابن منظور في اللسان : (٦) " قال ابن بري : والبيت مصنوع على طرفة " (٥)

وروى لعباس بن مرداس السلمى بيت في عدنان ، وهو قوله : (٧)
 وَعَكَ بَنُ عَدْنَانَ الَّذِينَ تَلْعَبُوا بِمَنْحَجٍ حَتَّى طَرَدُوا كُلَّ مَطْرَدٍ

(١) ديوان طرفة بشرح ابن السكيت مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٢ أدبش ظهر ورقة ٢٧ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٦ أدبش ورقة ٢٤

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص ٢٢٩
 (٣) ديوان طرفة بشرح ابن السكيت مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٢ أدبش ظهر ورقة ٢٧ وأول ورقة ٢٨ ورقم ٩٦ أدبش ظهر ورقة ٢٤

(٤) انظر صلة ديوان طرفه طبع دمشق ص ١٦٥ (٥) النوادر في اللغة لابن زيد ص ١٣٥
 (٦) اللسان - قنس (٧) طبقات فحول الشعراء ١٤/١

قال أبو خليفة راوى طبقات فحول الشعراء ، بعد رواية هذا البيت : « والبيت مريب عند أبي عبدالله »^(١) . ويعنى أن ابن سلام يرتاب فيه .

وقد ذكر ابن سلام أيضا بعد أن روى بيتين حيلاً على لبيد قال : « ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع ، تكثر به الأحاديث ، ويشتعان به على لسهر عند الملوك ، والملوك لا تستقصى » .

أما العلماء ، فانهم يستقصون ويفحصون ويدققون ، ثم يخرجون لنا فى النهاية بما يؤخذ عنهم مسلماً به ، غير مشكوك فى أكثره على الأقل . وصدق ابن سلام حين قال : « ولا يضبط الشعراء إلا أهله » .^(٣)

يقول الدكتور ناصر الدين الأسد ، فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى »^(٤) ولم يكن أمراً الوضع والنحل ، ليخفى على الرواة العلماء ، فقد تنبه له كثيرون منهم . بل قلما نجد رواية عالماً ، من القرن الثانى والقرن الثالث ، لا تذكر لنا لأخبار المروية عنه ، أنه نسا صريحاً ، على أن بيتاً أو أبياتاً بعينها منحولة موضوعة .

ومن أراد التيقن والاستزادة فليعد الهمان به عليه أولئك الرواة العلماء فى مصنفاتهم ، كما فعل ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨هـ) فى السيرة النبوية ، وابن سلام (المتوفى سنة ٣٣١هـ) فى طبقات فحول الشعراء ، والجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) فى الحيوان ، وفى البيان والتبيين ، وابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) فى الشعر والشعراء .

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧١ (٣) المصدر السابق ٦٠/١
 (٢) المصدر السابق ٦٧١
 (٤) مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٢٥ - ٣٢٦

هذا فضلا عما فعله المفضل النبى (المتوفى سنة ١٢٧٨هـ) وأبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٩هـ) ، وأبو عمرو الشيبانى (المتوفى سنة ٢١٠هـ) ، وأبو زيد الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٥هـ) ، والأصمعى (المتوفى سنة ٢١٦هـ) ، وابن الأعرابى (المتوفى سنة ٢٣١هـ) ، وابن السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) ، وابن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥هـ) ، وأبو حاتم الجستانى (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) ، وغيرهم .

ان ذلك التتبع الواضح الصريح ، المبني على الاصلاح والتدقيق والمتابعة ، من أولئك العلماء ، للرواية من ناحية ، ولبعضهم من ناحية أخرى - ليصحوا ما قديكون قد وقع من خطأ ، أو تزيد أو تنقص - هو الذى دفع ابن سلام - وهو يتحدث عن الشعر الجاهلى الذى يقول : ^(١) " وليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة ، على بطلان شىء منه ، أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى ^(٢) ! " وقد اختلف العلماء بعد فى بعض الشعر كما اختلفوا فى سائر الأشياء . فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه " .

ومن هذه النظرية الواضحة ، انطلقت الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها " قيم جديدة للأدب العربى " حين قالت ^(٣) : " ولن نطيل الوقوف هنا عند مسألة الشك فى هذا الذى استنقذ من شعرنا القديم . فمهما يكن الرواية

(١) طبقات فحول الشعراء ٤/١
 (٢) هكذا ضبطها محقق طبقات الفحول - بضم الصاد والحاء ، والارجح صحفى - بفتحها - (انظر القاموس المحيط - مطبعة السعادة ١٢١٧/٣ - فصل الصاد باب الفاء - وانظر كذلك أساس البلاغة للزمخشرى ص ٣٤٩ - صحفى) .
 (٣) قيم جديدة للأدب العربى - للدكتورة عائشة عبدالرحمن بنت الشاطىء - دار المعارف بمصر ١٩٧٠م - ص ٢٠

قد غيروا فيه ، أو غيروا منه ، أو أضافوا إليه ، لسبب أو لآخر ، يبقى في جملته غير متهم بالزيف أو الوضع ، والقدر الذي حُمل عليه زورا ، وأضيف إليه انتحالا ، كان من مهارة التقليد ، بحيث فات خبراء الشعراء الأقدمين من أمثال خلف الأحمر ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، والمفضل الشبي ، وابن سلام ، وأبي عمرو بن العلاء ، وأبي يزيد القرشي ، ثم ابن المعتز ، وأبي تمام وابن دريد ، والسكري ، - أن يميزوه ، فاكتسب بهذه المهارة في التقليد صفة التمثيل للشعر الجاهلي ، كما اعتمده أقرب الناس عهدا به .

ولكن بعض الباحثين المحدثين - عربا أو مستشرقين - ، لم يرق لهم ما فعله العلماء المحققون القدماء ، وهم أكثر الناس احتكاكا بالرواية وأعرفهم بهم ، وأقرب الناس عهدا بالشعر الجاهلي ، وأعلمهم بلغة العرب وأشعارهم عامة .

أقول إن بعض هؤلاء المحدثين ، لم يرق لهم ما فعل القدماء ، ولم يطمئنوا إلى جهودهم في تنقية الشعر الجاهلي مما علق به ، والتنبيه على كل منحول فيه أو موضوع عليه . فجعلوا من الانتحال قضية واسعة ، وغالوا في نظرتهم إليها ، إذ نهبوا إلى أن ذلك الشعر منحول كله أو جلّه . وزعموا لذلك أسبابا لها بعض الوجاهة في نظر المغالين والمتشككين ، ولكنها لا تثبت للتمحيص في نظر المنصفين .

وساق أولئك المغالون لمزاعمهم بعض الأدلة والبراهين ، استندتجوها من نتف أخبار تسقطوها من هنا وهناك . وحملوا بعض النصوص ما لا يطيقه

من المعانى ، وتزيدوا على بعضها الآخر . كما تزيدوا على الحياة العربية فى العصر الجاهلى . وتزيدوا أكثر وأكثر على الرواة القدماء ، ورموهم بتهم لاتليق بالعلماء .

وضاعت وسط هذه المغالاة المتعمدة ، والتشكك المقصود ، صيحة محمد ابن سلام " فاما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه " (١)

وكان مرجليوث من المستشرقين ، وطه حسين من العرب ، على رأس أولئك الباحثين المحدثين ، الذين غالوا فى نظرتهم للشعر الجاهلى ، وغالوا فى شكهم فيه ، فرفضوه - أو كادوا - جملة وتفصيلا .

أما الشبه^٢ التى أثارها حول هذا الشعر ، والتى قادتهما - كما زعمنا - الى رفضه والشك فيه ، فأهمها عند مرجليوث - كما أوردها الدكتور ناصر الدين الأسد ، فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى :- (٢)

أولاً: الرواية الشفوية : فقد خالج نفس مرجليوث الشك فى استطاعة الرواة نقل هذا الشعر ، بهذه الرواية الشفوية . كما خالجه الشك فى استطاعتهم نقله بالكتابة ان وجدت .

ثانياً: الرواة : فقد تهجم مرجليوث على الرواة الذين عاصروا التدوين كحماد وجناد ، وخلف الأحمر ، وأبى عمرو بن العلاء والأصمعى ،

(١) طبقات فحول الشعراء ٤/١

(٢) انظر مصادر الشعر الجاهلى - للدكتور ناصر الدين الأسد - ص ٣٥٦ وما بعدها

وأبى عمرو الشيباني ، وابن اسحق والمبرد وغيرهم . معتمدا على بعض الاشارات التي كانت تثير الشك في بعض ما جمع بعضهم .

ثالثا : المعتقدات الدينية : فمن الشبه التي أثارها مرجليوث حول الشعر الجاهلي - تلك الاشارات والمعتقدات التي وردت فيه ، كذكر الله سبحانه وتعالى ، وبعض الأنبياء السابقين عليهم السلام ، والبعث والحساب ، وغير ذلك . وذلك بسبب ورودها في القرآن الكريم .

رابعا : لغة الشعر الجاهلي : فقد بنى مرجليوث شكه في ذلك الشعر على أساس لغته المتشابهة الموحدة - بالرغم من الاختلاف بين لهجات القبائل العربية ، والاختلاف كذلك بين لغة الشمال ولغة الجنوب .

خامسا : موضوعات القصائد : والشبهة الأخيرة التي قذف بها مرجليوث في طريق الشعر الجاهلي ، هي اتفاق قصائده في التطرق لموضوعات واحدة ، تتكرر في كل قصيدة .

تلك هي أهم الشبه التي أثارها المستشرق مرجليوث حول الشعر الجاهلي ، وخلص منها إلى نتيجة خطيرة ، وهي ان الشعر الجاهلي في معظمه موضوع بفعل الرواة . (١)

وهي نتيجة خطيرة كما ترى ، ولكنها تحمل في طياتها الحكم عليها ، اذ لا يوقن بها الا جاحد أو حاقد - من أمثال مرجليوث - . يجاهد لما بذل العلماء الأولون من جهود مضية - لتوثيق ذلك الشعر ، وتنقيته من كل كدر - بنفوس مثابرة مخلصه أمينة ، أوحاقد على أولئك العلماء ، وعلى

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٣٦٢

ما جمعوه وحفظوه من هذه الثروة الغالية الثمينة .

أما طه حسين فقد ألف في سنة ١٩٢٦ م ، كتابه (في الشعر الجاهلي)
وأعاد طبعه فيما بعد ، بعد تنقيح وزيادة وحذف بعنوان (في الألب الجاهلي)
” وموضوع هذا الكتاب ، قائم على انكار الشعر الجاهلي ، وادعاء أنه موضوع
منحول ، لا يمثل الحياة الجاهلية ، ولا يثم عن سحتها العامة في شيء (١)

أما الأسباب التي قوت في صدر طه حسين الشك في الشعر الجاهلي ،
وأثارت في نفسه مظاهر الريبة في صحته - كما زعم - ، فإليك أهمها - تلخيصا
عن مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد : (٢)

أولا: الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية والعقلية لعرب الجاهلية :

ثانيا : الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة التي كانت تسود الجزيرة العربية في

الزمن الذي يزعم الرواة (!!!) أنه قيل فيه .

ثالثا : الشعر الجاهلي لا يمثل اختلاف اللهجات ، التي كانت سائدة بين

القبائل العربية قبل الاسلام .

رابعا : مواءمة كثير من ألفاظ الشعر الجاهلي ، لألفاظ القرآن الكريم

والحديث الشريف ، ” حتى انك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي انما
قُدَّ على قُدِّ القرآن والحديث كما يُقَدُّ الثوب على قُدِّ لابسِه
لايزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة ” (٣)

(١) الدكتور عبدا لحميد المسلوت - نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي - ص ٩٩

(٢) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٨١ وما بعدها .

(٣) في الألب الجاهلي - لطف حسين مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٧م - ص ١١٣

خامسا : وصول هذا الشعر إلينا ، عن طريق الرواية الشفوية .

هذا ملخص للأسباب التي دفعت طه حسين - فيما زعم - إلى الشك في الشعر الجاهلي ، والتي خلص بموجبها هو الآخر ، إلى نفس النتيجة التي خلص إليها مرجليوث ، وهي رد هذا الشعر الجاهلي جملة وتفصيلا .
ولكن تجنّى طه حسين على هذا التراث - فيما نرى - كان أوضح وأخطر وأشد وأنكى ، إذ يقول : (١)

" ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين : ان مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك - ان لم يقف موقف الإنكار الصريح - أمام هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين " .

بل لقد تجنّى طه حسين على أزهى الفترات في تاريخ المسلمين - حين قال : (٢)

" كل شيء في حياة المسلمين ، في القرون الثلاثة الأولى ، كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه " .

هكذا وبكل صراحة ، وبكل تطاول أيضا ، يتهم طه حسين أولئك العلماء الأجلاء - دون أن يستثنى منهم أحدا - بانتحال الشعر وتلفيقه ، زاعما أن كل شيء في حياة المسلمين ، في تلك الفترات المضيئة من تاريخهم ، كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه .

(١) في الأدب الجاهلي - ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق ص ١٨٦

وليس غريباً أن يصدر هذا من رجل كطه حسين - كان حرباً على كل ما ورد من تلك الحقبة الزاهية من تاريخنا - من تراث ومذاهب ومناهج وآراء اذ يقول: (١)

«فالمستقبل لمنهج - ديكرت - للمناهج القديمة»

هذا ، وقد تصدى لمرجليوث وطه حسين ، حشداً من الباحثين لمنصفين من العرب والمشرقين ، فتناولوا آراءهما بالتفنيد والتهجين . وردوا على كل مزاعمهما ردوداً علمية مدعمة بالأدلة والبراهين . اذ ردوا لكل شبهة من الشبه التي أثارها ما يدفعها ويكشف زيفها ثم يدحضها - من تلك الأدلة والبراهين . فردوا بذلك - عن الشعر الجاهلي - هجتها الضاربة ، التي كادت تودي به ، عن طريق تشكيك الدارسين فيه .

وقد ذكر الدكتور ناصر الدين الأسد ، في كتابه مصادر الشعر الجاهلي أن كثيراً من المشرقين - وعلى رأسهم المشرق شارلز جيمس ليال ، قد تصدوا لمرجليوث فردوا عليه وأبطلوا حججه وضعفوا براهينه ، قال: (٢)

« ثم تعاور نفر من المشرقين الحديث عن صحة الشعر الجاهلي ، وكان أكثرهم يرد فيما يكتب - ما ذهب إليه مرجليوث ، ويفند أدلته وافتراساته وكان أولهم - فيما نعرف ، الأستاذ شارلز جيمس ليال . »

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٤١

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٧

وفى كتابه - نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى - لم يتوان الدكتور
عبد الحميد المسلول ، عن مناقشة مزاعم مرجليوث ، وايراد بعض الأدلة التى
فند بها العلماء رأيه وقضوا قوله وأبطلوا حججه .^(١)

أما طه حسين ، فان العلماء الأجلاء الذين انبروا للرد عليه
ونقض براهينه وتفنيد حججه ، ونقض شبهه - كثيرون . فمنهم على سبيل
المثال الأستاذ محمد فريد و جدى فى كتابه (نقد كتاب الشعر الجاهلى) ، والأستاذ
محمد لطفى جمعه فى كتابه (الشهاب الراسد) ، والأستاذ محمد أحمد الفمراوى
فى كتابه (النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى) ، والشيخ الخضر محمد حسين
فى كتابه (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) ، والشيخ محمد الخضرى ، فى محاضراته
(فى بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر
الجاهلى) ، والأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى فصول كثيرة من كتابه (تحت
راية القرآن) ، وغيرهم .^(٢)

هذا ، وقد تناول الدكتور ناصر الدين الأسد ، فى كتابه مصادر الشعر
الجاهلى^(٣) ، ومن بعده الدكتور عبد الحميد المسلول ، فى كتابه نظرية
الانتحال فى الشعر الجاهلى^(٤) ، آراء طه حسين بالمناقشة العميقة المتأنية
فردا على كل شبهة أثارها حول الشعر الجاهلى ، وفندا كل رأى أيد به شكه فيه ،
مستعينين بما كتب أولئك العلماء الأجلاء الذين ذكرنا - فى كتبهم التى بينا .

(١) انظر نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى - ص ٨٤

(٢) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٤٠٢ - ٤٠٣

(٣) انظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٤١٢ وما بعدها

(٤) انظر نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى ص ١٠٤ وما بعدها .

وما دناقد لخصنا بايجاز سابقا - الشبه التي أثارها أصحاب
الشك في الشعر الجاهلي ، فلا بد من أن نلخص - بايجاز أيضا - ردود العلماء
عليها . (١)

أولا: الرواية الشفوية:

لقد وهب الله العرب حافظة قوية لاقطة مستوعبة واعية ، فكان
الواحد منهم يحفظ ما يسمع ، حيا في حفظه من ناحية ، ورغبة في نقله
للآخرين من ناحية أخرى .

ثم ان تخلف القوم في الكتابة ، جعلهم يعتمدون على الذاكرة
في جمع ما يمر بحياتهم ، أو يتصل بأمور دنياهم . فنلا عما كانت تحرص عليه
القبائل العربية من تسجيل لأشعارها وأخبارها ومفاخرها ، وحفظ انتصاراتها
وذلك في ذاكرة المجيدين لنبيها ، من رجالها .

وبتتبع أخبار القوم يتضح لنا صدق ذلك . فاذا أضفنا الى هذا
وجود بعض ذلك الشعر الجاهلي مكتوبا منذ القديم - زال الشك عنه ، وازدادت
ثقتنا فيهما وصلنا منه . قال محمد بن سلام (٢) " وقد كان عندا للنعمان بن المنذر
ديوان ، فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به "

من هذا يتضح لنا ولكل منصف ، الى أي حد ، يعد متجنيا ومبالغيا
ومغاليا - كل من يتهم تلك الذاكرة العربية الواعية ، المؤيدة ببعض الكتابات
التي عرفت من قديم - ويشك في قدرتها على حمل أشعار القوم وأخبارهم

(١) لقد أفدت الي حد كبير مما كتب الدكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر
الجاهلي) ، والدكتور عبدا لحميدا لمسئوت في (نظرية الانتحال في
الشعر الجاهلي) (٢) طبقات فحول الشعراء ٢٥/١

قرنين أو ثلاثة من الزمان ، حتى تلقفها العلماء في عصر التدوين .

ثانيا - الرواة أنفسهم :

لم يخلُ بعض الرواة من الاتهام ، بوضع بعض الأشعار على الجاهليين ولكن أن ينسحب هذا الاتهام ، على من وثقه الثقافة من علماء علم الرجال فهو تجن ومكابرة ، وكفران لسعى الناس ، وجحود لجهودهم .

على أن هؤلاء الرواة الموثقين ، قد تتبعوا أولئك ، وفحصوا ما رووه من الشعر ، ونبهوا على المنحول منه . وجاءت الينا بعد ذلك - تلك الثروة الشعرية الضخمة ، سليمة من أكثر الشوائب ، خالية من أغلب العيوب ، واضحا فيها الشعر الأصيل ، مشارا فيها الى الموضوع والمنحول .

ثالثا - المعتقدات الدينية في الشعر الجاهلي:

كان وجود معتقدات دينية ، وإشارات الى قصص دينية ، من الشبه التي صدت المغالين عن قبول الشعر الجاهلي . وكأنهم قد جهلوا - أو تجاهلوا - أن العرب في الجاهلية قد عرفوا كثيرا من الأمور الدينية .

فقد كان بينهم من لا يزالون يحتفظون ببقية من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وكان في تلك البقية ، كثير من المعتقدات الدينية وكان بينهم كذلك اليهود والنصارى ، وقد رأينا في الفصل السابق ، أن العرب لابد أن يكونوا قد تأثروا بشكل أو بآخر ، بمعتقدات اليهود والنصارى .

وكان بينهم المتنقلون بين بلاط الملوك ، كالفساسنة في الشام
والمناذرة في الحيرة بالعراق ، والتبابعة في اليمن ، وغيرهم . وما كان
يستتبع ذلك التنقل من معرفة لمعتقدات أولئك الأقوام ، ومن تأثر ببعضها .

أعجب منصف بعد ذلك - فضلا عن أن يشك - في ورود معتقدات دينية
أو إشارات لمعتقدات دينية ، على السنة الشعراء الجاهليين ، وهم الذين
كانوا يصورون لنا بأشعارهم - حياة قومهم ، وأخبار مجتمعهم ؟!

وماذا يقول المغالون ، وبماذا يردون - على اجماع العلماء
والمؤرخين ، على أن العصر الجاهلي ، كان يموج بالمعتقدات الدينية ،
والتي كان منها الفث ومنها السمين . وصدق الله العظيم إذ يقول :^(١)

” وَمَا يَوْمِنَ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ . إِيَّاهُمْ شَرِكُوكُونَ ”

رابعا - اللغة واللهجات :

عز على المغالين أن يروا الشعراء الجاهلي تسوده لغة واحدة
وتسيطر عليه لهجة واحدة - تقريبا - هي في الغالب لغة قريش ، ولهجة
قريش . واستدلوا على وضع الشعر ونحله - كما رأينا - بعدم وجود لغات
مختلفة أو لهجات متغايرة فيه .

وكان القوم قد جهلوا - أو تجاهلوا كذلك - أن لغة قريش ولهجتها

قد سادت الجزيرة قبل الاسلام بفترة طويلة ، بحيث أصبحت لغة الأئبالرسمية ،
التي تواضع الشعراء على أن تكون لغتهم التي ينشدون بها أشعارهم ويستعملونها
فى أسواقهم ومجتمعاتهم .

وخير دليل على ذلك نزول القرآن الكريم بهذه اللغة الواحدة ، وما
كان ذلك ليكون - فيما نعتقد - الا والعرب فى وحدة لسانية ، تسهل عليهم
أن يفهموا القرآن الكريم ، وأن يفهموا لغة النبى القرشى - صلى الله عليه
وسلم - ، ليس هذا وحسب ، بل لقد كان عليهم أن يحملوا القرآن الكريم ،
والأحاديث النبوية الشريفة ، الى الناس فى خارج الجزيرة .

هذا فضلا عن وجود اشارات فى الشعر الجاهلى نفسه للهجات القوم
المختلفة . فهذه لهجة قريش ، وتلك لهجة تميم ، وهذه لهجة عرب الجنوب ،
وتلك لهجة عرب الشمال ، وغير ذلك ، مما لا يؤثر على القاعدة العامة ، وهى
صياغة الشعر باللغة العربية الفصحى الواحدة المعروفة .

خامسا - اتفاق الموضوعات بين مختلف القصائد :

ومن العجب عدُّ هذا الأمر مشبهة من الشُّبُه ، وكأن الذين أثاروها
جهلوا حياة القوم المتشابهة ، ومعايشهم المتقاربة الى حد بعيد ، وحبهم
حتى فى العبادة - الى الاحتذاء والتقليد .

ولذلك فقد كان كل شاعر يحب أن يفخر بنفسه ، وأن يمجد قبيلته ،
 وأن يسجل انتصاراتها . وكان كل شاعر يحب أن يتفزل بمن يهوى ، ويقف على
 أطلال الديار التي كان يسكنها ، والأماكن التي ظعن منها . وكان كل شاعر
 يحب أن يصف ما يعنُّ له من أمور . . بلد أو طريق أو حيوان أو طير أو غيرها . .
 ولذلك حدث التشابه الذي نرى في أشعارهم .

وأى منصف يقول : ان الوقوف بالأطلال ، أو الفزل أو الوصف ، أو
 الفخر أو الهجاء ، أو المدح أو الرثاء ، أو حتى نسج الحكم وضرب الأمثال ،
 أو غير ذلك من فنون الشعر وضروبه وموضوعاته - كان يجب أن يختص به شاعر
 دون آخر ، أو قبيلة دون أخرى ؟!

ان الأمر البديهي أن يشترك الشعراء جميعا ، في هذه الموضوعات
 والفنون ، على تفاوت فيما بينهم ، كأن يرغب هذا في فن من الفنون فيكثر
 منه ، ويرغب هذا عن فن من الفنون فيصد عنه .

ولقد كان هذا دأب الشعراء الجاهليين ، في معالجتهم لتلك
 الموضوعات ، وطرقهم لتلك الفنون . على أنه كان لكل منهم خصائصه الفنية
 الخاصة ، وكان لكل منهم نظراته المختلفة للأمور ، وكان لكل منهم أسلوبه
 المتميز .

ومن قال بأنهم كانوا هياكل ، قد صبت في قالب واحد ، فقد تجنى
 عليهم ، وتجنى على أشعارهم ، وتجنى على الحقيقة ، وكابر في قبولها .

ساسا - وأخيرا - عدم تمثيل الشعراء الجاهلي للحياة الجاهلية ..

وهذه فرية لأتيم من أثارها ، لاجهل الحياة الجاهلية ، ولجاهل الشعراء الجاهلي .. ولكنى أتهمهم بالمغالاة وعدم الانصاف

اذ ما ذا يرا من الشعراء الجاهليين ، أن يقولوا عن حياتهم أكثر مما قالوا؟! ألم يعبروا عن خلجات نفوس القوم - فى ذلك الزمان - بالحب والبغض ، والتسامح والحقد ، والغيرة والحسد ، والعفة والتعهر ، والقناعة والطمع ، والعدل والظلم ، والشجاعة والجبن ، والكرم والبخل ، والنجدة والتسلط ، والمروءة والأنانية ، وغير ذلك!!؟

ألم يعبروا عما كان يدور فى ذلك المجتمع من صراع وسباق .. لكسب العيش أو لكسب الحمد ، ومن غزو مستمر وحرب دائمة ، وهبوب للصلح بين المتحاربين . ومن تنقل وترحال ، ومن تعامل بالبيع والشراء ، ومن تفاخر وتهاج ، ومن تفاخر وتماح ، وغير ذلك!!؟

لقد كان العصر الجاهلي - ومجتمع الجزيرة العربية بالذات - يعجُّ بأمور حياتية كثيرة ، لم نكن لنعرف أكثرها الا عن طريق الشعراء الجاهلي . كان ذلك المجتمع يعج بالفرسان الشجمان ، وبالرجال الكرماء ، وبالعاشقين الصادقين ، كما كان يعج بالاهين المتبذلين من الشباب ، وبأمثالهم من أصحاب المتع والشراب . وكان يعج أيضا بالرجال الملتزمين بكريم الخلاق ،

وبأولئك المتبجحين المتعهرين الذين لا يقيمون وزنا للأخلاق . كما كان يعج
بكثير من المتفاجرين والمتعاليين والمتنافرين والمتهاجين ، وبكثير من
المالحين والمعتذرين والثائرين والمتصليكين والمتشردين . وكان أيضا
يعج بالمصلحين بين الناس ، وبالذين يشجعون المصلحين بين الناس :

وكان ذلك المجتمع أيضا يعج بكثير من المعتقدات والقيم والأفكار ،
والخرافات والأساطير ، وغير ذلك مما عرف عن الحياة العربية في العصر
الجاهلي .

أفلا نجد هذه الحياة ، بهذه الأمور التي كانت تعج بها - منشورة
في الشعر الجاهلي؟! بلى ، وأيم الحق ، اننا لنجد كل هذا في الشعر
الجاهلي .

نجدا لفروسية عند عنزة ، والعشق الصادق عنده وعند المرقش ،
والكرم عند حاتم الطائي ، والتبذل عند المنخل^{ور} اليشكري ، واللامبالاة عند
طرفه ، واقتناص المتع والشراب عند امرئ القيس ، والتعهر والبهسوح
بالفاحشة عنده وعند الأعشى .

نجدا لشجاعة عند امرئ القيس وغيره ، والتفاخر عند عمرو بن كلثوم ،
والمدح عند الأعشى ، والاعتذار عند النابغة ، والهجاء عند الحطيثة ، والثناء
عند الخنساء ، والتشجيع على الصلح ومدح المصلحين عند زهير ، والثورة على
المجتمع عند الصعاليك .

• كما نجد الحكم والأمثال ، والمعتقدات والأساطير عند أكثرهم .
أما وصف أمور تلك الحياة ، والحديث عما كان يدور فيها من حروب وغارات ،
فأكثر من أن يخاض فيه .

أفيقول منصف - بعد كل ذلك - : ان الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة
الجاهلية؟! .

هذا موجز ، اقتضاه سياق البحث للرد على أولئك المغالين ،
وبعض الشبه التي أثاروها في وجه الشعر الجاهلي ، وهو موجز مختصر بقدر
الاستطاعة ، وذلك خشية من طول المجال . اذ أن الرد بالتفصيل على تلك
الشبهات ، استوعب من العلماء والباحثين الكثير من المصنفات .

والخلاصة في هذا الأمر ، كما يرجح المنصفون من العلماء ، هو أن
بعضاً قليلاً من الشعر الجاهلي ، موضوع على أصحابه لسبب أو لآخر ، وهو لا يخفى
على من كانت له بالشعر دراية ، وقد أشار إليه ونبه عليه ، كل من عني من
العلماء القدماء بتلك الغاية .

أما الأكثرية الغالبة من تلك الأشعار ، فهي صحيحة النسبة
لأصحابها ، وذلك لأنها تمثيل صادق للحياة التي عاشها قائلوها ، ولأن -
الثقات من العلماء قد اتفقوا على صحتها ووثقوها . وقد قال محمد بن سلام :
" فإما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه " . (١)

شعر المعتقدات الدينية وقضية الانتحال

أما شعر المعتقدات في الجاهلية ، فهو جزء من الشعر الجاهلي ، يمس ما يمس من قضايا ، وينطبق عليه ما ينطبق عليه من أحكام ، على تفاوت يسير في ذلك . ولذلك فقد مرسته قضية الانتحال ، كما مست الشعر الجاهلي بأجمعه ، وناله هو الآخر ، ما نال بقية الشعر الجاهلي ، من تزويد وانتحال ، ولكن ضمن تلك النافذة الضيقة ، التي نفذ منها الانتحال إلى الشعر الجاهلي .

وبتصفح شعر المعتقدات ، ومراجعة ما كتب عنه العلماء الثقات ، يتضح لنا أن قضية الانتحال فيه ، تأخذ أشكالا ثلاثة .

أما الشكل الأول فهو التأرجح في نسبة بعض الأبيات لهذا الشاعر أو لذاك من الشعراء الجاهليين أنفسهم . وأما الشكل الثاني فهو الشك في بعض أبياته أي للشعراء الجاهليين أم هي موضوعة عليهم ، والأرجح صحة نسبتها إليهم .

وأما الشكل الثالث فهو وضع بعض أبيات من ذلك الشعر ، على بعض أولئك الشعراء ، والأرجح أنها مصنوعة وموضوعة عليهم ، وأنهم منها براء .

فأما أمثلة النوع الأول ، وهو التأرجح في نسبة بعض الأبيات لهذا

الشاعر أو لذاك من الشعراء الجاهليين أنفسهم ، فمنها قول الشاعر :

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَكَ وَقَبْلَنَا سُبْحُ الْجُودِيِّ وَالْجَمْدِ

فقد روى هذا البيت لأمية بن أبي الصلت ، وهو في ديوانه (ص ٢٧) ولكنه

رُوى ايضاً لغير أمية بن أبي الصلت . قال محقق ديوان أمية في تخريجه : (١)

” وثمة خلاف في نسبة هذا البيت ، فمنهم من يرويه لأمية ، ومنهم من يرويه لورقة بن نوفل ، ضمن أبيات ولا يشير إلى أمية ، ومنهم من يروى هذه الأبيات لورقة ، ثم ينص على أن لأمية أبياتا فيها .

فقد رواه لأمية كل من أبي العلاء ، وابن درستويه ، وابن سيده ، وابن منظور ، والمرضى . ورواه لورقة كل من الشريشي ، والأصفهاني ، والبلوي ، وياقوت ، والبغدادى . فالشريشي رواه يتيما ونسبه إلى ورقة بن نوفل . والأصفهاني رواه ضمن خمسة أبيات نسبها إلى ورقة ، ومثله البلوي ، وياقوت . ونص البغدادى على أنه ” من أبيات لورقة ابن نوفل ” ثم رواه ضمن ثمانية أبيات نسبها إلى ورقة ، وروى السهيلي هذه الأبيات ، وعلق عليها بقوله : ” نسبه أبو الفرج إلى ورقة ، وفيه أبيات تنسب لأمية بن أبي الصلت (التي أن يقول) : ورواه أبو حيان في تفسيره دون نسبة ، ثم رواه ثانية لزيد بن عمرو بن نفيل

ومن أمثلة هذا النوع أيضا - قول القائل :

وَطَلُّوعَهَا مِنْ حَيْثُ لَا تَمْسُرِي
وَتَغِيْبُ فِي صَفْرَاءَ كَالْوَرْسِ
يَجْرِي جِمَامُ الْمَوْتِ فِي النَّفْسِ

مَنْعَ الْبِقَاءِ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ
تَبْدُو لَنَا بَيْضَاءَ بَارِغَةً
تَجْرِي عَلَيَّ كِبِدَ السَّمَاءِ كَمَا

فقد نسبها ابن قتيبة في المعارف ، لأحد تبا بعة اليمن ، ونسبها الجاحظ
 في البيان والتبيين مرة ، وفي الحيوان أخرى ، لأسقف نجران ، ونسبها
 ابن المظفر الحاتمي في " حلية المحاضرة " ، لرؤح بن زنباع .^(٣)

ومن هذا النوع أيضا قصيدة أمية بن أبي الصلت الرائية
 التي مطلعها :^(٤)

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا نَائِبَاتٌ لَا يَمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكُفُورُ

فقد تأرجح الرواة أيضا في نسبتها - كما يستفاد من مقالة محقق ديوان
 أمية في تخريجه لها ،^(٥) فنسبوها مرة لأمية بن أبي الصلت ، ونسبوها
 مرة أخرى لأبيه أبي الصلت ابن ربيعة .

ومن هذا النوع أيضا قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الطَّوَارِقُ بِالْحَصَى وَلَا أَجْرَاتُ الطَّيْرِ مَا لِلَّهِ فَاعِلٌ

فهو منسوب لطرفة بن العبد في ديوانه^(٦) ، وهو كذلك منسوب للبيد بن
 ربيعة في ديوانه . وروايته فيه :^(٧)

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا أَجْرَاتُ الطَّيْرِ مَا لِلَّهِ صَانِعٌ

ومن هذا النوع أيضا قصيدة أمية بن أبي الصلت التي يقول في أولها :^(٨)

- (١) انظر المعارف - لابن قتيبة - ص ٦٣٠
 (٢) انظر البيان والتبيين ٣/٣٤٢ ، وانظر الحيوان ٢/٨٨
 (٣) انظر حلية المحاضرة في صناعة الشعر - لابن المظفر الحاتمي ١/٣٦٧
 (٤) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٩١
 (٥) انظر المصدر السابق ص ٥٧٤
 (٦) ديوان طرفة - تحقيق الدكتور علي الجندی - ص ٢٢٩
 (٧) ديوان لبيد ص ١٧٢
 (٨) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٥٣٧

إِلَى اللَّهِ أَهْدَى مَدْحَتِي وَثَنَائِيَا وَقَوْلَا رَصِينَا لَابْنِيَا لِلدَّهْرِ بَاقِيَا

فقد تأرجح الرواة كذلك في نسبتها ، أهي لأمية بن أبي الصلت ، أم هي لزيد ابن عمرو بن نفيل . وقد أثبت محقق ديوان أمية ، ذلك التارجح ، عندما قام بتخريجها . (١)

تلك كانت أمثلة على النوع الأول من أنواع الانتحال في شعر المعتقدات في الجاهلية ، وهو اختلاف الرواة والعلماء في نسبة بيت أو عدد من الأبيات ، أهي لهذا الشاعر أم لذاك .

وأمثلة هذا النوع من أنواع الانتحال في غير شعر المعتقدات من الشعر الجاهلي ، عديدة . وقد فرضت وجودها ظروف الرواية الشفوية من ناحية ، والتشابه الذي كان يوجد بين بعض الشعراء في الأسلوب أو في المسلك الاجتماعي والأخلاق من ناحية أخرى .

ولكن هذا النوع من أنواع الانتحال ، لا يعد مطعنا في الشعر الجاهلي ، وبالتالي فهو ليس مطعنا في شعر المعتقدات ، وذلك لأنه منسوب إلى شاعر جاهلي ، ولأنه يعبر عن معتقد من معتقدات العرب في الجاهلية ، وبالتالي فهو صادق الدلالة على ما استشهد به عليه ، وإن تأرجحت نسبته بين شاعر وآخر .

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٦٠٨

وأما النوع الثاني من أنواع الانتحال في شعر المعتقدات ، وهو
الشك في بعض أبياته ، والأرجح صحة نسبتها لأصحابها الجاهليين ، فمن أمثلته
قول الأعشى : (١)

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْحَمْدِ ، وَوَلَّى الْمَلَمَةَ الرَّجُلَا
وَالْأَرْضَ حَمَالَةً لِمَا حَمَلَ اللَّهُ ، وَمَا إِنْ تَرَدَّ مَا فَعَلَا

فقد قال ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، تعقيبا على أبيات منها هذان البيتان :
« وهذا الشعر منحول » (٢)

ولكن أكثر العلماء على صحة نسبة هذا الشعر للأعشى ، والأرجح
أنه كذلك . وان كان محقق ديوان الأعشى - الدكتور محمد محمد حسين ، قد أيد
رأى ابن قتيبة ، لأسباب رآها في هذا الشعر ، ومنها النظرة الدينية فيه ،
والتي استبعد أن توجد مثلها لدى شاعر جاهلي كالأعشى . (٣)

غير أننا نميل الى ترجيح ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني ، في
أغانيه عن راوية الأعشى ، أنه قال (٤) « وكان الأعشى قد رثا حيث يقول :
اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْلِ وَوَلَّى الْمَلَمَةَ الرَّجُلَا

(١) ديوان الأعشى ص ٢٨٣

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٩/١

(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٢٨٢

(٤) الأغاني - ثقافة - ٣/١٢ - ٤

قال سِماك بن حرب : فقلت له : من أين أخذ هذا ؟ فقال : أخذه من أساقفة نجران . وكان يعود في كل سنة الى بنى عبدالمدان ، فيمدحهم ويقيم عندهم ، ويشرب الخمر معهم وينالهم . ويسمع من أساقفة نجران . فكل شيء في شعره من هذا ، فمنهم أخذه .»

ومن هذا النوع كذلك بيت النابغة : (١)

فَأَلْفَيْتِ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخْنِهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

فقد شك بعض أهل العلم في صحة نسبه الى النابغة . (٢) ولكن الآخرين

رووه له ، وهوفي ديوانه ضمن قصيدة صحيحة النسبة للنابغة ، من اعتذارياته المشهورة . والبيت في موضعه من تلك القصيدة ، بحيث لا يستغنى عما يؤديه من معنى . يقول : (٣)

فَجِئْتِكَ عَارِبًا خَلَقًا ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تَلَنُ بِي الظَّنُونُ
يُخَبِّبِي الْكَمِيتَ قَلِيلَ وَفَرٍ أَذْكَرُ بِالْأُمُورِ وَأَسْتَعِينُ
فَأَلْفَيْتِ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخْنِهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

وذكر النابغة لنوح عليه السلام ، هو الذى شكك بعض العلماء في نسبة هذا البيت له .

ولكننا لانستغرب ان يصدر ذلك عن النابغة ، بعد أن عرفنا أن الجاهليين ، كان قد تسرب اليهم كثير من المعتقدات الدينية ، سواء من بقية دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، أو من اليهود والنصارى الذين عرفتهم

(١) ديوان النابغة ص ٢٦٤ (٢) انظر طبقات فحول الشعراء ٦٠/١

(٣) ديوان النابغة ص ٢٦٤ - ٢٦٥

الجزيرة العربية في العصر الجاهلي. هذا بالانفاة الى أن الذين يتحدث اليهم
النايفة بشعره هذا ، كانوا من العرب الذين تنصروا في ذلك الزمان .

ثم ان النايفة قد ذكر في داليتها المشهورة ، سليمان عليه السلام
وذلك قوله : (١)

الاسليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن اني قد اذنت لهم يبنون تمربا الصفاح والعمد (٢)

ولانعلم أحدا من ذوى الاختصاص ، قد ساوره شك في نسبة هذه الأبيات للنايفة .
فكيف يكون ذكر نوح في الأبيات النونية مثار شك في نسبتها له ، ولا يكون
ذكر سليمان كذلك ؟!

أفيعقل أن تكون المصادر التي استقى منها النايفة معلوما ته
الدينية والتاريخية ، قد ذكرت سليمان وأهملت نوحا عليهما السلام ؟!

ومن هذا النوع - من أنواع الانتحال في شعر المعتقدات - أيضا -
أبيات أمية بن أبي الصلت التي منها : (٤)

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا

- (١) ديوان النايفة ص ٦
(٢) احدها : امنعها ، والفند : الانحراف والخطا
(٣) التخيبس : الحبس والسجن ، والصفاح : الحجارة العراض ، والصفايح
مثله .
(٤) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٥٢٥

فهي عند البعض من الشعراء المتهمة (١) ولكن كثرة من العلماء نسبوها له دون اتهام ، كما يتضح من تخريجها (٢) ثم ان معانيها تتشابه الى حد التطابق مع المعاني التي يطرقتها أمية بن أبي الصلت في شعره الموثق . ولذلك فإن الأرجح أن تكون صحيحة النسبة له .

وفي شعر أمية بن أبي الصلت ، أبيات كثيرة أخرى ، يصح أن تكون أمثلة على هذا النوع ، من أنواع الانتحال في شعراء المعتقدات ، وهو الشعر الذي يشك البعض في صحة نسبته لصاحبه ، والأرجح صحة نسبته له (٣)

*

وأما النوع الثالث من أنواع الانتحال في شعراء المعتقدات ، وهو صنع أبيات بعينها ، ونحلها الشعراء الجاهليين ، وهو الانتحال الحقيقي فيه ، فمن أمثلته قولهم :

إِنَّ الصَّبَا ثَوْبٌ غَيٌّ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ مِنْ لَنْهَى زَا جِرٍ فِيهِ التَّجَارِيبُ
فقد نسبوه لامرئ القيس (٤) ، وزادوه على قصيدته التي مطلعها : (٥)
الْخَيْرُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ مُطَلَبُ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ مَعْصُوبٌ

(١) انظر تعليق محقق الديوان عليها ص ٥٢٥

(٢) انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٦٠٦ - ٦٠٧

(٣) انظر ديوان أمية بن أبي الصلت الصفحات (٤٩١ - ٥١٨ - ٥٢٢ - ٥٣٧) وغيرها

(٤) انظر ديوان امرئ القيس ص ٤٣٩

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٥

وبامعان النظر في البيت المذكور، يبدو قائله رجلا وقورا ، راجح العقل ، علمته التجارب من ناحية ، وزجره عقله من ناحية أخرى ، فارتدع عن الغى الذي يبعثه الصبا في الانسان . فهل كان امرؤ القيس كذلك ؟!

أيعقل أن يقول امرؤ القيس مثل ذلك ، وهو الرجل الذي كان لا يترك فرصة لاقتناص اللذة الا فترصها ، ولا يترك مستنقعا من مستنقعات الخمر الا اغاص فيه ... !!؟

واذا كان ذلك صحيحا ، فأين كان عقل امرئ القيس وهو يقول: (١)
 فَمِثْلِكَ حَبْلِي قَدْ طَرَقْتَ وَمَرَضُكَ
 فَالْهَيْتِهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مَفِيئِلِ ؟
 أم أين كان عقله وهو يقول: (٢)
 وَبَيْضَةَ خَدِّ لَيْرَامٍ خَبَا وَهِيَ
 تَمْتَعَتْ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مَعْجَلِ ؟

ان امرأ القيس ، رجل اللذة المشهور ، ورجل الخمر المعروف ، صادق في الحديث عن نفسه حين يقول: (٣)

تَسَلَّتْ عَمَايَاتِ الرِّجَالِ عَنِ الصَّبَا
 وَلَيْسَ صَبَايَ عَنْ هَوَاكَ بِمَنْسَلِ
 وهو كذلك صادق التعبير عن نفسه حين يقول: (٤)
 وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسَبَ الْخَيْلَ حَوْلَنَا
 نَقَادًا وَحَتَّى نَحْسَبَ الْجُونَ أَشْقَرَا

(١) ديوان امرئ القيس عن ١٢ (٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣
 (٣) المصدر السابق ص ١٨ (٤) المصدر السابق ص ٧١

فقد ارتدع الآخرون وهولم يرتدع ، وانزجروا عن لهوهم ومباهم وهولم ينزجر ،
وكل ذلك باعترافه . بل لقد كان يغوس في الشراب ، حتى يختلط عليه الأمر ،
فلا يعود كما قال ، يفرق بين كبير وصغيره ، أوبين أسود وأشقر . . . لأن الخمر
قد لعبت برأسه ، ونهبت بعقله .

أترى ذلك الرجل يمكن أن يقول:
 إِنْ الصَّبَا ثَوَّبَ غَيِّئِي ثُمَّ وَسَّوْهُوْهُ
 مِنْ النَّهْيِ زَاجِرٌ فِيهِمُ التَّجَارِيْهُبُ ۱۹
 الأرجح ألا يكون امرؤ القيس هو قائل هذا البيت ، ولا الأبيات التي حوله .
 وصدق الطوسي في شرحه لديوان امرئ القيس حين قال عن تلك الأبيات : (١)
 " وهذه أيضا من سنحول شعرا مرئ القيس ، باجماع أهل البصرة والكوفة " .

ومثال آخر على هذا النوع من أنواع الانتحال في شعرا المعتقادات ،
 وهو هذه المرة من الشعر المنسوب الى طرفة بن العبد . يقول : (٢)

وَلَنْ يَهْلِكَ الْإِنْسَانُ إِذَا أَتَى
 مِنْ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نَحْوَاهُ
 وَجَالِسِ رِجَالِ الْفَضْلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقَى
 فَزَيْنُ الْفَيْ فِي قَوْمِهِ جُلَسَاؤُهُ
 ويقول : (٣)

سَأَصْرِفُ نَفْسِي عَنْ هَوَى كُلِّ غَايِرٍ
 وَأَجْعَلُ أَهْلَ الدِّينِ أَهْلَ مَوَدَّتِي
 وَأَعْرِضُ عَنْ أَخْلَاقِهِ وَأُخَارِقُهُ (٤)
 لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْفَضْلِ مِنْ أَنَا وَأَثِقُهُ

وكنت سأكتفي بما سبق من حديث عن بيت امرئ القيس ، ولكن هذه الأبيات

- (١) ديوان امرئ القيس ص ٤٣٧
 (٢) ديوان طرفة - بتحقيق الدكتور الجندی - ص ١٥٩
 (٣) المصدر السابق ص ٢٢٢
 (٤) أي ابتعد عنه ، إذا خرقت البعد (اللسان - خرق)

المنسوبة لطرفة ، شدتنى للحديث عنها شدا ..

وباللقاء نظرة عجلي على هذه الأبيات ، يظهر لك طرفة بن العبد
رجلا يسمع نصح الناصحين ، ولذلك فهو يوصيك به ، ورجلا لا يجالس الا الرجال
الفضلاء البررة المتقين ، ويأمرك بهذا ، ورجلا ليس لمودته نصيب مع غير
أهل التقى وأهل الفضل وأهل الدين (!!!) .

فيا عجباً كل العجب .. طرفة يسمع النصح ، ويوصى بضرورة الالتزام
به ، وهو السادر فى غيه ، الذى لم يكن يبالي بأى زجر أو أى لوم ، مهما
يكن هدف ذلك الزجر ومصدر ذلك اللوم ، يقول : (١)

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرُ أَحْضِرِ الْوَعْيَ وَأَنْ أَشْهَدُ لِلذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مَخْلُودِي

طرفة يسمع النصح ويوصى بساعه ، وهو الذى لم يرتدع عن غيه ، ولم يصح من
سكرته الا بعد أن وقع فيما لم يعد يفيد معه صحو أو ارتداع ... يقول : (٢)

سَادِرًا أَحْسَبُ غَيْبِي رَشْدًا فَتَنَاهَيْتِ وَقَدْ صَابَتْ بِقُرِّ

طرفة يحث على مجالسة رجال الفضل والبر والتقوى .. وهو الذى كانت عشيرته
من لهوه وملذاته ، وغيه ولامبالاته - قد تحامته وأوصت أبناءها بتحاميه
يقول : (٣)

(١) ديوان طرفة بتحقيق الدكتور الجندى - ص ٥٠

(٢) المصدر السابق ص ٨٧

(٣) المصدر السابق ص ٤٩

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبيعوا نفا في طريقي ومثلي
إلى أن تحامتني العشييرة كلها وأفردت أفرادا البعير المعبد (١)

(٢) طرفة الذي لم تكن تخلوا الحوانيت من وجوده ، يقول :

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تفتنني في الحوانيت تصطد

(٣) ولا كانت مجالس اللهو تخلو من شهوده ، يقول :

نداماي بيض كالنجوم وقيننة تروح علينا بين برد ومجسد

طرفة الذي هذا شأنه ، يمكن أن يقول :

وأجعل أهل الدين أهل مودتي ليعلم أهل الفضل من أنا واثقه !!

ليت الذي صنع مثل هذه الأبيات ، ثم نحلها طرفة ، من متأخري السرواة ، كان اطلع على ههنا طرفة في الحياة .

*

وخلاصة الأمر في هذا ، أن بعض الأبيات من شعر المعتقدا في الجاهلية ، قد صنعت بأيدي بعض المتأخرين ، ثم نحلوها الشعراء

(١) تحامتني العشييرة أي باعدتني وأفردتني ، كما يتحامي البعير الجرب حتى لا يعدي صاح الأبل . والمعبد: المذلل بالقطران .

(٢) ديوان طرفة طبع دمشق ص ٢٩

(٣) المصدر السابق ص ٢٩

الجاهليين . ولكنها لا تخفى على الباحث المتخصص ، لما تبدو هي فيه من ثوب زائف ، ولما قاله عنها العلماء السابقون .

أما بقية هذا الشعر ، والغالبية الغالبة منه ، والتي رأينا أمثلة لها في موضعه ، فإنها صحيحة النسبة لأصحابها الجاهليين ، صادقة التعبير عما عرف في مجتمعهم من معتقدات ، منها الفث ومنها السمين ، ناقلة بأمانة ما عجت به حياتهم من تطوح في تلك المعتقدات ذات الشمال وذات اليمين .

وعلى ذلك الشعر الموثق ، نحن نبني بحثنا ، لانتجاوزه ولانتعاده ،
ومنه نأخذ أمثلتنا ، ونستقي شواهدنا ، لامن سواه .

* * *
* *
*

الباب الثاني

الخرافات والأساطير في الشعر الجاهلي

- الفصل الأول : الآلهة والعرافة والطيرة والتمايم
الفصل الثاني : الأصنام والأضباب والأوثان
الفصل الثالث : أساطير وخرافات أخرى في الشعر الجاهلي

الفصل الأول

الآرانة ..

العرافة ..

الطيرة ..

التمايم ..

تمهيد :

لقد انتشرت الخرافات والأساطير بين العرب في الجاهلية انتشارا واسعا . حتى انك لتكاد تجد لكل عمل من أعمال حياتهم ارتباطا ، من قريب أو بعيد ، بخرافة من الخرافات أو أسطورة من الأساطير .

يولد الطفل ، فيعرض على الأنام ، ويطاف به حولها ، ليكتسب البركة والحماية . ويشب الوليد ، فتعلق عليه تمام الحرز (!!) ، وخوزات الأمان (!!) ، لتحميه من أعين الحاسدين ، وتمنعه من حادثات الزمان .

ويسافر المسافر ، فيكون آخر ما يفعله بعد وداع أهله - التمسح بصنمه والدوار حوله والتطواف به . ويكون ذلك بعد عودته سالما - هو أول عمل يقوم به .

ويتحاب الشبان والفتيات ، فيكون من دواعي استمرار الحب بينهم - المبالغة في المعاينة بشق البرود والبراقع والثياب ، والأفسد^س الحب وذاب .

وتُقِلَّتُ المرأة ، أو يموت ولدها ، فيكون من دواعي بقاء ولدها على قيد الحياة ، أو كثرتهم بعد قلة - أن تقفز هذه المرأة على جثة قتيل من

قتلى القوم عددا من المرات

وتقوم الحرب ، ويحمى وطيسها ، فيكون مما يطفىء نارها ويسكت
أوارها - أن تخرج النساء فتبول بين المتحاربين .

ويمتنع القطر ، فيعلق السلع والعشور في أذنان البقر ، ثم توقد
فيه النار ، ثم تساق تلك البقر الى المرتفعات واليفاع ، استسقاء بذلك ،
واستجلابا للأمتار .

ويريد الواحد منهم أن يفعل من أمره أمرا ، فيزجر حيوانا
أو طيرا ، فان تيامن في سيره أو طيره ، تيمن به ومضى لشأنه وهو مستبشر
مسرور . وان تياسر حيوانه أو طيره ، تشام بذلك ، وأجل القيام بما عزم
عليه من الأمور .

وقد يحدث بينهم ما يثير النزاع ، كسرقة أو غيرها من الجرائم ،
أو أى أمر تغم عليهم فيه الحقيقة ، فيردونه الى كهنتهم وعرفائهم ،
الذين يزعمون أن لهم بالغيب علما - وهم فى الحقيقة يحدسون ويكذبون .
الى غير ذلك من الأوبد والخرافات والأساطير التى عجت بها حياة القوم فى
مختلف النواحي .

وقد عبر شعراء الجاهلية عن هذا تعبيراً صادقا وواضحا . عبروا
عن الكهانة والعرافة والزجر والطيرة ، وعبادة الأصنام واتخاذ الأصباب ،

وغيرها من الخرافات التي غصت بها مجتمعاتهم في ذلك الزمان. مما يدل على أن أولئك الشعراء كانوا أبناء بيئتهم ، ينقلون - بأمانة - ما كان يدور فيها . بل ان كثيرين من أولئك الشعراء أنفسهم كانوا ممن يؤمن بتلك الخرافات ، ويعتقد في تلك الأساطير .

فما هي تلك الخرافات؟! وما هي تلك الأساطير؟! وماذا قال فيها الشعراء الجاهليون من أشعار؟! ، هذا ما نحب - بعون الله - أن نبسط الحديث فيه .

الفصل الأول

الكهانة والعرافة والطيرة والتمايم

الكهانة والعرافة ، كلمتان تكادان تترادفان . إذ أن معناهما كما ذكر ابن منظور في اللسان هو تعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ، وادعاء معرفة الأسرار .^(١) وقد كان في العرب كهنة وعرافون . قال ابن منظور أيضا : " فمنهم من كان يزعم أن له تابعا من الجن ، ورثيًّا يلقي اليه الأخبار ، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله ، أو فعله أحواله . وهذا يخصونه باسم العراف . كالذي يدعى معرفة الشيء المسروق ، ومكان الضالة ، ونحوهما " .^(٢)

(٢) اللسان - كهنة

(١) اللسان - كهنة ، عرف

وقد يطلق على الكاهن أو العراف أيضا الحازي . فالتحزبي هو التكهن
والحازي هو الذي ينظر في الأعضاء . وفي خيلان الوجه يتكهن .^(١)

وقد حملت الينا اللفظة كلمات أخرى ، تدل على ادعاء علم الغيب ،
منها القِيَافَة . وهي تتبع الآثار ومعرفتها . وهي كذلك معرفة شبه الرجل
بأخيه ، وشبهه بأبيه .^(٢) قال الإبيسي في المستطرف :^(٣)

” وأما القيافة فهي على ضربين ، قيافة البشر ، وقيافة الأثر .

فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الانسان . وتختص بقوم من العرب
يقال لهم بنو مُدْلِج ، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفرا ، فيلحقه
بأحدهم .”

ثم قال :^(٤) ” وأما قيافة الأثر ، فالاستدلال بالأقدام والحوافر
والخفاف ، وقد اختلفت به قوم من العرب ، أرضهم ذات رمل ، اذا هرب منهم
هارب ، أو دخل عليهم سارق ، تتبعوا آثار قدمه ، فيظفروا به ، ومن العجب
أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب
والغريب من المستوطن .”

قال أبوحيان في البصائر والنخائر :^(٥) ” والقائف عند العرب ،
الذي يقفو أقدام السالكين ، فيقول هذه قدم فلان . ثم قال :^(٦) ” وبنو

(١) اللسان - حزا . (٢) اللسان - قيف

(٣) المستطرف في كل فن مستطرف - للإبيسي ٩٣/٢

(٤) المستطرف في كل فن مستطرف ٩٣/٢ (٥) البصائر والنخائر ٨٨/٢ - ٨٩

(٦) المصدر السابق ٨٩/٢

مدلج مخصوصون بهذا الشأن . ولها اصابة ظاهرة ، وحذق مشهور . والعرب تعترف لها بذلك وتُسَلِّم .

ومن تلك الكلمات التي تدل على دعاء علم الغيب أيضا - الطرق - وهو الضرب بالحصى ، والخط في الرمل - وهو ضرب من لتكهن (١)

وقد كان العرب في الجاهلية - كما ذكر القلقشندي في نهاية الارب ، « اذا ألبس عليهم أمر ، ردوه الى كهنتهم » (٢) . يسألونهم عن الأمور الغيبية ، التي كان الكهنة يفتنون فيها بشكل أو بآخر .

أما العيافة فهي زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها - وممرها . وعاف الطير وغيره من السوانح ، يعيفه عيافة زجره (٣) . وكان من شأن العرب عيافة الطير وزجرها ، والتطير ببارحها ، ونعيق غرابها ، وأخذها ذات ليسار اذا أثاروها . بل كان من شأنهم أيضا - التطير بالسوانح والبوارح من الأطباء والطير وغيرها . (٤)

قال الحصري في زهر الآداب (٥) : « وقد أكثرت العرب في ذكر الطيرة والزجر . وكانت تعتقد بذلك وتجري على حكمه » .

وكان الغراب - لسوء حظه - عندهم محل شوم دائم ، سواء باسمه أو بحركاته أو بأصواته . ومن أمثالهم الدارجة « أشأم من غراب البين » قال أبو الفضل الميداني في مجمع الأمثال : « انما لزمه هذا الاسم ، لأن الغراب اذا بان أهلا لدار النجعة ، وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم . فتشاءموا

(١) اللسان - طرق (٢) نهاية الارب للقلقشندي ص ٤٥٣
(٣) اللسان - هيف (٤) اللسان - طير
(٥) زهر الآداب - للحصري - ٤٧٨/١

به وتطيروا منه . واذ كان لايعترى منازلهم الا اذا بانوا ، فسموه غراب
البيّن^(١) . ثم قال : " ومن أجل تشاؤمهم بالغراب ، اشتقوا من اسمه
الغربة والاعتراب والغريب .

وليس فى الأرض بارح ولا نطيح ، ولا قعيد ولا أعضب ، ولا شئ مما
يتشاءمون به ، الا والغراب عندهم أنكدمه^(٢) " .

ويقول الجاحظ : " فالغراب أكثر من جميع ما يتطير به فى باب
الشوم . ألا تراهم كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئا ، ذكروا الغراب معه .
وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره^(٣) " .

وقد عبر الشعراء الجاهليون عن هذه الطباع التى انتشرت فى
مجتمعهم أصدق تعبير . اذ انتشرت فى أشعارهم أخبار الكهان والعرافين ،
والطرايق والزاجرين - انتشارا كبيرا . ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان
الحِجْل بن حاتم الهمداني - وقد أسرته تميم ذات يوم ، فبعث أبوه أخاه
فى فدائه ، فلما دنا أخوه من الأرض التى هوفىها ، قال الحِجْل - وكان فيما
ذكر أبو الفضل الميداني فى مجمع الأمثال - عائفا يزجر الطير :-^(٤)

تُخَبِّرُنِي بِالنَّجَاةِ الْقَطَاةِ وَقَوْلِ الْغُرَابِ بِهَا شَاهِدُ
تَقُولُ أَلْقَدْ دَنَا نَكَازِحُ فِدَاءٌ لَهُ الطَّرْفُ وَالتَّالِدُ

(١) مجمع الأمثال للميداني ٣٨٣/١ مثل رقم ٢٠٤٢

(٢) نفس المصدر ٣٨٣/١ مثل رقم ٢٠٤٢

(٣) الحيوان - للجاحظ - ٤٤٣/٣

(٤) مجمع الأمثال للميداني ٢٤٠/١ مثل رقم ١٨١٨

فهاهو ذا الحِمْسُ بن حاتم الهمداني يستنبط - كما زعم - من طيران القطة
خبرا مفاده قرب أخيه لافتدائه . أما كيف كان ذلك ، فالله أعلم !

(١)

ويقول الآخر :

زَعَمَ الوَشَاةُ بِأَنَّ دُومَةَ أَخَلَّتْ
صَدَقُوا وَبَيْنَ لِي شَوَاكِلَ أَمْرَهَا
وَمَتَّقَرِبُ الحَنَكِينَ شَحَاجَ الضَّحَى
ظَنَى وَقَلَصَ خَيْرَهَا المَوْعِدُ
وَجَرَى بِهِ حَرِقَ الجَنَاحِ قَعِيدُ
أَرْنُ كَانَ جَنَاحَهُ مَشْدُودُ

ودومة هذه مكان ، افتقد فيه الشاعر فارسا من قومه عزيزا عليه ،
وكان القوم قد حذروه من ذلك المكان فلم يستجب لتحذيراتهم ، ووسمها
بالزعم . والزعم أقرب إلى الكذب منه إلى الصحيح .

ولكن الذي أكد صدقهم - وكان يشك فيه - نعيب هذا الغراب
الذي وصف ، ولقد زاد من يقينه بصدق القوم فيما حذروه منه - صفات
في هذا الغراب تطير بها . فهو قعيد أي جاءه من ورائه . وهو حرق الجناح
أي منتوف ريشه . وهو متقارب الحنكين أي سريع الشحج . وهو كذلك أرن أي
نشط يردد نعيبه ويديمه .

ولم يكن هذا الشاعر وحده من بين شعراء الجاهلية ، هو الذي تمنى
أن تظل الأخبار السيئة التي ترد عن الأئمة - زعما من الزعم . ثم يتحقق
صدقها بأصوات الغربان ، كما كانوا يزعمون - بل لقد كان هناك غيره كثيرون !

- (١) انظر ديوان عامر بن الطفيل ص ٨٤
(٢) الشواكل من الطرق ما انشعب عن الطريق الأعظم - اللسان شكل - . وحرق ريش
الطائر فهو حرق : انحص (اللسان حرق) . والقعيد ما أتاك من ورائك من
طبي أو طائر يتطير منه (اللسان - قعد) .
(٣) الشحج كالنعيب - صوت الغراب (اللسان شحج) ، وأرن كفتن - نشيط
(اللسان أرن)

يقول عبيد بن الأبرص : (١)

س زَعَمَ الأَجْبَةُ أَن رِحَلْتَنَا غَدَاً
وَبِذَاكَ خَبِرْنَا الغَدَاةَ الأَسْوَدَ (٢)

ويقول النابغة :

س زَعَمَ البَوَارِحُ أَن رِحَلْتَنَا غَدَاً
وَبِذَاكَ تَنَعَابُ الغَرَابِ الأَسْوَدِ

ولقد أطمأن أهل الجاهلية الى صدق ما يلقي في روعهم من تطيرهم بالفراب ، حتى جرى ذلك على ألسنة العقلاء من شعرائهم ، كزهير بن أبي سلمى ، الذي يقول : (٤)

فَعَدَّ عَمَاترِي إِذ فَاتَ مَطْلِبُهُ
أَمْسَى بِذَاكَ غَرَابَ البَيْنِ قَدْ نَعَقَا

هذا وقد تعددت ألوان تطيرهم بالفراب ، إن باسمه ، أو بلونه ، أو بحركاته أو بأصواته ، أو بغير ذلك من شئونه . يقول الجاحظ : (٥) " والفراب لسواده ان كان أسود ، واختلاف لونه ان كان أبقع ، ولأنه غريب يقطع اليهم ، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقسم ، الا عند مباينتهم لمساكنهم ، ومزايلتهم لدورهم ، ولأنه ليس شيء من الطير أشد على ذوات الدبّر من ابلهم من الغربان ، ولأنه حديدا للبصر ، فقالوا عند خوفهم من عينه - الأعور - .

كما قالوا : غراب لاغترابه وغربته . وغراب البين ، لأنه عند بينونتهم يوجد في دورهم " .

- (١) ديوان عبيد ص ٤٣ (٢) الغداف : الغراب والجمع غدافان - بضم الغين (اللسان غدف)
(٣) ديوان النابغة ص ٢٩ (٤) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤١
(٥) الحيوان - للجاحظ - ٤٣٨/٣ - ٤٣٩

(١) — فهذا شاعر يتطير باسم الغراب يقول :

وَصَاحَ غُرَابٌ فَوْقَ أَعْوَادِ بَانَةِ
فَقَلْتُ غُرَابُ يَا غُتْرَابُ ، وَبَانَةُ
بِأَخْبَارِ أَحْبَابِي فَقَسَمَنِي لِفِكْرِي
بِبَيْنِ النَّوَى تِلْكَ لِعِيَا فَةُ وَالزَّجْرِ

(٢)

ويقول الآخر :

لَمَّا صَرَدْتُ يَوْمًا عَلَى غُصْنِ بَانَةٍ
فَقَلْتُ أَتَصْرِيدُ وَشَحَطٌ وَغَرَبَةٌ
وَصَاحَ بِذَاكَ لِبَيْنِ مِنْهَا غُرَابِي
فَهَذَا لِعَمْرِي نَائِيهَا وَاغْتِرَابِي

فقد تطير الشاعران بالاسم من الغراب ، وردا اليه السبب في الشحط والاعتراب .
بل لقد تطيرا بالاسم من شجرة البان نفسها ، وتشاء ما بالبين من ذكرها .
وزادا الثاني ، فتطير بالاسم من هذا الطائر المسمى بالصد ، وتوقع التصريد
وهو القلة في كل شيء .^(٣)

(٤) وفي التطير بلون الغراب يقول عنتره :

ظَمِنَ الدِّينَ فِرَاقَهُمُ اتَّوَقَّعُ
وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغُرَابُ الْإِبْقَعُ
حَرِقَ الْجَنَاحُ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسَهُ
جَلَمَانُ ، بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مَوْلَعُ^(٥)

فالبقع التي في هذا الغراب ، زادت من تطير عنتره به . وقد رأينا قبل
كيف أن سواد لون الغراب قد زاد من تطير كل من عبيدوا النابغة به كذلك

(١) الدرة الفاخرة - للأصمعي ٢٥٠/١ ، والتنبيه على حدوث لتصنيف ص ١٦٥

(٢) زهر الأناج للحمصى (٤٧٨/١) والبيتان في الممتع في التصريف ٥٠/١

(٣) الصد - كالجعل - طائر فوق العصفور . كانت العرب تطير بصوته وشخصه
والتصريد التقليل (اللسان - صد) .

(٤) ديوان عنتره ص ٦٠

(٥) الجلم والجلمان - كالقلم والقلمان - المقرض والمقصر (اللسان جلم)

على أن غراب عنتره فيه صفات أخرى غير لونه ، جعلته يزداد منه تطيرا وتشاؤما - . وبعض هذه الصفات الخلقية ، وبعضها خلقية - ان صح التعبير - . أما الخلقية منها فهو غراب حرق الجناح أى منتوفه وقصير ريشه ، ثم انه غراب ذو فكين حادين كأنهما المقصص .

وأما الصفات الخلقية فيه ، فمنها ولعه بنقل الأخبار السيئة ، وهشاشته لترديدها ، وسروره بنشرها على الناس . ولذلك كان تطير عنتره به شديدا - والعياذ بالله ..

وفى لتطير بصوت الغراب ، وبعض شأنه - غير ما رأينا - يقول
النابغة : (١)

ومرت بآرِحَا عَنزِ رَمِيٍّ فَأَسْمَعُكَ الَّذِي بِالْأَمْسِ صَاحَا
غُرَابٌ فَوْقَ مَدْحَضَةٍ سَحْوِقٍ رَأَى فَرَخِيئِهِ قَدْ هَلَكَا فَنَاحَا (٢)

وهكذا نهب العرب فى تطيرهم بالغراب ، الى حد بعيد . وجعلوا ذلك التطير أمرا لا يشك فيه ، فهومن الأمور الحتمية الوقوع . يقول علقمة : (٣)

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرَبَانِ يَزْجُرْهَا عَلَى سَلَامَتِهِ لِأَبَدٍ مَشْئُومٌ وَ

واغتاظ الجاهليون من الغراب . لما يسببه لهم من شوم ، وما يجره عليهم - بزعمهم - من كوارث ، وأعييتهم الحيلة فى الانتقام منه ، فدعوا عليه

(١) ديوان النابغة ص ٢٤٩

(٢) المدحضة المزلفة والارتفاع - (اللسان - نض) . والسحوق الطويلة (اللسان حق) .

(٣) ديوان علقمة ص ٦٧ وقد نسبها الجاحظ لسلامة بن جندل فى الحيوان ٤٤٩/٣

(١)

يقول عنتره :

ظَنَّ الَّذِينَ فَرَّقَهُمْ أَتَوْعَ
فَزَجْرَتُهُ أَلَا يَفْرُخُ عَشِيَّهُ
إِنَّ الَّذِينَ نَعَبْتُ لِي بِفِرَاقِهِمْ
وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغُرَابُ الْإِبْقَعُ
أَبْدًا ، وَيَصِيحُ وَاحِدًا يَنْتَفِجُ
قَدْ أَسْهَرُوا لَيْلِي لِتَمَامِ فَأَوْجَعُوا

(٢)

ويقول الآخر :

صَدَّقُوا وَبَيَّنَّ لِي شَوَاكِلَ أَمْرَهَا
فَزَجْرَتُهُ أَلَا يَفْرُخُ بِيضَهُ
وَجَرَى بِهِ حَرِقُ الْجَنَاحِ قَعِيدُ
وَيَصِيبُهُ صَدَى الرَّصَافِ سَدِيدُ

فعنتره متوجع من فراق أحبائه ، يسهر الليل بتمامه من جراءة ذلك التوجع ، وليس من مسبب لفراقهم - كما يتوهم - الا نعيب ذلك الغراب اللعين ، الذي لم يجد عنتره ما ينتقم به منه ، الا أن يدعو عليه بالعقم . عسى أن يذوق شيئاً مما ينعب به للناس (!)

أما الآخر فان حرقته من الغراب ، أشد من حرقه عنتره ، وأضمه عليه أعرق ، وذلك لأن قضيته مختلفة . فهي ليست فراق حبيب قد يجري بلقائه القضاء مرة ثانية ، ولكنها فراق أبدي ، فهي موت عزيز عليه - كما رأينا - ولن تجرى بلقائه الأيام مرة ثانية .

(١) ديوان عنتره ص ٦٠

(٢) انظر ديوان عامر بن الطفيل ص ٨٤

(٣) الرَّصَافُ (كالثياب) جمع رَصْفَةٍ (كبقرة) وهي عقبه من حديد تشد على نصل السهم ، فيشد بها . (انظر اللسان - صف) .

ولذلك كانت حرقة أشد ، وجاءت دعوته على الغراب أشد من دعوة عنصرة ،
فقد دعا عليه بالأل يفرخ عشه أوبيضه ، ليظل عقيما وحيدا - كما فعل عنصرة ،
ثم زاد عليه بدعوة أوقع وأنكى ، وهي أن ترميه الأقدار بسهم صائب .

ولم يقتصر تطير العرب في الجاهلية على الغراب ، فقد تجاوزوه إلى
أشياء كثيرة أخرى من الطير والحيوان وغيرها ، متخذين من أسماءها
أو طيرانها أو حركاتها يمينا أو شمالا ، مجالا لتشاؤمهم أو تفاؤلهم .

قال الجاحظ :^(١) " وأصل التطير انما كان من الطير ، ومن جهة
الطير ، اذا مر بارحا أو سائحا ، أو رآه يتفلى وينتشف ، حتى صاروا اذا -
عابنوا الأعور من الناس أو البهائم ، أو الأعضب أو الأبتير ، زجروا عند ذلك
وتطيروا عندها ، كما تطيروا من الطير اذا رآها على تلك الحال . فكان
زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل
شيء " .

يقول عبيد بن الأبرص ، وذكر قوما غزوا قومه ، بيد أنهم هزموا :^(٢)
وَلَقَدْ جَرَى لَهُمْ فَلَمْ يَتَعَيَّفُوا تَيْسٌ قَعِيدٌ كَالْوَشِيحَةِ أَعْضَبُ
فقد سح للقوم تيس فيه كثير من الصفات التي يتطير بها ، وأهمها اثنتان ،
فهو قعيد ، وهو أعصب . ولكنهم لم يتطيروا به ، فنالهم ما نالهم من هزيمة .

(١) الحيوان ٤٣٨/٣ (٢) ديوان عبيد ص ٣
(٣) الوشيجة عرق الشجرة ، وهذه رواية اللسان - قعد - ورواية الديوان
كالوليفة وهي البرنعة .

فليس الغراب انن وحده ، هو الذى كان محل شوم عند القوم ،
ولكنهم تطيروا بالحيوان سانحه وبارحه ، وقعيده ونطيحه ، وأعوره وأعضبه
وأبتره ، وغير ذلك . (١)

تقول الخنساء ، وهى ترثى أخاها صخرا : (٢)

جَرَى لِي طَيْرٌ فِي حِمَامٍ حَذْرَتُهُ عَلَيْكَ ابْنُ عَمْرٍو مِنْ سَنِحٍ وَبَارِحٍ

فهاهى ذى لخنساء تطير بالسوانح والبوارح من الحيوان والطيور ،
اذ زعمت أنها قد حذرت على أخيها من تطيرها بها ، وكان حذرها ذلك من قبل
أن يأتيتها نعيه .

والعجب فى أمر الخنساء ، أن تتشأم بكلا السوانح والبوارح !
والعرب انما تتشأم بنوع وتتفأمل بالنوع الآخر ، كما سنرى

(٤)

ويقول الآخر :

أَقُولُ يَوْمَ تَلَاقِينَا وَقَدْ سَجَعْتُ حِمَامَتَانِ عَلَى غَصْنَيْنِ مِنْ بَانَ
الآن أعلم أن الغصن لى غصص وإنما البان بين عاجل دان

وهذا الشاعر ، لا يقل أمره عجبا عن الخنساء ، فالناس تطرب - حتى فى زماننا

هذا - لهديل الحمائى على الأغصان ، وهذا يرى فى الغصن غصصا له ، وفى

(١) السانح ما جاء عن يمينك الى يسارك ، والبارح عكسه . وقد يتبادلان
المعنى . والقعيد ما جاء من خلفك ، والنطيح من أمامك ، والأعور
وحيد العين ، والأعضب مكسور القرن ، والأبتر مقطوع الذنب (انظر
اللسان - سنح وبرح ، وقعد ونطح ، وعضب ، وبتر) .

(٢) انظر المعانى الكبير لابن قتيبة ٢٦٩/١

(٣) ديوان الخنساء ص ٢٨

(٤) مجمع الامثال للميدانى ٣٨٤/١ مثل رقم ٢٠٤٢

البان بينا كما يقول . ومثله قول سوار بن المضرب : (١)

تَفَنَّى الطَّائِرَانِ بَيْنَ سَلْمَى عَلَى غَضِينٍ مِنْ غَرْبٍ وَبَانَ
فَكَانَ الْبَانَ أَنْ بَانَتِ سَلِيمَى وَفِي الْغَرْبِ اغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانَ (٢)

قال الجاحظ : (٢) " فاشتق كما ترى الاعتراب من الغرب ، والبينونة من البان "

(٣)

ويقول الآخر :

وَهَبْتَ جَنُوبَ بَاجِتِنَابِي مِنْهُمْ وَهَاجَتْ صَبَا قَلَّتِ الصَّبَابَةُ وَالْهَجْرُ

وهذا الشاعر أشد عجبا - في أمره - من أولئك . فقد تشاءم بنوعين من الرياح ، كانا العرب جميعا يتفاءلون بهما ويطربون لهبوبهما . ألا وهما الجنوب والصبا .

(٤)

قال طرفة بن العبد :

" مَرَّتْهُ الْجَنُوبُ ثُمَّ هَبَتْ لَهُ الصَّبَا "

(٥)

قال الأعمى - وذكر الجنوب - " واذا جاءت جاء معها خير وتلقيح "

وقال الأعمى الشنتمرى في شرحه لديوان طرفة ، بأن الصبا هي الريح اللينة المحبوبة عند العرب ، والتي انا لحقت بالسحاب ، فذلك أجودا لمطروا أكثره . (٦)

(١) الحيوان - للجاحظ - ٤٤٠/٣ - ٤٤١ والبيت الثاني في لمتع في التشرية

(٢) ٤٩/١ الحيوان للجاحظ ٤٤١/٣

(٣) الدرر الفاخرة في الامثال السائرة ٢٥٠/١

(٤) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٩٠

(٥) اللسان - جنب

(٦) انظر ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٨٣ ، ص ٩٠

(٧) نسيها النسيهاني في الزهرة - ص ٢٤٧ - عن أبيات لجندب الثقفي .

فعلام يدل اختلاف الشعراء في التطير بالأشياء؟! يدل على
 اختلاف القوم أنفسهم ، ليس الشعراء وحسب . فقد كان الشعراء يعكسون آراء
 الناس ، ولم يكن الناس جميعا على اتفاق في النظرة الى الأمر . يقول
 عنتره : (١)

طَرِبَتْ وَهِيَ جَتَكَ الطَّبَاءُ السَّوَانِحُ وَ قِيلَ غَدَتِ مِنْهَا سَيْحٌ وَ بَرَّاحٌ
 فيا للعجب ! يتفائل عنتره بما تشاءمت به الخنساء . فهاهو ذا يطرب للطباء
 السوانح والبوارح .

وقد اختلف العرب كما ألمحنا - في تطيرهم بالسوانح والبوارح من
 الطير والحيوان . أما أهل نجد فقد تشاءموا بالبوارح ، وتيمنوا بالسوانح .
 وأما بقية العرب فقد تيمنوا بالسوانح دون البوارح ، لأنها كما يقول ابن منظور
 في اللسان " أمكن للرمى والصيد " (٢)

ولعل الخلاف ناتج من اختلافهم في معنى الكلمتين . فمن قال بأن
 البوارح ماجاء من ميامنك التي مياسرك ، وأنا السوانح ماجاء من مياسرك الى
 ميامنك تيمن بالسوانح . ومن قال بخلاف ذلك تيمن بالبوارح ، والعبارة
 في كونها أمكن للرمى والصيد .

(١) ديوان عنتره ص ٨١
 (٢) انظر في ذلك جمهرة اللغة لابن دريد (٢١٦/١ ج ٥هـ) ، والاعاني - دار
 الثقافة ٩/١١ - ، واللسان - سنح .
 (٣) اللسان - برح

وعلى رأى من تيمن بالسوانح ، وتشام بالبوراح قول النابغة
الذى ذكرناه آنفا : (١)

* زَعَمُ الْبُورَاحِ أَنْ رَحَلْتَنَا غَدًا *
وقوله أيضا (٢) : * وَمَرَّتْ بَارِحًا عَسَنَزْ رَمِي *
وقول الآخر : (٣) : بَرِيحًا ، وَشَرَّ الطَّيْرِ مَا كَانَ بَارِحًا

وعلى رأى من تشام بالسوانح - دون البوراح - قول النمر بن
تولب : (٤)

جَاءَتْ لِتَسْنَحْنِي يَسْرًا فَقُلْتُ لَهَا عَلَى يَمِينِكَ أَنِّي غَيْرُ مَسْنُوحٍ
وقول عمرو بن قميئة :
وَأَشَامُ طَيْرًا لِرَاجِرِينَ سَنِحَهُمْ

ليس هذا وحسب ، بل لقد تشامت العرب ، بأشياء كثيرة أخرى
كالعوت مثلاً ، وكلها له ومن له بالأموات صلة . يقول زهير بن أبي سلمى :
(٥)

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذَبِيانَ بَعْدَمَا تَفَانُوا وَنَهَوَا بَيْنَهُمْ عَطْرَ مَنْشَمٍ

قال أبو عمرو الشيباني ، فيما ذكر أبو العباس ثعلب ، فى شرحه لديوان
زهير : " هى امرأة من خزاعة ، كانت تباع عطرا ، فاذا حاربوا اشتروا

- (١) ديوان النابغة ص ٢٩ (٢) المصدر السابق ص ٢٤٩
(٣) المزهرة للسيوطي ١٥٧١ (٤) ديوان النمر بن تولب ص ٥٠
(٥) ديوان عمرو بن قميئة ص ١٧
(٦) ديوان زهير ص ١٥

منها كافورا لموتاهم ، فتشاهموا بها ”

بل لقد تشاهم القوم بأشياء كثيرة أخرى يضيق المجال عن استقصائها ، وقد أفاض العلماء في ذكرها .^(٢) وقد أردنا بما ضربناه من أمثلة ، أن نبين كيف كانا القوم في جاهليتهم يستنطقون الغيب ، سواء بالتكهن والعرافة ، أو بالزجر والعيافة . والتي كانت دأب الغالبية منهم ، وإن اشتهر بها قوم دون قوم .

إذ أنه كما اختص بنو مدلج^(٣) كما رأينا - بالقيافة ، اشتهر بنو لَهَب بالعيافة . يقول الشاعر :

خَبِيرٌ بَنُو لَهَبٍ فَلَاتِكَ مَلْفِيًا مَقَالَةٌ لِهَبِي إِذَا الطَّيْرُ مَرَّتْ

وذلك أن بنى لَهَب ، كانوا - فيما ذكر عنهم - أزجروا القوم للطير . وفيهم يقول كثير^(٥) :

تِيَمَّتْ لِهَبًا أَبْتَغَى الْعِلْمَ عَنْهُمْ وَقَدْ رَدَّ عَلَّمَ الْعَائِفِينَ إِلَى لِهَبٍ

هذا ، وقد عبر الشعراء الجاهليون عن تلك الخرافات التي انتشرت في مجتمعهم بصدق ووضوح . بل لقد عبروا عن موجة المعارضة التي كانت تعم بعض عقلائهم لتلك السجايا المنمومة ، والتصورات المزعومة .

(١) ديوان زهير ص ١٥ ولعنثم هذه في أمالي ابن الشجري (١١٩/١) خبر آخر طريف

(٢) انظر في ذلك: ديوان الخرنق بتحقيق الدكتور حسين نما ر ص ٢٢-٢٣ والحيوان

للجاحظ ١/٣٢٤-٣٢٦ ، ٤/٢٥٣ ، والشعراء لابن قتيبة ١/٣١٢ ،

والأضداد لابن أنباري ص ١٠٦ ، والاعاني لأبي الفرج - ثقافة ٢١/١٦٦ ،

وزهر الاداب للحصري - ١/٤٧٧-٤٨١ ، وحلمية الفرسان لابن هذيل لاندلسي

ص ٥٠ ، وغيرها .

(٣) انظر ص ١٦٩ من بحثنا هذا

(٤) شاهد رقم ٤١ من شواهد شرح ابن عقيل على لفية ابن مالك (١/١٩٥)

(٥) ديوان كثير ص ٤٦٩ ، وله في الاعاني - ثقافة ٩/٣٣ خبر طويل .

(١) يقول عاجنة بن حاتم الهمداني:

وَإِنِّي لَيْسَ يَثْنِينِي إِذَا مَا رَحَلْتُ سَنُوحَ شَحَاجٍ نَعْسُوبٍ

فهاهو ذا الرجل ، يمضي اليها يريد ، غير عابئ ، بسنوح الغراب ، ولا بشحيجه
أو نعيبه ، (٢) وهي الأصوات التي كانت تقشعر منها أبدان غيره من القوم ، وتقف
لها شعورهم .

(٣)

ويقول الآخر :

وَإِنِّي أَمْرٌ لَاتَقْشَعِرُ ذَوَابَّتِي مِنَ الذَّنْبِ يَعْوِي وَالغَرَابِ الْمُحْجَلِ

فهو رجل واقعي جري ، لا يخاف الذئب - والذئب في صحرائهم مخيف ، ولا يتطير
بالغراب - وما أكثر المتطيرين به .

(٤)

ويقول الحارث بن جلزة :

يَا أَيُّهَا الْمَزْمِعُ نَمَّ أَنْثَنِي لَا يَثْنِكَ الْحَازِي وَلَا الشَّاحِجُ
وَلَا قَعِيدٌ أَعْضَبَ قَرْنَهُ هَاجَ لَهُ مِنْ مَرْبَعٍ هَائِجٍ

فهو يطلب ممن يسمعه ، بل يحثه وينصحه ، ألا يثنيه عن عزمه قول كاهن كذاب ،
أو سنوح قعيدٍ أعضبها حج من الحيوان ، ولاحتى شحيج غراب .

- (١) مجمع الأمثال - للميداني - ٣٤٠/١ - مثل رقم ١٨١٨
(٢) لقد فرقوا بين الشحيج والنعيب من أصوات الغراب ف قيل " شحيج الغراب
ترجيع صوته ، فاذا مَدَّ رَأْسَهُ قِيلَ نَعْبٍ " (اللسان - شحج) .
(٣) الحيوان للجاحظ - ٣٧٧/١
(٤) المصدر السابق ٤٤٩/٣ - ٤٥٠

وهذا زبّان بن سيّاد بن عمرو الفزاري يُعرض بالناطقة الذبيانية
 لأجابه عن لغزو معه - تطيرا - وكانا يريدانه ، ولكن الناطقة سح له
 ما تطير منه فعاد ، فلما رجع زبّان سالما وغانما قال : (١)

تخبر طيره فيها زياد	وتخبره وما فيها خبير
أقام كان لقمان بن عاد	أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا	على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء	أحايينا وباطله كثير

ويقول أبو ذؤيب الهذلي : (٢)
 يقولون لي : لو كان بالرمل لم يمت نسيبة والطراق يكذب قيلها

وهي ثورة واضحة على الكهان والعرافين ، والحزاة والعائفين ،
 تتمثل في تكذيب أبي ذؤيب للطراق ، الذين يضربون بالحصى ، أو يخطون في
 الرمل يدعون الإلام بالغيث .

ولقد نهب بعض أولئك الشعراء في ثورتهم على تلك الطيرة - التي
 انتشرت ذلك الانتشار الواسع بين قومهم - إلى التعمق في الهجوم عليها ،
 بعرضها على العقول ، واستنباط الحجج لدحضها من الواقع الذي يعيشون فيه .

(١) الحيوان للجاحظ ٤٤٧/٣ - فيما رواه الجاحظ عن الأصمعي .

(٢) ديوان الهذليين ٣٣/١

(١)

يقول طرفة بن العبد:

لَعْمَرِي لَقَدِمْتُ عَوَاطِسَ جِمَّةٍ وَمَرَّ قَبِيلَ الصَّبْحِ ظَبْيِي مَصْمَعٍ (٢)
 وَعَجْزًا نُفْتُ بِالْجِنَاحِ كَانَهَا مَعَ الصَّبْحِ شَيْخِي بِجَا دِمْقَنْعٍ (٣)
 فَلَنْ تَمْنَعِي رِزْقًا لِعَبْدٍ يُرِيدُهُ وَهَلْ يَعْدُونَ يُؤَسَّاكَ مَا يَتَوَقَّعُ

فهاهو ذا طرفة بن العبد ، تقابله السوانح والبوارح ، من الطيرو والحيوان ، بل وتقابله العواطس الجمة ، وهي - كما ذكر ابن قتيبة في شرحه لهذا البيت - " أشياء كثيرة عطست يتشاءم بها " (٤)

ومن المعروف أن العرب كانوا يتطيرون بالعطاس أيضا . يقول امرؤ القيس : (٥)

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبْلًا لِعَطَاسٍ بِهَيْكَلٍ شَدِيدِ مَشْكَ الْجَنْبِ فَعَمَ الْمَنْطِقُ (٦)
 قال ابن قتيبة في تفسيره له : " أى قبل أن ينتبه انسان ، فيعطس فأتطير منه " (٧)

أما طرفة ، فتقابله العواطس الكثيرة ، وتسبح له الطباء ، وتحلق فوقه عقاب عجزاء ، قصيرة الذنب معيبته ، وكل ذلك فى الصباح وهو منطلق فى طلب الرزق . ولكنه لا يعيرها التفاتا ، ولا يتطير منها - شأن بقية القوم -

- (١) ديوان طرفة - بتحقيق الدكتور على الجندي - ص ٢١٣ - ٢١٤
 (٢) مصمع بالفتح - صمعت أذنه أى صغرت ، ومصمع بالكسر - مسرع - انظر المعانى الكبير ٢٧٧/١
 (٣) عقاب عجزاء ، بموخرها بياض أولون مخالف وقيل هى التى فى ذنبها مسح أى نقص وقصر - اللسان عجز .
 (٤) المعانى الكبير لابن قتيبة ٢٧٧/١
 (٥) ديوان امرئ القيس ص ١٧٢ (٦) الهيكلى : الفرس الضخم الطويل المرتفع (انظر القاموس المحيط ٦٩/٤ فصل لها - باب اللام) ، وشديد مشك الجنب شديد مفرز الجنب فى الصلب . والفعم الممتلى (انظر القاموس المحيط ١٦٠/٤ - فصل الفاء - باب الميم) . والمنطق كالمعظم - الجوف الضخم - (انظر أساس البلاغة - ص ٦٤٠ - نطق) (٧) المعانى الكبير لابن قتيبة ٢٧٠/١

بل انه يعنى - وهو موقن بأنها لاتمنع خيرا يراد بالناس ، ولاتزيد شيئا
على الشر الذى يراد بهم . " وَهَلْ يَعِدُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شَيْئًا " !

أما البيد بن ربيعة ، فانه يصيح فى الناس ، ويهيب بهم أن يتخلصوا
من تلك الخرافة التى استشرت فيهم . اذ لا يعلم من السموات والأرض الغيب
إِلَّا اللَّهُ . وَالْأَفْئِدَةُ كَالْأَفْئِدَةِ وَالْعُرَافِينُ ، وَالطَّرَاقُ وَالْعُزَاةُ وَزَجْرَةُ
الطير وغيرهم من الجالين ، عن الناس متى يموتون . . . أو عن الغيث متى يكون .
يقول : (١)

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا لِلَّهِ عَانِعٌ
سَلُوهُنَّ إِنْ كَذَبْتُمُونِي مَتَى الْفَتَى يَذُوقُ لِمَنَايَا أُمَّتِي الْغَيْثَ وَاقِعٌ

*

أما الخرافة الأخرى التى كان العرب فى الجاهلية يولونها اهتماما
بالغا فهى التمام . وهى خرز أو خزف أو سواهما ، يعلق على مَنْ خِيفَ عَلَيْهِ
الموت أو الحسد أو غيرهما من حوادث الأيام .

وأكثر ما كانت تعلق تلك التمام على الصغار ، حرصا عليهم
وحماية لهم مما لا يقدر على دفعه من مجربات الأقدار . تقول امرأة من
العرب : (٢)

بِلَادِهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَائِمِي وَأَوْلَا أَرْضِ مَسْجِدِي تَرَابِيهَا

(٢) حلبة المحاضرة ١/٣٨٩

(١) ديوان لبيد ص ١٧٢

وقد كان القوم اذا خافوا على الصبي الصغير من نظرة انسى ، أو من
خطفة جنى ، علقوا عليه سن ثعلب أو سن هرة ، فيصير ذلك حرزا له - ففى
زعمهم - . ومن أساطيرهم ، أن جنيةً أرادت صبيا صغيرا ، فلم تقدر عليه ،
فلما رجعت الى صواحبها سألتها عن ذلك فقالت : (١)

كَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسَةٌ تُعَالِبُ وَهَرَّةٌ

وكانوا ربما علقوا التمام لتشفى من حب وتبرئ من عشق ، وما
اليهما .

تقول زينب بنت فروة المريّة فى ابن عم لها - وكانت تتعشقه : (٢)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلِي يَعْلَمُونَ تَمِيمَةً
مِنَ الْحَبِّ تَشْفِي قَلْدُونِي التَّمَامِ

ومن مزاعمهم أن خرزة شفاة تسمى السلوانة ، كانوا يعتقدون
أن من شرب عليها ماء ، أو سحقها وخلطها بالماء ثم شربه ، فإنه يسلع عن هوى
من يحب ويشفى من عشق من يهوى .

قال الشاعر : (٣)
يَا لَيْتَ أَنَّ لِقَلْبِي مِنْ يِعْلَلِهِ
أَوْ سَاقِيَا فَسْقَانِي عَنْكَ سَلْوَانَا

روى ابن منظور فى اللسان قال : وسأل الأعمى أحدهم : ما السلوان ؟ فقال
(١) الأسطورة والرجز فى الدرّة الفاخرة ٥٦٤/٢ ، وفى نهاية الأرب للنويرى

١٢٤/٣ .

(٢) أمالى القالى ٨٧/٢

(٣) اللسان - سلا

انها خرزة ، تحق ويشرب ماؤها ، فيورث شاربه سلوة . فقال : اسكست ،
لايسخر منك هؤلاء .^(١)

وقال ابن فارس في معجم المقاييس :^(٢) " والسلوانة الخرزة ،
وكانوا يقولون ان من شرب عليها سلا مما كان به ، وعمن كان يحبه " . ثم
ذكر قول الشاعر :

شربت على سلوانة ماء منزلة فلاجديدا لعيش يامى ما أسلو

ومن التمام التي كانت معروفة لديهم فى الجاهلية أيضا - كعب
الأرنب . قال الأصبهاني فى الدررة الفاخرة :^(٣) " وزعموا أن من علق على
نفسه كعبأرنب ، لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجن تهرب من كعب
الأرنب " .

" وقيل لزيد بن كثوة " أحق ما تقولون بأن من علق على نفسه
كعبأرنب ، لم تقربه جنان الحى وعمار الدار ؟! فقال : إى والله ، وشيطان
الحماطة^(٤) ، وجان العشرة ، وغول القفر ، وكل الخوافى . إى والله .
وتطفأ عنه نيران السعالي " .^(٥)

وحق للرجل أن يعلق على نفسه كعبأرنب ، اذا كان كعب الأرنب -
كما زعموا - يمنع عنه كل هذه الأخطار . أما لماذا الأرنب بالذات ، دون غيرها
من الحيوانات ، فلأنها - بزعمهم - ليست من مطايا الجن ، لأنها تحيين^(٦) .

(١) اللسان - سلا (٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٩٢/٣

(٣) الدررة الفاخرة فى أمثال السائرة ٥٦٣/٢

(٤) الحماطة - كما فسرها النويزى فى نهاية الارب ١٢٤/٣ - هى شجرة التين

(٥) الدررة الفاخرة ٥٦٣/٢ (٦) انظر نهاية الارب للنويزى ١٢٣/٣

لقد سقط بعض عرب الجاهلية ، في حضيض سحيق من الجهل والخرافة ،
وهذا هو الذي جعل امرأ القيس يوصي أخته بقوله : (١)

(٢)	عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ ، أَحْسَبُكَ	(٣)	يَاهِنْدُ لَا تَنْكِحِي بُوَهَةَ
(٣)	بِهِ عَسَمٌ يَبْتَغِي أَرْسَاكَ		مَرْسَعَةٌ بَيْنَ أَرْسَاغِهِ
	حَذَارُ الْمَنِيَةِ أَنْ يَعْطَبَا		لِيُجْعَلَ فِي كَفِّهِ كَعْبَهَا

يقول ياهندُ اياك أن تتزوجي رجلا كهذا . فان من يبلغ من الجهل هذا المبلغ ،
ويصل به الجبن الى هذا الحد ، ويسف بين الرجال الى هذا القدر ، لا يستحق
أبدا أن يكون ختنا لامرئ القيس بن حجر ..

وربما كان من التمايم أيضا ، ما كانوا يعلقونه على اللديغ من
حلي النساء ، فقد زعموا " أن الملسوع اذا علق عليه الحلي أفاق " . وكانوا
يعلقونها عليه ، ثم يتركونه أياما لاينام . اذ يُجلس معه فيهن ، ويسهد
حتى يُنزع نومه . قال النابغة : (٥)

(٦)	مِنَ الرَّقِشِ فِي أَيَّامِهَا السَّمِ نَاقِعٌ	(٥)	فَبِتْ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْبِيلَةٌ
	لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَا قِعٌ		وَيَسْهَدُ مِنْ نَوْمِ الْعِشَاءِ سَلِيمَهَا

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٢٨

(١) البوهة : الرجل الضعيف الطائش الأحمق (اللسان بوه) ، والبوهة البوهة
العظيمة وتضرب مثلا لمن لاخبرفيه (اللسان حسب) ، والاحسب البخيل
الشحيح الذي لم تحلق عقيقته حتى شاخ يصفه باللوم والشح (اللسان -
حسب)

(٣) الترسيغ فساد في موقا العيون ، والعسم يبس في المرافق . والأرساغ جمع رسيغ

وهو مفصلها بين الكف والذراع (اللسان رسيغ ، عسم ، رسيغ) .

(٤) الدرّة الفاخرة ٥٦ ٣/٢ (٥) ديوان النابغة ص ٤٦

(٦) يقال سم منقوع ونقيع ونافع : أي بالغ قاتل (اللسان نقع) .

بهذه الأشعار، وبكثير غيرها ، عبر الشعراء الجاهليون عن انتشار

خرافة التمام في مجتمعهم . وكما كان يوجد في العرب من يرفض خرافات
التكهن ، والتحرى ، والعرافة ، والعيافة ، والطيرة ، وما إليها ، فقد
كان يوجد بينهم أيضا من يرفض خرافة تعليق التمام ، بأشكالها المختلفة .

وعبر الشعراء الجاهليون عن هذا كذلك أصدق تعبير . وقد رأينا شيئا
من ذلك عند امرئ القيس ، وهو يتخذ ممن يعلق كعب الأرنب - تميمه من
التمائم - مثلا للرجل الدون الذي لا يستحق أن يعامل كما يعامل الرجال .

وهناك آخرون كثيرون - غير امرئ القيس - كان لهم اعتراض على
التمائم وغيرها من خرافات قومهم . يقول صخر الهذلي :
(١)

لعمرك والمنايا غالبات ^ووما تغني التميمات الحماما ^و

ومن الذي تحميه التمام ، اذا نزلت بساحته المنايا؟! ان المنايا غالبية ،
فاذا حم على امرئ القضاء ، فليس له منها امتناع ، وليس له منها وقاء .

وصدق أبو ذؤيب اذ يقول :
(٢)
وَإِنَّا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ^وأَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لِأَنْفَعِ ^و

وليس عجيبا أن يثور الرجال في ذلك المجتمع على تلك الخرافة ، ولكن
العجيب أن تثور النساء عليها ، ويقتنعن بضعها ، وذلك في مجتمع كان كثير
من رجاله يؤمنون بها .

(١) ديوان الهذليين ٦٢/٢

(٢) المرجع السابق ٨١

(١)

تقول الخنساء أخت زهير بن أبي سلمى وهى ترثيه :

وَمَا يُغْنِي تَوَقِّي الْمَوْتِ شَيْئًا وَلَا عَقْدَ التَّمِيمِ وَلَا الْفَضَارُ
إِذَا لَاقَى مَنِيَّتَهُ فَأَمْسَى يَسَاقُ بِهِ وَقَدْ حَقَّ الْحِنَارُ
وَلَقَاءَهُ مِنْ أَيَّامٍ يَسُومُ كَمَا مِنْ قَبْلِ لَمْ يَخْلُدْ قَدَارُ (٢)

فالمت ما ضالى غايته ، لا يمنعه - كما تقول هذه الخنساء - التوقى

ولا الحنار ، كما لا يمنعه عقدا التمام أو تعليق الفضار ، والفضار خرف
أخضر ، كان أحدهم - فيما ذكر أبو الفرج - اذا خشي على نفسه يعلق منه فى
عنقه . (٣)

(٤) وقد بلغت تلك الاعتراضات ، على تلك الخرافات - ذروتها فى قول

الشاعر :

لَا يَمْنَعُنِكَ مِنْ بَغَا وَالْخَيْرُ تَعْقَادُ التَّمَائِمِ
وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمِ (٥)
فَإِذَا الْأَشَائِمُ كَالْأَيَا مِنْ وَالْأَيَّامِ كَالْأَشَائِمِ (٦)
وَكَذَاكَ لِخَيْرٍ .. وَلَا شَرٌّ عَلَى أَحَدٍ بَدَائِمِ
قَدْ خَطَّ ذَلِكَ فِي الزَّبُو رِ الْأَوَّلِيَّاتِ الْقَدَائِمِ

(١) الاغانى - دار الثقافة ٣٢٢/١٠

(٢) هو قدار بن سالف ، الذى يقال له أحيمر ثمود ، عاقرة ناقة صالح عليه السلام (تاج العروس - قدر) .

(٣) انظر الاغانى - دار الثقافة - ٣٢٢/١٠

(٤) ذكر ابن منظور الابيات الخمسة فى اللسان (حتم) ، ونسبها للمرقش السدوسى أولخز بن لؤنان ، وذكر ابن قتيبة فى عيون الاخبار ١٤٥/١ الابيات الثلاثة الأولى وعزاها للمرقش . وذكر الأمدى فى المؤلف والمختلف ص ١٤٣ الابيات الاربعة الأولى ونسبها لخز بن لؤنان .

(٥) الواقى هو الصرد ، وهو طائر فوق العصفور ، وكانت العرب تطير بصوته وشخصه (انظر اللسان - صرد) . والحاتم الغراب الأسود لأنه يحتتم عندهم بالفراق " (اللسان حتم) .

(٦) أى تتساوى التى تأتى من يمين مع التى تأتى من يسار من الحيوان والطيور .

تلك هي بعض أساطير القوم وخرافاتهم ، في انعاء علم الغيب ، من كهانة أعرافة ، أو ضرب بالحصى ، وخط في الرمل ، أو تحزُّ أوقيافة . وتلك هي بعض أساطيرهم في الزجر والطيرة والعيافة ، وربط الأمور بحركات الطير والحيوان ، أو بأشكالها وأصواتها وممرها .

وتلك هي أيضا بعض أساطيرهم ، في تعليق التمام ، واعتقادهم في جلبها للناس الحظ والحظوة ، ودفمها عنهم الأذى والشور . وشفائها لهم مما يعانون من هيام أو عثق أو ما اليهما من أمور .

ولقد عبر الشعراء الجاهليون عن ذلك أصدق تعبير . عبروا عن الاعتقاد في تلك الخرافات والأساطير ، كما عبروا عن الثورة عليها . فقد كان في مجتمعهم كلا النوعين من الناس ، فمؤمن بها ، معتقد فيها ، وساخر منها ، معترض عليها .

ولقد تتبعنا ذلك في أشعارهم ، ما استطعنا إليه سبيلا . وهناك خرافات أخرى كعبادة الأصنام وتقديس الأوثان ، وغيرها ، سيلى الحديث عنها في الفصل القادم باذن الله تعالى .

* * *
* * *
*

الفصل الثاني

الأصنام !

الأنصاب !

الأوثان !

الفصل الثاني الأصنام والأنصاب والأوثان

انتشر تقديس الأنصاب، وعبادة الأصنام، والأوثان بين العرب في الجاهلية، انتشارا واسعا. حتى لا تكاد تجد من بينهم ناجيا من تلك الخرافات الأمن عصم الله، وقليل ما هم!

أما الأنصاب فهي الحجارة التي كانوا ينصبونها ويطوفون حولها ويذبحون عندها. قال ابن الكلبي في الأصنام^(١): وكانت للعرب حجارة غبر منصوبة يطوفون بها، ويعترونها عندها، يسمونها الأنصاب. والعلماء على أن الأنصاب هي كل ما يعبد من دون الله.^(٢)

وواحد الأنصاب ^{نصب} - كالدرج -، والنصب ^{نصب} - كالدهن -، والنصب ^{نصب} كالطرق - جمع طريق - . قالوا: وقد تكون الأنصاب جمع نصب، والنصب جمع ^{نصب} نصاب - كحساب.^(٣)

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ٤٢

(٢) انظر اللسان - نصب

(٣) اللسان - نصب

وأصل الأثواب عند عرب الجاهلية - فيما يذكر العلماء - " انه كان لا يظعن من مكة ظاعن ، الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم ، تعظيما للحرم وصباة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها ، وصباة بالحرم وجبا له " (١)

وللشعراء الجاهليين فى الأثواب ، أشعار كثيرة ، ليس ما يمنع من أن نتمثل ببعضها فى هذا المقام . يقول الأعشى : (٢)

وَذَا النَّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكُنْهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهُ فَاَعْبُدَا

أى لاتأته ، ولا تقده ، ولا تذبح عنده ، ولا تطف به ، ولا تفعل عنده أى شىء من أمور العبادة .

ويقول المثقب العبدى (٣)

يَطِيفُ بِنَصَبِهِمْ حَجْرٌ صَفَارٌ فَقَدْ كَانَتْ حَوَاجِبُهُمْ تَشِيْبُ

فهو يصف المأم الصبية بالنصب ، وطوافهم حوله ، غير عابئين بالنصب الذى يتجشمونه فى سبيل ذلك . وكأنه يقول : اذا كان الصغار يفعلون هذا ، فما بالك بالكبار !!

ويقول طرفة بن العبد : (٤)

يَا نَى وَجِدْكَ مَا هَجَوْتُكَ وَالْأَنْصَابِ يَسْفَحُ بَيْنَهُنَّ دَمٌ

(١) الأضام لابن الكلبي ص ٦

(٢) ديوان الأعشى ص ١٨٧ (٣) ديوان المثقب ص ٢٦١

(٤) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١٠٦

فهو يقسم لعمر بن هند الملك ، بأنه ما هجاه كما بلغه الرثاة ، ويؤكد
 قسمه بالأنصاب التي تُعترُّ عندها العتائر ، وتذبح عندها الذبائح ، وتسيل
 عندها الدماء . يقسم وهو موقن بأن المخاطب سيصدق ، لأنه يقسم بما أجمع
 العرب على تقديسه في ذلك الزمان .

وكانا العرب يقسمون أشياء أخرى - غير الأنصاب - ويقسمون بها ،
 ولكنهم لا ينسون الأنصاب وان حلفوا بغيرها . يقول عمرو بن جابر الحارثي :
 حَلَفْتُ غَطِيفَ لَاتِنَهْزِهِ سَرِبَهَا وَحَلَفْتُ يَا لَأَنْصَابِ أَنْ لَا يُرْعِدُوا
 أما غطيف فلم يُبين الشاعر بم حلفوا ، ولكنه أبان عن نفسه بم حلف ، ولعله
 يرى الابانة أقدس للمحلف به وأكد لليمين .

(٢)
 ويقول المتلمس لعمر بن هند ، يتحداه ، وكان توعدته :
 أَطْرَدْتَنِي حَذَرَ الْهَجَاءِ وَلَا وَاللَّاتِ وَالْأَنْصَابِ لِاتْتِئِلُ
 فهو لا يكتفى باللات في قسمه ، على تعظيمهم للات - كما سئى . ولكنه يضيف
 الأنصاب ، ليؤكد حلفه .

ليس هذا وحسب ، فقد كانوا يضيفون الأنصاب الى البيت الحرام
 نفسه ، وكانوا قد أجمعوا على تقديسه - كما رأينا - يقول النابغة : (٣)
 فَلَا لِعَمْرٍ الَّذِي قَدَّرْتَهُ حَجًّا وَمَا هُرِّيقَ عَلَى أَنْصَابٍ مِنْ جَسَدِ (٤)

(٢) المصدر السابق ص ١٦

(١) الأضام ص ٤٢

(٣) ديوان النابغة ص ١٩

(٤) الجسد - كالقلم - ، والجسد - كالظن ، والجاسد ، والجسيد : الدم
 اليابس (اللسان جسد) .

أرأيت إلى أي حد كان العرب في الجاهلية ، يقدسون هذه الأصباب ، حتى أنهم كانوا يضرجونها بدماء القرابين ، التي كانت تذبح عندها تعبدًا وتقربًا !
يقول عامر بن واثلة - في الإسلام - يذكر حرباً شهدها :^(١)

فَأَنَّكَ لِأَنْدَرِينَ أَنْ رَبَّ غَايَةٍ كَوَّرِدِ الْقَطَا رِبْعَانَهَا مَتَابِعِ^(٢)
نَصَبْتُ لَهَا وَجْهِي وَوَرَدَا كَأَنَّهُ لَهَا نَصَبٌ قَدْ ضَرَجْتَهُ الثَّقَائِبِ^(٣)

تلك هي الأصباب في لغة القوم ، وفي اعتقادهم ، فما هي الأصنام ؟! وما هي الأوثان ؟!

أما الأصنام فمعروفة • وواحدتها صنم • وهو - فيما ذكر ابن فارس في معجم المقاييس - شئ " يتخمن خشب أوفضة أونحاس فيعبد"^(٤) . وكذلك الوثن ، وهو واحد الأوثان فهو أيضا كل ما صنع من حجر أو خشب أو معدن أو ما أشبهه ، بقصد العبادة والتقديس .

وقد ترادفت الكلمتان الأصنام ، والأوثان ، فعنيًا كل ما كان يُعبد من دون الله • وقد يُعنى بالصنم ما كان له صورة ، ويُعنى بالوثن أي مَقْدَسٌ بِالصُّورَةِ^(٥) . وكان العرب في الجاهلية - فيما يذكر العلماء - قد اجتمعوا على عبادة الأوثان^(٦) . قال ابن حزم في جمهرة الأنساب : " وكانت سائر قبائل العرب عبادة أوثان"

- (١) الأصنام ص ٤٣ (٢) الرِّيعَان - كالغليان - الزيادة والنماء (اللسان زريع)
(٣) وَرَدٌ : حصانه والنقائع جمع نقيعة ، وهي السذبيحة (اللسان - نقع)
(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس - (٣/٣١٤ صنم)
(٥) انظر اللسان - صنم ، وثن
(٦) انظر تارخ اليعقوبي - دار صادر وبيروت - ٢٥٤/١
(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩١

هذا وقد ذكر الشعراء الجاهليون الأصنام والأوثان في أشعارهم بالمعاني التي ألمحنا إليها . قال الأعشى ، في بيته الذي سبق (١)

وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهُ فَأَعْبُدَا

وقال عنتره : (٢) كَانَهَا صَنَمٌ يَعْتَادُ مَعَكَ وَفَوْقَ

(٤)

ويقول الأعشى - وعبر بالوثن عن معنى آخر :-

تَطُوفُ الْعَفَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَطُوفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثْنِ (٥)

فقد أراد بالوثن الصليب ، " وكانت النصارى نصبت الصليب ، وهو كالتمثال تعظمه وتعبده " (٦)

هذا وقد تعددت أصنام العرب وأوثانهم في الجاهلية ، تعددا يندُّ عن الحصر ، حتى كان لكل قبيلة صنم ، بل انه ليظن أنه كان لكل بطن من بطون القبيلة الواحدة صنم خاص بهم . ولا أريد أن أبالغ فأقول بأنه كان لكل واحد من القوم صنم - مع اجماهم على تقديس أصنام بعينها كما سنبين في موضعه باذن الله .

(١) ديوان الأعشى ص ١٨٧ (٢) ديوان عنتره ص ٦٥

(٣) يقوله في امرأة أبيه ، وكان أبوه أراد أن يضربه ، فألقت بنفسها عليه تحميه من لضرب ، وصدر البيت : • تَجَلَّلْتَنِي إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قَبْلِي •

(٤) ديوان الأعشى ص ١١١

(٥) العفاة - كالسعاة - جمع عاف ومعترف وهو كل من جاءك يطلب فضلا أو رزقا . (اللسان عفا) •

(٦) اللسان - وثن

وقد رأينا فى النص الذى ذكرناه لابن الكلبي ، أسباب تعلق العرب
بالأنصاب ، وأنهم كانوا يطوفون بها كطوافهم بالكعبة المشرفة .^(١) أما
عبادتهم للأصنام ، وكانوا من قبل على دين ابراهيم عليه السلام - كما سبق
أن رأينا ، فمرجهه - كما يذكر المؤرخون - الى ما فعله عمرو بن لحي الخزاعي
" ناسر عبادة الأصنام فى جزيرة العرب " ^(٢)

يقول الشهرستاني فى الملل والنحل - وهو يتحدث عن البيت الحرام
فى الجاهلية :^(٣)

" وأول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي بن غالوث بن عمرو بن
عامر ، لما سار قومه الى مكة ، واستولى على أمر البيت . ثم سار الى
مدينة البلقاء بالشام ، فرأى هناك قوما يعبدون الأصنام . فسألهم عنها ،
فقالوا : هذه أرباب اتخذناها ، على شكل الهياكل العلوية والأشخاص
البشرية ، نستنصر بها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، ونبيغتنسقى بها فنشقى .

فأعجبه ذلك ، وطلب منهم صنما من أصنامهم ، فدفعوا اليه هبل
فسار به الى مكة ، ووضع فى الكعبة ، وكان معه أساف وناثلة على شكل
زوجين . فدعا الناس الى تعظيمها والتقرب اليها ، والتوسل بها الى الله
تعالى "

وروى القرطبي فى تفسيره عن ابن اسحق " أن سبب نصب الأوثان ،

(١) انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٦

(٢) الدكتور جواد على - المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام - ٢٤/٦

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ص ٧٧ - ٧٨

وتغيير دين ابراهيم عليه السلام - عمرو بن لحي - خرج من مكة الى الشام . فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق أولاد عمليق . . ويقال عملاق ابن لاوذ بن سام بن نوح ، رأهم يعبدون الأئنام فقال لهم : ماهذه الأئنام التي أراكم تعبدون !!

قالوا : هذه أئنام نستمطر بها فنمطر ، ونستنصر بها فننصر . فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما أسير به الى أرض العرب فيعبدونه !! فأعطوه صنما يقال له " هبل " ، فقدم به مكة ، فنصبه . وأخذ الناس بعبادته وتعظيمه (١)

ولما كان بحثنا يدور حول معتقدات الجاهليين كما صورتها أشعارهم فاننا لن نتعرض الا لاما - للأئنام التي لم تقع أيدينا على أشعار تذكرها ، وسنقصر الحديث على الأئنام التي ذكرتها الأشعار التي بين أيدينا . وسنرتبها ترتيبا هجائيا - ليسهل تناولها - بغض النظر عن تفاوتها عندهم في التقديس والأعظام .

١ ، ٢ إساف وناثلة :

كان اساف وناثلة صنمين حول الكعبة " عبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب " (٢) . وهناك قصص كثيرة عن اساف وناثلة تزعم أنها كانا رجلا وامرأة ، وقد فعلا في الكعبة ما استحقا عليه العقاب الشديد ، فمسخا حجرتين . ثم وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الأئنام ، عبدا معها " (٣)

(١) تفسير القرطبي ٦/٣٣٧ - ٣٣٨

(٢) تاج العروس - أسف (٣) الأئنام لابن الكلبي ص ٢٩

وكان اساف - فيما ذكر ابن حزم - بالصفاء ، وكانت نائلة بالمرودة (١)
 واستمر حالهما على ذلك ، الى ان كسرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يوم الفتح ، فيما كسر من الأصنام . (٢)

ويظهر أن قريشا كانت تعظم هذين الصنمين حقا ، وكانت تحلف
 عندهما . فهاهو ذا أبو طالب يذكرهما ، يوم تحالفت قريش على بنى هاشم
 في أمر النبي صلى الله عليه وسلم . يقول : (٣)

وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَمَعَشِرِي وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
 وَحَيْثُ يَنْبِيخُ الشُّعْرُونَ رِكَابَهُمْ بِمَعْضَى السُّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ

(٤)

وفي اساف ، يقول بشر بن أبي خازم :

عَلَيْهِ الطَّيْرُ مَا يَدْنُونَ مِنْهُ مَقَامَاتِ الْعَوَارِكِ مِنْ إِسَافٍ

(٥)

(٣) الْأَسْحَمُ :

لم يذكر ابن الكلبي هذا " الأسحم " في كتابه الأصنام ، كما لم يذكره
 ابن حزم في الفصل الذي عقده لأصنام العرب ، في جمهرة الأنساب . وذكره
 الزبيدي في تاج العروس ، فبعد أن روى قول الأعشى : (٦)

رَضِيْعِي لِبَانَ ثَدْيِ أُمِّ تَحَالَفًا بِأَسْحَمٍ دَاجٍ عَوْضٍ لَانْتَفَرَقُ

قال : " والأسحم في قول الأعشى صنم أسود " (٨)

- (١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٩٢ (٢) انظر تاج العروس - أسف
 (٣) انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٢٩ ، وتاج العروس - أسف ، والبيت الثاني
 في السيرة لابن هشام ٧٧/١
 (٤) ملحق ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٣٣
 (٥) العوارك جمع عارك وهي المرأة العائض . فالعراك - كالقتال - المحيض
 اللسان عرك . (٦) انظر ديوان الأعشى ص ٢٧٥
 (٧) عوض - للمستقبل - كقط - للماضي - حرفان مبنيان على الينم بمعنى أبدا
 انظر اللسان - عوض (٨) تاج العروس - (سحم ، عوض)

(٤) الأقبصر : كان هذا الصنم فى مشارف الشام ، لقضاة ولخم وجذام وعاملة
وغطفان (١) وبأثوابه أقسم الشنفرى فى قوله : (٢)

وَإِنَّ أَمْرًا أَجَارَ سَعْدِينَ مَالِكٍ عَلَى وَأَثْوَابِ الْأَقْبَصِرِ يَعْنِفُ

ويظهر أن القوم كانوا يحجون الى ذلك الصنم ، ويحلقون رؤسهم عنده ، ولذلك
يقول زهير : (٣)

حَلَفْتُ بِأَنْصَابِ الْأَقْبَصِرِ جَاهِدًا وَمَا سَحِقَتْ فِيهَا الْمَقَادِيمُ وَالْقَمَلُ (٤)

ومن قول زهير نتبين أيضا أن الأقبصر كانت تحيط به أنصاب كثيرة ، يذبح
عندها القوم ويعترون عليها ، تقربا لذلك الصنم .

(٥) الجلسد : وهو صنم من أصنامهم ، ولكن لم يذكر العلماء ، من هم
عبادته ولا أين كان . قال الزبيدى فى لتاج : " والجلسد باللام اسم صنم كان
يعبد فى الجاهلية " (٥) . وقد ورد الجلسد فى شعر المثقب العبدى ، مما يجعلنا

نظن أن لذلك الصنم صلة ببكر بن وائل - رهط المثقب - من ربيعة ، وبمن
كان كمثلمهم يقطن شرقى الجزيرة العربية وأطراف العراق . يقول المثقب (٦)

فَبَاتَ يَجْتَابُ شِقَارَى كَمَا بَيَقُرُ مِنْ يَمَشَى إِلَى الْجِلْسِدِ (٧)

- (١) انظرا المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على - ٢٧٥/٦
(٢) الأغاني - دار الثقافة - ٢١٤/٢١ ، والأصنام ص ٣٩ وصدوره فيه : وَإِنَّ أَمْرًا
أَجَارَ عَمْرًا وَرَهْطَهُ .
(٣) الأصنام ص ٣٨ ، وصدرا البيت فى ديوان زهير - ص ٩٩ : فَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِأَلْمَنَازِلِ
مِنْ مَنَى . (٤) سحقت - بالقاء والقاف - أى حلقت ، والمقاديم هى مقاديم
الرؤس ، والقمل : يريد الشعر الذى فيه القمل . كما ذكر أبو العباس ثعلب
فى شرحه لديوان زهير ص ٩٩
(٥) تاج العروس - جلد (٦) ديوان المثقب ص ٢٧٠
(٧) قال محقق ديوان المثقب فى لشقارى " هى النبات الاحمر الزهر ، المبعق بنقط
سود ، والمعروف بشقائق النعمان " ص ٢٧٠ وقال ابن منظور فى اللسان - بقر
" وشقارى : نبات خففه للضرورة " والبيقرة اسراع يطأطأ الرجل فيه رأسه
(اللسان - بقر) ورواية اللسان لعزيبىة للمثقب " كَبُرَ مَنْ يَمْشَى إِلَى الْجِلْسِدِ " اللسان - جلسد

(٦) الدَّوَّارُ : اختلف العلماء فى معنى الدَّوَّارِ - كالبيوار - أهو صنم بعينه كان للعرب فى الجاهلية ، أم هو نصب كانوا يتخذونه ، أم هو اسم الطواف حول الأصنام الذى كانوا يفعلونه .. ويظهر من أشعارهم وأخبارهم أنه كان كل ذلك .

(١)

ففى كونه صنما أو نصبا يقول امرؤ القيس :
فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دَوَّارٍ فِي الْمَلَأِ الْمَذِيلِ

قال الأعلام الشنتمرى فى شرحه : " قوله فعن لنا سرب ، أى عرض لنا قطع بقرة وشبهه انائه بجوارٍ أبكارٍ يطفن يدَّوارٍ ، وهو صنم لاهل الجاهلية يدورون حوله (٢) " .

وقال الزوزنى فى شرحه لهذا البيت أيضا : " والدَّوَّارُ حجر كان أهل

الجاهلية ينصبونه ويطفون حوله ، تشبهاً باللائنين حول الكعبة ، اذا نأوا عن الكعبة " (٣)

وقال التبريزى : " ومعنى هذا البيت أنه يصف أن هذا القطيع من

الابقر يلوذ بعضه ببعض وتدور كما تدور العذارى حول دوار . وهو نسك كانوا فى الجاهلية يدورون حوله " (٤)

وفى ذلك أيضا يقول الحادرة : (٥)

وَرَجَاهُمْ يَوْمَ الدَّوَّارِ كَمَا يَرْجُوا الْمَقَامِرَ نَيْلَ الْخَصْلِ

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٢٢ (٢) المصدر السابق ص ٢٢

(٣) شرح المعلقة السبع للزوزنى ص ٦٣

(٤) شرح القصائد العشر للتبريزى ص ١١٥

(٥) ديوان الحادرة الذبياني ص ٨١

قال اليزيدى فى شرحه له : " الدوار نسك كان لأهل الجاهلية ، يطوفون حوله ، يقول : رجاهم أن يلقاهم يوم الدوار ، حين يطوفون بالنسك" (١)

وفى كون الدوار هو الطواف بالأضام والأوثان والأنصاب ، يقول ابن الكلبي : " وكانت للعرب حجارة غبر منصوبة ، يطوفون بها ، ويعتزون عندها ، يسمونها الأنصاب . ويسمون الطواف بها الدوار " (٢)

وفى ذلك يقول عامر بن الطفيل : (٣)

أَلَا يَا لَيْتَ أَخْوَالِي غَنِيًّا عَلَيْهِمْ كَلِمَا أَمْسُوا دَوَارًا

وذلك أنه - كما يذكر ابن الكلبي فى الأضام - " أتى غنى بن أعصر يوماً ، وهم يطوفون بنصب لهم . فرأى فى فتياتهم جمالا ، وهن يظفن به " (٤) ولذلك فها هو ذا يتمنى أن يكون عليهم دوار أى طواف كل يوم ، ليتسنى له أن يستمتع بجمال فتيات القوم .

(٧) ذَاتُ الْوَدَعِ : الودع والودع - كالسمع والبصر - خرز أبيض يخرج من البحر . وتعددت آراء العلماء فى ذات الودع ، فمن قائل بأنها وثن يعينه ، قال ابن منظور فى اللسان " والودع وثن ، وذات الودع وثن أيضا " (٥) . وقال الزبيدى فى تاج العروس : " وذات الودع الأوثان ، ويقال هو وثن يعينه " (٦)

(١) ديوان الحاضرة النذبيانى ص ٨١ (٢) الأضام ص ٤٢

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٦

(٤) الأضام ص ٤٢

(٥) اللسان - ودع (٦) تاج العروس - ودع

ومن قائل بأنها سفينة نوح ، عليه السلام (١) ومن قائل بأنها الكعبة المشرفة ، لأنه كان يعلق الودع فى ستورها (٢)

ولم أقع لذات الودع على ذكر فى الشعر الجاهلى الا فى قول عدى بن زيد : (٣)

كَلَّا ، يَمِينًا بِذَاتِ الْوَدْعِ لَوْ حَدَّثَتْ فَيْكُمْ وَقَابِلَ قَبْرِ الْمَاجِدِ الزَّارِ (٤)

وقد فسر العلماء ذات الودع فى قول عدى هذا ، بسفينة نوح ، عليه السلام لأن العرب فى الجاهلية كانوا يقسمون بها . (٥)

وفسروها كذلك بالأوثان ، قال ابن منظور (٦) ويقال أراد بذات الودع الأوثان . وفسروها أيضا بوثن بعينه ، كما ذكر الزبيدى ، فى التاج (٧) ولذلك فقد عد محقق "الأصنام - لابن الكلبي" ، ذات الودع من أصنام العرب فى الجاهلية . (٨)

٨ ذُو الْخَلْصَةِ :

أما ذو الخلصة (٩) فكان بين مكة واليمن (١٠) وكان - فيما ذكر ابن الكلبي - " مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج " (١١) وكان كثير من القبائل العربية تعظمه وتُهدى له ، كما كانت تفعل خثعم وبجيلة وأزد السراة ، ومن قاربهم من يظنون العرب من هوازن ، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . (١٢)

(١) اللسان - ودع (٢) تاج العروس - ودع (٣) ديوان عدى بن زيد ص ٥٣
 (٤) يعنى بالماجد النعمان بن المنذر ، والزار أراد الزارة بالجزيرة وكان النعمان قد مرض هناك (اللسان - ودع) (٥) اللسان ودع (٦) اللسان - ودع
 (٧) تاج العروس - ودع (٨) انظر ملحق الأصنام ص ١١١ (٩) الخلصة - كالبقرة
 (١٠) المجير لابن حبيب ص ٣١٢ (١١) الأصنام ص ٣٤
 (١٢) الأصنام ص ٣٥ وانظر السيرة لابن هشام ٧٩/٨

وكما كانت تفعل هند^(١) ، والحارث بن كعب ، وجرم وزبيد^(٢)
والغوث بن مر بن أد ، وبنو هلال بن عامر ، وكان سدنته بنو أمامة بن
باهلة بن أعشى^(٣) ، أو بنو هلال بن عامر^(٤)

واشتهر ذوا الخلصة عند العرب بالمروة البيضاء أيضا ، لكونه كان
مروة بيضاء كما رأينا . وفي ذلك يقول خدّاش بن زهير العامري ، لعثت بن
وحشى الخثعمي ، في عهد كان بينهم فغدر بهم^(٥) :

وَذَكَرْتَهُ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَمَا بَيْنَنَا مِنْ مَدَّةٍ لَوْ تَذَكَّرَا^(٦)
وَبِالْمُرْوَةِ الْبَيْضَاءِ يَوْمَ تَبَالَغَ وَمَحْبَسَةِ النُّعْمَانِ حَيْثُ تَنْصَرَا

وكان القوم - الى تعظيمهم لذي الخلصة وعبادتهم اياه ، يستقسمون عنده
بالأزلام ، وكانت له ثلاثة أقحح ، هي الأمر والناهي والمتربص . وفي ذلك
يقول رجل منهم^(٧) :

لَوْ كُنْتُ يَا ذَا الْخُلُصِ الْمُوتُورَا مِثْلِي ، وَكَانَ شَيْخُكَ الْمُقْبُورَا
لَمْ تَنْهَ عَنْ قَتْلِ الْعِدَاةِ زُورَا

- (١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢٥٥/١ (٢) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣١٧
(٣) انظر الأضام ص ٣٥ (٤) انظر المحبر ص ٣١٧
(٥) الأضام ص ٣٥ (٦) في الخزنة للبغدادى ١٩٠/١ وما بيننا من هذه
لَوْ تَذَكَّرَا .
(٧) الأضام ص ٣٥ ، والسيرة لابن هشام ٧٩/١

قال ابن الكلبي في تأويل هذا الشعر: ^(١) " وكان أبوه قتل، فأراد
الطلب بثأره . فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام . فخرج السهم
ينهاه عن ذلك . فقال هذه الأبيات " .

وقيل ان الذي فعل هذا ، هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، لما قتلت
بنو أسد أباه ، ^(٢) ولذا فقد نسب البعض هذا الشعر له . ^(٣)

وقد بقيت هذه القداصة لذي الخلصة ، حتى جاء الله بالاسلام ، فبعث
النبي صلى الله عليه وسلم ، جرير بن عبد الله اليه فهنمه .

أخرج الامام البخارى في صحيحه من حديث جرير رضى الله عنه قال:
" فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم ، ألا تريحنى من ذى الخلصة . . فنفرتُ
فى مائة وخمسين راجبا ، فكسرتاه ، وقتلنا من وجدنا عنده " ^(٤)

(٩) نُؤ الشرى : وكان لبني الحارث بن يشكر بن بيشر من الأزد . وفيه يقول ^(٥)
أحلم : ^(٦) أَنَّ لِحَلَلْنَا حَوْلَ مَا دُونَ ذِي الشَّرَى وَشَجَّ الْعِدَامِ نَاخِيسَ عَرْمَرَمَ وَ

(١) الأضام ص ٣٥ (٢) المصدر السابق ص ٤٧

(٣) انظر ديوان امرؤ القيس ص ٤٦٠

(٤) صحيح البخارى - غزوة ذى الخلصة - ٢٠٨/٥ من طبعة كتاب الشعب

(٥) الأضام ص ٣٧ (٦) المصدر السابق ص ٣٨

(١٠) ذُو الْكَعْبَاتِ : الكعبات - محرّكة - أو ذُو الكعبات ، بيت كان لربيعة يطوفون به ، ويعظمونه ويصدرون إليه من حجهم . ولأياتون بيوتهم حتى يمرّوا به وينسكوا له . (١) وذكر العلماء أن ذلك البيت كان بسنداد ، وهي أرض بين الكوفة والبصرة . (٢) . وكان لبكر وتغلب ابني واثل من ربيعة ، كما كان أيضا لأيار . (٣)

وفيه يقول الأسود بن يعفر النهشلي : (٤)

بَيْنَ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّيْرِ وَبَارِقِ
وَالْبَيْتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سِنَادِ

(١١) ذُو الْكَفَيْنِ : كان ذوا الكفين صنما لخزاعة ودوس ، ثم لبنى منهب بن دوس فلما أسلمت دوس ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلا منهم (٦) ، فحرقه وكسره وهو يقول : (٧) « يَا ذَا الْكَفَيْنِ لَسْتُ مِنْ عَبَادِكَ يَا رَبُّنَا أَكْبَرُ مِنْ مِثْلَادِكَ * »
إِنِّي حَشَوْتُ النَّارَ فِي فَوْادِكَ

(١٢) رُضَى : كان رضى - كضحى - أ ورضا - كفناء - صنما لبنى ربيعة بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم (٨) . وقد كسره في الاسلام عمرو بن ربيعة بن كعب

ابن سعد ، المعروف بالمستوغر . وقال في ذلك (٩)
وَلَقَدْ شَدَّدْتُ عَلَى رُضَاءٍ شُدَّةً
فَتَرَكْتُهَا تَلَا تَنَازِعَ أَحْمَا (١٠)

- (١) انظر اللسان (كعب) وتاج العروس (كعب) وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٩٤
(٢) انظر الاضام لابن الكلبي ص ٤٥ (٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٥٤/٤ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤
(٤) سيرة ابن هشام ٨٢/١ وعجزه في اللسان كعب والتاج كعب . ونسبه ابن كثير في تفسيره ٢٥٤/٤ للاعشى سهواً إذ لم أجده في ديوانه . وقد تبه لذلك ابن هشام في السيرة ٨٢/١
(٥) انظر الاضام ص ٢٧ والمحبر ص ٣١٨ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤ وتاريخ ريخ
اليعقوبي ٢٥٥/١ (٦) هو الطفيل بن عمرو الدوسي وعمرو بن حُمّة الدوسي
(٧) الاضام ص ٢٧ (٨) الاضام ص ٢٠ والسيرة لابن هشام ٨٠/١ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤
(٩) الاضام ص ٣٠ (١٠) عجز البيت في السيرة لابن هشام ٨٧/١ :
فَتَرَكْتُهَا قَفْرًا بِقَاعِ أَحْمَا
(* ضبط في الاستيعاب (٧٦٢/٢) فَو الْكَفَيْنِ " ه " لَسْتُ مِنْ عَبَادِكَ " .

١٣ ، ١٤ - الزُّورُ والزُّورُ : سمي العرب الزور والزور كل شيء كان يتخذ ربا ويعبد من دون الله سبحانه وتعالى. (١) قال الأغب العجلي في يوم الزورين ، وكان لبكر على تميم : (٢)

جاءوا بزورهم وجئنا بالأمم
شيخ لنا قد كان من عهد إرم

وذلك أن تميما أقبلت في ذلك اليوم ، بجملين مجللين قد قيدوهما ، وقالوا : " هذان زوراننا أي إلهانا ، فلا نفرحتي يفرًا " (٣) . وكان لأصم الشيباني في ذلك اليوم أحد قادة بكر بن وائل ، فجلس بين الصفين وقال لقومه : وانا زويركم ، قاتلوا عني ، ولا تفروا حتى أفر . (٤)

وقال بعض العلماء : إن الزور صنم بعينه ، وكان مرصا بالجوهرة وكان في بلاد الداور بأرض فارس . (٥)

أما الزور فقالوا بأنه الموضع تجمع الأصنام فيه ، وتنصب وتزين . وقالوا : بل الزور الصنم ، وكل ما يتخذ لها ويعبد من دون الله سبحانه وتعالى . (٦)

(١) انظر اللسان - زور ، وتاج العروس - زور (٢) العقد الفريد ٥٤/٦

(٣) اللسان - زور في التاريخ لابن الأثير - دار صادر وبيروت ٦٠٥/١

(٤) انظر تاج العروس - زور

(٦) تاج العروس - زين ، ولسان العرب - زين

ويظهر أن الزون ، كان للمجوس بأرض فارس ، وأن العرب الذين جاؤروهم كانوا يعظمونه . فقد نقل صاحب التاج عن حميد قوله :^(١)

ذَاتُ الْمَجُوسِ عَكَفَتْ لِلزُّونِ^(٢)

وفى ذلك يقول جرير :

يَعْمَى بِهَا الْبَقْرُ الْمَوْشَى الرَّعْدُ مَشَى الْهَرَابِيزُ جَوَابِيعَةَ الزُّونِ^(٣)

(١٥) سعد : أما سعد فكان صخرة طويلة بساحل جدة^(٤) . وكان الذين يعبدونه هم بنو ملكان بن كنانة^(٥) ، أو بنو بكر بن كنانة^(٦) . وهو الذي يقول فيه قائلهم :

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ بَيْنَنَا فَشَقَّتْنَا سَعْدًا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ الْأَخْرَةُ يَتَنَوَّفَقُ مِنْ أَرْضٍ لَا يَدْعَى لِعَيْسٍ وَلَا رَشْدٍ

وذلك أن رجلا منهم - فيما روى ابن الكلبي - أقبل بابل ليقفها على سعد هذا ، يتبرك بذلك فلما أدناها منه نفرت ، وكان يهراق عليه الدماء فنهبت في كلوجه وتفرقت عليه . وأسف الرجل وضاق صدره ، فتناول حجرا ورمى به وجه الصنم ، وقال : « لبارك الله فيك الهاء ، أنفرت عليّ ابلى » ثم خرج في طلبها حتى جمعها . وانصرف عنه ، وهو يقول ذلك الشعر^(٨) .

- (١) تاج العروس زين ، ولم أقمع عليه في ديوانه (٢) ديوان جرير ص ٤٨٥
(٣) الكراع من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الخيل والابل وهو ما دون الكعب من الرجل وجمعه أكرع (اللسان كرع) وفي المعرب للجوا ليقى
ص ٣٩٩ أن الهرا بذة هم خدم النار وأئمة المجوس - الواحد هربذ
كخديف فارسي معرب . (٤) الأضنام ص ٣٧
(٥) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤ (٦) تاريخ يعقوبى ٢٥٥/١
(٧) الأضنام ص ٣٧ والسيرة لابن هشام ٢٦/١ والملل والنحل ص ٨٢
(٨) انظر الأضنام ص ٣٧

(١٦) السَّعِيرُ : السعير - كزبير - صنم كان لعنزة خاصة ، وفيه يقول رشيد ابن رميض العنزي : (١)

حَلَفْتُ بِمَا ثَرَاتٍ حَوْلَ عَوْضٍ وَأَنْصَابٍ تَرَكْنَ لَدَى السَّعِيرِ (٢)
وفيه يقول أيضا ، جعفر بن أبي خِلاص الكلبى ، وقد خرج على ناقته فمرت به
وقد عثرت عنزة عنده - فنفرت ناقته منه فأنشأ يقول : (٣)

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ عَتَاثِرٍ صَرَعَتْ حَوْلَ السَّعِيرِ تَزْوَرُهُ ابْنَا يِقْدَمِ (٤)
وَجَمُوعٍ يَذْكُرُ مَهْطِعِينَ جَنَابَهُ مَا إِنْ يَحِيرُوا إِلَيْهِمْ يَتَكَلَّمِ

(١٧) سُوعٌ : كان سواع - كغلام - من أصنام قوم نوح عليه السلام - كما ذكر القرآن الكريم . اذ يقول الله تبارك وتعالى - فى معرض الحديث عن قوم نوح :
" وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا " (٥)

ولكن العرب عرفوا هذا الصنم ، كما عرفوا غيره من أصنام قوم نوح
التي اشتملت عليها الآية الكريمة . فقد ذكر القرطبي فى تفسير الآية قال :
" قال ابن عباس وغيره : هى أصنام وصور ، كان قوم نوح يعبدونها ، ثم
عبدتها العرب " . (٦)

وكان سواع - كما يذكر ابن حبيب - بنعمان ، وهو واد لهذيل بين
مكة والطائف (٧) ، وكانت بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان
يعبدون سواعا . وكان سدنته بنو صاهلة من هذيل (٨)

-
- (١) تاج العروس - (سعر ، عوض) (٢) الماثرات سماء الذبائح حول الأصنام
التاج - سعر (٣) انظر الاصنام لابن الكلبي ص ٤١
(٤) يقدم ويذكر ابنا عنزة ، وقد رآهم الشاعر يطوفون حول السعير (الاصنام ص ٤٢)
(٥) نوح آية ٣ (٦) تفسير القرطبي ٣٠٧/١٨
(٧) معجم البلدان - نعمان - وضبطه : فتح فسكون
(٨) انظر المحير ص ٣١٦ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٢

ويذكر ابن الكلبي أن مضر بن نزار كانت قد أجابت عمرو بن لحي
الخراعي التي عبادة الأصنام ، فدفع سواعا الى رجل منهم " فكان بأرض يقال
لها رهاط من بطن نخلة ، يعبده من يليه من مضر (١) أما ابن منظور فقال :
وسواع اسم صنم كان لهمدان ، وقيل كان لقوم نوح عليه السلام ، ثم صار
لهذيل ، وكان برهاط يحجون اليه " (٢)

وقال القرطبي في تفسيره : " وأما سواع فكان لهذيل بساحل
البحر " (٣) . أما اليعقوبي في تاريخه فلم يزد على أن قال : " وكان لكنانة
سواع " (٤)

وفي سواع يقول رجل من العرب (٥)
تَرَاهُمْ حَوْلَ قَبِيلِهِمْ عَكُوفًا
يُظَلُّ جَنَابَهُ بِرِهَاطٍ صَرَعِي
كَمَا عَكَفْتَ هَذِيلَ عَلَيَّ سَوَاعٍ
عَتَاثِرُ مِنْ نَخَائِرِ كُلِّ رَاعٍ

(١٨) عاتم : كان هذا الصنم - فيما ذكر ابن الكلبي - لأزد السراة . وبه يقسم
زيدا لطائي - المعروف بزيدا الخير - في قوله : (٧) (٨)

وَرَسُوهُ مِنْ لَأَقِيَّتِ أَنْ قَدْ هَزَمْتَهُمْ
وَلَمْ تَدْرِمَا سَيْمَاهُمْ ، لَأَوْعَاثِمِ

(١٩) العُزَّى : أحد أشهر أصنام العرب ، وأعزها عندهم . وأحد الثلاثة التي
قرَّعهم الله في سورة النجم ، ووبخهم لاثخانها إذ يقول سبحانه وتعالى : (٩)

(١) الأصنام ص ٥٧ وانظرا لسيرة لابن هشام ٧٤/١

(٢) اللسان - سواع (٤) تاريخ اليعقوبي ٢٥٥/١

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨

(٥) تاج العروس - سواع ، والشعر في الأصنام ص ٥٧ باختلاف يسير في الرواية

(٦) الأصنام ص ٤٠ (٧) هوزيد بن مهلهل لطائي وسمى زيدا الخليل لطول طراده

بها وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فسماه زيدا الخير (انظر ثمار القلوب

للشعالبي ص ١٠) (٨) الأصنام ص ٤٠

(٩) النجم الآيات ١٩-٢٤

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ » ! وذلك ردا على قولهم : الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .^(١)

وكانت العزى فيما ذكر ابن حبيب - " شجرة بنخلة عندها وثن " .^(٢) وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح .^(٣) قال ابن كثير " وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها " .^(٤)

وذكر العلماء أن قبائل أخرى كثيرة من العرب - غير قريش - كانت تعبد هذه العزى . مثل غطفان وغنم وباهلة وغيرهم .^(٥)

وكان سدنة العزى بنو شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم ، كما ذكر ابن الكلبي فى الأصنام^(٦) . أما ابن حبيب وابن حزم فقد ذكرا بأن - سدنتها كانوا من بنى صرمة بن مرة .^(٧)

هذا وقد ورد ذكر العزى عند كثير من الشعراء فى الجاهلية . فهذا يذكرها ، وذاك يقسم بها ، وآخر يتبرأ من عبادتها وغير ذلك يقول درهم بن زيد الأوسى يذكرها :^(٨)

-
- (١) انظر تفسير القرطبي ١٠٢/١٧ (٢) المحبر ص ٣١٥
 (٣) الأصنام ص ١٨ (٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥٣/٤
 (٥) انظر المحبر ص ٣١٥ والسيرة لابن هشام ٧٨/١ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩١
 (٦) الأصنام ص ٢٢ (٧) انظر المحبر ص ٣١٥ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩١
 (٨) الأصنام ص ١٩ ومعجم البلدان - عزى .

إِنِّي وَرَبَّ الْعِزَّى السَّعِيدَةَ ، وَاللَّهِ الَّذِي دُونَ بَيْتِهِ سِرْفٌ
ويقولاً وس بن حجر ، يحلف بها : (٢)

وَبِاللَّاتِ وَالْعِزَّى وَمَنْ دَانَ دِينَهَا وَبِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَنْهَنْهُ مِنْهُنَّ أَكْبَرُ
(٣)

ولما تحنف زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية - كما رأينا - قال :

تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعِزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجُلْدُ لِصَبُورٍ
فَلَا الْعِزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا وَلَا صَنَمِي بَنِي غَنَمٍ أَزُورُ !

ولما كانت العزى ذات شأن عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة ، فقد

(٤) حمت لها شعباً من وادي حراض ، يقال له سقام ، يظاهون به حرم الكعبة .

أما ولهمم بها ، وحرصهم على عبادتها ، فليس أدل عليه من خبر أبي أحيحة

سعيد بن العاص ، أحد زعماء قريش ، إذ دخل عليه أبو لهب في مرضه الذي

مات فيه فيما ذكر ابن الكلبي " فوجده يبكي فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ،

أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟! " ، قال : لا ولكني أخاف أن لاتعبدا العزى بعدى .

قال أبو لهب : والله ما عبديت حياتك لأجلك ؛ ولاتترك عبادتها بعدك لموتك .

(٥) فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة . وأعجبه شدة نصبه في عبادتها "

وكان للعزى منحرف ، ينحرون فيه ما يهدى لها ، يقال لها الغنغيب (٦)

وفيه يقول نهيك الفزاري لعامر بن الطفيل : (٧)

يَا عَامِرُ لَوْ قَدَّرْتُ عَلَيْكَ رِمَاحَنَا وَالرَّاقِصَاتِ الِئْمَانِيَّ فَالْغَنَغِيبِ
لَتَقَيْتُ بِالْوَجَعَاءِ طَعْنَةً فَاتِكَ مَرَانٍ ، أَوْلَثْوَيْتُ غَيْرَ مُحْسَبِ (٨)

(١) سرف - كفتن - موضع من مكة على عشرة أميال (اللسان - سرف)

(٢) ديوانا وس بن حجر ص ٣٦

(٣) الأضواء ص ٢٢ ، ومعجم البلدان - عزى

(٤) انظر الأضواء ص ١٩ ، (٥) الأضواء ص ٢٣

(٦) انظر الأضواء ص ٢٠ ، والغنغيب (كالثعلب)

(٧) الأضواء ص ٢٢ ، والبيت الثاني في اللسان - حسب وهو في مجالس العلماء

للزجاجي ص ١٨٧ بخلاف في الرواية

(٨) يقول : لو طعنتك لوليتنى دبرك ، واتقيت طعنتي بوجعائك ، ولثويت =

(٢٠) عَوْضٌ : أما عوض - كحوض - فهو صنم كان لبكر بن وائل ، كما ذكر الزبيدي في تاج العروس ، وقد ورد اسمه في قول رشيد بن رميض العنزي ، الذي ذكرناه ،

يقول: (٢) حَلَفْتُ بِمَآثِرَاتِ حَوْلِ عَوْضٍ وَأَنْصَابِ تَرْكُنِ لَدَى السَّعِيرِ

(٢١) الْفَلْسُ : الفليس - بفتح فسكون ، صنم كان بنجد لطي (٣) . قال ابن الكلبي: (٤) " وكانوا يعبدونه ، ويهدون إليه ، ويعترون عنده عتائهم ، ولا يأتيه خائف الأمن عنده . ولا يطرد أحد طريدة ، فيلجأ بها إليه الا تركت له ، ولم تخفر حويته " (٥)

ويظهر أن سدنته - وكانوا من بنى بولان (٦) كانوا يستغلون ذلك فيطردون ما تقع عليه أيديهم من نعم القوم ، ويلجأون للفليس يحتمون به . وقد ظلوا على ذلك حتى أخفره مالك بن كلثوم أحد شرفاء العرب

وكان من خبره كما روى ابن الكلبي في الاصنام - أن سادن للفليس قد أطرده ناقة لجارة مالك ، فاستغاثت بمالك فخرج في أثر السادن حتى أدركه عند الفليس فانتزعها منه بقوة السلاح ، وعاد فقال السادن يحرض الصنم عليه

يَا رَبِّ انْمَالِكِ بَيْنَ كَلْثُومٍ وَكَلْثُومٍ غَيْرِ مَقْتُومٍ (٨) أَخْفَرَكَ الْيَوْمَ بِنَابِ عَلَكُومٍ (٧) هَالِكَا غَيْرِ مَكْرَمٍ وَلَا مَوْسِدٍ وَلَا مَكْفَنٍ (اللسان - حسب) وعن سماك بن حرب غير محسب أي غير مكرم ، يقال لم يُحَسِّبُوا ضَيْفَهُمْ أَي لَمْ يُكْرِّمُوهُ (انظر مجالس العلماء للزجاجي ص ١٨٢) .

- (١) تاج العروس - شعر ، عوض (٢) نفس المصدر السابق
 (٣) المعبر ص ٣١٦ و ٣١٧ ، أنساب العرب ص ٤٩٣ والسيرة لابن هشام ٨٠/١ -
 (٤) الاصنام ص ٥٩ (٥) أخفره : انتزك حرمة ولم يرع نعمته ، إذا الخفارة -
 كالمطهرة - الذمة ، والخفارة انتزاعها (اللسان خطر) (٦) الاصنام ص ٥٩ والمعبر ص ٣١٦
 (٧) العلكوم الناقة الحسيمة السمينة (تهذيب اللغة ٣٠٨/٣)
 (٨) الغشم - كالضرب - الاضطهاد والظلم (الاشتقاق لابن دريد ص ٩٧) .

فكان مالك بن كلثوم أول من أخفر الفلرحويته . وشاع في القوم خبره " فكان السادن اذا اطرده طريدة أخذت منه " (١).

(٢٢) كَثْرَى : جاء في تاج العروس : (٢) وكثرى - كسرى - صنم كان لجديس وطسم كسره نهشل بن الربيع بن عرعة ، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأسلم " قال عمرو بن صخر بن أشنع : (٣)

حَلَفْتُ بِكَثْرَى حَلْفَةَ غَيْرِ بَرَّةٍ لَتَسْتَلْبِنَ أَثْوَابَ قَسِّ بْنِ عَازِبٍ

(٣٣) كَعْبَةُ نَجْرَانَ : وكانت لبني الحارث بن كعب بنجران ، وكانوا يعظمونها . وهى التى ذكرها الأعشى ، وهو يمدح رهنط عبدالمدان بن لذيان ، سادة نجران ، من بنى الحارث بن كعب (٤) ، اذ يقول لناقته (٥)

وَكَعْبَةُ نَجْرَانَ حَتْمٌ عَلَيْكَ حَتَّى تَنَاقِخِي بِأَبْوَابِهَا

قال ابن الكلبي : " وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة ، انما كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكروهم . وما أشبه ذلك عندى بأن يكون كذلك . لأنى لم أسمع بنى الحارث تسموا بها فى شعر " (٦)

(٢٤) الَلَات : كانا اللات بالطائف لثقيفا (٧) ، وكان مبنيا على صخرة (٨) وله بيت يسترونه ويكسونه ، ويضاهون به الكعبة ، وكانوا يحرمون واديه . (٩)

(١) انظر الاضنام ص ٦٠ ٦١ ، والرجز بدون نسبة فى الاشتقاق لابن دريد ص ٩٧ باختلاف يسير فى الرواية .

(٢) تاج العروس - كثر (٣) المصدر السابق (٤) انظر ديوان الاعشى ص ٢٢١

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٢ (٦) الاضنام ص ٤٥ (٧) المصدر السابق ص ١٦

(٨) المحجر ص ٣١٥ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩١

(٩) المحجر لابن حبيب ص ٣١٥

ومع أن اللات كانت لثقيف ، كما كانت العزى لقريش ، لأن قريشا
وجميع العرب ، كما كانوا يعظمون العزى ، كانوا يعظمون اللات (١) ولذلك
فقد كانت اللات - كما كانت مناة - صنو العزى ، في آيات سورة النجم
الكريمة التي مر ذكرها . (٢)

وقد ورد ذكر اللات في كثير من أشعار الجاهليين ، يتحدثون عنها ،
أو يحلفون بها .

يقول عمرو بن الجعيد (٣)

فإني وتركي وصل كأس لكالذي تبرا من لات وكان يدينها

ويقول أوس بن حجر : (٤)

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

ويقول المتلمس في هجائه لعمرو بن هند : (٥)

أطردنني حذرا لهجاء ولا واللات والانساب ما تثل

ويقول ضار بن الخطاب - من كنانة - في حرب الفجار (٦)

ففرت سليم ولم يصبروا وفرت ثقيف إلى لاتها
وطارت شعاعا بنوعامير بمنقلب الخائب الخاسر

ويقول زيد بن عمرو بن نفيل حين تخلف في الجاهلية - كما ذكرنا - (٧)

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور

(١) انظر الاضنام ص ١٦ (٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٠٢

(٣) الاضنام ص ١١ (٤) ديوان أوس بن حجر ص ٣٦

(٥) الاضنام ص ١٦ (٦) الاغانى - دار الثقافة - ٢٢/٧٥

(٧) الاضنام ص ٢٢ ومعجم البلدان عزى

(٢٥) مناة : هي الثالثة الأخرى ، التي ذكرها الله - عزوجل - مع اللات والعزى ، في سورة النجم ، وهو ينعى على المشركين اتخاها من دونه ، وجعلها بنات له ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا .

وكان مناة منصوبا على ساحل البحر ، بين مكة والمدينة ^(١) . وكانت الأوس والخزرج وأزد شنوءة وغيرهم يعبدونه ^(٢) . بل ان العرب جميعا - كما ذكر ابن الكلبي - كانت تعظمه وتذبح حوله . وكذلك كان الأوس والخزرج ، ومن ينزل المدينة ومكة ، وما قاربهما من المواقع - يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ^(٣) . ولكن " لم يكن أحد أشد اعظاما له من الأوس والخزرج " ^(٤) اذ أنهم " كانوا يحجون مع الناس المواقع كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم ، فاذا نفروا أتوه ، فحلقوا رؤوسهم عنده . لا يرون لحجهم تماما الا بذلك " ^(٥)

قال الشاعر: (٦)

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينِ صِدْقِ بَرَةٍ بِمَنَاةٍ عِنْدَ مَحَلِّ آلِ الْخَزْرَجِ ^(٧)

(١) الأضنام ص ١٣ وانظر السيرة لابن هشام ٧٩/١
(٢) انظر المحبر ص ٣١٦ . وقد ذكر ابن حبيب الأضنام ريدلان الأوس والخزرج ، وليس ذلك بصواب . لأن الأضنام سماوا بذلك الأبعدان لفظا ومناة وغير مناة ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الأضنام ص ١٣

(٤) الأضنام ص ١٣ (٥) الأضنام ص ١٤ (٦) الأضنام ص ١٤

(٧) قال ابن الكلبي: " وكانت العرب جميعا في الجاهلية ، يسمون الأوس والخزرج جميعا : الخزرج . فلذلك يقول " عند محل آل الخزرج "

انظر الأضنام ص ١٤

(٢٦) مَنَافٌ : وبه كانت تسمى قريش عبدمناف^(١) . ولكن موقع هذا الصنم لدى العلماء ، ليس معروفا . اذ يقول ابن الكلبي في الأضنام^(٢) : " ولا أدري أين كان ولا من نصبه " .

وفي مناف هذا يقول بلعاء بن قيس^(٣) :

وَقَرْنٍ قَد تَرَكْتُ الطَّيْرَ مِنْهُ كَمَعْتَنَزِ الْعَوَارِكِ مِنْ مَنَافٍ^(٤)

وآل عبد مناف هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم من قريش . اذ أن عبدمناف هو جده الثالث . وفيهم يقول الشاعر^(٥) :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَحُولُ رَحْلَهُ وَالْأَنْزَلُ بِآلِ عَبْدِمَنَافٍ

(٢٧) نَسْرٌ : من أضنام قوم نوح التي اشتملت عليها الآية الكريمة^(٦) :

" وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ " وقد عرفه عرب اليمن ، حيث كانت حمير تنسكه وتمظمه وتدين له . قال القرطبي في تفسيره^(٧) :

" وأما نسر فكان لدى الكلاع من حمير " . ثم قال^(٩) : " ونسر على صورة نسر من الطير " وقال ابن حبيب^(٨) : " وكان في غمدان قصر ملك اليمن " أما اليعقوبي فقال^(١١) : " وكان لحمير وهمدان نسر منصوبا بصنعا " .

- (١) انظر الأضنام ص ٣٢ وانظر الاشتقاق لابن دريد ص ١٦ (٢) الأضنام ص ٣٢
 (٣) الأضنام ص ٣٢ والتاج - ناف بخلاف يسير .
 (٤) العوارك جمع عارك وهي المرأة الحائض (اللسان عرك) ، وتعنز واعتنز : تجنب الناس وتنحى عنهم (اللسان عنز) .
 (٥) السيرة النبوية لابن كثير ١٨٦/١ (٦) نوح ٢٣
 (٧) المحبر لابن حبيب ص ٣١٧ وانظر سيرة ابن همام ٧٥/١
 (٨) تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨ (٩) المصدر السابق ٣٠٩/١٨
 (١٠) المحبر لابن حبيب ص ٣١٧ (١١) تاريخ اليعقوبي ٢٥٥/١

(١)

وفى نسر يقول عمرو بن عبد الجن :

أَمَّا وَيَمَاءُ مَا نَرَاتِ تَخَالُهَا عَلَى قَلْبِ الْعَزَى أَو النَّسْرِ عِنْدَمَا ^(٢)

هنا وقد ذكر السيوطى فى المزهرة ، أن مرادها كانت تعبدن سرا حقيقيا ، حيث كان يزورها كل عام مرة - فيما زعموا - ، فتقدم له فتاة من فتياتها ، يأكلها وينهب . ثم رصد له رجل عزت عليه ابنة أخته ، وكان القوم سيرفونها ^(٣) الى النسر ، فقتله وهرب . وفى ذلك يقول :

وَأَضَحَّتْ مَرَادَ لَهَا مَا تَمَّ عَلَى النَّسْرِ تَذْرِى عَلَيْهِ الدَّمْعَا ^(٤)

(٢٨) نَهْمٌ : نهم - بضم النون وسكون الهاء - ^(٤) "هو الصنم الذى كانت تعبده مزينة" ^(٥) وبه كانت تسمى عبدتهم . ^(٦)

وكان آخر سدنته خزاعى بن نهم . وهو الذى لما سمع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ثار الى الصنم فكسره وأنشأ يقول : ^(٧)

نَهَبْتُ إِلَيْنِهِمْ لِأَذْبَحَ عِنْدَهُ عَتِيرَةَ نَسِكٍ كَالَّذِى كُنْتُ أَفْعَلُ
فَقُلْتُ لِنَفْسِى حِينَ رَاجَعْتُ عَقْلَهَا أَهَذَا إِلَهٌ ؟ أَيْكُمْ لَيْسَ يَعْقِلُ ! ^(٨)

- (٧) المسلسل فى غريب لغة العرب ص ١٦٦
(٢) قَلْبَةٌ كَلْبِيٌّ : أعلاه (اللسان قلل) ، وكذلك القنة . وبها روى اللسان هذا البيت (اللسان قنن ، عندم) . والعندم صبغ . وأدم اغزال المطبوخ بلحا الأرى كانت جواريمهم يختصن به (تهذيب اللغة ٣/٣٥٣)
- (٣) انظر الشعر والقصة فى المزهرة للسيوطى ١٦٤/١ وما بعدها
- (٤) كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان - نهم (٥) جمهرة أنساب العرب ص ٢٠٢
- (٦) الأضام ص ٣٩ (٧) الأضام ص ٣٩ - ٤٠
- (٨) رواية معجم البلدان - نهم : "أبكم ليس يعقل"

وله يقول أمية بن الأشكر : (١)

إِنَّا لَقَيْتَ رَاعِيَيْنِ فِي غَنَمٍ
بَيْنَهُمَا أَشْلَاءٌ لَحْمٌ مَقْتَسَمٌ
أَسِيدَيْنِ يَحْلِفَانِ بِنَهْمٍ (٢)
فَامِضٌ لَا يَأْخُذُكَ بِاللَّحْمِ الْقَرْمُ (٣)

(٢٩) هَيْبَلٌ : كان هبل لبني بكر ومالك وميلكان وسائر كنانة . وهبل من الأصنام التي كانت تعظمها قريش ، وبه نادى أبوسفیان يوم أحد حين قال : أَعْلُ هَيْبَلٌ . فأصم أذنه صوت سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الله أعلى وأجل . (٥)

وكان هبل - فيما ذكر العلماء - في جوف الكعبة . وفيه يقول زيد بن عمرو بن نفيل : (٦)

فَلَا عَزَىٰ أَدِينٌ وَلَا أَبْنَتِيهَا
وَلَا هُبَلًا أَزُورُ وَكَانَ رَبًّا
وَلَا ضَمِي بَنِي غَنَمٍ أَزُورُ
لَنَا فِي النَّهْرِ انْحِلْمِي صَغِيرُ

(٣٠) وَدٌ : وهو أحد أصنام قوم نوح أيضا . (٨) وقد عرفته العرب ، فكان يدومة الجنادل تعبده بنو وبرة من كلب . وقد ذكره في شعره أكثر من واحد من الجاهليين .

- (١) معجم البلدان - نهم - .
(٢) الأسد : تصغير الأسود ، أي ماثل إلى السواد (اللسان - سود) ، وأسود عليه - كغضب - غنم وسفه ، والمعنى يحتمل كل تلك الأمور . (اللسان - أسد)
(٣) القرم - كالقلم - شدة الشهوة إلى اللحم (اللسان قرم)
(٤) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣١٨
(٥) انظر السيرة لابن هشام - بتحقيق طه عبدالرؤوف سعد - ٣٨٣
(٦) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٢ وانظر السيرة لابن هشام ٧٧/١
(٧) الأصنام ص ٢٢ ، ومعجم البلدان - عزى
(٨) ارجع إلى الآية الكريمة رقم ٢٣ من سورة نوح
(٩) الأصنام ص ١٠ ، ٥٥ ، وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٢ والسيرة لابن هشام ٧٤/١

(١)

يقول النابغة :
 قَالَتْ أَرَأَيْكَ أَخَا رَجُلٍ وَرَاحِلَةٍ
 تَفْسِي مَتَأَلِفٌ لَنْ يَنْظُرَنَّكَ الْهَرْمَا
 حِيَاكِ وَدٌ فَإِنَّا لَأَجِلُّ لَنَا
 لَهُوَ النَّسَاءُ وَإِنَّا لَدِينٌ قَدَعَزَمَا

(٢)

واستحلف المرقش الأكبر صاحبه بود ، وذلك في قوله :

بُودُكَ مَا قَوْمِي عَلَيَّ أَنْ هَجَرْتَهُمْ
 إِذَا أَشْجَدًا لِقَوْمٍ رِيحٌ أَطَائِفٌ

(٤)

قال ابن الأنباري في شرحه : " يحلفها بإلهها الذي يحلفون به ،

يقول: يا لهك كيف قومي وقد عاشرتهم؟! "

وكذلك فعل عمرو بن قميئة ، إذ استحلف هو الآخر صاحبه بوئحين

(٥) قال:

بُودُكَ مَا قَوْمِي عَلَيَّ أَنْ تَرَكْتَهُمْ
 وَسَلِيمِي ، إِذَا هَبْتَ شَمَالَهُورِيحَهَا

(٣١) اليعبوبة اليعبوب - كالمهوف - صنم جديدة ، وكان لهم فيما يذكر
 العلماء - صنم آخر ، أخذته منهم بنو أسد ، فتبدلوا اليعبوب .

(٧)

وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :

وَتَبَدَّلُوا الْيَعْبُوبَ بَعْدَ لَهُمْ
 صَمَا فَقَرُوا يَا جَدِيلَ وَأَعَذَّبُوا

(٨)

- (١) ديوان النابغة ص ١٠٦ (٢) المفضلية رقم ٥٠
 (٣) أئجنهم : اشتد عليهم وآذاهم ، وأطائف جبل وقيل موضع (شرح لمفضليات
 ص ٤٧٦)
 (٤) شرح لمفضليات - لابن الأنباري - طبع بيروت ١٩٢٠م - ص ٤٧٦ .
 (٥) ديوان عمرو بن قميئة ص ٢٣
 (٦) انظر الاضنام ص ٦٣ ، وديوان عبيد بن الأبرص ص ٣
 (٧) ديوان عبيد ص ٣ والنبيت في الاضنام ص ٦٣ " فتبدلوا "
 (٨) قروا أي سكنوا واهدوا . وأعدبوا : أي كفوا . وعن البغدادي " أي لا
 تأكلوا على ذلك ، ولا تشربوا " انظر شرح الدكتور حسين نصار لهذا البيت في -
 ديوان عبيد - بتحقيقه - ص ٤

(٢٢) يَعُوقُ : واحد من أبنام قوم نوح التي اشتملت عليها الآية الكريمة :

" وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ " (١) وقد عرفه العرب هو الآخر ، فكان لخيوان ، وهم بطن من همدان . وكان بقرية يقال لها خيوان . وتعبده همدان ومن والها من أرض اليمن . (٣)

قال القرطبي في تفسيره : (٤) " وأما يعوق فكان لكهلان من سبأ ،

ثم توارثه بنوه الأكبر فالأكبر ، حتى صار إلى همدان . وفيه يقول مالك بن نمط الهمداني " (٥) :

يَرِيشُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَيَبْرِى وَيَبْرِى
وَلَا يَبْرِى يَعُوقُ وَلَا يَرِيشُ (٦)

(٢٣) يَفُوثُ : وبه تنتهى تلك الأضنام التي اتخذها العرب في الجاهلية وذكرت في أشعارهم ، أو فيما تيسر لنا منها - على الأصح . ويفوث هو أحد أبنام قوم نوح الخمسة التي اشتملت عليها الآية الثالثة والعشرون من سورة نوح .

وقد عرفه العرب - كما عرفوا بقية تلك الأضنام كما رأينا - والذين عرفوا يفوثهم عرب اليمن ، اذ عبده منجج . وقد قاتلهم عليه غطييف ابن مراد ، فهربوا به إلى نجران ، وأقروه عند بنى الحارث بن كعب ، واجتمعوا عليه جميعا . (٨)

- (١) آية ٢٣ من سورة نوح (٢) خيوان - كميديان
(٣) انظر الأضنام ص ١٠ ، ٥٧ والمحبر لابن حبيب ص ٣١٧ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٢ والسيرة لابن هشام ٧٥/١
(٤) تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨
(٥) البيت في تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨ ، وفي السيرة لابن هشام ٧٥/١
(٦) برى السهم يبريه برى من باب ضرب - : تحته وأصلحه وقومه ، وراش السهم بريشه ريشا من باب عاب - : ركب فيه الريش وعصبه وفوقه وأعدده . وقولهم لا يريش ولا يبرى أنى لا يضر ولا ينفخ " انظر اللسان برى ، ريش"
(٧) انظر الأضنام ص ١٠ والسيرة لابن هشام ٧٤/١
(٨) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣١٧

(١)

وفيه يقول شاعرهم :

وَسَارَ بِنَا يَغُوثٌ إِلَى قُرَادٍ فَنَاجَزْنَاهُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ

ورواية القرطبي ، أن يغوث كان لمراد ، ثم لغطفان . وأنه كان من رصاص ، وكانوا يحملونه على جمل أحرد^(٢) ، ويسيرون معه ، ولا يهيجونه ، حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا وقالوا : قدرضى لكم المنزل . فيضربون عليه بناءً ينزلون حوله .^(٣)

هذه ثلثة من أشهر أصنام العرب فى الجاهلية ، ما ائْتقيناها لذاتها ، ولكن الأشعار الجاهلية التى ذكرتها ، هى التى فرضت علينا بسط الحديث فيها . وهذه الثلثة لاتقاس - فى عددها - اذنا ما قورنت بأصنامهم التى نددت عن الحصر .

(٤)

يقول ابن الكلبي فى الأصنام : " وكان لأهل كل دار من مكة ، صنم

فى دارهم يعبدونه " ، وهذا فى مكة وحدها . فمابال الجزيرة العربية بأسرها !! يقول ابن الكلبي أيضا : " واستهزئت العرب فى عبادة الأصنام . فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما " .^(٥)

وقد تعددت أشكال تلك الأصنام ، وتلونت صورها . فكان بعضها على شكل أناسى ، كإسافٍ ونائلةٍ وودٍ وسواعٍ وهبلٍ ، وبعضها الآخر على شكل طير أو حيوان ، كنسرٍ ويغوثٍ ويعوق . قال الواقدى - فيما نقله عنه القرطبي فى تفسيره :

(١) الأصنام ص ١٠ (٢) الحرْد - كالخَبَل - داء فى قوائم الابل يثقل مشيها

وجمل أحرد وناقة حر داء (اللسان - حرد) .

(٣) تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨

(٤) الأصنام ص ٣٣ (٥) الأصنام ص ٣٣

« كان وَدُّ على صورة رجل ، وسواعٌ على صورة امرأة ، ويغوثٌ على صورة أسد ، ويعوقٌ على صورة فرس ، ونسْرٌ على صورة نسر من اللير » (١) وكان بعض تلك الأضنام شجرة كالعزى ، أو صخرة كسعد ، أو مروة كذى الخلصة ، وغمت أشكال بقية الأضنام على العلماء ، فلم يبينوها لنا .

ولعل في ورود هذه الأضنام في أشعار الجاهليين ، دلالة على اشتهاها عندهم أكثر من غيرها . ولذلك فقد جعلها العلماء رؤس طواغيتهم ، يقول ابن حبيب : « فهذه رؤس طواغيتهم ، التي كانوا يصرون اليها من حجبهم ، لا يأتون بيوتهم حتى يمروا بها ، فيعظموها ويتقربوا اليها وينسكوا اليها » (٢)

وفي نهاية هذا الفصل ، واستكمالاً للبحث ، نحبان نلم ولوبا يجاز بالأضنام الأخرى التي ذكرها العلماء لأهل الجاهلية ، والتي لم تقع أيدينا على ذكر لها في أشعارهم .

فاليك معلقة بها ، مرتبة كذلك على حروف المعجم ليسهل تناولها ؛
١- آزر : ذكر بعض المفسرين أن آزر في قوله تعالى : (٣) « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلأَبْنِيِّ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً ... » هو اسم صنم ، وعزوا ذلك إلى مجاهد . (٤)

(٢) المحبر لابن حبيب ص ٣١٩

(١) تفسير القرطبي ٣٠٩/١٨

(٤) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني ١٣٢/٧

(٣) الانعام ٧٤

٢- الأشهل : روى الزبيدي فى تاج العروس قال : " وقال ابن الكلبي : الأشهل صنم • ومنه بنو عبد الأشهل ، لحنى من العرب " . (١)

٣- أوَّال : جاء فى تاج العروس ما نصه : " وأوَّال صنم ليكر وتغلب ابني وائل " (٢) وضبطه - كسؤال •

٤- باجر : وكان للأزد ، ومن جا ورهم من طيء وقضاة . (٣) وضبطه كما ذكر ابن الكلبي " بفتح الجيم • وربما قالوا باجر بكسر الجيم " (٤) .

٥- البجة : جاء فى تاج العروس ، فى معانى لفظة " البجة " قال : " وصنم كان يعبد من دون الله عز وجل " (٥) • وضبطه بفتح الباء وتضعيف الجيم •

٦- بس : وجاء فى تاج العروس أيضا ، عن ابن الكلبي ، أن بسا بيت لفظان كانت تعبده . (٦) وضبطه بضم الباء وتضعيف السين •

٧- بعل : قال الأزهرى فى قوله تعالى : (٧) " أَتَدْعُونَ بَعْلًا ، وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ " : " قيل ان بسلا كان صنما من ذهب يعبدونه " (٨) وجاء

فى اللسان أن بعلا كان لقوم يونس ، وقيل بل كان لقوم إلياس (٩)

٨- البعيم : ضبطه كأمير ، وقد شرحه صاحب تاج العروس بقوله : " هو اسم صنم " (١٠)

٩- بلج : ضبطه كثلج ، وقد جاء فى تاج العروس : " وبلج بفتح فسكون صنم " (١١)

- | | |
|-----------------------|------------------------|
| (١) تاج العروس - شهل | (٢) تاج العروس - أول |
| (٢) الأبنام ص ٦٣ | (٤) نفس المصدر ص ٦٣ |
| (٥) تاج العروس - بيج | (٦) تاج العروس - بس |
| (٧) الصافات ١٢٥ | (٨) تهذيب اللغة ٤١٢/٢ |
| (٩) اللسان - بعل | (١٠) تاج العروس - بعيم |
| (١١) تاج العروس - بلج | |

١٠- تَيْمٌ : ذكر أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، أن أبا عبيدة قال: " تميم كلها كانت في الجاهلية يقال لها عبد تيم . وتيم صنم كان لهم يعبدونه " (١).

وضبطه بفتح فسكون.

١١- الجَبْهَة : قيل إن الجبهة صنم كان يعبد في الجاهلية . (٢) وضبطه كالتمرة

١٢- جُرَيْشٌ : وجريش - كزبير - صنم كان في الجاهلية " (٣) ويجوز أن يكون كأمير .

١٣- جِهَارٌ : وضبطه كسراج ، وكان لهوازن بعكاظ . (٤)

١٤- الدَّارُ : جاء في تاج العروس ما نصه : " والدار صنم به سمي عبد الدار ابن قصى بن كلاب " (٥).

١٥- نَهْنَأٌ : هو واحد من أعلام عاد ، فيما ذكر المقدسي في البدء والتاريخ . (٦)

١٦- زَرْيَحٌ : على وزن سَكَيْتِر ، وكان لكندة بالنجيب من اليمن ، من ناحية حضرموت . (٧)

١٧- ذُو الرِّجْلِ : قال الزبيدي في تاج العروس : " وذو الرجل صنم حجازي " (٨)

١٨- ذُو اللَّبَاءِ : ضبطه بكسر اللام ، وكان لعبد القيس بالمشقر (٩)

١٩- رَثَامٌ : ضبطه كعصام ، وكان لحميم وأهل اليمن بصنعاء (١٠)

٢٠- الرَّبَّةُ : جاء في تاج العروس : " والربة كعبة كانت بنجران لمنحج ، وبنى

الحارث بن كعب " (١١) . وكانت الربة أيضا تطلق على اللات

٢١- السَّعِيدَةُ : وكان بأحد ، يعبد الأزد ، وقضاة ، والأبني وبرة منهم (١٢)

(١) الأغاني - دار الثقافة - ٢٨٢٤ (٢) تاج العروس - جبه

(٣) تاج العروس - جرش (٤) المحبر لابن جبيب ص ٣١٥ وجمهرة أنساب العرب ص ٣٩٣

(٥) تاج العروس - دار (٦) البدء والتاريخ لعظم بن طاهر المقدسي ٣١٣

(٧) المحبر ص ٣١٨ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣

(٨) تاج العروس - رجل

(٩) المحبر ص ٣١٧ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣

(١٠) الأعلام ص ١١ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤ والسير لابن هشام ٨٠/١ وتاريخ

اليعقوبي ١/٢٥٥ (١٢) المحبر ص ٣١٦-٣١٧ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣

٢٢- الشَّارِقُ: جاء في تاج العروس: " وقال ابن دريد: الشارق صنم كان في الجاهلية، وبه سما عبدالشارق" (١)

٢٣- شَمْسٌ: وضبطه بضم فسكون. وكان لبنى تميم وضبة وَعَلَلٌ وَأُدُّ (٢)

٢٤- صَدَاءٌ: هو أحد أصنام عاد، فيما ذكر المسعودي في مروج الذهب. (٣)

٢٥- صَمُودٌ: وهو كذلك واحدمن أصنام عاد - فيما ذكر المؤرخون (٤) وجاء

في تاج العروس: " وصمود كزبور اسم صنم كان لعاد يعبدونه" (٥)

٢٦- ضَمَارٌ: ضبطه ككتاب، وهو " صنم عبده العباس بن مرداس السلمى ورهطه". (٦)

٢٧- ضِيْرُنٌ: جاء في تاج العروس: " وضيْرُنٌ صنم. ويقال الضيْرُنَانِ صنمان

للمنذر الأكبر، كان اتخذهما بباب الحيرة، ليسجدلها من دخل

الحيرة، امتحانا للطاعة". (٧)

٢٨- العَبِيبُ: جاء في تاج العروس مانصه: " والعبيب صنم لقضاة، ومن

دانا هم" (٨) وضبطه كالمنهب

٢٩- عَمِيَانُوسٌ: وكان لخوران بأرض خولان. (٩) وضبطه بضم العين وسكون الميم

وضم النون.

(١) تاج العروس - شرق وانظر كذلك القاموس المحيط (٢٤٩/٣) - شرق

(٢) المحبر ص ٣١٦ وجمهرة أنساب العرب ص ٩٤٣ وتاريخ اليعقوبي ٢٥٥/١

(٣) مروج الذهب ١٤٥/٢ وانظر كذلك البدء والتاريخ ٣١٧/٣

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) تاج العروس - صمد (٦) تاج العروس - ضم (٧) تاج العروس - ضرن

(٨) تاج العروس - عب (٩) الاضنام ص ٤٣ وسيرة ابن هشام ٧٥/١

- ٣٠- العُوف : قال فى تاج العروس : " والعوف صنم " (١)
- ٣١- الكُشفة نجاء فى تاج العروس : " والكشفة اسم صنم كان يبيد " (٢)
- ٣٢- مُجاوِر الرّيح : وكان - فيما ذكره اليعقوبى فى تاريخه - منصوبا على الصفا (٣)
- ٣٤- المُحرِّق : وكان يَسْلَمَان لبكرين وائل وسائر ربيعة . (٤)
- ٣٥- المدان : جاء فى تاج العروس : " واعدان كحباب صنم . وبه سمى عبد المدان . وهو أبو قبيلة من بني الحارث " (٥)
- ٣٥- مَرْحَب : ضبطه كملعب ، وكان بحضرموت (٦)
- ٣٦- مُطعم الطير : كان - فيما ذكره اليعقوبى - منصوبا على المروة ، لقريش وخزاعة (٧)
- ٣٧- المِنطِيق : وكان من نحاس ، لعلك والاشعريين وغيرهم (٨) وهو بكسر الميم وسكون النون .
- ٣٨- مُنهب : ذكره الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ، فى سياق حديثه عن الاصنام (٩)
- ٣٩- نَصْر : ذكره أبو منصور الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الاعجمى قال :
ونصر اسم صنم " (١٠)
- ٤٠- المَهْبَاء : هو أحد اصنام عاد التى ذكرها المسعودى فى مروج الذهب . (١١)
- ٤١- يارليل : جاء فى تاج العروس أن يارليل - كهابيل - صنم كان فى
الجاهلية . ومنه عبديا ليل ، كعبد يغوث ، وعبدمناة ، وعبدود . (١٢)

* *

- (١) تاج العروس - عوف (٢) تاج العروس - كسع (٣) تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١
- (٤) المحبر ص ٣١٧ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣
- (٥) تاج العروس - مدن (٦) المحبر ص ٣١٨ وجمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣
- (٧) تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ (٨) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣ والمحبر ص ٣١٨ وسماء المنطيق .
- (٩) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٢ (١٠) المعرب ص ١٢٩
- (١١) مروج الذهب ١٤٥/٢ (١٢) تاج العروس - يليل

هذه وتلك ، هي ما استطعنا حصره من أصنام القوم فى الجاهلية ،
مما تحدثت به أعمارهم ، أو ذكرته أخبارهم . وقد كان لها بينهم - كما رأينا
صولة ودولة . حتى اذا بعث الله جل شأنه ، رسوله الأمين ، صلى الله عليه
وسلم بالحق المبين ، ازال صولتها ، وأدال دولتها . فالحمد لله
رب العالمين .

على أن خرافات الجاهليين فى ذلك الزمان ، لم تقتصر على اتخاذ
الأنصاب ، وعبادة الأصنام والأوثان . بل لقد كانت لهم خرافات وأساطير
أخرى . وهى التى سنبسط فيها الحديث - بانن الله تعالى ، فى الفصل
القادم .

* * *
* * *
* * *

الفصل الثالث

أساطير وخرافات أخرى في الشعر الجاهلي

- أوامر ودواهِ عجيبة وعادات وتقاليد غريبة
- خرافات وأساطير اجتماعية
- خرافات وأساطير قصصية

الفصل الثالث أساطير وخرافات أُخرى في الشعر الجاهلي

لقد رأينا فيما سبق كيف أن الجاهليين قد غرقوا في خرافات الكهانة والعرافة ، والزجر والطيرة والعيافة ، وما إلى ذلك من خرافات ذلك الزمان ، كما رأينا كيف أن أكثرهم قد آمن بجدوى تعليق الخرز والتمايم أيما إيمان . وأنهم جميعا قد استهتروا^(١) في عبادة الأصنام والأنصاب والأوثان .

ولكن هذه على كثرتها - لم تكن كل خرافات القوم ، ولا كل أساطيرهم ، ولا كل أوابدهم العجيبة ، وعاداتهم الغريبة . فقد كان لهم من الأوابد والخرافات والأساطير الأخرى ، ما يكاد هذا يضول أمامه في غرابته وعدده ونوعه . إذ أن الذي يقرأ أخبارهم ويتصفح أشعارهم ، يكاد يجد لهم في كل أمر من أمورهم خرافة أو أسطورة عجيبة ، ويكاد يصطدم في كل شأن من شئونهم بآبدة أو عادة غريبة .

وقد تتبعت تلك الخرافات والأساطير والعادات والأوابد ما وسعني التتبع ، وجمعت منها ما وسعني الجمع ، معتمدا أساسا على أشعارهم ، ومستأنسا

(١) الاستهتار في الشيء: الولوع به والافراط فيه ، حتى كأنه أهترأ يخرف
وفسد عقله (اللسان - هتر)

استثناسا بأخبارهم . فاذا أعييتنى أشعارهم كنت ربما استأنست بأشعار من لهم قريب عهد بالجاهلية ، وعرضوا فى أشعارهم لبعض تلك الأوابد والأساطير .

حتى اذا تجاوز ما جمعت من تلك الخرافات والأساطير المائة ، بين خرافة وأسطورة أو عادة وآبدة ، عدت ذلك كافيا لما رميت اليه من التديل على كثرة الخرافات بينهم ، وانتشار الأساطير فى مجتمعهم . وتعلقهم الشديد بالعجيب من الأوابد والدواهي ، والغريب من التقاليد والعادات .

هذا وقد تنوعت موضوعات تلك الأوابد والأساطير ، وتعددت أشكالها حتى كادت تغطى حياتهم كلها . فمنها ما له صلة بالأصنام وأمور الاعتقاد . ومنها ما له صلة بالعلل والأمراض ، ومنها ما له صلة بالأموات ، ومنها ما له صلة بالخيال والابل خاصة ، ومنها ما له صلة بغيرها من الحيوانات ، ومنها ما له صلة بالطير والحشرات ، ومنها ما له صلة بالجن والغيلان ، ومنها ما له صلة بحال القوم فى حربهم وسلمهم . ومنها ما له صلة بحلهم وترحالهم . ومنها ما له صلة بالعلاقة بين الرجال والنساء . ومنها ما له صلة بظواهر الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والأنواء وغيرها . ومنها ما له صلة بمن غبر من الناس والأزمان . وغير ذلك مما يكاد يند عن الإحصاء ، ويستعصى على الاستقصاء .

وقد درست تلك الأوابد والخرافات والأساطير ، دراسة تاريخية وحسب ، مرجئا التعقيب عليها إلى آخر هذا البحث ان شاء الله تعالى .

ومن أجل يسر التناول ، وسهولة التناول ، قسمت تلك الأوابد والخرافات والأساطير ثلاثة أقسام . فالقسم الأول ينتظم الأوابد والدواهي العجيبة ، والعادات والتقاليد الغريبة ، التي كانت قد انتشرت بين القوم في جاهليتهم . إذ أنهم كانوا يأتون في مختلف شؤون حياتهم بأمور منكورة غريبة عجيبة ، أطلق العلماء عليها الدواهي والأوابد . وهي أمور ليست خرافية أو أسطورية ، ولكنها - كما ذكر العلماء ، وكما هي الحقيقة - أمور منكورة عظيمة ، يعبر عنها بكلمات أو أفعال غريبة عجيبة . (١)

وكان القوم يتداولون تلك الأوابد والدواهي إيماناً بمعتقدات دينية باطلة يعتقدونها ، أو التزاماً بعادات اجتماعية فاسدة يتوارثونها .

أما القسم الثاني ، فينتظم الخرافات والأساطير التي كان القوم كثير منهم - يأتون بها ، ويتوارثون فعلها ، على أنها أمور حقيقية مسلم بها ، وهي لاتعدو أن تكون من الأباطيل والأكاذيب ، فالخرافة أو الاسطورة ، كما هو معروف هي كل أمر عجيب باطل مكذوب . (٢) وأمور القوم التي سدرجها ضمن هذا القسم كانت كذلك .

وأما القسم الثالث ، فينتظم الخرافات والاساطير القصصية ، التي كان القوم يتناقلونها عن الأزمنة الغابرة ، وكأنها أحاديث صحيحة ، وهي تحمل في طياتها الحكم ببطلانها وعدم صحتها .

(١) انظر اللسان - أبد ، بها .

(٢) انظر اللسان - خرف ، سطر ، وتهذيب اللغة ٣٥١٧٢ - خرف ، والقاموس المحيط - مطبعة السعادة بمصر - ١٣٢/٤ - خرف .

* القسم الأول : الأوبد والدواهي العجيبة ، والعادات والتقاليد
الغريبة ..

(١) الاستقسام بالأزلام :

كان للقوم قداح أو أزلام ، وهما بمعنى، يستقسمون بها إذا غمَّ عليهم الصواب في أمر من أمورهم ، كالزواج أو الحكومة ، أو السفر أو الحرب ، أو النسب أو غيرها .. ، وكان لكل أمر من تلك الأمور قداحه الخاصة ، وكان مكتوبا على كل واحد منها ما ليس مكتوبا على الآخر . مثل (افعل) أو (لا تفعل) و (نعم) و (لا) و (خير) و (شر) و (سريع) و (بطيء) و (صريح) و (ملصق) .. أو ((أمرني ربي) ، و (نهاني ربي) . وغير ذلك (١)

فاذا أرادوا أمرا رجعوا إلى تلك القداح ، فيعجلها لهم سذنة أو ثانهم . وكان ذلك غالبا ما يحدث في حضرة الأنام . وكانوا في الغالب - يلتزمون حكم تلك القداح لا يتعدونه ولا يجوزونه . (٢) بل انهم كانوا يحتكمون لتلك الأزلام في أنسابهم ، اذ كان للنسب قداحهما (صريح) و (ملصق) . فاذا شكوا في نسب ان رجلا أو لهما ، فان خرج الصريح الحقوه بهم ولو كان دعيا ، وان خرج الملصق نفوه من بينهم وان كان صريحا . (٣)

وهناك من كان يثور على تلك الأبدية ، ان لم يوائم حكم الأزلام هواه ، كما فعل مرو القيس أو غيره ، حين استقسم بالأزلام عند ذى الخلصة ، وكان أراد

(١) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٣٢

(٢) انظر تاريخ يعقوبى ٢٥٩/١ ، ونهاية الارب للنويرى ١١٨/٣

(٣) انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٣٢

أن يأخذ بثأر أبيه . فلما خرج الناهي من القداح ، قذف بهائى وجه الصنم ،
وهو يقول : (١)

لو كنت يا ذا الخلق الموتورا مئلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢) أزلام الميسر :

ولم يكن استقسام القوم بالأزلام مقتصرًا على استنطاقها الصواب
فى الأمر ، بل كانوا يفعلون ذلك فى أمور أخرى ، كفعلهم فى الميسر . وذلك
أن القوم كانوا فى أيام الجلب وسنى القحط ، يجتمع الثلثة منهم فيشترتون جزورا
وينحرونها ، ويوزعونها عشرة أقسام . ثم يوتى بالقداح ، وهى غير قداح
الاستقسام السابقة ، إذ أن قداح الميسر أحد عشر قنطًا ، سبعة منها لها الغنم
ان فازت ، وعليها الغرم ان خابت ، وغرمها بقدر غنمها . وأربعة أخرى تثقل بها
القداح ، فلاغرم لها ولاغرم عليها .

وكانت القداح الأولى مختلفة الأنصبا ، فأحدها له نصيب واحد ، وعليه
غرم نصيب واحد . والثانى له نصيبان وعليه غرم نصيبين ، وهكذا - الى
السابع ، وهو القنح المعلق . وله إن فاز سبعة أنصبا ، وعليه ان لم يفز -
غرم سبعة .

(١) انظر الاضنام ص ٢٥ والسيرة لابن هشام ٧٩/١ وديوان امرئ القيس ص ٤٦٠

ثم يحضرا الرجل الذي يجبل لهم تلك لقداح ، وكان ممن يتأله في القوم . ثم يختار كل من القوم قدحه ويعرفه ، ويأخذ نصيبه ان غنم ، ويدفع نصيبه ان غرم ، وهكذا .

وكان القوم لا يكونون الا سبعة ويسمون الأيسار ، فان نقصوا عن سبعة أخذ الكرام منهم والمياسير أكثر من قدح ، فكان لهم غنمها ، وعليهم غرمها وهكذا أيضا . (١)

وكان القوم يعدون ذلك من المكرمات التي يتفاخرون بها ، اذ يقول النابغة :

إِنِّي أَتَمُّ أَيْسَارِي وَأَمْنَحُهُمْ مَثْنَى لِأَيَادِي وَأَكْسُوا لِحْفَنَةَ الْأَمَّا

قال ابن السكيت في شرحه : (٣) « يقول : ان نقص أيسار الجزور ، أخذت ما بقي فتممتهم . أي أقوم مقام من نقص بنصيبين أو أكثر من ذلك » .

(٣) البحيرة :

كانوا اذا نَتَجَتِ الناقة خمسة أبطن ، عمدوا الى الخامس ، فإن كان ذكرا عومل كبقية الابل ، وان كان أنثى . بحروا أذنبا أي شقوها ثم تركوها . وقيل بل البحيرة هي الناقة نفسها التي نتجت خمسة أبطن . (٤) قال الامام الشافعي رضي الله عنه : « اذا نتجت الناقة خمسة أبطن اناثا ، بحرت أذنبا فحرمت » (٥) . وقيل بل البحيرة هي ابنة السائبة ، وهي كل أنثى ولدت للناقة بعد عشر اناث قبلها . (٦)

(١) انظر المحبر ص ٣٣٣ ، ونهاية الأرب للنويري ١١٨/٣ وغيرهما .

(٢) ديوان النابغة ص ١٠٧ (٣) المصدر السابق ص ١٠٧

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني ٨٢/٢ (٥) انظر تفسير القرطبي ٣٣٠/٦

(٦) المصدر السابق ٣٣٦/٦

وكان منهبهم فى البحيرة أن لا يجزَّ وبرها ، ولا يركب ظهرها ، ولا يطعم
الناس لحمها . (١) قال الشاعر : (٢)

محرمة لا يطعم الناس لحمها ولانحن فى شئ كذاك البجانرُ

وقيل بل كانت تركب ولكن لا يذكر اسم الله عليها ان ركبت ، ولا ان حمل عليها
شئ . (٣) . أما لبنها فقد اختلف فيه ، فقيل انه كان للضيف دون سواه ، (٤)

بل كان للرجال دون النساء . (٥) وقيل بل كان يمنع للطواغيت . فقد اخرج

الامام البخارى فى صحيحه ، عن سعيد بن المسيب قال : " البحيرة التى يمنع
دورها للطواغيت ، ولا يحلبها أحد من الناس " . (٦)

(٤) الحامى :

أما الحامى ، فهو الفحل من الابل الذى دركت أولاد أو ولاده . فاذا صار
ولده جذا قالوا : حمى هذا ظهره ، اتركوه ، فلا يحمل عليه ولا يركب ، ولا يمنع
ماء ولا مرعى . (٧)

وقيل بل الحامى هو الفحل من الابل الذى ينقضى ضرابه . وكان اذا
صار الى ذلك جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه . (٨)

وقيل بل الحامى الفحل اذا ركب ولد ولده ، وقيل بل هو الذى
ينتج من ملبه عشرة أبطن ، (٩) وقيل غير ذلك . (١٠) قال الشاعر : (١٢)

فقات لها عين الفحيل تعيفا وفيتن رعلاء المسامع والحامى (١٣)

- (١) المحبر ص ٣٣٠ وتفسير القرطبي ٣٣٦/٦ (٢) تفسير القرطبي ٣٣٦/٦
(٣) المحبر ص ٣٣٠ (٤) تفسير القرطبي ٣٣٦/٦ (٥) المحبر ص ٣٣ ونهاية الاربل للنويرى
١١٦/٣
(٦) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب قصة خزاعة ٢٣٣/٤ من طبعة كتاب الشعب
(٧) انظر المحبر ص ٣٣١ (٨) انظر تفسير القرطبي ٣٣٧/٦ (٩) المصدر السابق ٣٣٧/٦
(١٠) المصدر السابق ٣٣٧/٦ (١١) انظر فتح القدير للشوكا تى ٨٢/٢
(١٢) البيان والتبيين للجاحظ ٩٦/٣ (١٣) الرعلاء مشقوقة الازن (اللسان رعل)

(١) وقال الآخر :

حَمَاهَا أَبُو قَابُوسٍ فِي عِزِّ مَلِكِهِ كَمَا قَدْ حَمَى أَوْلَادَ أَوْلَادِهِ الْفَحْلِ !

(٥) السائبة :

اختلف العلماء في معنى السائبة ، فمن قائل " والسائبة هي الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر . لم يُركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الاضيف " (٢) . ومن قائل : " كان الرجل يسب الشيء من ماله ، اما بهيمة أو انسانا ، فتكون حراما أبدا ، منافعها للرجال دون النساء " (٣)

ومن قائل : " والسائبة البعير يسب ، ينذر يكون على الرجل ان سلمه الله من مرض ، أو بلغه منزله أن يفعل ذلك . فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا يركبها أحد " . ومنه قول الشاعر : (٤)

وَسَائِبَةٌ لِلَّهِ تَنْمَى تَشْكُرًا إِنْ اللَّهُ عَافَى عَامِرًا أَوْ مَجَاشِعًا
ويظهر أن السائبة كانت تعنى كل ذلك . فقد أخرج الامام البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال : " والسائبة التي كانوا يسيبونها لأهنتهم ، فلا يحمل عليها شيء " (٥)

(١) تفسير القرطبي ٣٣٧/٦ وانظر فتح القدير للشوكاني ٨٢/٢

(٢) تفسير القرطبي ٣٣٦/٦

(٣) نهاية الأرب للنويري ١١٧/٣ وانظر المحبر ص ٣٣٠

(٤) تفسير القرطبي ٣٣٦/٦ وانظر فتح القدير ٨٢/٢

(٥) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب قصة خزاعة - ٢٢٣/٤ من طبعة كتاب الشعب .

وكان أول من سن تلك العادات العجيبة للعرب في الجاهلية ، هو عمرو بن لحي الخزاعي ، الذي كان أيضا أول من نشر بينهم عبادة الأصنام كما مر بنا - . أخرج الامام البخاري في صحيحه ، من حديث أبي هريرة . رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عمرو بن عامر ابن لحي الخزاعي ، يجر قصبه في النار " (١) وكان أول من سيب السوايب (٢) . وفي رواية لمسلم (٣) " انه أول من غير دين اسماعيل ، وبحرا البحيرة ، وسيب السائبة وحما الحامي " .

واعتقد الجاهليون في تلك الأوبد وأغرفوا بها وظنوا أن فيها قربانا الى الله ، وتوقعوا لمن يخرج عنها سوء المصير . ولذلك يقول شاعرهم :
عقرتم ناقةً كانت لرَبِّي وسائبةً فقوموا للعقابِ

(٥) العتيرة : أما العتيرة فهي شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم . وهي العتيرة والعتير ، والعاترة والمعتورة ، والعترة ، والرجبية . قال النويري في نهاية الارب : " كان الرجل منهم يأخذ الشاة ، وتسمى العتير والمعتورة ، فيذبحها ويصب دمه على رأس الصنم . وذلك يفعلونه في رجب " .

(٨) وفي ذلك يقول زهير ، يصف صقرا أخطأ قطة ، فاصطدم بمكان مرتفع :
فزل عنها ووافى رأس مرقبة كمنصب العتر لمني رأسه النسك

- (١) القُصْب - كالدهن المعنى وجمعه أقصاب وهي الامعاء (اللسان قصب)
(٢) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب قصة خزاعة - ٢٢٣/٤
(٣) انظر تفسير القرطبي ٣٣٧/٦
(٤) تفسير القرطبي ٣٣٦/٦ وانظر فتح القدير للشوكاني ٨٢/٢
(٥) انظر اللسان - عتر
(٦) العتير - بالفتح الذبح ، والعتير بالكسر العتيرة نفسها (انظر اللسان عتر)
(٧) نهاية الارب ١٢٠/٣ (٨) ديوان زهير ص ١٧٨

قال أبو العباس ثعلب في شرحه : " فكأنه لِمَا به من الدم ، مثل ما بالحجر
الذي يُعتر عليه ، والمنصب الحجر ، والعُتر الذي يذبح في رجب " . (١)

(٧) عُتر الأطباء عن الغنم : وربما كانت العتيرة نذرا يندرونه ، وكان الوفاء
به عتر ظبي ليس شاة . يقول الحارث بن حلزة - يعرض ببني تغلب ، أبناء
عمومته ، وكانوا رموم بجرم لما يفعلوه (٢)

عُنَّا بِأَيْلًا وَظَلْمًا كَمَا تَعْتَرُ عَنْ حَجْرَةِ الرَّبِيبِ الطَّبَّاءِ (٣)

قال ابن منظور في شرح هذا البيت : " معناه أن الرجل كان يقول في الجاهلية :
ان بلغت ابلي مائة عترت عنها عتيرة ، فاذا بلغت مائة ضن بالغنم ، فصاد
ظبيا فذبحه . يقول أخذتموها بذنب غيرنا ، كما تذبح الأطباء محل الغنم " (٤)

(٨) الفرع : الفرع - هو أول نتاج الابل والغنم ، وكانوا في الجاهلية
يذبحونه لأهتهم يتبركون بذلك (٥) وكانوا يفعلون ذلك أيضا بأول صيدهم .
ومن أمثالهم " أول الصيد فرع " (٦) . ومن الفرع كذلك ما كان يفعله أحدهم
إذا صار له مائة بعير ، إذ كان ينحر منها بعيرا كل عام ، ويطعمه للناس ،
ولا يذوقه هو ولا أهل بيته (٧) . أو كان يقدم منها بكراً فينحره لصلته . وفيه
يقول الشاعر : (٨)

(١) ديوان زهير ص ١٧٨

(٢) كان من شروط الصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس أن أي رجل يُقتل
في دار الآخرين فهم ضامنون له ، فقتل بعض بني تغلب بسبب الريح ،
فطالبوا بني بكر بدمائهم ، فتحاكموا عند عمرو بن هند . وبذلك ينوه
الحارث بن حلزة - انظر شرح المعلمات السبع للزوزني - مكتبة الحياة

بيروت - ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٣) العنين : الاعتراض ، وعُتر الشاة والظبية يعترها : ذبحها - وبابه ضرب
اللسان عتر ، والحجرة : كالحمرة : الناحية ، وجمعها حجر وحجرات - كحتمت
وحجرتا اللسان حجر . والزبيض الغنم (اللسان ربيض) (٤) انظر اللسان - عتر
(٥) اللسان - فرع (٣) انظر مجمع الامثال ١/٢٥ - ٢٦ مثل رقم ٨٥ وما إلى القالي
٥٨١ (٧) اللسان فرع (٨) اللسان فرع

إِذْ لَا يَزَالُ قَتِيلٌ تَحْتَ رَايَتِنَا كَمَا تَشْحَطُ سَقْبُ النَّاسِكِ الْفِرْعِ
(١)

ويقول عمرو بن قميئة :

وَأَنْتِ أَرَى دِينِي يُوَافِقُ دِينَهُمْ إِذَا نَسَكْتَ أَفْرَاعَهَا وَذَبِيحَهَا

وكانوا إذا أرادوا نحر الفرع زينوه وألبسوه ، فإذا ذبحوه ألبسوا جلده
حواراً آخر ، أما للتبرك أيضاً ، وأما لتدر عليه النوق .
(٢)

وفى ذلك يقول أوس بن حجر - يذكر أزمة فى شدة البرد ، ويصف من

يحتفى منها بملابس إضافية :
(٣)

وَوَشِيَهُ الْهَيْدْبُ الْعَبَامُ مِنَ الْأَقْوَامِ سَقْبًا مَجْلًا فِرْعًا
(٤)

(٩) الوصلة : أما الوصلة فهى الناقة أو الشاة ، إذا نُتِجَتْ أنثى بعد أنثى ،

فكانوا إذا صار ذلك سيبوها . (٥) وقيل بل الوصلة هى البطن السابع من

النتاج إذا كان توأمين ذكرا وأنثى . قال ابن حبيب : " وأما الوصلة فكانت

الشاة إذا وضعت سبعة أبطن ، عمدوا إلى السابع ، فان كان ذكرا ذبح ، وان

كانت أنثى تركت فى الشاء . وان كان ذكرا وأنثى ، قيل : وصلت أخاها ، فحرمًا
(٦)

جميعاً . فكانت منافعهما ، ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء "

(١) ديوان عمرو بن قميئة ص ٢١

(٢) اللسان - فرع

(٣) انظر مجمع الامثال ٢٥/١ مثل رقم ٨٥ وأما إلى القالى ٥٨/١ ، وتهذيب

اللغة للزهري ٢٧٣ واللسان - فرع ، وتاج العروس - فرع

(٤) العبام - كالغمام - : الاحمق من الرجال الذى لا عقل له ولا أدب ولا شجاعة .

(تهذيب اللغة ٢٧٣) والهيذب - كالديلم - الثقيل من الرجال أو الاحمق

وهو مثل العبام (اللسان - هذب)

(٥) انظر تفسير القرطبي ٣٣٧/٦ وفتح القدير للشوكاتى ٨٢/٢

(٦) المحبر لابن حبيب ص ٣٣١

ولم تكن أو ابدال القوم - في الناحية الاعتقادية - لتقف عند هذه القرايين والسوابب ، فقد تجاوزوا ذلك الى الاعتقاد بأن ذبح الأبناء من أكبر القرايين .

(١٠) ذبح الأبناء من أكبر القرايين : كان القوم في الجاهلية يزعمون أن ذبح الأبناء من أكبر القرايين ، وان لم يكن قد أقدم عليه أحد - فيما ذكر العلماء - غير عبد المطلب بن هاشم ، جد النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان من حديثه المشهور ، أنه نذر لئن صار له عشرة من الأبناء ^و يعزونه ^و ويمنعونه ، لينحرن عند الأصنام في الكعبة - لله تعالى واحدا منهم ، وذلك شكرا لله عز وجل . (١)

فلما بلغ أبنائه عشرة - كما تمنى - أطلعهم على نذره ، وأخبرهم بعزمه على الوفاء به . وأنه سيحدد الذبيح منهم بالاستقسام بالأزلام عند هبل . ولذلك طلب اليهم أن يأخذ كل منهم قنحه ويعرفه بأن يكتب اسمه عليه .

ولما فعلوا ما أمرهم به أبوهم ، أخذهم ودخل بهم على هبل في جوف الكعبة وقال لصاحب القداح " اضرب على بنى هولاء بقداحهم هذه " (٢) وأخبره بنذره الذي نذر .

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ١٥٧/١ والبدء والتاريخ للمقسي ١١٤/٤ والكامل في التاريخ لابن كثير - دار الكتاب العربي ٢/٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٤٨/٢ ، والسيرة النبوية لابن كثير ١٧٤/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ١٥٣/١

وخرج القُدْح على عبد الله بن عبد المطلب أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، وكان أصغر بنى عبد المطلب ، وأحبهم الى نفسه . فأخذه بيده وأخذ الشفرة وأقبل الى اساف ونائلة . وهما الصنمان اللذان كان الناس وقريش خاصة - ينحرون عندهما .

فلما رأَت قريش ذلك قاموا اليه وقالوا : " والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل منا ، يأتي بابنه حتى يذبحه " (١)

ثم انطلقوا به - فيما يزعم القوم - الى عرَافَة بخيبر ، فسألوها الرأى فأشارت عليهم بأن يضربوا بالقداح على عبد الله الذبيح وعشرة من الابل . . فان خرجت القداح على الغلام ، زادوا فى الابل حتى تخرج عليها القداح .

وخرجت القداح على الابل عندما بلغت مائة ، فنحرها عبد المطلب ، وفرقها على بطحاء مكة ، وشعابها وفجاجها ورءوس جبالها ، وتركت لا يمسد عنها انسان ولا سبع ولا طير . وفى ذلك يقول أبو طالب :

وَتَطْعِمُ حَتَّى تَتْرَكَ الطَّيْرُ سَوْرَهَا إِذَا جَعَلَتْ أَيْدِي الْمَفِضِينَ تَرَعْدُ

(٢)

وفى ذلك يقول عبد المطلب نفسه :

عَاهَدْتَهُ وَأَنَا هُوَ فِي عَهْدِهِ
إِذْ كَانَ مَوْلَايَ وَكُنْتُ عِنْدَهُ
وَلَا أَحِبُّ أَنْ أَعِيشَ بَعْدَهُ

وَاللَّهُ لَا يَحْمَدُ شَيْءٌ حَمْدَهُ
نَذَرْتُ نَذْرًا لِأَحِبِّ رِئْه

(١) الكامل فى التاريخ - دار الكتاب العربى ٣/٢
(٢) البدء والتاريخ للمقصدى ١١٥/٤ (٣) بلوغ الأرب للأوسى ٤٧/٣

(١١) البليسة : كان للقوم في أمور الأموات أو ابد كثيرة ومذاهب متعددة ، منها هذه البلية ، وهي رحلة الميت التي كان يركبها في دنياه ، وكان لهم فيها مذاهب اذ كان الواحد منهم اذا مات عمدوا الى ناقته فعقروها عند قبره (١) أو وقفوها عند قبره مقيدة ملفوفة الرأس ، لا تغلف ولا تستقى حتى تموت وذلك حتى يركبها اناخرج من قبره ! (٢) وكانوا يقولون : ان من لم يفعل له مثل ذلك ، حشر يوم القيامة على رجليه ، وفي ذلك يقول أحدهم يوصى ابنه : (٣)

يَسْعُدُ مَا أَهْلِكُنْ فَإِنِّي لَأَتْرُكَنَّ أَبَاكَ يَعْتَرُّ رَاجِلًا وَاحْمِلْ بَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ وَلَعَلَّ لِي مِمَّا جَمَعْتَ مَطِيئَةً	أَوْصِيكَ إِنْ أَخَا الْوَصَاةِ الْأَقْرَبُ فِي الْحَشْرِ يَصْرَعُ لِلْيَدِينِ وَيَنْكَبُ وَتَقِ الْخَطِيئَةَ إِنْ ذَلِكَ أَصُوبُ فِي الْحَشْرِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ أَرْكَبُوا
--	---

(١٢) الدفن الانفرادي : ومن وصايا أمواتهم - غير طلب البلية - أن يدفنوا بالفلاة الجداء (٤) الموحشة . فاذا كانت علة زعمهم في البلية - أن يمتطوها يوم الحشر ، حتى لا يحشروا راجلين ، فماذا كانت علة حبهم للدفن الانفرادي يا ترى؟! ، يقول شاعرهم - يوصى ابنه كذلك : (٥)

إِذَا مِتَّ فَأَدْفِنِي بِجَدَاءٍ مَا بَهَا فَإِنَّ أَنتَ لَمْ تَعْقُرْ عَلَيَّ مَطِيئَتِي	سِوَى الْأَصْرَحِينَ أَوْ يَفُوزَ رَاكِبًا فَلَأَقَامَ فِي مَالِكَ الْكَهْرْحَالِبُ
---	--

(١) انظر البدء والتاريخ للمقدسي ٣٣/٤ (٢) انظر المخبر لابن حبيب ص ٣٣٣ والدرة الفاخرة ٥٧٧/٢ (٣) المحبر ص ٣٣٣ (٤) الفلاة الجداء : التي لأماء بها (اللسان - جدد)
(٥) بلوغ الأرب للأوسى ٣٠٨/٢
(٦) الأصرخان - كما فسرها الأوسى في بلوغ الأرب ٣٠٨/٢ - هما الذئب والغراب وفوز الراكب اعتسف المغازة .

(١٣) الذبح عندقبر الماجد : ومن أوابدالقوم الذبح عندقبر الماجد
الكريم ، وقد قيل في سبب ذلك الكثير . قيل انه كان اعظاما للميت كذبهم
للأضنام . وقيل بل كان حزنا على الميت ، وعقر الابل عند قبره - وهي أئمن
ما يملكون ، كان اظهارا للاستهانة بها ، دلالة على عظم المصيبة . ومن أعجب
ما قيل في ذلك ، ان الابل كانت تأكل عظام الموتى اذا بليت ، فكأنهم
بعقروها عندا لقبور ، يثأرون للأموات منها .

وفي هذا النحر ، يقول أحد بنى الحارث بن فهر - يرثى ربيعة بن
مكدم (١) ، ويعتذر ألا يكون عقر على قبره : (٢)

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ جِجَارَةِ حَرَّةٍ بِنَيْتٍ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهَوْبِ
لَا تُنْفِرِي يَا نَاقَ مِنْهُ فَإِنَّهُ سَبَاءُ خَمْرٍ وَسَعْرِ لِحْرُوبِ (٣)
لَوْلَا السَّفَارُ وَبَعْدَ خَرَقٍ مَهْمٍ لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو عَلَى الْعَرْقُوبِ (٤)

(١٤) الاستعانة بقبر الشريف : ومن أوابدالقوم في الأموات الاستعانة
بقبر الشريف . ان كان من مناهبهم الاستعانة بكل من يحسب الناس له حسابا ،
جنيا كان أو انسيا ، حيا أو ميتا . قال أحدهم ، وقد استجار بقبر سلمى ،
أحد رجال بنى حنيفة في الجاهلية : (٥)

فَأَتَيْتُ سَلْمِيَا فَعَدْتُ بِقَبْرِهِ وَأَخْوَالَ زَمَانَةٍ عَائِدٍ بِالْأَمْنِ (٦)

- (١) قتل يوم الكديب ، وهو يوم لبنى سليم على بنى كنانة .
(٢) الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي ١١٦/١
(٣) سبى الخمر - من باب رمى - جلبها (اللسان سبى) ، وسعر الحرب - من باب
فتح - أوقدها وهيجهها ، وسعر الحرب - كمبرد - موقدها ، والذي تحميه
ويزداد هوامها (اللسان سفر)
(٤) الخرق - كالدرب - القلاة الواسعة (اللسان خرق)
(٥) الاشتقاق لابن دريد ص ٣٦ (٦) سلمى - كلجى ودري (انظر ضبطه في الاشتقاق
لابن دريد ص ٣٦)

(١٥) عدم نديه القتل حتى يؤخذ بثأره : ومن عادات القوم الغريبة فى الأموات أيضا ، أنهم درجوا على لا تندب نساؤهم قتلهم ، حتى يأخذوا بثأرهم ، فإنا أخذوا بثأر قتلهم ندبته النساء . وكان الندب علامة على الأذبالثأر ، يقول شاعرهم :
(١)

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَا لِكَ فَلَیَاتِ نِسْوَتُنَا بِوَجْهِ نَهَارِ
يَجِدُ لِنَسَاءِ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَلْطُنُ حَرًّا لَوَجْهِ بِالسُّحَارِ

مكنيا بذلك عن أمرين هامين فى آن واحد ، أولهما أهمية هذا القتل ، وثانيهما أخذهم بثأره .

(١٦) خضاب نحور الخيل السابقة بدماء الصيد : فاذا انتقلنا الى حيوانات القوم والخيل والابل منسها خاصة ، وجدنا لهم فى التعامل معها أو ابد كثيرة هى الأخرى ، منها خضاب نحور الخيل السابقة بدماء الصيد . وذلك أنهم كانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق منها واحد خضبوا صدره بدم الصيد . ولست أدرى فلسفتهم فى ذلك . أكان علامة لها ، أم تيمنا بها أم الأمرين معا يقول امرؤ القيس :
(٢)

كَأَنَّ لِمَاءِ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةَ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مَرَجِلِ (٣)

- (١) نهاية الأرب للنويرى ١٢٢/٣ وانظر النقائش ١٨٩/١ ، وعيار الشعر ص ٣٢
(٢) ديوان امرئ القيس ص ٣٣
(٣) الهاديات أوائل الوحش (اللسان - هدى)

(١٧) غَزَزَ الرِّيشَ وَالخُرُقَ فِي أَسْنَمَةِ الْإِبِلِ : وَمِنْ تِلْكَ الْأَوَابِدِ ، مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ غَزَزِ الرِّيشِ وَالخُرُقِ فِي جِبَا الْعُلُوكِ (١) يَعْلَمُونَهَا بِذَلِكَ . قَالَ الشَّاعِرُ : (٢)

يَهْبُ الْهَجَانُ بِرِيشِهَا وَرِعَائِهَا كَاللَّيْلِ قَبْلَ مَبَاجِهِ الْمَتَبَلِجِ

قال الجاحظ في تعقيبهِ على هذا البيت : " وجعلها كذلك لما فوقها من ريش أسود " (٣)

(١٨) الْحَلْفُ بِالنَّارِ وَالْمَلْحُ : وَكَانَ مِنْ أَوَابِدِ الْقَوْمِ تَقْدِيسُ النَّارِ وَالْمَلْحِ وَالرَّمَادِ مَحْتَى إِيَّاهُمْ لِيَحْلِفُونَ بِهَا حَلْفَهُمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . يَقُولُ شَاعِرُهُمْ (٤)

حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَالرَّمَادِ وَبِالنَّارِ وَبِاللَّهِ نُسْلِمُ الْحَلْقَةَ

(٥)

ويقول الآخر :
حَلَفْتُ لَهُمْ بِالْمَلْحِ وَالْجَمْعِ شَهْدًا وَبِالنَّارِ وَاللَّاتِ اللَّوَاتِي أَعْظَمُ

(١٩) نَارُ التَّحَالِيفِ : وَكَانَ مِنْهَا هَتَمَامُ الْقَوْمِ بِالنَّارِ وَأَوَابِدُهُمْ فِيهَا أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْقِدُونَ لَهُمْ حَلْفًا إِلَّا حَوْلَ نَارٍ يُوَقِدُونَهَا . ثُمَّ يَذْكُرُونَ مَنَافِعَهَا ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ بِالْحَرَمَانِ وَالْمَنْعِ مِنْ خَيْرِهَا وَمَنَافِعَهَا . عَلَى الَّذِي يَنْقُضُ الْعَهْدَ وَيَخِيْسُ بِالْحَلْفِ .

(١) الْجِبَا : الْعَطَا . (٢) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٩٦/٣

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ٩٦/٣ أَيْضًا

(٤) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٨٣ (٥) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٨٣ (أَيْضًا)

وكانوا ربما دنوا من تلك النار ، حتى تكاد تحرقهم ، ثم يهلون
على مزخافون غدرة . وربما طرحوا فيها الكبريت والملح ، فاذا فرقت هولوا
على المتحالفين . (١)

قال أوس بن حجر - يصف غيراً على نشز : (٢)

إِنَّا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ مَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنِ نَارِ الْمَهْوَلِ حَالِفٌ

(٢٠) نارا الاستمطار : وهكذا كان للعرب في الجاهلية مع النار عادات
وأوابد تدل على خوفهم منها وتقديسهم لها . ومن أعجبها استمطارهم بها . فقد
كان القوم في جاهليتهم الجهلاء ، اذا تنابعت عليهم الأزمات ، وركد فيهم
البلاء ، واشتد الجذب وأمسكت السماء ، استجمعوا ما قدروا عليه من البقر ،
وعقدوا في أذنابها وبين عراقبها السلع والعشر . (٣)

ثم يصعدون بها الى جبل وعر ، ويشعلون فيها النار . ويضجون -
بالتضرع والدعاء والاستسقاء . ويزعمون أنهم كانوا اذا فعلوا ذلك
يمطرون لوقتهم . (٤) وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت : (٥)

عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَذَى نَابِ عَمْدًا كَيْمَا تَهَيِّجَ الْبُحُورَ (٦)
فَاشْتَوَتْ كُلَّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيرِ صَبِيرٍ (٧)

(١) انظر الحيوان ٤/٤٧٠ ، وثمار القلوب ص ٥٧٧ ، ونهاية الارب للنويرى ١١٧/

(٢) ديوان أوس بن حجر ص ٦٩
(٣) السلع - كالشجر ، والعشر - كالدرر - ضرب من الشجر

(٤) انظر الحيوان ٤/٤٦٦ وتأويل مشكل القرآن ص ٩٥ والدرة الفاخرة ٥١١/٢

وثمار القلوب ص ٥٨٠ ونهاية الارب للنويرى ١١٠/١ ، ونهاية الارب -
للقلقشندي ص ٤٦٢ .

(٥) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٩٨

(٦) الشكر مفرها شكير ، وهو من الشعر والريش والنبت ما نبت صفاره بين كباره
وقوله تهيج البحور أي تبعث المطر الغزير الذي يشبه البحور في غزارته

(٧) وقوله هاج عليهم أي السحاب ، وهاجت السماء غيمنت . والصبير السحاب
المتواصل

وفي الاعتراض على تلك الخرافة يقول الورل الطائي : (١)

لَا دَرَّ دَرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعِيهِمْ يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى لَزِمَاتِ بِالْعَشِيرِ
أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيْفُورًا مَسْلَعَةً ذَرِيعَةٌ لَكَ بَيْنَ اللّٰهِ وَالْمَطَرِ (٢)

(٢١) جز ناصية الأسير: أبدة أخيرة ، أحببت أن أختتم بها ما انتقيت من تلك الأوابد الكثيرة ، التي انتشرت بين القوم في ذلك الزمان ، ألا وهي جز ناصية الأسير . فقد كانوا إذا وضعت الحرب أوزارها ، وأرادوا أن يمنوا على أسير من أسراهم ، جزوا ناصيته وأطلقوه . (٢) وفي ذلك تقول الخمساء : (٤)

وَخَيْلٌ تَكْدُسُ بِاللِّدَائِرِ عَيْشِنَ وَتَحْتَ الْعَجَاجَةِ يَجْمِزْنَ جِمَزَا
جَزْنَا نَوَاصِي فُرْسَانِهَا وَكَانُوا يَطْنُونَ أَنْ لَا تَجْزَا

وكانوا ربما جعلوا تلك النواصي في كنانتهم ، افتخارا بما فعلوا بأسراهم واعتزازا بقوتهم وعزتهم . يقول الحطيئة : (٥)

قَدْ نَاضَلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كِنَانَتِهِمْ مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلًا غَيْرَ أَنْكَاسِ (٦)
وكان القوم يغتاظون من ذلك ، لأن فيه من الاهانة والاذلال الشيء

الكثير . وربما ثارت بينهم الحروب لاسبب الأسرى وحسب ، بل وبسبب جز نواصيتهم كذلك . يقول بشر بن أبي خازم : (٧)

فَإِذَا جَزَتْ نَوَاصِي آلِ بَدْرِ فَادُّوْهَا وَأَسْرِ فِي الْوَثَاقِ
وَالْأَفَاعِلُ عَلِمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ بَغَاةٌ مَا حَيِينَا فِي شِقَاقِ

(١) الحيوان ٤٦٨/٤ ، والدرة الفاخرة ٥٦١/٢ ، وثمار القلوب ص ٥٨٠ ونهاية الأرب للنويري ١١٠/١

(٢) البيقور : البقرة .

(٣) انظر نهاية الأرب للنويري ١٢٣/٣ (٤) ديوان الخمساء ص ٨٢

(٥) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤

(٦) عنونها للمجد لتليد : نواصي لاسرى والنكس من الرجال لالدى المقصره ومن

السهام والنيل : المكسور سنحه (انظر ديوان الحطيئة ص ٢٩٣)

(٧) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٦٥

وذلك أن طيئا أسرت قوما من آل بدر - من بنى فزارة - ، فجزوا نواصيهم
فغضبت فزارة ، وغضب لهم بشر بن أبي خازم الأسد ، لحلف كان بين أسد
وفزارة فقال ذلك ، يهدد طيئا . (١)

*

القسم الثاني - الخرافات والأساطير الاجتماعية :

كان للقوم كما ذكرنا - مزاعم وخرافات ، في مختلف شئون حياتهم ،
فهذه مثلا بعض خرافاتهم في العلل والأمراض والأدوية . .

(٢٢) التعشير يحفظ من الحمى : كان القوم يزعمون أن الرجل إذا ورد باب

قرية يخاف وباءها ، فوقف بيابها ونهق عشرمرات كما يفعل الحمار ، فان -
وباءها لا يضره . وسما ذلك التعشير . (٢) وفي ذلك يقول عروة بن الورد :
(٣)

لَعَمْرِي لَيْتَنِ عَشْرَتٌ مِنْ خَيْبَةِ الرَّدَى نَهَقَ الْحَمِيرُ إِنِّي لَجُوعٌ

وكان من حديثه أنه خرج في أصحابه ليبتاروا من خيبر ، وكانت مخصوصة
بالحمى والوباء ، (٤) فلما اقتربوا منها ، خافوا وباءها فنهقوا ، أما
عروة فأبى أن ينهق وأنف من ذلك . وكان من حديثه أيضا أن القوم قدهلكوا

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٦٥

(٢) انظر الدرّة الفاخرة ٥٥٨/٢ ، ونهاية الأرب للنويري ١٢٥/٣

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٩٥

(٤) انظر ثمار القلوب ص ٥٤٩

منصرفهم من خبير الالهو. (١)

(٢٣) التنجيس يحفظ من الأخطار : كانا القوم يزعمون أن من خيف عليه المس أو الجنون ، أو الخبل من العشق ، أو ريب المنون ، فعلقت عليه بعض الأقدار كخرق الحبر أو عظام الموتى - أمين ما يحذر ، ونجا مما يناف . (٢) قال الممزر العبدى :

فَلَوْ أَنَّ عِنْدِي جَارَتَيْنِ وَرَاقِيًا وَعَلِقَ أَنْجَاسًا عَلَى الْمَعْلَقِ

(٤)

وقال الآخر :

يَقُولُونَ عَلِقْ يَا لَكَ الْخَيْرِ رِمَةً وَهَلْ يَنْفَعُ التَّنْجِيسُ مَنْ كَانَ عَاشِقًا

(٥)

وقالت احدها :

نَجَسَتْهُ لَأَيُّفَعُ التَّنْجِيسُ وَالْمَوْتَ لَا تَفُوتُهُ النَّفْسُ

(٢٤) دواء الحلا : الحلا - كالكلأ - هو البثور تطهر بشفاء الصبية . وقد زعم القوم أن شفاءها يكون في أن يحمل الصبي منخلا على رأسه ويدور به بين بيوت الحي ، وينادي : الحلا الحلا ، فيلقى هذا في منخله تمرًا ، وهذا كسرة خبز ، وهذا بضعة لحم . فاذا امتلأ منخله ، نثره بين الكلاب ،

فيذهب عنه الحلا . (٦) قالت احدها : (٧) الأَحْلَا فِي شَفَةِ مَشْقُوقَةٍ فَقَدْ قَضَى مَنخَلْنَا حَقُوقَهُ

(١) انظر الدرّة الفاخرة ٥٥٨/٢

(٢) انظر بلوغ الأرب للأوسى ٣١٩/٢ (٣) المصدر السابق ٣١٩/٢

(٤) المصدر السابق أيضا ٣١٩/٢ (٥) المصدر السابق أيضا ٣١٩/٢

(٦) انظر نهاية الأرب للنويرى ١٢٥/٣ (٧) نهاية الأرب للأوسى ٣٢٨/٢

(٢٥) دواء الخدر : وزعم القوم أن من خدرت رجله ، ثم ذكر أحسب الناس إليه ، نهب عنه الخدر ، وقد ظل البعض يعتقدون في هذه الخرافة حتى بعد أن شفى الله بالاسلام للناس العقول ، وأثار لهم به السبيل يقول كثير (١) :

إِذَا خَدِرَتْ رِجْلِي ذَكَرْتُكَ أَشْفَى بِذِكْرِكَ مِنْ مَذَلٍ بِهَا فِيهِمْ (٢)

(٢٦) دواء القوباء : القوباء - كالفقراء - هي القرحة المعروفة بالقوبة ، وكانا لقوم يزعمون أن دواءها هو ريق الانسان المصاب بها . وقد نصح أعرابي أصابته القوبة بذلك ، فلما وضع عليها ريقه صحت واستعت فقال (٣) :
يَا عَجِبًا لِهَذِهِ الْفَلِيقَةِ هَلْ تَغْلِبُنَا لِقُوبَاءَ الرِّيقَةِ (٤)

(٢٧) دواء الكلب : كان القوم اذا عض أحدهم الكلب الكلب طلبوا له دم شريف من أشرافهم أو ملك من ملوكهم ، زاعمين أن دماء الأشراف والملوك تشفى من الكلب . قال الشاعر : (٥)

بِنَاءِ مَكَارِمٍ وَأَسَاةِ كَلْبٍ دِمَاؤُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ الشِّفَاءُ

- (١) ديوان كثير عزة - بتحقيق الدكتور احسان عباس - دار الثقافة - ص ١٧٦
(٢) المذل - كالقتل - : خدر الرجل (انظر تهذيب اللغة ٤٣٥/١٤)
(٣) اصلاح السنن لابن السكيت ص ٣٥٣ ، وانظر اللسان - قوب
(٤) الفليقة - كالرذيلة ، والفلق كالجسم ، والتليق كالغريق ، والفيلق كالديلم ، والفلقى - كالغرقى ، والمفلقة - كالمجزرة كلها بمعنى واحد ، هو الداهية والأمر العجيب (اللسان فلق)
(٥) الحيوان ٥/٢

(١)

وقال المثقَّب العبدى يمدح عمرو بن هند :

بِأَجْرِي الدَّمُ مَرُّ طَعْمِهِ وَيَبْرِي الكَلْبَ إِذَا عَضَّ وَهَرَّ (٢)

وقد ظل البعض - بعد الجاهلية - يعتقد في تلك الخرافة . اذ يقول الفرزدق
مفتخرا : (٣)

وَلَوْ شَرِبَ الكَلْبِي المَرَضَ مِمَّا نَا شَفَتَهَا ، وَذُو الدَاءِ الَّذِي هُوَ دَنَفُ

(٢٨) أعراض الكلب : ولم يقتصر القوم في موضوع الكلب على وصف دوائه ،

ولكنهم ذهبوا أيضا إلى تشخيص أعراضه ، وزعموا لذلك خرافة أخرى . وهي ان

الذي يصاب بالكلب ينبج كما تنبج اللاب ، ويهر كما تهر . قال عينية بن

مرداس - المشهور بابن فسوة الشاعر - ، وكان قد أصيب بالكلب ، وداواه

ابن المجل - أحد بنى الأبود بن أوس بن الحمرة : (٤)

وَلَوْلَا دَوَاءُ ابْنِ المَجْلِ وَعَلِيهِ هَرَّرْتُ إِذَا مَا النَّاسُ هَرَّتْ كِلَابِيَا

قال الجاحظ في شرح هذا البيت " فانما ذهب إلى أن الذي يعضه الكلب

ينبج نباح الكلاب ، ويهر هريرها " (٥)

(٢٩) دواء اللديغ : كنا قد ذكرنا عادة تعليق الحلي على اللديغ ، عند حديثنا

عن التمام . ونعود هنا إلى ذكر زعم من مزاعمهم في تلك العادة ، مما ينظمها

في سلك الخرافات . وذلك أنه كان اذا علق على الملسوع حلي الذهب آفاق ولكن

اذا علق عليه غيره ، كالرصاص أو حلي الرصاص مات . قال بعض بنى عذرة : (٦)

كَأَنِّي سَلِيمٌ نَالَهُ كَلْمٌ حَيْثُ تَرَى حَوْلَهُ حَلِيَّ لَتَسَاءَ مَوْضِعَا (٧)

(١) ديوان المثقَّب ص ٦٩ (٢) دم باحرو باحري وبحراني : خالص الحمرة (اللسان بحر)

(٣) ديوان الفرزدق ٣٠/٢ (٤) الحيوان ١١/٢ (٥) الحيوان ١٢/٢

(٦) بلوغ الأرب للالوسي ٣٠٤/٢

(٧) ومن أغرب ما قيل في ذلك قول جميل (ديوانه - دار صادر وبيروت - ص ٤٨)

إِذَا مَا لَدِيغٌ أَجْرُ الحَلِيِّ دَاءُهُ فَحَلِيكَ أَمْسَى يَا بَثِينَةَ دَائِيَا

(٣٠) دواء النملة : النملة - كما فسرها العلماء - قروح أو بثور تفتش على بشرة الانسان بسبب التهاب أو احتراق أو سواهما .^(١) وكان العرب في الجاهلية يزعمون أن ابن المجوس إذا كان من أخته ، وخط على النملة ، فإنها تبتراً وتندمل ، ويشفى المصاب منها . ولذلك فقد كُتِبَ عن المجوس بقولهم :
" فلان يخط على النمل " قال الشاعر :^(٢)

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عِرْقٍ لِمَعَشِرٍ كِرَامٍ وَأَنَا لَأَخْطُ عَلَى النَّمْلِ

(٣١) دواء الهدب : سمي العرب العشا يكون في العين بالهدب . قال الشاعر :^(٤)

إِنَّهُ لَا يَبْرِي دَاءَ الْهَدْبِ مِثْلُ الْقَلَايَا مِنْ سَنَامٍ وَكَبْدٍ

وكان القوم يزعمون أن الذي يصاب بالهدب ، ثم يأكل قطعاً مقلية من سنّام وكبد ، وهو يقول :^(٥)

فِيَا سَنَامًا وَكَبِدًا أَلَا نَهَبًا بِالْهَدْبِ !
لَيْسَ شِفَاءُ الْهَدْبِ إِلَّا السَّنَامُ وَالْكَبِدُ

فإن العشا ينهب بعد ذلك من عينيه .

- (١) انظر بلوغ الأرب للأوسى ٣٣٠/٢ (٢) المصدر السابق ٣٢٩/٢
(٢) أصل معنى الهدب : الصمغ الذي يسيل من الشجر اسود ، ويطلق أيضاً على اللبن الحامض الخاثر - فهو هَدْبٌ وَهَدْبٌ (تهذيب اللغة للأزهري ٥٢٨/٦)
(٤) تاج العروس - هدد (٥) بلوغ الأرب ٣٤٠/٢

(٢٢) الرَّثَمُ وَالْحَمَى : ومن خرافاتهم فى الأدوية أيضا أنهم كانوا يعتقدون غصون شجر الرثم ، أو يعتقدون خيوطا على ذلك الشجر أو على غيره من الشجر وذلك انقلاء للحمى والبواس . ويسمون ذلك: الرثم - كالرجم - والرثمة - كالرجمة والرثيمة - كالبهيمة - . وكانوا يزعمون أن من أقدم على حل رثيمة من تلك الرثائم انقلبت اليه الحمى . قال شاعرهم :
(١)

حَلَلْتُ رَثِيمَةً فَمَكَّنْتُ شَهْرًا أَكَايِدُ كُلِّ مَكْرُوهٍ السَّدْوَاءِ

الى غير ذلك من خرافات القوم وأساطيرهم التى كان لها صلة بالعلل والأمراض والأدواء .
(٢)

وهذه مثلا بعض خرافات القوم التى كان لها صلة بالموتى :-

(٢٣) الصَّدَى وَالْهَامُ : كان للقوم فى الأموات - غير ما ذكرنا فى القسم الأول - أساطير وخرافات كثيرة أخرى . منها أن الميت اذا بليج ، خرج من رأسه طائر يسمى الصدى أو الهام ، وبه فسر ابن السكيت قول عروة بن الورد :
(٣)
أَحَادِيثُ تَبَقَّى وَالْفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيْسِرٍ
قال ابن السكيت : " يريد أن الفتى يموت فتخرج منه هامة تغلوكل نثره ، وهذا

(١) بلوغ الأرب ٢/٣١٧

(٢) ومن خرافاتهم فى ذلك أيضا أن الرجل اذا طرف عين صاحبه ، فهاجت فمسح الطارف عينه لمطروف سبع مرات وهو يقول : بواحدة جأت من المدينة ، باثنتين جأت من المدينة ، بثلاث جئت من المدينة ١٠٠٠ الى سبع - شفيت عينه وسكن هياجها (انظرنهاية الأرب للنويرى ٣/١٢٤) .

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٦٦

(١) شيء كانت تقوله الجاهلية "

(٢) وبه كذلك فسرا الجاحظ قول النمر بن تولب :

أَعَاذِلُ إِنْ يُصْبِحُ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ بَعِيدًا نَأْنِي صَاحِبِي وَقَرِيبِي

(٣) قال الجاحظ : " الصدى ها هنا طائر يخرج من هامة الميت "

وبه كذلك فسرا العلماء قول أبي ذؤاد الأيادي : (٤)

سَلَطَ الدَّهْرَ وَالْمَنُونَ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمُقَابِرِ هَامٌ

فقال بعضهم بأن الصدى طائر يخرج من رأس القليل اذا بلى ، وقال آخرون بأن عظام الموتى تصير هامة فتطير . (٥)

(٣٤) الهامة .. وهذه الخرافة أعجب من سابقتها ، اذ كان القوم -

يزعمون أن الانسان اذا قتل من غير أن يطلب بثأره ، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة ، فأخذ يصيح على قبره ويقول : اسقوني ، اسقوني . فلا يزال صائحا حتى يطلب بثأره . (٦)

(٧)

وفي ذلك يقول ذوالاصبع العدواني :

يَا عَمْرُو! لَا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَضْرِبِكَ حَتَّى تَقُولَ الْهَامَةَ اسْقُونِي

ويقول عبيد بن الأبرص ، في قومه وقد بطش بهم حجر الملك : (٨)

فِي كُلِّ وَادٍ يَثْرِبُ فَالْقُصُورِ إِلَى الْيَمَامَةِ

تَطْرِبُ عَانَ أَوْصِيَا حَمْرَقِي أَوْصُوتُهَا مَمَّةٌ (٩)

(١) ديوان عمرو بن الورد ص ٦٦ (٢) البيان والتبيين ٢٨٤/١ (٣) المصدر السابق ٢٨٤/١

(٤) الاسمعيات ص ١٨٧ (٥) انظر تاج العروس - صدى (٦) انظر الدرر الفاخرة

٥٧٧/٢ وأما الى القالى ١٢٩/١ ، وشرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص ١٧١ ونهاية

الارب للنويري ١٢٧/٣ ، وتاج العروس - صدى - وغيرها .

(٧) الموتلف والمختلف للامدي ص ١٧٠ ، وانظر المفضلية ٣١

(٨) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٥ (٩) التطريب مدا الصوت وترجييعه (اللسان طرب)

ويعنى به هنا نائبات الأبرص

(٣٥) وطء المقاتل للقتلى الكرام : ومن خرافات القوم التي لها صلة بالأموات - كذلك - وطء المقاتل من النساء ، للقتلى الكرام . وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المرأة المقاتلة ان وطئت قتيلا شريفا عدة مرات - عاش أولادها .

(١)

وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم :

تَلَّ مَقَاتِلَ النِّسَاءِ يَطَّانُهُ يَقْلُنَ أَلَيْلَقِي عَلَى الْمَرْءِ مِثْرُ

(٢)

بِنَفْسِي الَّذِي تَمْشِي الْمَقَاتِلُ حَوْلَهُ يَطَّانُ لَهُ كَشَا هَضِيمًا مَهْمًا

الى غير ذلك من الاساطير والخرافات ، التي كان لها صلة بالأموات (٣)

ثم هذه أيضا بعض خرافات القوم وأساطيرهم ، فيما يتصل بخيلهم وابلهم - غير ما سبق أن ذكرنا فى قسم الأوابد والسدواهي ..

(٣٦) الهَقَّة : فمن خرافاتهم التي لها صلة بالخيل ، أنهم كانوا أولا - يستحبون الهقعة فيها . (٤) وذلك أن ابقى الخيل - فيما كانوا يزعمون - هو الحمان المهقوع . (٥) ثم ان رجلا منهم أراد شراء فرس مهقوع ، فامتنع صاحبه من بيعه منه ، فقال : (٦)

إِذَا عَرِقَ الْمَهْقُوعُ بِالْمَرْءِ أَنْعَطَتْ حَلِيلَتُهُ وَازْدَادَ حِرًا عِبَانَهَا (٧)
فصار المهقوع من الخيل مكروها ، بعد أن كان مستحبا . فكان الرجل اذا ركب الفرس المهقوع نزل عنه قبل أن يعرق تحته . (٨) اذا أصبح من المسلم به أن المهقوع اذا عرق تحت صاحبه ، اغتلمت حليلته وطلبت الرجال . (٩)

- (١) ديوان بشر بن أبى خازم ص ٨٨ (٢) بلوغ الأرب للأوسى ٣١٨/٢
(٣) ومن ذلك رمى البعرة . وكانت للمرأة اذامات زوجها اقامت فى خن ولبست شر ثيابها ، فلا تخرج ولا تطيب ولا تتحل ولا تتزين حتى تمر سنة بكاملها . ثم تؤتى بحمار أو شاة أو طير فتمسح به على رأس السنة . ثم تُعَلَى بَعْرَةَ فترميها وتقول : لقد حللت . وبعد ذلك يحق لها ان تفعل ما كان محرما عليها .
(انظر نهاية الأرب للنويرى ١٢٠/٣) . (٤) الهقعة - كالضربة - دائرة فى وسط زور الفرس (اللسان - هقع) (٥) انظر حلية الفرس نونها رانجغان لابن هذيل لاندلسى ص ٩٢ . (٦) نهاية الأرب للنويرى ١٢٦/٣ والاقتضاب فى شرح أب الكتاب ص ١٤٣ (٧) انعظت المرأة : شَبِقَتْ ، وانتهت الجماع (اللسان نعظ) . (٨) انظر الاقتضاب فى شرح أب الكتاب ص ١٤٣
(٩) انظر نهاية الأرب للنويرى ١٢٦/٣

(٣٧) التفقتة والتعمية : ونانت للقوم مع الابل أساطير وخرافات كثيرة ،
منها التفقتة والتعمية ، وهى أنه كان اذا بلغت ابل الرجل ألفا فقا عين
الفحل ، فاذا زادت عن لالف فقا عينه الأخرى ، فذلك المفقأ المعنى . قال
الشاعر : (١)

وَهَبَّتْهَا وَأَنْتَ ذُو امْتِنَانٍ تَفَقَّأَ فِيهَا أَعْيُنَ الْبَعْرَانِ

وكان القوم يزعمون أن هذه التفقتة والتعمية ، تطرد عن ابل المرض ،
والعين والغارة ، (٢) فهى اذن من باب العيافة . يقول الشاعر : (٣)

فَقَاتَ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيْفًا وَفِيهِنَّ رِعْلًا الْمَسَامِعِ وَالْحَامِي

(٣٨) كفى الصحاح : ومن أعجب خرافاتهم فى الابل أيضا ما زعموه من أن كسى
الصحاح منها يشفى السقام . قال الاصبهاني فى الدررة الفاخرة : (٤) وزعموا أن
الابل اذا أصابها العرُّ (٥) فأخذوا الصحيح منها فكووه ، زال العرُّ عن
السقيم .

وفى ذلك يقول النابغة : (٦)

حَمَلْتُ عَلَى ذَنْبِهِ وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعَرِّ يَكْوَى غَيْرَهُ وَهُوَ رَاتِعٌ

وقال الآخر : (٧)

فَكَانَ شُكْرُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْمِنَّنِ كَيْ الصَّحِيحَاتِ وَفَقَّ الْأَعْيُنِ

- (١) البيان والتبيين ٩٦/٣ (٢) انظر الدررة الفاخرة ٥٦٢/٢
(٣) البيان والتبيين ٩٦/٣ (٤) الدررة الفاخرة ٥٦٢/٢
(٥) العر بفتح العين وضماها الجرب يصيب الابل (اللسان - عرر)
(٦) ديوان النابغة ص ٤٨ وقبله : أَتَوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخْنُكَ مَانَةٌ
وَتَتْرُكُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ غَالِبٌ !
(٧) البيان والتبيين ٩٦/٣ والدررة الفاخرة ٥٦٢/٢

(٣٩) نَوْءُ السَّمَاكِ ونانت للقوم خرافة أخرى لها صلة بالابل ، وهى كرههم لنوء السماك . (١) لأن فيه بزعمهم داء الابل . قال الشاعر فى جمل له رعى نبتا من نوء السماك فمات : (٢)

لَيْتَ السَّكَّ وَنَوْءَهُ لَمْ يَخْلُقَا وَمَشَى الْأَفِيرِقُ فِي الْبِلَادِ سَلِيمًا (٣)

(٤) ذكر أم الناقة النادة يكبح جماحها : أما أعجب أساطيرهم فى الابل فهى زعمهم أن ذكر أم الناقة النادة يوقفها . قال ابن منظور فى اللسان (٤) " يقال أن الناقة اذا تَقَحَّمت براكبها ، نَادَةٌ لا يشبها رأسها ، انها اذا سَمَى أمها وَقفت " . قال الراجز (٥)

أَقُولُ وَالنَّاقَةُ بِي تَقَحَّمُ وَأَنَا هِنَهَا مَكَلْنَزُ مَعْصَمُ (٦)
وَيَحْكُ مَا نَسَمُ أُمِّهَا يَا عَلَّكُمْ (٧)

الى غير ذلك من الخرافات والأساطير التى كان لها صلة بالخيل والابل عند القوم . (٨)

(١) السماك - كالرهان - نجم فى السماء وهما سماكان راميح وأعزل . أما الراميح فلنوء السماك وهو الى جهة الشمال ، وأما الأعزل فهو من كواكب الأنواء . وهو الى جهة الجنوب (اللسان - سمك)

(٢) نهاية الارب ١٢٦/٣ (٣) الأفيرق تصغير الأفرق وهو من ابل البعيد ما بين المنسمين ، والمنسم - كالمورد - طرف خف البعير (اللسان فرق ، نسّم).

(٤) اللسان - قح (٥) اللسان - قح (٦) تقحمت لدابة أى ندت (اللسان قح) ، واعصم باغرس امتسك بعرفه ، وبالبعير امتسك بجبل من جباله (اللسان عصم)

(٧) علکم اسم ناقة (اللسان - قح) . واكلاز الرجل - كاقشعر - تقبض ولم يطمئن (اللسان كلز) .

(٨) ومنها اغلاق الظهر ، اذ كان الرجل منهم اذا بلغت ابله مائة عمدا الى البعير المائة فعقر سنامه ، حماية لظهره من أن يركب (انظر نهاية الارب للنويرى: ١٢٠/٣)

أما خرافات القوم وأساطيرهم التي لها صلة بالجن والفيان فكثيرة وكثيرة ، ومنها على سبيل المثال :-

(٤١) الاتصال بالجن : وليست الخرافة في وجود الجن ، فان وجودهم حقيق ، كما أن اتصالهم ببعض الناس ثابت ، ولكن الخرافة ما كان يزعمه القوم من هنا الاتصال الموسع بهم . فكان كل من يريد أن يفتخر بشجاعته وجراسته ، وعبوره للمفاوز والمهالك ، والوديان المخيفة ، يزعم أنه التقى بالجن هناك ، وجرى بينه وبينهم ماجرى من الأمور .

والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى ، والشعر فيه كثير أيضا . ومن ذلك قول جذع بن سنان :
(١)

نَزَلْتُ بِسَيْبِ وَايِ الْجِنِّ لَمَّا أَتَوْنِي سَافِرِينَ فَقُلْتُ أَهْلًا نَحَرْتُ لَهُمْ وَقُلْتُ أَهْلَمُوا	وَأَيْتُ اللَّيْلِ قَدَنْشَرَ الْجِنَّاحَا رَأَيْتُ وُجُوهُهُمْ وَسَمًا صَبَاحَا كُلُّوَامِنَّا طَهَيْتُ لَكُمْ سَمَاحَا
---	--

(٤٢) قتال الجن : وهذه أسطورة أخرى من أساطيرهم ، وهي قتال الجن ، وهي مبنية على سابقتها . فما دام القوم يلتقون بالجن ، فلا بد أن يحصل بينهم من المنازعات والمشاحنات ، ما يؤدي إلى القتال . ومن ذلك ما ذكره أبو عبيد البكري في فصل المقال في شرحه لقولهم : " الحمى أضرعتني للنوم " .

فقد ذكر بأن الذي قالها أحد بني كلب ، وكان له أخوان ، اختطفهما الجن ، فغزاهم ليثأر لأخويه وفي ذلك يقول :

(١) بلوغ الأرب للآلوسي ٣٥٢/٢

غزوت الجن أطلبهم بثأرى ، لاسقيهم به سما نقيعا

قيل : فتواري عنه الجنى هويًا من الليل ، فأصابته حمى فنام ، فجاءه
الجنى فاحتمله وقال: ما أنا منك وقد كنت حذرا ؟! قال: الحمى اضرعتنى للنوم"
فنهبت مثلاً . (١)

وقد ذكر الجاحظ فى الحيوان ، بعض من صرعتهم الجن ، تجتزئ منهم
علقمة بن صفوان بن أمية كمثل على الباقين . وكان من حديثه أنه خرج فى
الجاهلية يريد مكة لبعض شأنه ، فلقيه جنى على صورة نصف رجل ، وقد شهر
سيفه . فقال له علقمة :

يا شقها ما لى ولك أعمد عنى منصلك (٢)
تقتل من لا يقتلك ؟!

قيل : فرد عليه الجنى :

عبيت لك ، عبيت لك (!!!) كيما أتيح مقتلك
فأصبر لما قد حسم لك

ثم بادركل منهما صاحبه بضربة قاتلة ، فسقطا ميتين . (٣)

- (١) انظر الأسطورة والشعر فى فصل المقال ص ١٧٧ - ١٧٨
(٢) المنصل السيف - وضبطه ضم الميم والصاد ، وسكون النون .
(٣) القصة والرجز فى الحيوان ٢٠٦/٦ - ٢٠٧

(٤٣) جَنَّةُ عَبْقَرٍ : ومن أساطير القوم فى الجن ، زعمهم بأن أخبثها

وأقواها وأعرمها ، تلك التى تسكن وادى عبقر . (١) ولذلك فقد نسبوها
اليه فقالوا : جنة عبقر ، كما نسبوا أشرس الأسد الى الشرى ، وأخبث
الذئب الى الغضى . (٢)

وفى جنة عبقر يقول لبيد : (٣)

وَمِنْ قَادٍ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَبَنِيهِمْ وَوَسَّاءُ وَوَسَّاءُ وَوَسَّاءُ
كَهولاً وشباناً كَجَنَّةِ عَبْقَرٍ (٤)
ويقول حاتم الطائى : (٥)

عَلَيْهِمْ سَفْتِيَانُ كَجَنَّةِ عَبْقَرٍ يَهْزُونَ بِالْأَيْدِي وَشِجَا مَقُومَا (٦)
ويقول زهير : (٧)

بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جَنَّةُ عَبْقَرِيَّةٍ جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا وَيَسْتَعْلُوا

(٤٤) الاستعانة بالجن : ومن خرافاتهم فى الجن أيضا الاستعانة
بهم اذا نزلوا وديانا مخيفة ، أو أماكن مهجورة ، زعموا منهم بأن الجن
هم سكانها وهم حماتها . وكان الواحد منهم اذا نزل مكانا مخيفا من الليل ،
ربط فيه ناقته وقال : أعوذ بصاحب هذا الوادى أو بعظيم هذا الوادى ، ثم

نام وهو مطمئن . يقول أحدهم : (٨)
أَعُوذُ مِنْ شَرِّ الْبِلَادِ الْبَيْدِ بِسَيِّدٍ مَعْتَمِرٍ مَجِيدِ
ويقول الآخر : (٩)
قَدِيتُ ضَيْفًا لِعَظِيمِ الْوَادِي الْمَانِعِي مِنْ سَطْوَةِ الْأَعَارِي
رَاجِلَتِي فِي جَارِهِ وَزَارِي

- (١) عبقر اسم لأكثر من مكان فى الجزيرة العربية ، زعم القوم بأن الجن كانت تسكن
بعضها (معجم البلدان - عبقر) (٢) انظر ثمار القلوب ص ٢٣٤ (٣) ديوان لبيد ص ٥٤
(٤) الفيد - كالقيد : الموت ، وفاد يفيد فيدا : ما عر اللسان - فيد
(٥) ديوان حاتم الطائى - مطبعة الدنى - هامر ص (٢٢٩)
(٦) الوشيج الرماح ، واحدها وشيجة ، وأصل الوشيج الشجر الذى تصنع منه الرماح
اللسان (وشج) (٧) ديوان زهير ص ١٠٣ (٨) بلوغ الأرب للأوسى ٢/٣٢٦
(٩) المصدر السابق ٢/٣٢٦

(١) واستعاذ رجل منهم ، ومعه ولده ، فعدا عليه الأسد فأكله فقال:

قَدْ اسْتَعَدَّنَا بِعَظِيمِ الْوَادِي مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعَادِي
فَلَمْ يَجْرْنَا مِنْ هَزْبِ عَادِي

(٤٥) ذباح الجن : ومن خوفهم من الجن وأساطيرهم فيهم ، أنهم كانوا إذا اشترى الرجل منهم دارا ، أو بنى بنيانا ، أو استخرج ماء عين ، أو ما أشبه ذلك ، ذبح ذبيحة وأطعمها الناس ، يخافه أن تصيبه الجن بشيء فتؤذيه ، ان هو لم يفعل ذلك (٢)

(٤٦) رماح الجن : وكان من أساطيرهم في الجن أيضا أنهم يسمون لظاعون رماح الجن ، وفي ذلك تقول امرأة منهم ، وقد قتل ابنها بيد غير أكفائه : (٣)

لَعْمُوكَ مَا خَشِيتُ عَلَى عَدِي ۖ رِمَاحَ بَنِي مُقَيْدَةَ الْحِمَارِ
وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى عَدِي ۖ رِمَاحَ الْجِنِّ أَوْ يَاكَ حَارِ (٤)

(٤٧) شياطين الشعراء : ولعل من تلك الخرافات التي لها صلة بالجن ، ما كانوا يزعمونه من أن لكل شاعر شيطانا من الجن . وقد اخترعوا لكل واحد من أولئك الشياطين اسما خاصا به ، كما سبق أن رأينا . فَمِسْحَلُ شَيْطَانِ

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٣٢٦/٢

(٢) انظر ثمار القلوب ص ٦٩ ، واللسان - ذبح

(٣) ثمار القلوب ص ٦٨

(٤) تقول بأنها لم تكن تخشى على ابنها هؤلاء الذين قتلوه ، والذين ضربت

ارتباطهم للحمير دون الخيل - مثلا في هوانهم ، ولكنها كانت تخشى عليه

الظاعون أو الحارث الفسائي (انظر ثمار القلوب ص ٦٨)

(٥) انظر ص (٣١) من بحثنا هذا .

(١)

الأعشى ، وفيه يقول :

وَمَا كُنْتُ نَا قَوْلٍ وَلَكِنْ حَسِبْتَنِي إِذَا مَسَحَلَّ يَبْرِي لِي الْقَوْلَ أَنْطِقُ

وهبيدهو شيطان عبيد ، وزعموا أنه القائل: « وَمَنْ عَبِيدٌ لَوْلَا هَبِيدٌ... » (٢)

ولاقت صاحب امرئ القيس ، وهادر صاحب النابغة ، كما ذكر أبو زيد

القرشي في جمهرة الأشعار . (٣) وذكر الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير

أن شيطان المنخل اسمه عمرو . (٤) إلى غير ذلك (*)

(٤٨) كلاب الجن : ومن مزاعمهم في الجن أيضا أنهم كانوا يقولون بأن -

الشعراء هم كلاب الجن . وبذلك فسرا الجاحظ قول عمرو بن كلثوم : (٥)

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْجِنِّ مِنَّا وَشَذِبْنَا قِتَادَةَ مَنْ يَلِينَا (٦)

(٤٩) مراكب الجن : ولعل من أعجب أساطير العرب في الجن هو ادعاءهم

بأنها تتخذ مراكب لها من بعض الحيوانات والحشرات وخرقوا لذلك شعرا

زعموا أن الجن هم قائلوه . وهو : (٧)

(١) ثمار القلوب ص ٧٠ والبيت في ديوان الأعشى ص ٢٥٧ باختلاف يسير في الرواية

(٢) جمهرة أشعار العرب ٤٥/١

(٣) المصدر السابق ٤٨/١

(٤) انظر مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٣

(٥) ثمار القلوب ص ٦٩

(٦) القتادة : الشجرة ذات الشوك المعروفة وجمعها القتاد (اللسان قتد)

(٧) تاج العروس - عطر .

(*) ذكر ابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع (ص ١٣٣ - ١٣٤) أسماء أخرى

وَكُلَّ الْعَطَايَا قَدْ رَكِبْنَا فَلَمْ نَجِدْ
 وَمِنْ فَارَةٍ مَزْمُومَةٍ شَمْرِيَّةٍ
 وَمِنْ عَضْرَفُوطٍ حَطَّ بِسِيٍّ مِنْ لَيْثِيَّةٍ
 (١) الذِّ وَأَشْهَى مِنْ وَخَيْدِ الثَّعَالِبِ
 (٢) وَخُوْدِيْرِدْفِيْهَا أَمَامَ الرَّكَائِبِ
 (٣) يُبَا دِرْسْرِبًا مِنْ عَنَّا قَوَارِبِ

(٥٠) ضرب الثيران لتشرب البقر: ومن خرافاتهم التي لها صلة بالجن أيضا

أنهم كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إمامًا لكدر الماء أو قلة العطش أو سواهما، ضربوا الثور منها ليقتم الماء، لأن البقر تتبعه كما تتبع السؤل الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الجمار (٤)

أما الخرافة في الأمر، فهي كما قال الجاحظ في الحيوان: «وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء، حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك».

وفي ذلك يقول الأعشى: (٦)

وَإِنِّي وَمَا كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ
 لَكَالِثَوْرِ وَالْجِنِّي يَضْرِبُ ظَهْرَهُ
 رَلِيْعَلِمَ مِنْ أَمْسَى أَعَقَ وَأَحْرَبَا
 وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ مَشْرَبَا

ويقول أنس بن مدركة الخثعمي: (٧)

إِنِّي وَقَتَلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعَقَلَهُ
 كَالِثَوْرِ يَضْرِبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقْرُ

- (١) الوخد - كالضرب - نوع من السيرا السريع (اللسان - وخذ)
 (٢) زم الدابة: خطمها وعلق عليها الزمام (كاللجام) (انظر اللسان - زمم) والشمريه - بكسر الشين وتشديد الميم المفتوحة: الناقة السريعة (اللسان - شمر).
 (٣) العضر فوط: دويبة بيضاء ناعمة، والجمع عضا فيط وعضرفوطات انظر تهذيب اللغة ٣/٣٦٧، والعظاية والعظاءة بفتح العين فيهما دويبة صغيرة برصاء، وجمعها عطايا وعظاء (انظر اللسان - عطى).
 (٤) انظر الحيوان ١/٢٨٧ (٥) الحيوان ١/١٩ وانظر الدرّة الفاخرة ٢/٥٦٢
 (٦) ديوان الأعشى ص ١٦٥ (٧) الدرّة الفاخرة ٢/٥٦٢ وتاج العروس - عاف، والبيت هو الشاهد رقم ١٥٨ من شواهد شرح شذورا الذهب لابن هشام ص ٣١٦ بدون نسبة.

ويقول الآخر: (١)

كَذَٰكَ الثَّوْرُ يَضْرِبُ بِالسَّهْرَاوِي إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءَ

وللجوهرى فيما نقله عنه الزبيدى فى تاج العروس ، تعليل منطقي لهذا الأمر ،
يغايير مزاعم القوم فيه ، يقول: (٢) " وذلك أن البقر اذا امتنعت من شروعه
فى الماء ، لاتضرب لأنها ذات لبن ، وانما يضرب الثور لتفزع هى فتشرب " .

الى غير ذلك من الخرافات والأساطير التى كانت عند العرب فى
الجاهلية ولها صلة بالجن .. (٣)

أما ما كان له صلة بالغول من تلك الخرافات والأساطير ، فهو كثير
كذلك . ومنه :

(٥١) ظهور الغول: كان للقوم فى هذا الحيوان الأسطوري خرافات وأساطير كثيرة ،
أولها ظهوره لهم والتقاؤهم به . يقول أبو البلاد الطهوى المعروف بأبى -
الغول: (٤)

لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوَى جُنْحَ لَيْلٍ يَسْهَبُ كَالْعَبَايَةِ صَحْحَانِ (٥)
فَقَلْتُ لَهَا كَلَانًا نَضُّوْ أَرْضِ أَخُوْسَفِرٍ فَوَدَى عَنْ مَكَانِي

(١) نهاية الارب للنويرى ١٢٣/٣ (٢) انظر تاج العروس - عاف
(٣) ومن خرافاتهم مع الجن أيضا أنهم كانوا اذا طالت علة أحدهم وظنوا أن به
مسا ، عملوا جمالا من طين وحملوها جوالق مملوءة حنطة وشعيرا وتمرا ،
وجعلوها بباب جحر عند الغروب ، فاذا أصبحوا وهى على خالها زادوا فيها
لأن الجن لم تقبلها بزعمهم ، واذا تناقظت وتبدما عليها من الميرة ، فرحوا
بذلك وعلموا أن الجن قد رضيت واستبشروا بشفاء المريض (انظر بلوغ الارب

للأوسى ٢/٣٥٩) . (٤) المؤلف والمختلفص ٢٤٥

(٥) السهب - كالدرب - انقلاة والجمع سهوب - كسهول (اللسان سهب) والعباية
العباءة - ضرب من الأكسية والجمع اعبية وعباءات (اللسان - عبا) ، وأرض
صححان كسبلوان - صحاح - كثعالب : ليس بها شئ ولا شجر ولا قرار للمساء .
(اللسان صحح)

وكان هذا الحيوان أنثى - كما ترى - وهي مخلوقة عجيبة خطيرة، لها أسنان حادة مخيفة ، يشبهون بها سهامهم القاتلة . يقول امرؤ القيس: (١)

أَيْقَتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَهَسَنُونَ زَرْقَ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

(٥٢) الزواج من الغول : وخرافة أخرى ابتدعتها القوم ، وهي زواج بعضهم من الغول ، كما كان الحال مع عمرو بن يربوع فيما زعموا . ولذا فهم يسمون ابناؤه ببنى السعلاة ، وهي - بزعمهم - نوع من الفيلان . يقول من يهجو عمرو بن يربوع وبنيه : (٢)

يَا قَبْحَ الْمَلِئِ بْنِ السَّعَلَةِ عَمْرُو بْنُ يَرْبُوعٍ شَرَّارِ النَّاتِ
لَيْسُوا أَعْفَاءَ وَلَا أَكِيَاتِ (٣)

(٥٣) الغول والبرق : وهذه خرافة أخرى أعجب من السابقة ، وهي أن البرق فيما زعموا ، كان يذكر الغول بأهلها . ولذلك فقد زعموا أن الغول التسى - تزوج منها عمرو بن يربوع قالت له : " إذا لاح البرق من جهة بلادى ، وهى جهة كذا ، فاستره عنى ، فانى إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك ، وطرت الى بلاد قومي " . فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره .

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٣٣

(٢) الممتع فى التصريف ٣٨٦/١ وانظر اللسان - نيت

(٣) الناث وأكيات : أى الناس ، وأكياس بقلبه السين تاء ، لفة عند بعض العرب (اللسان نوت) .

ليس هذا وحسب ، بل انهم زعموا أن عمرو بن يربوع غفل عنها ليلة
وقد لمع البرق فلم يستر وجهها . فطارت وهى تقول: (١)

أَمْسِكْ بِنَيْكَ عَمْرُوَّ إِنِّي آبِقُ بَرَقَ عَلَيَّ أَرْضُ السَّمَاوِيَّاتِ (٢)

(٥٤) مراودة الغول عن نفسها : والعجيب فى القوم أنهم كانوا يخافون
الغول ويخوفون بها أبناءهم ، ويرمون بها كل من يجدون منه شرا ؛ ثم يزعمون
أنهم يتزوجون منها كما رأينا ، كما يزعمون أنهم اذا لقوها فى الصحراء راودوها
عن نفسها ، فان لم تستجب قتلوها . يقول تأبط شرا : (٣)

فَأَصْبَحْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ فَيَا جَارَتَا أَنْتِ مَا أَهْوَلَا
وَطَلَبْتَهَا بَعْضَهَا فَالتَّوْتُ بِوَجْهِ تَهْوُلٍ فَاسْتَفْهَلَا
فَطَارَ رِيْقُهَا ابْنَةُ الْجِنِّ ذُو سَفَاسِقٍ قَدْ أَخْلَقَ الْمُحْمَلَا (٤)
فَمَنْ سَأَلَ أَيْنَ ثَوْتُ جَارَتِي فَإِنَّ لَهَا بِاللَّوِيِّ مَنْزِلَا

(٥٥) قتل الغول : ومن خرافاتهم فى الغول أيضا أنها كانت تموت بضربة

(٥)

واحدة ، فان ثنيت عليها عاشت . يقول شاعرهم :

ضُرِبْتُ فَرْدَةً فَطَارَتْ هَبَاءً فِي مَحَاقِ الْقَمِيرِ آخِرَ شَهْرِ

قال الجاحظ فى تعقيبهِ على البيت : " فان لأعراب والعامّة ، تزعم أن الغول
اذا ضربت ضربة ماتت . إلا أن يعيد عليها الضارب قبل أن تقضى ضربة أخرى ،
فانه ان فعل ذلك لم تمت" (٦)

(٦)

وفى ذلك يقول تأبط شرا :

فَقَالَتْ عُدُّ فَقُلْتُ لَهَا رَوِيْدًا
مَكَانَكَ إِنِّي ثَبْتُ الْجَنَانِ (٧)

(٧)

- (١) بلوغ الأرب للإمامى ٢/٢٤١ (٢) الأبق - كالضرب - والاباق - كالقتال : الهروب
اللسان أبق (٣) الشعروا شعرا ١٤/٢١٤ ، وانظر الأغانى - ثقافة ٢١/١٤٥ باختلاف
يسير فى الرواية .
(٤) القحف كالحجم - العظم الذى فوق الدماغ من الجمجمة (اللسان - قحف) والسفاسق
طرائق السيف (اللسان - سفاسق)
(٥) الحيوان ١/٣٣٣ ، (٦) الحيوان ١/٣٣٣ (٧) الاغانى - دار الثقافة ٢١: ٢٤٧
ويروى مثل هذا الشعر أوهو باختلاف فى الرواية لأرجى البلاد - المعروف بابى الغول
الطهوى انظر الحيوان ١/٣٣٤

(١) ويقول العنبري:
 فَنَنْتِ وَالْمِقْدَارُ يَحْرُسُ أَهْلَهُ فَلَيتَ يَمِينِي قَبْلَ ذَلِكَ شَلْتِ

ويقول أبو البلاد الطهوي: (٢)
 فَقَالَتْ زِدْ فَقُلْتُ رُوَيْدٌ إِنِّي عَلَيَّ أَمْثَالُهَا ثَبَتَ الْجَنَانُ (٣)

قال الجاحظ في تعقيبه عليه: " لأنهم هكذا يقولون ، يزعمون أن الغول تسترشد بعد الضربة الأولى ، لأنها تموت من ضربة ، وتعيش من ألف ضربة " (٤)

(٥٦) نار الغول: وتلك أسطورة أخرى من أساطيرهم ذات الصلة بالغول ،
 أَلُوهُي النَّارِ الْمَسْمَاةُ بِاسْمِهَا . (٥)

اذ يزعم القوم أن للغول نارا توقدها بالليل ، بقصد العبث والتخييل
 وتضليل السابلة . (٦)

(٧) وفي ذلك يقول الشاعر:
 فَلَيْلَهُ دَرُّ الْغُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ لِصَاحِبِ قَفْرِ فِي الْمَهَامِهِ يَنْعَمُ (٨)
 أَرَنْتِ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدْتِ حَوَالِي نَيْرَانًا تَبُوخُ وَتَزْهَرُ (٩)

الى غير ذلك من الخرافات والأساطير التي كانت شائعة بين العرب في جاهليتهم
 وكان لها صلة بهذا الحيوان الخرافي المسمى بالغول . (١٠)

- (١) الحيوان ٣٣٤/٦ (٢) الحيوان ٣٣٥/٦ (٣) الجنان القلب ، وسمى بذلك لأن الصدر أجنه أي أخفاه وستره (انظر تهذيب اللغة ٤٩٩/١٠) . (٤) الحيوان ٣٣٥/٦ (٥) انظر الحيوان للجاحظ ١٣٣/٥ ونهاية الارب للقلقشندي ص ٤٦٢ (٦) السابلة هم الذين يسلكون السبل (جمهرة اللغة ٢٨٩/١ - بسل) (٧) هو أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبري كما في الحيوان ١٣٣/٥ والشعر في الحيوان ١٣٣/٥ ، وفي بلوغ الارب للالوسي ٣٤٣/٢ ولكل رواية مختلفة عن الآخر . (٨) المهمة القفر من الارض والجمع مهامه (جمهرة اللغة ١٦٥/١ - مهمة) . (٩) باخت النار تبوخ بوخا وبُوُوخا وبُوُوخَانًا : سكنت وفترت (اللسان - بوخ) وزهرت تزهر زهورًا تلالًا - (اللسان زهر) . (١٠) الغول اسم للذكر والانثى ، يقول عبيد بن أيوب العنبري :
 وَغَوْلًا قَفْرَةً ذَكَرٌ وَأُنْثَى كَأَنَّ عَلَيْنِهَا قَطْعَ النَّجَادِ
 (انظر الجنان في تشبيهات القرآن ص ٢٧ والنجاد جمع نجد وهو ما يشد على حيطان البيت من ستور وفرش) .

هذا وقد كان للقوم خرافات في حربهم وسلمهم .. منها :

(٥٧) بول النساء يطفىء نار الحرب كان للقوم في الحرب والسلم خرافات

عدة ، أهمها أنهم كانوا ربما أخرجوا النساء فيلن بين الصفيين ، يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ، ويقود إلى السلم . وفي ذلك يقول الشاعر :^(١)

لَقُونَا بِأَبْوَالِ النَّسَاءِ جِهَالَةً وَنَحْنُ نَلَاقِيهِمْ بِيَيْضِ قَوَاضِبِ

(٢)

ويقول الآخر :

هَيْهَاتَ رَدَّ الْخَيْلِ بِالْأَبْوَالِ إِذَا غَدَّتْ فِي صُورِ السَّعَالِ إِلَى

(٣)

ويقول الآخر أيضا :

جَعَلُوا السُّيُوفَ الْمَشْرِفِيَّةَ مِنْهُمْ بُولَ النَّسَاءِ وَقَلَّ ذَاكَ غِنَاءُ

(٥٨) التعقية : ومن أغرب خرافاتهم في هذا الباب ، هذه التعقية . وهي

أنهم كانوا يجتمعون للصلح في الدماء . فيأخذ حكامهم سهما ، ويقذفون به إلى

السماء ، فان رجع السهم ملطخا بالدم ، أبى أهل القتيل الا لقود .^(٤) وان

رجع نقيا مسح القوم لحاهم ، وما لحوا على الدية .^(٥)

وفي ذلك يقول المتنخل الهذلي :^(٦)

عَقُّوا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا أَحْبَدَا الْوَضْحُ

(٨)

عَقُّوا بِسَهْمٍ ثُمَّ قَالُوا مَا لِحُوا

ويقول الآخر :^(٧) إلى غير ذلك من مزاعم القوم وخرافاتهم التي لها صلة بالدماء في الحرب أو في السلم .^(٩)

(١) بلوغ الأرب للأولسي ٥/٣ (٢) المصدر السابق ٥/٣ (٣) المصدر السابق ٥/٣ أيضا

(٤) القود - كالعمل - القصاص ، وهو قتل النفس بالنفس (اللسان - قود) .

(٥) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (عقو) والتنبية على وهام أبي علي القالي

ص ٨٠ ، ولسان العربي (عق ، عقا) ، وتاج العروس (عق) .

(٦) ديوان الهذليين ٣٧٢ (٧) عق بسهمه وعق : رميه إلى السماء (اللسان

عقا) ، والوضح للبين وهو كناية عن رضا القوم بالدية (اللسان - عقا) .

(٨) اللسان - عقق ، وتاج العروس عق (٩) ولعل من هذا الباب أيضا ، زعم =

أما ما كان له صلة بظواهر الطبيعة من خرافات القوم وأساطيرهم

فمنه :

(٥٩) ختان القمر : ومن مزاعم القوم وخرافاتهم أن الذي يولد في الليلة القمرية ، يولد مختونا أو قريبا من المختون . وهم يزعمون أنما ختنه القمر . (١)

(٢)

ودخل امرؤ القيس الحمام مع قيصر ، فراه أقلف فقال له :
إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ لِأَنْتَ أَقْلَفُ الْإِمَا جَنَى الْقَمَرِ (٣)

(٦٠) السن والشمس : وكان من مزاعم القوم أيضا " أن الغلام إذا سقطت

له سن ، فأخذها بسبابته وابهامه ثم استقبل بها الشمس إذا طلعت ، فزجها في عين الشمس ، وقال : بدليني بها أحسن منها ، ولتجر أياتك فيها (٤) ، أمن على أسنانه أن تعود عوجا أو تُعلا (٥) ، أو قابلة للقلح (٦) . قال طرفه : (٧)
بَدَلْتَهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ بَرْدًا أَبْيَضَ مَصْقُولِ الأَشْرُوه

قال الأعمى الشنتمري في شرحه : " وكان المثفور إذا سقطت له سن ، قذفها

نحو عين الشمس وقال : يا شمس أعطيك سنا من عظم ، فاعطيني سنا من فضة . " (٨)

(٦١) تصفيق الضال : ولعل من هذا الباب أيضا أن التصفيق في الصحراء

يهدى الضال . فقد زعموا أن من ضل منهم في الفلاة ، ثم قلب ثيابه على

= القوم ببركة السهم المسمى ، وهو الذي ترمى به عدوك ثم يرمىك به . وكان الرجل منهم إذا رمى العدو بسهم فأصاب ، ثم رماه عدوه به ، جعله في - كنانته تبركابه (انظر اللسان - نسي) .

(١) انظر اللسان - قلف (٢) هذه رواية اللسان (قلف) ، ورواية الديوان ص ٢٨٠ : أَنْتَ أَقْلَفُ
(٣) الأقف والأقف : الذي لم يختن (اللسان - قلف ، غلف) . (٤) آية الشمس - بكسر الهمزة وفتحها : نورها وضوءها وحسنها (اللسان - آيا) . (٥) الثعل - كالديمن ، والثعل كالمرض ، والثعل - بالضم - زيادة سن أو دخول سن تحت أخرى (اللسان - ثعل) .
(٦) القلح كالمرض - والقلاح بالضم : الصفرة تعلوا الأسنان (اللسان - قلح) والنص للأصبراني
في الدرر الفاخرة ٥٦٠/٢ (٧) ، (٨) ديوان طرفه - طبع دمشق ص ٥٧

رأسه وحبس ناقته ، وصاح في أذنها كأنه يومئ إلى أحدمن الناس ،
وصفق بيديه ، وقال أخلاطاً من الكلام ، فان ناقته بعد ذلك تهتدى إلى
الطريق . (١)

(٢)

وفي ذلك يقول الشاعر:

وَأَذْنٌ يَا لِتَصْفِيْقٍ مِّنْ سَاءِ ظَنِّهِ
فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَيِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا

(٣)

ويقول الآخر:

فَلَبَّتْ ثِيَابِي وَالظُّنُونُ تَجُولُ بِي
فَلَا يَلْبَأِي مَا عَرَفْتُ حَلِيلَتِي
وَتَرَمِي بِرِجْلِي نَحْوَكُلِّ سَبِيلِ
وَأَبْصُرْتُ قَصْدًا لَمْ يُصَبِّ بِدَلِيلِ

إلى غير ذلك من الخرافات والأساطير ، التي كان لها بطواهر الطبيعة
المختلفة صلة ما . (٤)

* *

(١) انظر نهاية الأرب للنويري ١٢٢/٣

(٢) المصدر السابق ١٢٢/٣

(٣) بلوغ الأرب للأبوسي ٣١٦/٢

(٤) ولعل من ذلك أيضا ، ما كان يزعمه القوم من أن للقمر غلافا يدخل فيه اذا كسف . وهذا الغلاف يسمى الساهور . (انظر اللسان - شهر).

وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت ، (ديوانه ص ٣٦٤) :

لَا نَقْصَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ خَبِيْثَهُ
قَمَرُ سَاهُورٍ يَسْلُ وَيَغْمَدُ

وأما ما كان له صلة بالسفر والمسافرين ، من خرافات القوم
وأساطيرهم ، فهو كثير أيضا ، ومنه على سبيل المثال :

(٦٢) أخذ التراب من موضع قدم المسافر : كان القوم يزعمون أن أخذ
التراب من موضع قدم المسافر المحبوب ، يعجل برجوعه سالما . قالت
أحدها من : (١)

أَخَذْتُ تَرَابًا مِنْ مَوَاطِئِ رِجْلِهِ غَدَاةً غَدٍ كَيْمَا يَثُوبُ مُسْلِمًا

(٦٣) التفتات المسافر : ومن تلك الخرافات أيضا زعمهم بأن المسافر
إذا التفت وراءه ، لم يتم سفره . ولذلك لم يكن يلتفت منهم إلا العاشق ،
أملأ في أن يعود إلى من يحب (٢) قال الشاعر : (٣)

دَعِ التَّلْفَتَ يَا سَمُودَ وَارْمِي بِهَا وَجْهَ الْهَوَاجِرِ تَأْمَنَ رُجْعَةَ الْبَلَدِ
وقال الآخر في امرأته - وقد طلقها فتلفتت إليه : (٤)

تَلْفَتْتُ تَرْجُو رُجْعَةً بَعْدَ فَرَقَةٍ وَهَيْبَاتٍ مِمَّا تَرْجِي أُمَّ مَازِنِ
أَلَمْ تَعْلِمِي أَنِّي جُمُوحٌ عِنَانُهُ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْوَاءِ غَيْرِ مَلَيْنِ

(٦٤) رمى شيء خلف المسافر : كانت الفاركة من النساء (٥) إذا سافر

زوجها ، قذفت في إثره حصاة أو روثة أو نواة . وفي ذلك تقول أحدها من : (٦)
أَتَبَعْتَهُ إِذْ رَحَلَ لَيْسَ ضَحَى بَعْدَ النَّوَاةِ رَوْثَةٌ حَيْثُ انْتَوَى
الرَّوْثُ لِلرَّيْثِ وَاللَّنَائِي النَّوَى

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٣٤٠ (٢) انظر الدرّة الفاخرة ٢/٥٥٩

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٢/٣٢٦ (٤) المصدر السابق ٢/٣٢٨

(٥) امرأة فارك وفرك : مبيضة لزوجها (اللسان - فرك)

(٦) بلوغ الأرب للألوسي ٨٣

وقال الشاعر: (١)

رَمَتْ خَلْفَهُ لِمَارَاتٍ وَشَكَ بَيْنِهِ
نَوَاةٌ تَلْتَهَارُوثَةٌ وَحَصَاةٌ (٢)
وَقَالَتْ نَأَتْ مِنْكَ الدِّيَارُ فَلَادَنْتُ
وَرَأَيْتُ بِكَ الْخَبَارَ وَالرَّجْعَاتِ (٣)
وَحَصَّتْ لَكَ الْأَثَارُ بَعْدَ ظُهُورِهَا
وَلَا فَارَقَ التَّرْحَالَ مِنْكَ شَتَاتِ (٤)

(٦٥) كسر الأنية خلف المسافر: ومن ذلك أيضا أنهم كانوا يزعمون أن -

الضيف الثقيل أو المسافر غير المرغوب فيه ، إذا رحل وأحبوا ألا يعود
كسروا خلفه شيئا من الأنية ، وبذلك - لن يعود . قال الشاعر: (٤)

وَلَا نَكْسِرُ الْكَيْزَانَ فِي إِثْرِ ضَيْفِنَا
وَلَكِنَّا نَكْفِيهِ زَادًا لِيَرْجِعَا

وقال الآخر: (٥)

كَسَرْنَا الْقِدْرَ خَلْفَ أَبِي سَوَاحٍ
فَعَادَ ، وَقَدَرْنَا نَهَبَتْ ضِيَاعَا

(٦٦) نار المسافر: ومن خرافاتهم في السفر أيضا إيقاد نار خلف الزائر

الثقيل إذا رحل ، وخلف المسافر البغيض . ذكر ابن منظور أن أعرابية
قالت : " كانا للرجل إذا خفنا شره فتحول عنا ، أو قَدَدْنَا خَلْفَهُ نَارًا " . فقيل
لها : ولم ذلك فقالت : " لِتَحْوِلُ ضُبُعِهِمْ مَعَهُمْ " ، أي شرهم . (٦)

-
- (١) بلوغ الأرب للأوسى ٨٣
(٢) راث الخبير بريث ريثا : أبطأ (اللسان ريث)
(٣) حَصَّتْ الْأَثَارُ أَي غَمَّتْ وَضَاعَتْ وَتَنَاثَرَتْ ، مِنْ حَصَّ رَيْشُ الطَّائِرِ وَشَعْرَ الْإِنْسَانِ
إِذَا سَقَطَ وَتَنَاثَرَ (اللسان حصص) .
(٤) بلوغ الأرب للأوسى ٣٣١/٢
(٥) بلوغ الأرب للأوسى ٣٣١/٢
(٦) انظر اللسان - وقد .

وكان القوم يقولون في الدعاء على المسافر البغيض : « أبعد الله
وأحقه وأوقد نارا خلفه » (١) وفي ذلك يقول الشاعر : (٢)

وَجَمَّةٌ أَقْوَامٌ حَمَلَتْ وَلَمْ تَكُنْ لِتُوقِدْ نَارًا إِثْرَهُمْ لِلتَّنَدِمِ (٣)

(٦٧) نار السلامة : وما كان يفعلها القوم أيضا فيما يختص بالسفر - ايقاد
نار للمسافر المحبوب عند رجوعه بالسلامة والغنيمة . فرحاً لعودته وطرباً
لقدمه ، ولست أدري معنى لجمعهم بين ايقاد النار خلف البغيض ، وايقادها
مقدم المحبوب . . يقول الشاعر : (٤)

يَا سُلَيْمِي أَوْقِدِي النَّارَا
إِنْ مِنْ تَهْوِينِ قَدْ زَارَا

(٦٨) مناداة المسافر من البئر : ومن أعجب خرافات القوم في أمر المسافرين
أنهم كانوا اذا غم عليهم أمرٌ غائب منهم ، جاءوا الى بئر عادية ،
أوحفر قديم ، ونادوا فيه باسمه ثلاثاً . وكانوا يزعمون أنه ان كان حيا
سمعوا له صوتا ، وان كان ميتا لم يسمعوا شيئا . قال الشاعر : (٦)

(١) انظر الحيوان للجاحظ ٤/٤٧٣ - ٤٧٤ ، وثمار القلوب للثعالبي ص ٥٧٧
ونهاية الارب للقلقشندي ص ٤٦٢ ، ونهاية الارب للنويري ١/١١٠

(٢) الحيوان ٤/٨٧٤

(٣) الجمّة - بفتح فتشديد - الجماعة - يمشون في الدم وفي الصلح ، والحمل
اعطاء الدية - فالحمالة - كالسحابة - الدية - يحملها قوم عن قوم .
يقول : لم تقدم عليهما أعطيت من المشاركة في الدية لهؤلاء القوم ،
فتوقد خلفهم نارا كي لا يعودوا (انظر في شرح ذلك الحيوان ٤/٤٧٤ ،
وثمار القلوب ص ٥٧٧) .

(٤) نهاية الارب للنويري ١/١١٧

(٥) عادية أي قديمة ، كأنها نسبت الى عاد (انظر اللسان - عدا) .

(٦) بلوغ الارب للألوسي ٣/٤٣

أَلَمْ تَعَلِّمِي أَنِّي دَعَوْتُ مَجَاشِعًا مِنْ الْحَفْرِ وَالطَّلْمَاءِ بِأَيْدِ كَسْرِهَا
 فَجَاؤَنِي حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّ سَهْوًا سَيَطْلَعُ مِنْ جَوْفِهَا صَعْبٌ حُدُورُهَا
 لَقَدْ سَكَنْتُ نَفْسِي وَأَيَّقَنْتُ أَنَّهُ سَيَقْدُمُ وَالدُّنْيَا عَجَابٌ أُمُورُهَا

وقال الآخر : (١)

وَكَمْ نَادَيْتُهُ وَاللَّيْلُ سَاجٍ بِعَادِيٍّ الْبِنَارِ فَمَا أَجَابَا

الى غير ذلك ، مما كان يسود القوم من خرافات لهاملة بالسفر والمسافرين .

ومن خرافات السفر والمسافرين ، الى خرافات العلاقة بين الرجال والنساء . فقد كان للقوم خرافات وأساطير فى العلاقة بين الرجل والمرأة من مختلف نواحيها . . . ومن ذلك :

(٦٩) اختلاج العين :

كان من خرافات القوم التى تتعلق بما بينا البنسين

الرجل والمرأة - زعمهم بأن من اختلجت عينه ، فانه سيرى من يحب . قال بشر بن أبى خازم : (٢)

إِذَا اخْتَلَجَتْ عَيْنِي أَقُولُ لَعَلَّهَا فَتَاةٌ بَنِي عَمْرٍو بِهَا الْعَيْنُ تَلْمَعُ
 وقال الآخر : (٣)

إِذَا اخْتَلَجَتْ عَيْنِي تَيَقَّنْتُ أَنِّي أَرَاكَ وَإِنْ كَانَ الْمَزَارُ بَعِيدًا

(١) بلوغ الأرب للأوسى ٣/٣

(٢) ديوان بشر بن أبى خازم ص ١١٨

(٣) بلوغ الأرب للأوسى ٣٢١/٢

(٧٠) دواء العشق : رأينا في فصل سابق أن القوم كانت لهم خمرزة تسمى السلوانة ، وكانوا يزعمون أنهم ان سقوا العاشق عنها الماء فإنه يسلو .
وفي ذلك يقول الراجز : (١)

لَوْ أَشْرَبْتُ السُّلْوَانَ مَا سَلَيْتُ مَا بِي غِنَى عَنْكُمْ وَأَنْ غِنَيْتُ

(٧١) كفى العاشق : أما الخرافة الأعجب من تلك ، فهي زعمهم بأن الكى يشفى من العشق . فكان الرجل منهم اذا اشتد بلاؤه من العشق ، أحموا حديدة وكووه بها . وفي ذلك يقول شاعرهم : (٢)

شَكَوتُ إِلَى رَفِيقِي اشْتِيَا قِيسِي فَجَاءَنِي وَقَدْ جَمَعَا دَوَاءَ
وَجَاءَ بِالطَّبِيبِ لِيَكُونِي نِيسِي وَلَا أَبْغِي - عَدِمْتَهُمَا أَكْتَوَاءَ
وَلَوْ أَتَيْتَ بِسَلْمَى حِينَ جَاءَ لِعَاضَانِي مِنَ السَّقَمِ الشِّفَاءَ

(٧٢) شق البرود على المحبين : ومن أساطيرهم فى العشق أيضا أنهم كانوا يزعمون أن المرأة اذا أحبت رجلا وأحبها ، ثم لم تشق عليه رداؤه ، ويشق هو عليها برقعها ، فسحبهما . ولكن اذا فعلا ذلك - دام . (٣)
وفي ذلك يقول حليم ، عبد بنى الحساس : (٤)

- (١) بلوغ الأرب للأوسى ٥/٣
(٢) بلوغ الأرب للأوسى ٢٢١/٢ - ٢٢٢
(٣) انظر الدرّة الفاخرة ٥٥٩/٢
(٤) ديوان سحيم ص ١٦

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِشَاءِ مُنِيرٍ وَمِنْ يَرْقَعُ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسٍ
إِنَّا شَقُّ بَرْدِ شَقِّ بِالْبَرْدِ بَرْقَعٌ دَوَالِيكَ حَتَّى كَلْنَا غَيْرَ لَابِسٍ

(٧٣) طلب الأزواج :

وكان من خرافاتهم ، همالة صلة بالعلاقة بين الرجل والمرأة أيضا ، أن المرأة إذا رغبت في الزواج ولم تجد خاطبا ، قامت ليلا فكحلت عينها وأعفت عينها ، ونشرت من شعرها جانبا وتركت جانبا ، وحجلت على إحدى رجليها وهي تقول : " يا لكاح ، أبغى النكاح ، قبل الصباح - حَقَّق لها ما تريد من الطالب ، وأسرع إلى بابها الخطاب .

وفى ذلك يقول الراجز :
قَدْ كَحَلَّتْ عَيْنًا وَأَعَفَّتْ عَيْنًا وَحَجَلَّتْ وَنَشَرَتْ قَرِينًا (٣)
تَظُنُّ زَيْنًا مَا تَرَاهُ شَيْنًا

(٧٤) ولد اللثغاء ألتغ :

ومن خرافاتهم كذلك في هذا الجانب أن ولد اللثغاء يكون ألتغ ، وقد طلق أحدهم امرأته حين وجدها لثغاء خشية أن تجيئه بولد ألتغ ، وقال :

لَثْغَاءُ تَأْتِي بِحَيْفِسِ أَلْتِغِ تَمِيرُ فِي الْمَوْشَى وَالْمَصْبِغِ (٥)

(٧٥) ولدا المنعورة مفرع :

ومن خرافاتهم أيضا أن المرأة إذا حملت وهي فزعة ، فجاءت بغلام جاءت به لا يطاق . وفى ذلك يقول أبو كبير الهذلي :
مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهْنٌ عَوَاقِدٌ حَبْكُ التَّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مَثْقَلِ (٦)

(١) لكحة كمنعه - وكزه بيده (اللسان لكح) (٢) بلوغ الأرب للأوسى ٣٣٠/٦

(٣) القرين من القرن ، والقرن : الخصلة من الشعر (اللسان قرن)

(٤) انظر البيان والتبيين ٥٧/١

(٥) الحيفس - كالهزبر - القصير الضخم اللثيم الخلقة ، الذى لاخير عنده (اللسان حفس) والميسر التبختر . تقول : ماس يميسر ميسا وميساننا : تبختر واختال (اللسان ميس) . (٦) ديوان الهذليين ٩٢/٢

(٧٦) ولد الغضبي نجيب : وكذلك اعتقد الجاهليون أن المرأة إذا حملت

وهي غضبي ، فجاءت بفلان جاء نجيبا . قال الإبيسي في المستطرف : " وقالوا
إذا أردت أن ينجب ولدك ، فأغضبها ثم قع عليها " (١)
وفي ذلك يقول الشاعر : (٢)

يُجَامِعُهَا غَضْبِي فِجَاءً مَسْهَدًا وَأَنْفَعُ أَوْلَادِ الرِّجَالِ الْمَسْهَدُ

(٧٧) الرِّتْمُ يَخْبِرُ عَنِ الزَّوْجَةِ : ولعل من أغرب خرافات القوم فيما له صلة

بالعلاقة بين الرجل والمرأة - خرافة تعقاد الرِّتْمِ . وكان الرجل منهم إذا
أراد سفرا ، عمد إلى شجرتين متقاربتين من شجر الرتم (٣) ، فعقد غضنين
من أغصانها ، كلا على الآخر ، وأعد غضنين من شجرة واحدة من الشجر ذاته
على بعضهما . ثم مضى لسفره .

فإذا عاد ووجد الغضنين على حالهما ، اعتقد بأن زوجته وفتبعده

ولم تخنه ، وإذا وجد الغضنين قد انحلا ، ظن بها سوءا واعتقد أنها نكثت
عهده ، وأحدثت بعده . (٤)

وفي ذلك يقول الشاعر : (٥)

لَا تَحْسَبَنَّ رَتَائِمًا عَقَدْتَهَا تَنْبِيكَ عَنْهَا بِالْيَقِينِ الصَّادِقِ

وقال الآخر : (٦)
خَانَتْهُ لِمَارَاتٍ شَيْبًا بِمَفْرِقِهِ وَغَسْرَةَ حَلْفِهَا وَالْعَقْدَ لِلرِّتْمِ

ومن أخبارهم في ذلك ، أن رجلا منهم أراد سفرا ، فأخذ يوصي امرأته بالألا
تحدث بعده ، فانه سيعلم أخبارها بعقد الرتم . ويقول : " ياك أن تفعلني

(١) المستطرف ٤٥٦/٢ (٢) البصائر والذخائر لأبي حيان ٥٥/٢
(٣) الرِّتْمُ - كالشجر - ضرب من الشجر ، وأحدثه رتمة - كشجرة - (اللسان رتم)
قال حنظل بن خويلد الفزاري (جمهرة اللغة ١٣/٢) : " وحل أهلك أرضا تنبت الرتما

(٤) انظر المعاني الكبير ٢٦٨/١ ، وجمهرة اللغة ٢٣/٢ ، والذرة الفاخرة في
الأمثال السائرة ٣٨٨/٢ ، وتهذيب اللغة ٢٨٠/١٤ ، ولسان العرب - رتم .

(٥) بلوغ الأرب للأوسى ٣١٧/٢ (٦) بلوغ الأرب للأوسى ٣١٧/٢

واياك ، فاني عاقد لك رتمة بشجرة » . فقال له أحد أصدقائه :
 هَلْ يَنْفَعُنكَ الْيَوْمَ إِنْ هَمَّتْ بِهِمْ كَثْرَةٌ مَا تُوصِي وَتَعْقَدُ الرِّتْمَ ؟!

الى غير ذلك مما كان له صلة بالعلاقة بين الرجال والنساء من الخرافات والأساطير .

وأخيرا نود أن نختم هذا القسم ، من خرافات القوم وأساطيرهم ببعض تلك الخرافات والأساطير التي كان لها صلة ببعض الحيوانات - غير ما سبق ان ذكرنا . فمن ذلك :

(٧٨) أكل قلب الأسد يورث الشجاعة : كانا القوم يزعمون أن أكل لحوم

السباع ، وقلوبها بالذات ، يهب القوة ، ويورث الشجاعة . وفي ذلك يقول أحدهم ، وقد أكل فؤاد ليث ، فعدا عليه نمر فجرحه :

أَكَلْتُ مِنْ لَيْثِ الْهَيَّوْرِ فُؤَادَهُ لِأَصْبَحَ أَجْرَامِيهِ قَلْبًا وَأَقْدَمَا
 فَأَدْرَكَ مِنِّي نَأْرَهُ بِأَبْنِ أَخْتِهِ فَيَا لَكَ ثَأْرًا مَا أَشَدُّ أَعْظَمَا

(٢)

وقال الآخر ممترضا على تلك الخرافة :

إِنَّا لَمْ يَكُنْ قَلْبُ الْفَتَى غَدْوَةَ الْوَعَى أَصَمَّ فَقَلْبُ اللَّيْثِ لَيْسَ يَنْفَعُ
 وَمَا نَفَعُ قَلْبُ اللَّيْثِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى إِذَا كَانَ سَيْفُ الْمَرْءِ لَيْسَ يَقَاطِعُ

(٧٩) الحية والروث : ومن خرافات القوم في الحية أيضا ، أنهم كانوا اذا قتلوا ثعبانا خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره ، فيأخذون روثه ويفتونها على رأسه ويقولون : روثه راث تأرك . ويزعمون أن سمه بذلك يصبح هدرا .

(١) السدرة الفاخرة ٢/٣٨٨ وانظر هذه الخرافة والشعر فيها في إصلاح المنطق لابن السكيت ص ٥٨ - ٥٩ والبيت في المعاني الكبير ١/٣٦٨ ، وتهذيب

اللغة ١٤/٢٨٠ ، واللسان وتاج العروس - رتم .

(٢) بلوغ الأرب للالوسي ٢/٣٢٣

(٣) المصدر السابق ٢/٣٢٣ أيضا .

قال شاعرهم: (١)
طَرَحْنَا عَلَيْهِ الرُّوثَ وَالزُّجْرَ صَارِقٌ فَرَاثَ عَلَيْنَا ثَارَهُ وَالطَّوَائِلَ (٢)

(٧٨) شجاع البطن : ومن خرافاتهم ذات الصلة بالأفاعى ، زعمهم بأن في

بطن الانسان حية يقال لها الصفر . وأنها هي التي تعضه اذا جاع ، فيشعر بالجوع . (٣) وفي ذلك يقول أعشى باهلة : (٤)

لَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا يَعْضُ عَلَيَّ شَرْسُوفُهُ الصَّفْرُ (٥)

ويقول أبو خراش الهذلي : (٦)

أَرَدْتُ شَجَاعَ الْبَطْنِ قَدْ تَعَلَّمِينَهُ وَأَوْثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّعْمِ

الى غير ذلك . (٧)

* * *

- (١) بلوغ الأرب للأوسى ٣٥٨/٢
(٢) راث يريث ريثا - من باب باع - أبطأ وتا خر (اللسان ريث)
(٣) انظر ثمار القلوب ص ٤٢٤ ، وتهذيب اللغة ١٦٧/١٢ ، ولسان العرب (صفر) ، وضبط الصفر - كالقمر .
(٤) الكامل في الأئب للمبرد ٦٥/٤
(٥) الأين - كالعين - الأعياء والتعب ، والجمع أيون - كعيون - (اللسان أين) . والوصب - كالتعيب - الوجع والمرض ، والجمع أوصاب (اللسان وصب) ، والشرسوف كالعنقود - واحدا لشراسيف وهي أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن (اللسان - شرف) .
(٦) ديوان الهذليين ١٢٠٠/٣
(٧) ولعل من أساطيرهم في هذا الباب أيضا ما ذكره الابشيهي في المستطرف من أن الحية - فيما زعموا - تموت من الضربة الأولى ، فاذا ثنيت عليها عاشت (انظرا المستطرف للابشيهي ٩٠/٣) .

* القسم الثالث : الخرافات والأساطير القصصية :

ضمّنت هذا القسم من خرافات القوم وأساطيرهم ، ما كانوا يتناقلونه عن الأزمنة الغابرة وكأنه حقائق مسلم بها . فمن ذلك :

(٨١) حديث خرافة : ذكر العلماء بأن خرافة هذا ، رجل من عذرة أو من جهينة ، استهوته الجن فاخطفته . فلما رجع الى قومه جعل يحدثهم بالأعاجيب التي رأى في رحلته تلك . والقوم بين مصدق ومكذب . (١)

ثم ان العرب صاروا بعد ذلك اذا سمعوا حديثا ظنوا فيه الكذب قالوا حديث خرافة . قال عبدالله بن الزبيرى ، وهو يكفر بالنشور : (٢)

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

ومن أعجب خرافات القوم وأساطيرهم ، ما يتصل باخبار الطير والحيوان ، ومن ذلك :

(٨٢) حمامة نوح عليه السلام : ومن هذه الأساطير والخرافات ، تلك

الأسطورة التي تتحدث عن حمامة نوح عليه السلام . اذ يقول الجاحظ فى الحيوان : « وأن نوحا صلى الله عليه وسلم ، حين بقى فى اللجة أياما بعث الغراب ، فوقع على جيفة ولم يرجع . ثم بعث الحمامة لتتنظر هل ترى فى الأرض موضعا يكون للسفينة مرفأ . واستجعلت على نوح الطوق الذى فى عنقها ، فرشاها به ، أى فجعل ذلك جعلاً لها » . (٣)

(١) انظر ثمار القلوب ص ١٣٠ ، وتاج العروس - حرف

(٢) ثمار القلوب ص ١٣٠

(٣) الحيوان للجاحظ ٢٢١/٢

بل وزاد القوم في الأسطورة أن الحمامة قد عادت ، وبمنقارها غصن من الزيتون ، وعلى عنقها آثار من الطين ، دلالة على معرفتها باليابسة ، واهتدائها اليها . وانها لما استوهبت طوقها من نوح عليه السلام ، طلبت اليه أن لا يكون الطوق من ذهب وذلك خشية من سهام القناصين .

وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت : (١)

فجاءت يقطف آية مستبينة فاصبح منها موضع الطين جاديا (٢)
على خطمها واستوهبت ثم طوقها وقالت ألا لاتجعل الطوق حاليبا (٣)
ولا تهبأ ، انى أخاف نبالهم يخالونه ما لي وليس بما ليكا

(٨٣) الحية كانت كالجمال : ومن تلك الأساطير أيضا ، أن الحية كانت في

صورة جملاً أول الأمر ، وأن الله سبحانه وتعالى قد مسحها اليها هي عليه الآن عقابا لها ، لأنها فيما زعموا أيضا طاوعت الشيطان . (٤) وفي ذلك يقول عدى بن زيد :

فكانت الحية الرقنا إذ خلقت كما ترى ناقة في الخلق أوجلا

(٨٤) الحية والأخوان : على أن أغرب أساطيرهم في الحية ، هو ما كان من أمرها مع هذين الأخوين . فقد روى ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، عن المفضل الضبي قال : « يقال امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها ، فخرج أخوان يريدانها ، فوثبت على أحدهما فقتلته . فتمكن لها أخوه فسى السلاح ، فقالت : هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً ؟ فأجابها الى ذلك حتى أشرى »

- (١) ديوان أمية ص ٥٣٢ (٢) الجادى الزعفران . وأصبح ذلك الموضع بلون الزعفران
(٣) هذه رواية الحيوان (٢/٣٢٤) ، ومعناه : لاتجعله حليبا خشية اليبا دين .
(٤) إشارة الى أسطورة دخول ابليس الجنة عن طريق الحية
(٥) الحيوان ١٩٨٤

ثم ذكر أخاه فقال: كيف يهزئني العيش بعد أخي (١) فأخذ
فأسا وصار إلى جحرها ، فتمكن لها . فلما خرجت ضربها على رأسها فأثر فيه
ولم يمعن . ثم طلب الدينار حين فاته قتلها فقالت : انه مادام هذا القبر
بفنائى ، وهذه الضربة برأسى ، فلست آمنك على ناسى (٢)

(٣)

وقد سجل النابغة هذه الأسطورة في شعره بقوله :

(٤)	وَمَا أَنْفَكْتَ الْأَمْثَالَ فِي النَّاسِ سَائِرَةً	كَمَا لَقِيتَ ذَاتَ الصَّامِنِ حَلِيفَهَا
(٥)	وَلَا تَغْشَيْنِي مِنْكَ يَا لَتْلُمَ بِكَادِرَةً	فَقَالَتْ لَهُ ادْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِرًا
(٦)	وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَائِرَةً	فَلَمَّا تَوَفَّى الْعَقْلَ إِلَّا أَقْلَسَهُ
(٧)	لِيَقْتُلَهَا أَوْ تَخْطِئَ الْكُفَّ بِكَادِرَةً	أَكْبَعًا عَلَى فَأْسٍ يَحْدُ غُرَابَهَا
(٨)	وَلِلْبِرْعَيْنِ لَا تَغْمُضُ نَائِلِرَةً	فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسَمَهُ
(٩)	وَكَانَتْ لَهُ إِذْ خَاسَ بِالْعَهْدِ قَاهِرَةً	تَنْدَمُ لَمَّا فَاتَهُ النَّحْلُ عِنْدَهَا
(١٠)	عَلَيْهَا لِنَاؤٌ تُنْجِزِي لِي أَخِيرَةً	فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلِ اللَّهُ بَيْنَنَا
(١١)	رَأَيْتَكَ مَسْجُورًا يَمِينُكَ فَاجِرَةً	فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ أَفْعَلْ إِنِّي نَسِي
(١٢)	وَضَرْبَةً فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَةً	أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي

(١) هَنَى بالكسر - كعلم - وهنو بالضم كصعب - يهنأ هناةً ، وهنأ يهنأ
كنزل ينزل ، وهنأ يهنأ كفتح يفتح ، هنأ - كثرها - وهنأ - كعلمها :
صار هنيئاً (انظر اللسان - هنا)

(٢) الشعر والشعراء ١١٧١ - ١١٢ (٣) ديوان النابغة ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٤) ذات الصفا يعنى الحية (٥) العقل : الدية (اللسان عقل) .

(٦) غراب المرء قذال رأسه ، وغراب الفأس حدنا (اللسان - غرب) .

(٧) النحل كما لقتل : الثأر وجميعه أبحال ونحول (اللسان نحل)

(٨) المسجور هنا الذاهب العقل المُفسد (انظر اللسان - سحر)

(٩) الفاقرة الداهية - الكاسرة للفقار - والعياذ بالله - (اللسان فقر)

٨٥) الديك والغراب :

ومن تلك الأساطير أيضا ، ما ذكره الجاحظ من
 " أن الديك كان نديما للغراب ، وأنها شربا الخمر عند خماره ، ولم
 يعطياه شيئا ، ونهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ، ورهن الديك
 فخاس به . فبقى محبوبا " (١) . وقيل : بل جعله الخمار حارسا . (٢)
 وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت : (٣)

بِأَيِّ قَامٍ يَنْطِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الْغَرَابُ

ويقول : (٤)

وَأَمْسَى الْغَرَابُ يَضْرِبُ الْأَرْضَ كُلَّهَا عَتِيقًا وَأَضْحَى الدِّيكُ فِي الْقِدْعَانِيَا (٥)
 فَذَلِكَ مِمَّا أَشْهَبَ الْخَمْرَ لُبًّا وَنَادَمَ نَدْمَانًا مِنَ الطَّيْرِ عَادِيَا (٦)

٨٦) الذئب والحمل :

ومن هذه الخرافات أيضا ، ما كان بين الذئب
 والحمل من الحديث ، فقد زعموا أن الذئب قد لقي الحمل ، فعاتبه على سبه
 وشمته له قبل عامين ، فأجابه الحمل بان دعواه باطلة لأنه ولد العام فقط ،
 فاذا كان ادعائك لتسويغ أكلى فكلنى لهنئت .

(١) الحيوان ٢/٣٢٠

(٢) انظر الشعر والشعراء ١/٤٥٩

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٣٨

(٤) المصدر السابق ص ٥٢٧

(٥) العتيق الطليق (اللسان - عتق) والِقْدُ - بالكسر - القيد

(٦) اللسان - قيد) وأصله السير الذي يقدم للجد (اللسان - قدد)

(٦) الندمان - كالسكران - النديم ، وهو المرافق على الشراب ، وجهه

نَدَامٌ - كسها م - وجمع الجمع نَدَامِي - كيتامى (اللسان - ندم) .

وفى ذلك يقول الشاعر : (١)
 وَأَنْتَ كَذَيْبِ السَّوِّءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً رَعْمَرُوسُ وَالذَّئِبُ غَرثَانُ مَرْمِلُ (٢)
 أَنْتَ الَّذِي مِنْ غَيْرِ جُزْمٍ سَبَبْتَنِي فَقَالَ: مَتَى ذَا . قَالَ: ذَا عَامٍ أَوَّلُ
 فَقَالَ: وَوَلِدْتُ الْعَامَ بَلْ رَمْتَنِي ظَلْمَنَا فِدْرَنِكَ كُلْنِي لَهْنَا لَكَ مَا كَلُّ

٨٧ الضب والظفدع :

ومن أساطير القوم في هذا الباب أيضا ما زعموه

من أن الظفدع كان ذا ذنب، فسلبه الضب ذنبه . وذلك أنهما تخاصما في
 الظمأ أيهما أصبر ، وكان الضب ممسوح الذنب ، فخرجا في الكلاء ، فصبر
 الضبُ الظفدع . قالوا : وقد ناداه الظفدع في اليوم الأول : « يَا ضَبُّ
 وِرْدًا وِرْدًا » . فقال الضب :

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرْدًا لَا يَشْتَهِي أَنْ يَرْدًا (٣)
 الْأَعْوَادُ عَرْدًا وَصِرِّيْنَا بَرْدًا (٤)

وتكرر ذلك - فيما زعموا - لأيام ثلاثة ، فلما لم يستجب الضب ، بادر الظفدع
 إلى الماء ، فتبعه الضب ، فأخذ ذنبه . (٥)

- (١) الدرّة الفاخرة ٢٩٤/١-٢٩٥ (٢) العُمروس كالعنقود - الخروف والجدى
 إذا بلغا العَدُو (اللسان - عرس) ، والفَرث كالمرض : شدة الجوع -
 وبابه طرب - وهو غرثان كسكران - وهي غرثى كسكرى ، وغرثانة ،
 والجمع غرثى - كموتى - وغرثى - كزرا بى - وغرث - كسهم
 (انظر اللسان غرث) . والمرملة كالؤمن - الذى نغد زاده (اللسان - مرملة)
 (٣) صرد عن الشئ صردا - كطرب طربا - وهو صرد - كقطن - انتهى (اللسان - صرد)
 (٤) العراد - كالجراد حشيش طيب الريح وعراد عرد أى بارد - على
 المبالغة (انظر اللسان عرد) . والصَّرِيَان بكسر الصاد وكسر اللام وتضعيف
 الياء - ضرب من النباتات (اللسان - صلا) .
 (٥) انظر الحيوان ١٢٥/٦-١٢٦ ، والدرّة الفاخرة ٢١١/١-٢١٢ والرجز فى
 اللسان - عرد ، وبعضه فى تهذيب اللغة ١٢/١٣٩

(٨٨) الضب والراكب : ومن ذلك أيضا ما زعموه من أن الضب كان أول من دل على نفسه اذ كان يتكلم ، بل ويتكلم بالشعر ! ذكر الجواليقي في شرح أدب الكاتب قال : " ان أول من دل على نفسه الضب ، اذ كان كل شيء يتكلم ، قال فمر راكب في بعض الأيام ، فلما ولي صاح به الضب :

يَا أَيُّهَا الرَّايِبُ يَنْجُو بِالْأَوَادِ إِنَّكَ لَوِ ذَقْتَ الْكُشَى بِالْأَكْبَادِ
لَمَّا تَرَكْتَ الضَّبَّ يَسْعَى بِالْأَوَادِ

يقول : لو ذقت كشي الضباب مع أكبا لها ، لحملك طيبها على صيدها . حتى كنت لا تدع بواد ضبا الا حرشته " (٢)

(٨٩) الظباء تفهم على الهاتف : ومن أساطيرهم في هذا الباب أيضا أن الجن تتخذ من بعض الحيوانات مراكب لها ، وقد تقدم . ولكن الجديد في هذه الأسطورة هو أن الظباء من مراكب الجن ، وأنها تفهم قولها وتستجيب له . قال أحدهم : " كنا نتحدث أن الظباء ماشية الجن ، فأقبل غلام ومعه قوس ونبل ، فاستتر بأرطاة ، وبين يديه قطع من غلبى ، وهو يريد أن يرمى بعضه . فهتفها تف لا يرى وقال :

إِنَّ غَلَامًا عَسَرَ الْيَدَيْنِ يَسْعَى بِكَيْدٍ أَوْلَاهِينَ مِيْنِ
مَتَّخِذًا لَأْرَهُ جَنْتِيْنَ لِيَقْتُلَ التَّيْسَ مَعَ الْعَنْزَيْنِ
فسمعت الظباء ففرقت " (٣)

(١) الكشيبة - بالضم - هي شحم بطن الضب - (انظر أدب الكاتب ص ١٦٨)
(٢) شرح أدب الكاتب ص ٢٤٧ ، وحرش الطب : صاده - وبابه ضرب ..
(اللسان حرش)
(٣) بلوغ الأرب للألوسي ٣٦٧/٢

(٩٠) عِيشُ الْقِرَادِ : ^{١٥} ومن مزاعمهم في هذا الباب أيضا ، اعتقادهم بأن القراد

لا يموت . ولذلك فهم يضربون به المثل في الشدة والصبر على المشقة . كما - يزعمون أنه يعيش سنة على بطنه وسنة على ظهره . ولذلك يقولون في الدعاء لأعنت الاكعيش القراد . قال الشاعر :^(١)

فَلَا عِشْتَ إِلَّا لِكُعَيْشِ الْقِرَادِ دَعَامًا بِبَطْنٍ وَعَامًا بِنَهْرٍ^(٢)

(٩١) صَلَمُ النِّعَامَةِ : ومن أساطيرهم أيضا أن النعام كانت بأذنين طويلتين ،

وأنها أرادت أن تضيف لهما قرنا ، فخرت أذنيها . وفي ذلك يقول الشاعر يصف ناقته :^(٣)

مِثْلَ النِّعَامَةِ كَانَتْ وَهِيَ سَالِمَةٌ أَذْنَاءٌ حَتَّى زَاهَا الْحَيْنُ وَالْجَنُّ^(٤)
جَاءَتْ لِتَشْرِي قَرْنًا أَوْ تَعُوضَهُ وَالنَّهْرُ فِيهِ رِبَاحُ الْبَيْعِ وَالْغَبْنُ^(٥)
فَقِيلَ : أَذْنَاكَ ظَلَمْتُ نَمْتُ اصْطَلَمْتُ إِلَى الصَّمَاخِ فَلَا قَرْنَ وَلَا أَذْنَ^(٦)

- (١) بلوغ الأرب للآلوسي ٣٣٩/٢
(٢) القراد - كالغثاء - دويبة تعض الابل (اللسان - قرد)
(٣) معجم مقاييس اللغة - ٢٩٩/٣ سلم ، واللسان - جنن - باختلاف يسير في الرواية .
(٤) الجنن . الجنون (اللسان - جنن)
(٥) الغبن بالتسكين في البيع : الخديعة - وبالتحريك في الرأي : الضعف
(٦) الصلم - كالضرب - قطع الأذن والأنف من أصلهما (اللسان - سلم) ، والصماخ كالعقال - داخل الأذن المفضى إلى الرأس (اللسان - صمخ)

(٩٢) قنزعة الهدد : ومن أعجب أساطيرهم فى هذا الباب ، زعمهم بأن الهدد لما ماتت أمه ، أراد أن يبرها ، فجعلها على رأسه يطلب موضعها ، فبقيت على رأسه ، فالقنزعة التى فى رأسه ، هى قبرها . وإنما أنتدت ريحه لذلك . (١)

وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت : (٢)

غيم وظلماً وغيت سحابية أيام كفن واسترانا للهدد (٣)
يبنى القرار لأمم ليجنها فبنى عليها فى قفاه يومهد (٤)

(٩٣) الهديل : ومن أساطيرهم أيضا ، أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام ، وأنه قدمات ضيعة وعطشا . أو أنه قد عدا عليه جارح من جوارح الطير . ويرزعمون أنه ، ليس من حمامة الا وهى تبكى عليه . (٥) وقد ظلت هذه الأسطورة متمكنة من بعض العرب حتى بعد ان أضاء الاسلام سبيلهم ، وأثار عقولهم . يقول نصيب : (٦)

فقلت أتبكي ذات طوقٍ تذكرت هديلاً ، وقد أودى وما كان تبع

الى غير ذلك من الخرافات والأساطير - ذات الصلة بالحيوان والطيور

(١) انظر الشعر والشعراء ٤٦٠/١ ، والحيوان ٥١٠/٣ باختلاف يسير .

(٢) ديوان أمية ص ٣٥٥

(٣) راد واستراد : أى خرج يلتبس المكان ، والمرعى ، وما أشبهه (اللسان - رود)

(٤) القفا - بالفتح : موخر العنق (اللسان - قفا)

(٥) انظر اللسان - هدل ، وتاج العروس - هدل .

(٦) تهذيب اللغة (١٩٩/٦) .

والحشرات ، التي انتشرت بين العرب في الجاهلية . (١)

أما ما كان له صلة بالفابرين من الأناسى والأزمنة ، من أساطير العرب في الجاهلية ، فكان هو الآخر كثيرا . ومن ذلك :

(٩٤) أول من وضع الكتابة العربية : ذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه
"التنبيه على حدوث التصحيف" قال : (٢)

" رروا أن أول من وضع الكتابة العربية ، قوم من الأوائل ، نزلوا في عدنان ابن أد بن أدد ، فاستعربوا ووضعوا هذه الكتابة على عدد حروف أسمائهم ، وكانوا ستة نفر أسماءهم : أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سغص ، قرشت . وأنهم كانوا ملوك مدين ، ورئيسهم كلمن . فهلكوا يوم الظلة ، مع قوم شعيب . فقالت أخت كلمن ترثيه :

كَلْمُونُ هَدْرَكَ نَبِيَّ هَا لِكَا وَسَطَ الْمَحَلَّةِ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْكَ حَتْفُ نَارًا وَسَطَ ظَلَّةِ
جَعَلَتْ نَارًا عَلَيْهِمْ دَارَهُمْ كَالْمُضْجَلَّةِ

قال الأصفهاني : " ثم وجد من جاء بعدهم حروفا ليست من أسمائهم وهي ستة ، الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين فسموها الروادف : تخذ ضنخ" (٣)

(٩٥) بردا العجوز : ومن أساطير القوم ذات الصلة بالأزمنة الماضية ، ما زعموه من أن عجوزا في الفابرين ، كان لها ثمانية من البنين . وكانت قد سألتهم أن

(١) ومنها حذر الغراب . فقد زعموا : " أن الغراب قال لابنه .. إذا رميت فتلوس . قال يا أبت ، اني أت من قبل أن أرمي " (انظر ثمار القلوب ص ٤٦٢) ورميت أي أردت أمرا ، والكلوس والملاوطة المخاطلة ، والنظر يمنة ويسرة للاحتراس (اللسان لوص) . ومنها كذلك أن ضبعا أكلت لأعرابي جدبا ، فقال لها : يا خبيثة .. أكلته . فقالت : لم أفعل . فقال : ما هذه الصفرة بانيابك والحمرة بكفيك .. فقالت الضبع :

ما هي الحبرة ثيابي ، وحمرة بالكف من خضابي (الذرة الفاخرة ٥٥٤/٢) وغير ذلك (٢) التنبيه على حدوث التصحيف ص ٥٥ ٥٦ والخبر في الفهرست لابن النديم ص ٧ (٣) التنبيه على حدوث التصحيف ص ٥٦

يزوجوها ، وألحت عليهم ، ولكن الفتية ما استجابوا لطلبها ، خشية أن يعيروا بها .

فلما ألحت عليهم قرروا التخلص منها ، دون أن يتحملوا عبء ذلك ، فقد كانوا يخشون عشيرتها . فتآمروا فيما بينهم ، أن يكلفوها البروز للهواء ثمانى ليال ، لكل واحد منهم ليلة . فقالوا لها :

« ان كنت تزعمين أنك شابة ، فابرزى للهواء ثمانى ليال ، فاننا نزوجك بعدها » ، فوعدت بذلك . وتعدت أول ليلة ، والزمان شتاء ، والبرد قارس ، فلما أصبحت قالت لبنيتها - فيما زعموا - :

إِيَّاهَا بَنِيَّ إِنِّي لِنَاكِحَةٌ وَإِنْ أَبِيئْتُمْ وَإِنِّي لَجَامِحَةٌ
هَانَ عَلَيْكُمْ مَا لَقِيتُ الْبَارِحَةَ !

ولكنهم أصروا عليها أن تنجز وعدها ، فانهم لن يجيبوا سؤلها حتى تفي بما اشتطوا عليها . قالوا : ففعلت مثلما فعلت فى الليلة الأولى ، وظلت تفعل ذلك الى أن ماتت فى الليلة السابعة . (١)

(١) انظر فى هذه الأسطورة ثمار القلوب ص ٢١٣ - ٢١٤

ونسبت اليها العرب بردا لآيام الثمانية التي يسمونها : الصن والصنبر والوبر ،
والامر ، والموتير ، ومطفي الجمر ، ومكفي الظن . (١) والمعلل أو المجلل .

(٩٦) جرههم من نتاج مشترك :
ومن أساطير القوم ذات الصلة بمن مضى كذلك
زعمهم بأن جرهما - أبا القبيلة المعروفة - كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات
آدم . (٢)

وفى ذلك يقول شاعرهم :

لَهُمْ إِنْ جَرَهُمَا عِبَادُكَ النَّاسُ طَرَفٌ وَهُمْ تِلَادُكَ
وَهُمْ قَدِيمًا قَدَحُوا بِلَادُكَ

(١) الصن - بكسر فتضعيف - هو أول يوم من أيام البرد المسماه ببرد العجوز
وتكون آخر الشتاء (انظر تهذيب اللغة ١١٥/١٣ ، واللسان صن ، وبر)
والصنبر - بكسر الصاد وتضعيف النون مع فتحها ، وتسكين اليا -
يوم من أيام العجوز في جمهرة اللغة (٢٥٩/١) ، وآخر أيام العجوز
في تهذيب اللغة (٢٧٧/١٣) ، وثاني أيام العجوز في اللسان (صنبر) .
والوبر - كالدرج - يوم من أيام العجوز ، وهي سبعة فقط في
جمهرة اللغة (٢٧٨/١) واللسان (وبر) وفيها يقول الشاعر
(جمهرة اللغة ٢٧٨/١) :

كُسِعَ الشِّتَاءُ بِسَبْعَةِ عُبْرٍ أَيَّامَ شَهْلَتِنَا مِنَ الشَّهْرِ
فِي أَمْرِ وَأَخِيهِ مُوتِمِرٍ وَمَجَلَّلٍ وَمُطْفِئِ الْجَمْرِ
فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ شَهْلَتِنَا بِالصَّنِّ وَالصَّنْبَرِ وَالْوَبْرِ
نَهَبَ الشِّتَاءُ مَوْتَعَاهِرِبًا وَأَتَتْكَ وَاقِدَةٌ مِنَ الْجَمْرِ

والابيات في اللسان (كسع) ، والثالث منها في تهذيب اللغة ١١٥/١٣
٢٧١ ، وكسع أي أتبع على أثره (اللسان - كسع) والشهلة
العجوز (اللسان - شهل) .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٨٧/١ ، والدرة الفاخرة ٥٥٥/٢

(٩٧) زرقاء اليمامة : وهى امرأة من جديس ، كانت - فيما زعموا - تبصر الشئ بدقة على مسافة بعيدة ، قدروها بمسيرة ثلاثة أيام . وقد زعموا أن حسان بن تبع ، ملك اليمن فى زمانها ، لما غزا بلادها أمر رجاله أن - يحمل كل منهم شجرة يستتر بها ، اذ كان يعلم عن الزرقاء وجدة نظرها .

ولكن الزرقاء - فما يزعم القوم - بصرت بهم ، وأندرت قومها . غير أنهم لم يصدقوها حتى صبحهم الجيش . (١)

وللقوم فى قصة الزرقاء أساطير أخرى . فقد زعموا أنها قالت لقومها يومئذ : « أحلف بالله ، لقد أرى رجلا ينهش كتفا ، أو يخصف نعلا » . وفى ذلك يقول الأعشى : (٢)

وَقَلْبَتٌ مَّقْلَةٌ لَيْسَتْ بِمُقْرِفَةٍ إِنْسَانٌ عَيْنٌ وَمَوْقًا لَمْ يَكُنْ قِمَعًا
قَالَتْ أَرَى رَجُلًا فِي كَفِّهِ كَتِفٌ أَوْ يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهَا فِي آيَةٍ صَنَعًا (٣)

ولم يكتف القوم بهذا ، بل زعموا للزرقاء هذه ، قصة أكثر غرابة . وذلك أنها قد رأت سربا من القطا على مسيرة ثلاث ليال ، فعرفت عدده ، فقالت : (٤)

لَيْتَ الْحَمَامَ لِيَّه إِلَى حَمَامَتِيَّه
وَنِصْفَهُ قَدِيدِيَّه تَمَّ الْحَمَامَ وَمِيَّه (٥)

وفى ذلك يقول النابغة :
وَأَحْكُمُ كَحْكُمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ إِلَى حَمَامٍ سَرَاعٍ وَارْدَا تَمْدٍ (٦)
قَالَتْ فَيَا لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا إِلَى حَمَامَتِنَا وَنِصْفِهِ فَكَيْدٍ

- (١) انظر ثمار القلوب ص ٣٠٠ (٢) ديران الاعشى ص ١٥٣
(٣) المُقْرِفَةُ ذات العيب التى تخلط (اللسان - قرف) وَالْقَمَعُ كالطمع : فساد واحمرارُ مَوَقِ العَيْنِ (اللسان قمع) ومَوْقِ العَيْنِ ومَأَقِبِهَا : طرفها الذى يلي الأنف ، والموق والماق لغة فىهما . وَاللَّحَاطُ - بالفتح - طرفها الذى يلي الأنف (اللسان موق) .
(٤) شرح أدب الكاتب ص ١٢٩ ، والشعر فى الاشتقاق لابن دريد - بدون نسبة ص ٥٠٧
(٥) قال ابن دريد فى الاشتقاق ص ٥٠٧ " قَدِيدِهِ : أى حَسْبِيَّهِ "
(٦) ديوان النابغة ص ١٤ (٧) التمدد - كالضرب - والتمدد كاللحم - الماء القليل الذى لا ماء له (اللسان تمدد) .

قال الأصمعي في شرح ذلك :

” هذه زرقاء اليمامة نظرت الى قطلا ^(١) ” والأغرب من هذا في هذه
الأسطورة أن القوم قد عدُّوا القطلا - فيما زعموا ، فوجدوه كما قالت ، ستا
وستين قطة .

أما كيف عدوه ، فمنهم من زعم بأنه وقع في شبكة صياد ، ومنهم
من زعم بأنه أدرك على الماء (!!!)

(٢)

وفى ذلك يقول النابغة :

فَحَسْبُوهُ فَأَلْفُوهُ كَمَا زَعَمْتَ تَسْعًا وَتِسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ
فَكَمَلْتَ مِائَةً فِيهَا حَمَامَتَهَا وَأَسْرَعْتَ حِسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَمْدِ

(٩٨) زَمَنُ الْفِطْحَلِ : ومن أساطير القوم ذات الصلة بالماضي من الأزمان
والأناسي أيضا ، زعمهم بأن هناك زمنا خاصا فيما مضى - يسمى زمن الفطحل ^(٣)؛

كانت الحجارة فيه رطبة ، وكان كل شيء ينطق .

(٤)

وفى ذلك يقول أمية بن أبي الصلت :

وَإِذْ هُمْ لَا لَبُوسَ لَهُمْ عِوَاةً وَإِذْ صُمِّ السَّلَامُ لَهُمْ رَطَابٌ ^(٥)
بِأَيِّ قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةُ الدِّيكِ الْغَرَابُ ^(٦)

(١) ألب الكاتب ص ٢٢ (٢) ديوان النابغة ص ١٦

(٣) الفطحل كالهزبر - ، وفيه يقول ربوبة - ثمار القلوب ص ٦٤٢ :

إِنَّكَ لَوْ عَمَّرْتَ عُمَرَ الْحِجَلِ أَوْ عَمَّرَ نُوحَ زَمَنِ الْفِطْحَلِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلَى كَطَيْنِ الْوَحْلِ كُنْتُ رَهِينٌ هَرَمٍ أَوْ قَتَلِ

(٤) ثمار القلوب ص ٦٤٣ ، والشعر في ديوان أمية ص ٣٣٧ باختلاف في الرواية يسير .

(٥) السَّلَامُ بكسر السين؛ الحجارة الصلبة . سميت بهذا لسلامتها من الرخاوة
وواحدتها سلمة (اللسان - سلم) .

(٦) يشير بعجز البيت الى أسطورة الديك والغراب وهي الاسطورة رقم ٧٩ في بحثنا

هذا .

(٩٩) صبر قَضِيبٌ :

وهو رجل من بنى ضبة ، كان - فيما زعموا - تمارا -
 بالبحرين ، وكان يشتري التمر من تاجر واحد ، ولا يعامل غيره . ثم ان ذلك
 التاجر ، دخل متجره يوما ، ومعه كيس دنانيره ، فطرحه فى كيس من حشف التمر ،
 لا يطمع فيه أحد . ثم نسي ذلك ، وباع كيس الحشف من قَضِيبٍ غَثًّا . وتذكر
 دنانيره بعد أن مضى قَضِيبٌ . فحمل سكيناً ولحق به ، فوجده قد باع التمر ، الا
 ذلك الحشف . اذ لم يقبل أن يبتاعه منه أحد .

فقال له التاجر - فيما زعموا - انك يا قَضِيبُ صديق لى ، وقد أعطيتك
 تمرا غير جيد ، فرده على لأعوزك جيدا . فلما أعطاه له ، نشره وأخرج منه
 الدنانير ، وقَضِيبٌ ينظر هشا .

ثم انه - فيما يزعمون - تناول السكين من الرجل ، وشق بها بطن
 نفسه حسرة ولهفة (١) . وبقَضِيبٍ هذا ضربت العرب المثل فى الصبر على
 الذل . والى ذلك يشير الشاعر بقوله : (٢)

أَقِيْمِي عِبْدَغَنَمٍ لَاتْرَاعِي مِنْ لِقَتَلِي الَّتِي يَلْوِي الكَثِيبِ
 لَأَنْتُمْ حِينَ جَاءَ الْقَوْمُ سِيرًا عَلَى الْمُخْزَاةِ أَصْبِرِينَ قَضِيبِ

قال ابن منظور فى اللسان : " أى لم تطلبوا بقتلكم . فأنتم فى الذل كهذا
 الرجل " (٣)

- (١) انظر مجمع الأمثال للميدانى ٢٤٩/٢ مثل رقم ٣٢٠٧
 (٢) مجمع الأمثال للميدانى ٤٠٨/١ مثل رقم ٢١٦٦ والبيت الثانى فى المحكم
 لابن سيده ١١٣/٦ ، وفى اللسان - قَضِيبِ
 (٣) اللسان - قَضِيبِ

(١٠٠) لقيم بن لقمان: وزعم القوم أن لقمان بن عاد ، كان مثلاً فى النباهة والقدر ، وفى العلم والحكم ، وفى اللسان والجلم . وأن أخته كانت محمقة^(١) ، فاحتالت للقمان حتى ولدته منه ولدا سمته لقيم . فجاء على غرار أبيه - الذى هو خاله - فى النباهة والجلم .

وفى ذلك يقول النمرين تولب^(٢)

فَكَانَ ابْنَ أَخْتِهِ وَأَبْنَاهُ
عَلَيْهِ فُغِرَ بِهَا مَطْلَمَا
فَجَلَّ شَيْبُهُ رَجُلًا مُحْكَمًا

لَقِيمٌ بِنِ لِقْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ
لَيْلَى حَمَقٌ فَاسْتَحْضَنَتْ
فُغِرَ بِهَا رَجُلٌ مُحْكَمٌ

قال الجاحظ : " وذلك أن أخت لقمان ، قالت لامرأة لقمان : انى امرأة محمقة ، ولقمان رجل محكم منجب . وأنا فى ليلة طهرى ، فهبى لى ليلتك ففعلت .

(٣) فباتت فى بيت امرأة لقمان ، فوقع عليها ، فأحبها بلقيم ولقيم ولقمان هذان ، هما - فيما يذكر العلماء - غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم . (٤)

(١) قال الجاحظ : " والمرأة اذا ولدت الحمقى فهى محمقة . ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياسا " البيان والتبيين ١/١٨٥

(٢) البيان والتبيين ١/١٨٤ والأول من الآيات - بدون نسبة - فى اللسان - لقم .

(٣) انظر البيان والتبيين - للجاحظ - ١/١٨٤ - ١٨٥

(٤) انظر البيان والتبيين ١/١٨٤ .

(١٠١) المعمرون : وشاعت بين القوم فى الجاهلية أسطورة امتداد أعمار بعض الناس ، الى أجل غير معهود . وقد اخترنا أسطورتهم فى الحارث بن ماض الجرهى مثالا على ذلك .

قال أبو حاتم السجستاني فى كتابه " المعمرون والوصايا " (١) :
وقالوا خرج رجل من قريش ، قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فركب البحر ، فانكسرت سفينته . فوقع فى جزيرة فى أرض لا ترى بها أنسيا .

فبينما هو يطوف فى تلك الجزيرة ، اذ هو بشيخ كبير ، مجتمع العلم فقال : من أنت ؟! قلت : رجل من العرب . قال : من أى العرب ؟! قلت : رجل من قريش . قال : بأبى وأمى قريش . وأين مساكنها اليوم ؟! قلت : بمكة . قال : فهل خرج محمد بعد ؟! (صلى الله عليه وسلم) - فقلت وما خروج محمد ؟ قال : فقص على كيف يكون خروجه . وأخبرنى أنه نبى ، وأنه سيخرج . فإذا خرج فاتبعه . ثم قال لى : أعالم أنت بمكة ؟! قلت : نعم .

و أكمل أبو حاتم هذا الخبر ، وفيه أن الرجل قد سأل الراوى عن مواضع بعينها فى مكة المكرمة ، كأجساد وغير أجساد ، وأنه اطلع على السبب فى تسمية تلك المواضع بأسمائها المعروفة .

قال الراوى : " ثم انصرف عنى الى الروضة . فقلت : يا عبد الله ، سألتنى فأخبرتكَ ، فأخبرنى من أنت . فالتفت الى فقال مُجيباً :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصَّافِ أَرَيْسَ وَلَمْ يَسْمَرْ بِمَكَّةَ سَاهِرٌ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَزَانَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ لِعَوَائِرُ

فظننا أنه الحارث بن ماض الجهمى ، قد مد له فى عمره الى ذلك اليوم .
وبعضهم يقول شيخ من جرهم (١)

وقد مد فى العمر الى ما هو غير معهود من الأجال - بزعم القوم - لغير الحارث بن ماض الجهمى هذا . ووقف العلماء حيارى أمام أسطورة المُعَمَّرِينَ ، أصدقونها ، وهى مخالفة لماعهد من أعمار الناس . أم يكذبونها وهى ليست مستحيلة الحدوث؟!

وفى ذلك يقول الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير : (٢) " وقد ذكرت الرواية فى المعمرين أشعارا ، وصنعت فى ذلك أخبارا . ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ، ولا دلالة قائمة . ولا نقدر على زبها بجواز معناها . ولا على تثبيتها اذ لم يكن معها دليل يثبتها ."

(١٠٢) مواعيد عرقوب : وهى أسطورة مشهورة ، تحمل فى طياتها الشك فيها ، وان كانت جائزة الحدوث ، كما هو الحال فى سابقتها . ويزعم القوم أن عرقوبا هذا ، رجل من خيبر ، أو من العمالقة . واسمه عرقوب بن معبد وكان أكنب أهل زمانه .

(١) المعمرين والوصايا لأبى حاتم السجستاني ص ٨

(٢) مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٠

وذلك أن أخا له أتاه يسأله ، فقال له عرقوب : إذا طلعت
 تلك النخلة فلك طلعتها . (١) فلما اطلعت أتاه . فقال له : دعها حتى تبلح .
 فلما أبلحت أتاه . فقال له : دعها حتى تزهي . (٢) فلما زهت أتاه ، فقال
 له : دعها حتى ترطب . فلما أرطبت أتاه . فقال له : دعها حتى تثمر . (٣)
 فلما أثمرت ، سرى إليها عرقوب من الليل ، فجدها ، ولم يعط أخاه شيئا . (٤)
 وبعرقوب هذا ضربت العرب المثل في خلف المواعيد . يقول -
 المتلمس : (٥)

مَنْ كَانَ خَلْفَ الْوَعْدِ شَيْمَتَهُ وَالْفَدْرَ عَرْقُوبَ لَهُ مَثَلٌ
 ويقول كعب بن زهير : (٦)

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
 ويقول الآخر : (٧)

وَعَدَتْ وَكَانَ الْخَلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيثْرِبِ

(١٠٣) نُسُورُ لِقْمَانَ : ومن أساطير القوم ذات الصلة بالغابرين كذلك ،
 نسور لقمان بن عاد وعمره . فقد أعطى - فيما زعموا - عمر سبعة أنسر . قال
 أبو حاتم السجستاني في "المعمرون والوصايا" : " فجعل يأخذ فرخ النسرا الذكر ،
 فيجعله في الجبل الذي هو في أصله ، فيعيش النسرا منها ما عاش . فإذا مات أخذ

- (١) طلع النخلة : نورها (اللسان - طلع)
 (٢) زهت النخلة تزهي - كسعت تسعى - ، وأزهت تزهي - كألقت تلقى - زهوا
 وزهوا وإزها : إذا احمر بلحها أو اصفر (انظر اللسان - زها) .
 (٣) أي يصير رطبها تمرا (٤) انظر ثمار القلوب ص ١٣١ ، واللسان - وعد .
 (٥) ثمار القلوب ص ١٣٢ (٦) اللسان - عرقب (٧) اللسان - عرقب

آخر فرباه ، حتى كان آخرها لُبْدٌ . وكان أطولها عمرا . ف قيل : طال الأبد على لُبْدٍ (١) قال ابن منظور في اللسان : " ولبدا اسم آخر نسور لقمان بن عاد ، ساء بذلك لأنه لَبِيدٌ فبقي لا يذهب ولا يموت . كاللُبْدُ من الرجال اللزيم لرحله لا يفارقه " ثم قال :

" وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدائها إلى الحرم يستسقى لها ، فلما أهلکوا خیر لقمان بين بقاء سبع بعرات سمر ، من أظب عفر (٢) . في جبل وعر ، لا يمسه القطر . أو بقاء سبعة أنسر . كلما أهلك نسر خلف بعده نسر . فاختر النسر . وكان آخر نسوره يسمى لبدا (٣)

هذا وقد ذكر لبدا كثير من الشعراء الجاهليين في أشعارهم ، ومن أولئك لبيد حيث يقول : (٤)

وَلَقَدْ جَرَى لَبْدٌ فَأَدْرَكَ جَرِيَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَكَانَ غَيْرَ مَثْقَلِ

والنابغة حيث يقول : (٥)

أَضَحَتْ قِفَارًا وَأَضَحَى أَهْلَهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الذِّئْبُ أَخْنَى عَلَيَّ لَبْدٌ

وهذه الأعرابية التي تقول في بنيتها - وقد هلکوا : (٦)

رَبِيبَتُهُمْ كَنُصُولِ الْهِنْدِ أَرْبَعَةً بِيضَ الْوُجُوهِ لَدَى الْهَيْجَاءِ كَالْأَسَدِ
حَتَّى إِذَا كَمَلُوا فِي السُّؤَاتِ سَفَوْا أَخْنَى عَلَيَّ الْقَوْمَ مَا أَخْنَى عَلَيَّ لَبْدٌ

- (١) المعمرين والوصايا ص ٤
- (٢) الطيبي الفزال ، والجمع أظب ، وظباء ، وظبي (انظر اللسان - ظبا)
والعفر من الظباء التي تعلقو بياضها حمرة ، وقيل بل التي تسكن الأرض الصلبة ، واحدها أعفر (انظر اللسان - عفر) .
- (٣) اللسان - لبدا (٤) ديوان لبيد ص ٢٧٤
- (٥) ديوان النابغة ص ٥
- (٦) الوحيات أو الحماسة الصغرى - لأبي تمام - ص ١٤٣

ليس هذا وحسب ، بل لقد زعم القوم أن لقمان هذا قد منح من السمع والبصر
على قدر عمره الذي رأينا .^(١)

(١٠٤) النَّطْفُ :
ومن أساطير القوم في الغابرين ما تناقلوه عن النطف
وهو رجل من العرب أصاب ما لا . ف ضرب به فيه المثل . واختلفت الأقوال في
ماله ذاك ، أهو من كد يده ، أم هو خبيث وجدها ، أم هو مما حصل عليه من
غارة لبنى يربوع على تجارة لكسرى . .

وأعجب ما زعموه من أمره ، أنه فرق من ماله على الفقراء من عشيرته
ثلاث مرة ، يوما كاملا . منذ طلعت الشمس إلى أن غابت . وفي ذلك يقول بعض
ولده :^(٢)

أَبِي النَّطْفِ الْمُبَارِي الشَّمْسُ إِنِّي عَرِيقٌ فِي السَّاحَةِ وَالْمَعَالِي ^(٤)

(١٠٥) جَوْفُ الْحَمَارِ : ومن أساطير القوم كذلك ما زعموه من أن رجلا من عاديقال
له حمارين مؤيلع ، كان له واد طويل عريض يسمى الجوف ، لم يكن ببلاذ
العرب أخصب منه . وكان حمار حسن الطريقة ذا دين . فخرج بنوه يتصيدون أوفى
بعض أسفارهم ، فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم ، وأهلكتهم .

(١) انظر المعمرون والوصايا - ص ٥

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٦٩/٢ ، وشرح العيون لابن نباته ص ٥٥
واللسان - نطف .

(٣) شرح العيون - لابن نباته - ص ٥٥

(٤) ضبطه : النَّطْفُ - بفتح النون وكسر اللام . انظر اللسان - نطف .

فلما جاء نعيمهم إلى أبيهم - حمار بن مويلع ، كفر بالله سبحانه
وتعالى ، وقال : لا أعبد ربا أحرق بنى . وأخذ فى عبادة الأصنام ، ودعا قومه
إلى ذلك ، فمن عصاه قتله . فسلط الله على واديه نارا فأهلكته ودمرته .
فضربت العرب المثل بوادى حمار فى الخراب والخلاء .^(١) وفى ذلك يقول
الأقوہ الأودى :^(٢)

وَبِشُومِ الْبَغْيِ وَالْفَنَمِ قَدِيمًا قَدْ خَلَا جَوْفٌ وَلَمْ يَبْقَ حِمَارٌ

وبه فسر بعض العلماء قول امرئ القيس :^(٣)

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفَّرَ قَطْعَتَهُ بِهِ الذُّئْبُ يَعْوَى كَالْخَلِيعِ الْمَعِيلِ^(٤)

(١٠٦) أبو عروة السباع : ومن أساطيرهم أن أبا عروة - رجلا منهم - كان

يصيح بال سبع فيموت فى الحال ، وكان يزجر الذئب أو السمع ،^(٥) فينفق لتوه
أيضا ، فيشق بطنه ، فيوجد قلبه قد زال عن موضعه ، وخرج من غشائه .^(٦)
قال النابغة الجعدى :^(٧)

وَ أَزْجَرَ الْكَاشِحَ الْعَدُوَّ إِذَا اغْتَابَكَ زَجْرًا مِنْى عَلَى أُمِّ
زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعِ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَلْتَمِسَ بِالْفَنَمِ

وقد طعن العلماء فى هذه الأسطورة قائلين بأن السباع أشد أيدا من الفنم ،

- (١) انظر ثمار القلوب ص ٨٤ وشرح القوائد العشر للتبريزى ص ١٠٥
(٢) ثمار القلوب ص ٨٤ (٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٧٢
(٤) انظر فى شرح البيت على أساس من تلك الاسطورة - شرح القوائد السبع
الطوال لابن الأنبارى ص ٨٠
(٥) السمع - كالجسم - سبع مركب ، وهو ولد الذئب من الضبع (اللسان - سمع)
(٦) انظر اللسان (عدا) .
(٧) ديوان النابغة الجعدى ص ١٥٨

فأذا فعل أبو عروة ذلك بالسباع هلكت الغنم قبلها .

والعجيب أن ينتصر لذلك الهراء بعضهم ، واحتجوا لذلك بأن الغنم كانت قد أُنْسِتَ - من أبقى عروة - بهذا الصوت المخيف ، وتعودت عليه ، قالوا : « وَالصَّوْتُ الرَّائِعُ أَنْسَلَ مَنْ أُنْسِيَ بِهِ » (١)

هذه ثلثة من أساطير العرب وخرافاتهم فى الجاهلية . قصدنا بعرضها التمثيل على ما حملته أشعار القوم ، مما كان يسود مجتمعهم من أساطير وخرافات ، فى مختلف الميادين والمجالات .

و لم نقصد بهذا العرض حصر تلك الخرافات والأساطير ، فانها تكاد تنسد عن الحصر .

وكان شاهدنا على وجود تلك الخرافات والأساطير عند القوم ، وروئها فى أشعارهم . فان عز ذلك ، ووردت فى أخبارهم استأنسنا بأشعار من كانوا قريبى عهد بالجاهلية من الشعراء الاسلاميين . فان عز هذا وذاك .. أثبتنا الأسطورة أو الخرافة فى الهامش .

(١) الكامل فى الأئب للمبرد ٦٥/٢

أما التعقيب على تلك الخرافات والأساطير ، فليس هنا مجاله ،
وانما سيكون بانن الله - كما أشرنا سابقا - في الباب الذي سنعقده في
آخر البحث ، لوزن معتقدات الجاهليين وقيمهم بميزان الاسلام .

* * *

* *

*

الباب الثالث

القيم في الشعر الجاهلي

- الفصل الأول : اللرم والشجاعة والغيرة في الشعر الجاهلي
الفصل الثاني : القيم الرفيعة والخلال الحميدة الأخرى في الشعر الجاهلي
الفصل الثالث : القيم الوضعية والخلال الذميمة في الشعر الجاهلي

الفصل الأول

الكرم

والشجاعة

والغيرة

في الشعر الجاهلي

الفصل الأول الكرم والشجاعة والفيرة في الشعر الجاهلي

تمهيد :

لقد انتشرت القيم الرفيعة والخلال الحميدة بين العرب في
الجاهلية ، انتشارا واسعا ، عجت به أشعارهم ، وسارت به أخبارهم . وكان
من هذه الخلال ما اجتمعوا عليه أو كانوا ، وكان منها ما تحلى به الكثيرون
منهم .

فأما التي اجتمعوا عليها - كلهم أو أكثرهم - فأهمها ثلاث ، هي
الكرم والشجاعة والفيرة . وأما التي تحلى بها الكثيرون منهم ، فمنها العفة
والترفع عن الدنيا ، ومنها بغض اللوم وقذع النفس عن الهوى ، ومنها الصدق
والوفاء وحفظ اليمين ، ومنها الأمانة وحفظ السر وكتمانه ، ومنها حفظ
اللسان عن الفحش والبذاءة ، ومنها الترفع عن جليس السوء ، ومنها القناعة
والترفع عن الحسد والمسألة ، ومنها الفطنة والكياسة ، والحيلة والفراسة ،
ومنها الفصاحة ، ومنها العدل والانصاف ، ومنها حب الحق والصفح والتسامح ،
ومنها الرقة وحب الأهلين ، ومنها الذوق الرفيع والسماحة والبشاشة ، ومنها

الحلم والرزانة ، والحزم والوقار ، ومنها غير ذلك .

ولما كان الحديث عن هذه الخلال بمجموعها يطول ، فقد أفردت لها فصلين من هذا البحث ، جعلت الفصل القادم منهما لتلك الخلال التي تحلى بها الكثيرون من القوم ، وجعلت هذا الفصل لأهم تلك الخلال عندهم ، وأوسعها انتشارا بينهم ، وهي الكرم والشجاعة والغيرة .

(١) الكرم

لقد تعشق العرب في الجاهلية الكرم ، كمال تتعشقه أمة أخرى ، وأغرموا به كمال يغرم به أحد غيرهم ، ولذلك فقد كان الكرم من أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم .

ولم يكن كرم القوم مراءً أو تكلفاً ، كمال يكن ادعاءً أو تعسفاً ، ولكنه كان فطرة من فطرهم التي جبلوا عليها ، وطبعاً من طباعهم التي شبوا عليها .

ولما نال لم يكن الكرم سجية أصيلة في العرب ، وأبوهم ابراهيم الذي يعتزون بالانتساب اليه - من أكرم الكرماء . ان ابراهيم عليه السلام - لم يمهل ضيفه المكرمين ، عندما نزلوا بساحته ، حتى يعرف من هم ، ومن أين جاءوا ، وماذا يريدون .

ولكنه أسرع الى أهله - من حين أن نزل القوم به - لما فطره
الله عليه من كرم أصيل - " فُجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ • فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ " (١)

وقد كان للعرب في كرمهم شئون تدعو الى العجب من ناحية ، والى
الأكبار من ناحية أخرى • اذ أنها - فضلا عن دلالتها على تأصل تلك السجاسة
فيهم - تدل على صدق تطبيقيهم لها •

ومن تلك الشئون تعميم الدعوة الى الطعام ، ليحضره كل من له
اليه حاجة • فليس كريمة عندهم ، من يختص بدعوته ناسا دون آخرين • يقول
طرفة بن العبد : (٢)

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلِيَّ لَاتُرَى الْآيِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ (٣)

ومنها كذلك رغبة كرمائهم عن الطعام ، وبغض نفوسهم له ، اذا لم يشاركهم
فيه طاعم من الجيران أو من الضيفان • يقول حاتم الطائي : (٤)

إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيْلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي
أَخًا طَارِقًا أَوْ جَارِ بَيْتٍ فَإِنِّي سِي أَخَافُ مِنْمَا تِلْكَ لِأَخَا دَيْتٍ مِنْ بَعْدِي (٥)

ويقول : (٦)

لَا تَسْتَرِي قِدْرِي إِذَا مَا طَبَخْتَهَا عَلَيَّ إِذْنًا مَا تَطْبِخِينَ حَرَامًا

- (١) الذاريات ٢٦ ، ٢٧ (٢) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٤٦
- (٣) الجفلي أن يعم بدعوته للطعام ، والآيب الداعي الى المأدبة ، والنقري
ضد الجفلي - انظر شرح الأعلام لديوان طرفة ص ٤٦
- (٤) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٤٣ - ٤٤
- (٥) نسبها النهشلي في الممتع - ص ٥٧ لقيس بن عاصم المنقري باختلاف في
الرواية •
- (٦) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٨٦

(١)

ويقول الآخر :

وَلَسْتُ بِأَكْلٍ وَحَدَى حَمِيَّتِي وَجَارُ الْبَيْتِ لَيْسَ لَهُ حَمِيَّةٌ (٢)

ومن شئوننا القوم في الكرم ، ما كان يوصى به كرماً وهم نساءهم في حياتهم وبعد مماتهم . ففي حياتهم كانوا يوصونهم بأن يهدين الى المعايير أحسن الطعام ، يقول شاعرهم : (٣)

إِذَا مَا كُنْتَ مُهْدِيَةً فَأَهْدِي مِنْ الْعَانَاتِ أَوْ فِدْرِ السَّامِ (٤)
وَلَا تُهْدِي الْأَمْرَ وَمَا يَلِيهِ وَلَا تُهْدِيَنَّ مَعْرُوقَ الْعِظَامِ (٥)

أما بعد مماتهم ، فقد كانوا يوصونهم بأن لايتزوجن الا الكرماء من الرجال . يقول جبر بن خالد - من قيس بن ثعلبة : (٦)

وَإِذَا هَلَكْتَ فَلَاتِرِيدِي عَاجِزًا وَسَا وَلَا بَرْمًا وَلَا مِعْزَالًا (٧)
وَاسْتَبْدِلِي خَتَنًا لِأَهْلِكَ مِثْلَهُ يُعْطِي الْجَزِيلَ وَيُقْتَلُ الْأَبْطَالَ (٨)
غَيْرَ الْجَدِيرِ بَانَ تَكُونُ لِقُوحِهِ رَبًّا عَلَيْهِ وَلَا لِفِصِيلِ عِيَالَا (٩)

ومن شئونهم التي تدعو الى العجب والاكبار في كرمهم أيضا، حبهم لكلابهم ، بسبب ما كان يجلبه نباحها من الاضياف ، وضلال السبل من المسافرين .

(١) التفقية في اللغة - لابن أبي اليمان البندنجي ص ٢١٥

(٢) الحميت - كالطريق - الوعاء ، أو الزق ، يجعل للسمن والعسل والزيت (اللسان حمت).

(٣) اللسان - قره

(٤) المأفات جمع مائة - كزهرة - وهي شحمة قص الصدر (اللسان - مان) والفدر كالقطع - جمع فدر كقطعة - وهي القطعة من كل شيء . (اللسان - فدر).

(٥) العظم المعروق : إذا ألقى عنه لحمه ، تقول عرق العظم يعرفه عرقاً

كنصر ينصر نصراً - (انظر لسان - عرق)

(٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٣٥٣ - ٣٥٤ (٧) الفسر الضعيف ، والبرم الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ، والمعزال الذي لا ينزل معهم في السفر ولكنه ينفرد وحده بخلاف (٨) الختن الصهر . ومثله نمبتدا وخبره : يعطى (٩) غير الجدير صفة للختن =

قال الابشيبي في كتابه المستطرف :

” وكانت العرب تسمى الكلب داعي الضمير (١) .
الذكر ، لما كان يجلبه من الأضياف بنباحه ” (٢)

وعشق العرب لذلك نباح كلابهم ، فلم يسكتوها ، أو يصمتوها .
يقول مالك بن حريم الهمداني : (٣)

فَإِنْ يَكُ شَابَ الرَّأْسُ مِنِّي فَإِنِّي أَبَيْتَ عَلَى نَفْسِي مَنَابِ أَرْبَعًا
فَوَاجِدَةٌ أَنْ لَا أَبَيْتَ بَغِيْرَةً إِنْ نَزَلَا لِأَضْيَافٍ حَرْمًا لِنَوْعَا
وَنَائِيَةٌ أَنْ لَا أَصَمَّتْ كَلْبِنَا إِنْ نَزَلَا لِأَضْيَافٍ حَرْمًا لِنَوْعَا (٤)

بل لقد كان للعرب في هذا الامر شأن أعجب ، وهو أنهم كانوا - فيما ذكره الابشيبي في المستطرف - : ” اذا اشتد البرد وهبت الريح ، ولم تشب النيران ، فرقوا الكلاب حوالى الحى ، وربطوها فى العمد ، لتستوحش فتنبج ، فتهدى الضلال وتأتى الأضياف على نباحها . ” (٥)

ومن أعجب شئون القوم فى كرمهم - نار القرى . وهى تلك النار التى كانوا يوقدونها لتهدى المدلجين فى الصحراء ، التائهين بسبب الظلام وتجلبهم ضيوفا الى بيوت الحى ، الذى أوقد أهله النيران . يقول حاتم الطائي ، لقلامه : (٦)

= واللوح صفة للناقة اذا كان بها لبن . يقول: اطلبى لأهلك صهرا غير مستعبدٍ
لعله .

- (١) الضمير كناية عن الضيف (٢) المستطرف ١/١٧٧ (٣) الامعيات ص ٦٤
(٤) التذوق هو الانتشار . تقول تذوق وتذيع (اللسان - ذوع) (٥) المستطرف ١/١٧١
(٦) انظر فى نار القرى ثمار القلوب للثعالبي ص ٥٧٥ ونهاية الأرب للنويرى
١/١١٣ ، ونهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٦٣
(٧) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٥٩

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ وَالرِّيْحُ يَأْمُقِدُ رِيْحٌ مَرٌّ (١)
عَسَى يَرَى نَارَكَ مِنْ يَمُرٍّ إِنْ جَلِبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حَرٌّ

وكانت تلك النار أكثر ما تكون في ليالي الشتاء الباردة ، حين يكون الناس في الصحراء في أمس الحاجة الى الدفء والطعام . ولذا فقد كان القوم يرفعونها لمن يلمس القرى ، فكلما كانت أضخم ، وموضعها أرفع ، كانت أفخر وأعظم . ولذلك يقول حاتم لزوجته : (٢)

وَلَكِنْ بِهَذَاكَ الْيَفَاعِ فَأَوْقِدِي بِجَزْلِ إِذَا أَوْقَدْتَ لِابْنِ رَامِ (٣)
ويقول الآخر : (٤)

لَهُ نَارٌ تَشَبُّ بِكُلِّ وَادٍ إِذَا النَّيْرَانُ الْبَيْتِ الْيَفَاعَا (٥)

ومن شئونهم كذلك التفتن في أساليب الاطعام وطرق الاكرام . فهذا يستعبد ماله ، انا تعبد غيره للمال ، وهذا يقسم جسمه في جسوم كثيرة وغير ذلك . يقول حاتم : (٦)

إِنَّا كَانُوا بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَالِي مَعْبُدٌ (٧)
ويقول عروة بن الورد :

(١) القَرُّ بالفتح البارد ، والصَّرُّ بالكسر والصرة شدة البرد (انظر اللسان قرر ، صرر)

(٢) ديوان حاتم دار صادر وبيروت - ص ٨٦

(٣) الجزل الحطب الغليظ ، والضرام الحطب الدقيق ، والذهب من الحطب الغليظ أعظم فيرى من بعيد .

(٤) نهاية الأرب للنويرى ١١٣/١

(٥) روى الجاحظ هذا البيت في البخلاء ص ١٦٥ هكذا :
لَهُ نَارٌ تَشَبُّ بِكُلِّ رِيْعٍ إِذَا التَّلْمَاءُ جَلَلَتِ الْيَفَاعَا

وروى بعده :
وَمَا إِنْ كَانَ أَكْثَرَهُمْ سَوَامًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعَا

(٦) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٣٥ (٧) ديوان عروة بن الورد ص ٢

أَقْسَمَ جِسْمِي فِي جُؤْمٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ (١)

ومن شئون القوم في الكرم أيضا ، خلط فقرائهم بأغنيائهم ، وهي من أكرم سجاياهم . يقول حاتم : (٢)

الضَّارِبِينَ لَدَى أَعْنَتِهِمُ الطَّاعِنِينَ وَخَيْلَهُمُ تَجْبِرِي (٣)
الْخَالِطِينَ خَيْتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ وَذَوِيَ الْغَنَى مِنْهُمْ بِذِي الْفَقْرِ (٤)

ويقول عمرو بن الأظنابة : (٥)

بَدُّوا بِحَقِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّائِلِ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَدَوْا
وَالْحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ الْمَانِعِينَ مِنَ الْخَنَاجِيرِ أَنَّهُمْ
وَالْبَازِلِينَ عَطَاءَهُمُ لِلسَّائِلِ وَالْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ (٦)

ويقول مطرود بن كعب الخزاعي :

هَلَا نَزَلَتْ بِأَلِ عَبْدِ مَنْفٍ يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلُ رَحْلَهُ
مَنْعُوكَ مِنْ عُدْمٍ وَمِنْ إِقْرَافِ (٧) هَيْلَتِكَ أَمْكَ لَوْ نَزَلَتْ بِرَحْلِهِمْ
حَتَّى يَعُودَ فَقِيرَهُمْ كَالْكَافِي (٨) الْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ

(١) الماء القراح - كالحباب : الذي لم يخالطه شيء من سويق أو غيره .
(انظر أساس البلاغة ص ٥٠٠ - قرح) .

(٢) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٥٤

(٣) البيت الثاني من هذين البيتين في التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه ، لأبي عبيد البكري - ص ٦٥ - منسوب للخزرق بنت بدر بن هفان والبيتان كلاهما منسوبان لها في اللسان ، نحت ، نضر .

(٤) النحيت : الدخيل (اللسان - نحت) ، والنضار : الخالص من كل شيء - اللسان - نضر) (٥) معجم الشعراء ص ٨ - ٩

(٦) وكان لجا إلى عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف لجناية كانت منه ، فحماه وأحسن إليه (انظر معجم الشعراء ص ٢٨٢) والأبيات في التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه ص ٧٤

(٧) الاقراف ، الهلاك (اللسان قرف)

(٨) الكافي المستغنى (انظر اللسان - كفي) .

هذا وقد استهتر العرب في الكرم ، وعظموا الكرماء ، حتى أطعم
المرقش الذئب في الصحراء ، ونحر حاتم حماته للصبيبة الفقراء ، وحمل هرم
ابن سنان ، والهارث بن عوف ، وعمرو بن عَصْم ، وغيرهم - ديات القتلى
في الحروب ، وبعوا الداعون على البخلاء ، ومنعة المعروف بالحرمان والشدائد
والكروب .

(١)
ففي إكرام الذئب يقول المرقش الأكبر :
وَلَمَّا أَضَانَا اللَّيْلَ عِنْدَ شِوَانِنَا عَدَانَا عَلَيَّهَا أَطْلَسَ اللَّوْنُ بَارِسَ
نَبَذْتُ إِلَيْهِ حِزَّةً مِنْ شِوَانِنَا حَيَاءً وَمَا فَحَى عَلَيَّ مِنْ أَجَالِسِ
فَأَبَّ بِهَا جَذْلَانِ يَنْفِضُ رَأْسَهُ كَمَا أَبَّ بِالنَّهْبِ الْكَمِيُّ الْمُخَالِسِ

(٣)
ويقول تأبط شرا :
لَطِيفُ الْحَوَايَا يَقْسِمُ الزَّادِ بَيْنَهُ سَوَاءً وَبَيْنَ الذَّئْبِ قَسْمَ الْمَشَارِكِ
وانتشرت بين القوم سجية حمل الكرماء لديات القتلى من الطرفين المتحاربين ،
حتى يربوا صدعهم ، ويصلحوا بينهم . ومن أولئك على سبيل المثال ، عمرو
ابن عَصْم ، أحد بنى دوفن من ربيعة . وهو " الذي حمل الدماء التي كانت بين
سَدُوسَ وَبَنِي عَنزَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ " (٤)

ومنهم كذلك المنذر بن حَرَامِ الخزرجي - جد حسان بن ثابت ، الذي
احتمل دماء الأوس ، عقب الحرب التي دارت بينهم وبين قومه الخزرج ، في يوم

(١) الشعر والشعراء ١/٢١٢
(٢) الحَزْزُ القطع - وبابه رد - ، والحِزَّةُ - كالقذَّة - ، والحِزِّيَّةُ - كالحِلِّيَّةِ
القطعة من اللحم (اللسان - حرز) . (٣) نقداً الشعر ص ٩٧
(٤) انظرا الاشتقاق لابن دريد ص ٣١٨

(١) سميحة المشهور . وكان قد أهدر دماء قومه وحمل دماء خصه .

ومنهم أيضا الحارث بن عوف، وهم بن سنان، اللذان احتملا ديوات القتلى من عبس وذبيان ، في حرب داحس والغبراء المشهورة . وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى :^(٢)

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ
وَقَدْ قَلْتُمَا إِنْ نَدْرِكِ السَّلْمَ وَإِسْعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنْ أَمْرِ نَسْلَمٍ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمٍ

هذا وقد اشتهر بالكرم والجود والسخاء من العرب في الجاهلية كثير من الرجال ، اذ نهبوا في ذلك مذاهب لاحدود لها ، فتندر القوم بجونهم ، وضربوا بكرمهم وسخائهم الأمثال .

ومن أولئك على سبيل المثال ، حاتم الطائي ، الذي لم يكن يبقي لأهله على مال ، حتى ضجت زوجته بذلك ، كما هو مشهور في أخباره . وهو الذي كان اذا أهلَّ رجب ينحر كل يوم عشرة من الابل ويعطم الناس .^(٣) وهو الذي لما لم يجد ما يطعم به الجياع من جيرانه ذات ليلة ، عقر لهم حصانه .^(٤)

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢١٦/١

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٥ - ١٦

(٣) انظر ذيل الامالي واثنا عشر لابي علي القالي ص ١٥٢

(٤) انظر ثمار القلوب للشمالبي ص ٩٨

ومنهم كذلك كعب بن مامة الأيادي ، الذي كان معه ماء ومعه رقيق ، فعطس رقيقه في الطريق ، فسقاه الذي كان معه من الماء ومات عطشا .^(١)

ومنهم أزواد الركب القرشيون ، الذين كانوا اذا سافروا لايتزود رقيقهم بزاد ، اذ كانوا يكفونه مئونة ذلك .^(٢)

ومنهم غير أولئك من الرجال الذين لايتسع لحصرهم المجال . يقول الابشيبي في المستطرف : " والحكايات في ذكر الاجواد ، والكرماء ، والأشياء وأهل المعروف ، وما كانوا عليه من السخاء والكرم ، أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر " ^(٣)

وكما تندرا القوم بالأشياء والكرماء ، فقد صبوا جام غنبيهم على البخلاء ، فهجروهم وشهروا بهم ، وأغروا الناس بمنعهم ، وحرشواهم على نبيهم . يقول حاتم :^(٤)

إِنَّ الْبَخِيلَ إِذَا مَا مَا تَبْتَعَهُ سَوْءُ الثَّنَاءِ وَيَحْوِي الْوَارِثُ الْإِيْلَا
لَيْتَ الْبَخِيلَ يَرَاهُ النَّاسُ كُلَّهُمْ كَمَا يَرَاهُمْ فَلَا يُقْرَى ذَا نَكْرَلَا

ويقول الآخر :^(٥)

يَا لَيْتَ مَنْ يَمْنَعُ الْمَعْرُوفَ يَمْنَعُهُ حَتَّى يَذُوقَ أَنَا سِغْبَ مَا صَنَعُوا

وكذلك حرش الشعراء الناس على عدم التعرض لسؤال البخلاء ، فان ذلك مما يضاعف بخلمهم ، ويزيد في شحهم . وهو طبع من طباعهم معروف ، فهم لثام

(١) انظر نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ص ٩٦

(٢) انظر جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ١/٤٦٤

(٣) المستطرف ١٧٧/١

(٤) ديوان حاتم الطائي - دار صادر وبيروت - ص ٧٣

(٥) انظر الموتلف والمختلف ص ١٦٨

(١)
 لامكان لهم بين أهل الفضل والمعروف . يقول عمرو بن أحمرة:
 إنا أنت راودت البخل رددته إلى البخل واستمطرت غير مطير
 متى تطلب المعروف في غير أهله تجد مطلب المعروف غير يسير

وتعادي القوم في نهمهم للبخل والبخلاء ، فرسوا للبخل صورة مزرية ، تحرض
 الناس على البعد عنه ، وتنفرهم من التخلق به ، فهو خلة منمومة بين الخلال ،
 وهو كاللص ، يسرق صالح أعمال الرجال .

(٢)
 يقول عمرو بن الأهم المنقري :

ذريتي فإن البخل يا أم هيثم
 وكل كريم يتقى الدم بالقري
 لصالح أخلاق الرجال سروق
 وللخير بينا لصاحين طريق
 لعمرك ما ضاقت بلا ذياهلها
 ولكن أخلاق الرجال تضيق

واتخذ القوم من أموالهم جنة يتقون بها المنمة والهزاء . وجعلوا منها
 أداة طيعة لكسب الحمد ، وسلما يرتقون به ذرى العلياء . ولم يكن في
 تلك الصور المشرقة ، مكان للبخل والبخلاء . وأنى يكون لهم ذلك وأموالهم
 يرثها الوارثون ، وأحاديث نهمهم يسير بها السائرون ، ويتندر بها
 المتندرون . يقول حاتم : (٣)

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجد
 وماذا يعدى المال عنك وجمعه
 بفضل الغنى ألفت مالك حامد
 إذا كان ميراثا وواراك تحيد

(١) معجم الشعراء ص ٢٤

(٢) المفضلية رقم ٢٣ ، وانظر معجم الشعراء ص ٢١

(٣) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٣٨

(١)

ويقول : ذَرِينِي يَكُنْ مَالِي لِعَرَضِي جَنَّةً
أَرِينِي جَوَادًا مَا تَهْزِلُ لِعَلْنِي

يَقِي الْمَالَ عَرَضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا
أَرِي مَا تَرِينِ أَوْ بَخِيلًا مَخْلَدَا

ويقول المثنبي العبدى : (٢)

أَجْعَلُ الْمَالَ لِعَرَضِي جَنَّةً

إِنْ خَيْرَ الْمَالِ مَا أَدَى النِّمَمَ

ويقول الحطيئة : (٣)

بَرَى الْبَخْلَ لَا يَبْقَى عَلَى الْمَرْءِ مَالُهُ
كُتُوبٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ

وَيَعْلَمُ أَنَّ الشَّحَّ غَيْرُ مَخْلُودٍ
تَهْلِكُ وَاهْتَرَأْ هَتْرَأَ زَالِ الْمَهْنَدِ

وَاسْتَهْتَرَأَ الْقَوْمُ فِي حُبِّ كَسْبِ الْحَمْدِ وَطَيْبِ الذِّكْرِ بِالْجُودِ وَالسَّخَاءِ ، كَمَا اسْتَهْتَرَأُوا

فِي بَغْضِ الشَّحِّ خَوْفًا مِنْ لَذْمِ وَالْهَجَاءِ . يَقُولُ حَاتِمٌ : (٤)

أَمَا وَيْ إِنْ أَلْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ
وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَخَادِيثُ وَالذِّكْرُ

ويقول المثنبي العبدى : (٥)

فَأَجَابَتْ بِصَوَابٍ قَوْلَهَا

مَنْ يَجِدُ يَحْمَدُ وَمَنْ يَبْخُلُ يَنْذَمُ

وكذلك هم الناس ، يرون في الجواد السخي ، انسانا كريما يجب أن يشكروه

ويمدحوه ، ويرون في البخيل الشحيح انسانا لثيما يجب أن ينبذوه ويهجموه

ويشتموه .

(٦)

يقول عنتره : وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى لَطْوِي وَأَظْلَهُ
حَتَّى نَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

(١) ديوان حاتم - دار صا دروبيروت - ص ٤٠ (٢) ديوان المثنبي ص ٢٣٣

(٣) ديوان الحطيئة ص ١٦١ (٤) ديوان حاتم - دار صا دروبيروت ص ٥٠

(٥) ديوان المثنبي ص ٢٢١ (٦) ديوان عنتره ص ٤٤

ويقول حاتم : (١)

لَقَد كُنْتُ أَعْلَى الْبَطْنِ وَالزَّادِ شَتَاهِي مَخَافَةَ يَوْمٍ أَنْ يُقَالَ لِسَيْمٍ

(٢)

ويقول عمرو بن أحمرة :

إِنَّا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعَرْضِكَ جَنَّةً مِّنَ الدَّمِّ سَا رَ الدَّمِّ كُلِّ مَسِيرٍ

وكان جود العرب في الجاهلية ينصب أساسا على نوعين من الناس ، هم الضيفان والجيران . وكان الأراذل واليتام ، وأولو القربى والارحام ، يفوزون من حصة الجيران بالنصيب الكبير . كما كان لمفاداة الأشرى وكرامتهم والمن عليهم ، من أهوال القوم وجوئهم نصيب غير يسير .

يقول المسيب بن علس : (٣)

وَحَيْرَ النَّاسِ قَد عَلِمْتَ مَعْدِي لِضَيْفٍ أَوْ لِجَارٍ أَوْ لِعَانِي

ويقول حاتم : (٤)

إِنَّا كَانُ بَعْضُ الْمَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَا لِي مَعْبُدُ
يُفَكُّ بِمِ الْعَانِي وَيُوكَلُ طَيْبًا وَيُعَلِّي إِذَا مَنِ الْبَنْبِيلَ الْمَطْرَدُ

ويقول الأعشى : (٥)

عِنْدَهُ الْجَزْمُ وَالتَّقْوَى أَسَى الصَّوْعِ وَحَمِلَ لِمَضَلِجِ الْأَثْقَالِ
وَصَلَاتِ الْأَرْحَامِ قَد عَلِمَ النَّاسُ وَفَكَ الْأَشْرَى مِنَ الْأَغْثَالِ

- (١) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٨٦ (٢) معجم الشعراء ص ٢٤
(٣) معجم الشعراء ص ٣٠٠ (٤) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٣٥
(٥) ديوان الأعشى ص ٥٩

أما الضيف ، فقد تفنن القوم فى اكرامه وقرآه ، وتلمسوا الأسباب
التي تدخل على نفسه السرور ، وتستجلب رضاه . ومن ذلك بسط الوجه له ،
ومضاحكته ، والترحيب به ساعة قدومه ، حتى يأنس ويسر ، وينزل وهو
مطمئن .

يقول عمرو بن الأهتم : (١)

وَمَضَّاحِكْتَهُ مِنْ قَبْلِ عِرْفَانِي أَسْمَهُ
لِيَأْنَسَ إِنِّي لِلْكَسِيرِ رَفِيقُ

ويقول الآخر : (٢)

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا قَرَّةَ الْهَيْنِ إِنِّي
أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ رَدِّ سَلَامِهِ

وكان القوم يعدون ذلك من أعظم القرى ، ويفخرون بفعله ، حتى وان كانوا
فقراء ، أو كان المكان جديبا . يقول شاعرهم : (٣)

وَلَسْتُ مَقْطَبًا وَجْهِي إِذَا مَا
أَتَانِي الضَّيْفُ فِي الْيَوْمِ الْمُطِيرِ
وَلَكِنِّي أَضَاحِكُهُ وَأُنْسِي
عَلَيْهِ إِنِّي عَيْنُ الْفَقِيرِ

ويقول الآخر : (٤)

أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ أَنْزَالِ رِجْلِهِ
وَمَا الْخُصْبُ لِلضَّيْفِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرْيُ
وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيبُ
وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

(١) الأشباه والنظائر (أو حماسة الخالدين) ١٠٠/٢

(٢) المرجع السابق ١٠٠/٤ (٣) المرجع السابق ١٠٧/٢

(٤) المرجع السابق ٦٥/١ ، ١٠٢/٢

ومن وسائل اكرام الضيف عند القوم كذلك - مسامرتة ومحادثته ، والسهر معه . وعدم التلهي عنه لا بالزوجة ولا بالعيال ، حتى وان تكن الزوجة فى جمالها ورشاقتهما صنو الغزال . يقول عروة بن الورد :^(١)

فَرَأَيْتُ فِرَاشَ الضَّيْفِ وَالْبَيْتَ بَيْتَهُ وَلَمْ يَلْهِنْنِي عَنْهُ غَزَالٌ مَقْنَعٌ
أَحَدُهُ إِذَا حَدِيثٌ مِنَ الْقِرَى وَتَعَلَّمَ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

ان استقبال الضيف بوجه مسفر ، كان عند القوم أول القرى وأهم القرى . وهو دليل واضح على تأصل خصلة الكرم فى النفوس ، يقول عروة بن الورد أيضا^(٢)

سَلَى الطَّارِقَ الْمُعْتَرِ يَا أُمَّ مَالِكٍ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قَدْرِي وَمَجْرِي
أَيْسَفِرُ وَجْهِي ؟ إِنَّهُ أَوَّلُ الْقِرَى وَأَبْذَلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مَنْكَرِي^(٣)

ليس هذا وحسب ، بل لقد تمادى القوم فى اكرام الضيف حتى كانوا يفخرون بأنه اذا نزل بساحتهم سودوه ، وجعلوا من أنفسهم عبيدا ، وغايتهم أن يخدموه . يقول حاتم :^(٥)

وَإِنِّي لَعَبْدٌ لَضَيْفٍ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ الْعَبْدِ

تلك هى حال القوم مع الضيفان .

أما الجار - فقد كان اكرامهم له ، لا يقل عن اكرامهم للضيف ،

وكان افتخارهم بذلك شديدا ، وعلى الأخص اذا كان الجار غريبا . وكان من

(١) ديوان عروة بن الورد ص ١٠١ (٢) المصدر السابق ص ٩٠

(٣) المعتز : المعتز بالسؤال (انظر أساس البلاغة - ص ٤١٤ - عود)

(٤) الوجه المسفر : الهاش الفرح . من السفر وهو الضيا . تقول أسفر الصبح

أى اضاء . (انظر أساس البلاغة - ص ٢٦٨ - سفر)

(٥) ديوان حاتم - دار صادر وببيروت ص ٤٤

وسائل اكرامهم لجارهم حمايته واعزازة . وكانوا يتناخرون بذلك يقول
السموئل : (١)

تَعَبَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَوَلَّتْ لَهَا إِنَّا كِرَامٌ قَلِيلٌ
وَمَا ضَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

وكان القوم يضحون من أجل حماية جارهم واعزازة بكل عزيز . ويتجشمون
فى سبيل ذلك كل صعب . ومنه على سبيل المثال خبر أسد بن كرز . قال أبو
الفرج " وكان قوم من حمة ، عرضوا لجار أسد بن كرز فاطردوا ابلاله ،
فأوقع بهم أسد وقعة عظيمة فى الجاهلية ، وتتبعهم حتى عاذوا به " . (٢)

وفى ذلك يقول : (٣)

وَمَا جَارُ بَيْتِي بِالذَّلِيلِ فَتَرْتَجِي ظَلَامَتَهُ يَوْمًا وَلَا الْمَتَهِنِمْ

على أن خير مثال على ذلك ، ما كان من عبدالمطلب بن هاشم - جدا لنبي صلى
الله عليه وسلم - مع حرب بن أمية ، نديمه وصنوه فى زعامة قريش . وذلك
أن رجلا من يهود كان يسكن بمكة ، وكان له مال يتسوق به فى أسواق تهامة ،
فعاظ ذلك حرب بن أمية ، فحرض عليه فتيين من فتيان قريش فقتلاه .

وكان لليهودى فى جوار عبدالمطلب ، فظل يبحث عن قاتليه حتى
عرفهما ، ولكن حربا أجارهما منه . فأثبته وقاطعه ونافره . وظل وراءه حتى
أخذ منه مائة ناقة دفعها اليها بن عم اليهودى ، ودفع اليه بقية ماله ، وما
نقص منه ، غرّمه من ماله . (٤)

(١) ديوان عمروة والسموئل ص ٩٠

(٢) الاغانى - ثقافة - ٧/٢٢ (٣) الاغانى - ثقافة - ٨/٢٢

(٤) انظر انساب الاشراف للبلاندى ٧٢/١ - ٧٤

وكان من وسائل اكرام العرب في الجاهلية لجارهم - غير حمايته
واعزازه - رعاية حقه ، والتفاضى عن عيبه ، وحفظ جواره ، والوفاء بعهد .
ففي رعاية حقه يقول المثقب العبدى : (١)

أَكْرَمُ الْجَارِ وَأَرْعَى حَقَّهُ
إِنَّ عِرْفَانَ لَفَتَى الْحَقِّ كَرَمًا

وفي التفاضى عن عيبه ، وحفظ جواره يقول قيس بن عاصم : (٢)

لَا يَفْطَنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ
وَهُمْ لِحِفْلِ جَوَارِهِمْ فُطْنُ

ويقول طرفة : (٣)

فَضْلٌ أَحْلَامُهُمْ عَنْ جَارِهِمْ
رَحْبُ الْأَدْرَعِ بِالْخَيْرِ أَمْرُهُ

وفي الوفاء بعهده يقول الحطيئة : (٤)

قَوْمٌ إِنْ أَعْقَدُوا عَقْدًا لَجَارِهِمْ
شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكِرْبَا

ومن وسائل اكرامهم لجارهم كذلك ، المبالغة في التودد اليه ، وانزاله
من أنفسهم منزلا يشعر به أنه أصبح من القوم ، ولم يعد غريبا عنهم . يقول
يزيد بن جمان السكوني : (٦)

لَا يَشْعُرُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ
أَوْ أَنَّ يَبِينَنَّ جَمِيعًا وَهُوَ مَخْتَارُ

وَمِنْ تَكْرِمِهِمْ فِي الْمَحَلِّ انْتَهَى
حَتَّى يَكُونَ عَزِيزًا مِنْ نَفْسِهِمْ

(١) ديوان المثقب ص ٢٢٩

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٥٨٤/٤

(٣) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٦٨

(٤) ديوان الحطيئة ص ١٢٨

(٥) العنَّج - كالضرب - الشد والجنب ، والعِنَاج كالجبال - ما يعنَّج به
(اللسان - عنج) والكَّرْب - كالقلم - الحبل الذي يشد على الدلو
ويكون قويا . (انظر اللسان - كرب) .

(٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٠٧١ وانظر المؤلف والمختلف ص ١٢٨

(١)

ويقول الخنسر:
 نزلت على آل المهلب شائبا غريبا عن الأوطان في زمن محل
 فما زال بي إكرامهم واقتفاؤهم والطفاهم حتى حسبتهم أهلي (٢)

ولم يكن إكرام القوم لجارهم قاصرا على المدة التي يقضيها بينهم ، والفترة التي يمكثها عندهم ، ولكنهم كانوا يتبعونه الإكرام بعد رحيله عنهم ، يقول شاعرهم : (٣)

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

وكما كان العرب في الجاهلية يكرمون الضيف والجار ، كانوا كذلك يفعلون بالرفيق وصاحب الطريق ، فلا يختصون أنفسهم دونه بمال أو بظهر أو بماء . يقول مالك بن أبي كعب الخزرجي : (٤)

على لجاري ما حبيت زمامة
 إذا ما منعت لعال منكم لثروة
 وأعلم ما حق الرفيق على الصخب
 فلا يهنيني ما لي ولا يثر لي كسبي (٥)

ويقول حاتم : (٦)

إذا كنت رباً للقلوب فلا تدع
 أنخها فأردفه فإن حملتكما
 رفيقك يمسي خلفها غير راكب
 فذاك وإن كان العقاب فعاقب (٧)

- (١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣٠٢/١ والبيتان ليكبير بن الخنسر في البيان والتبيين ٢٣٢/٣ بخلاف في الرأية .
 (٢) يقول: فما زال إكرامهم لي والطفاهم ، واقتفاؤهم لما احتاج إليه . حتى خلتهم أهلي .
 (٣) انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٦٦
 (٤) معجم الشعراء ص ٢٥٦
 (٥) الذمامة بالكسر - الحرمة والحق والعهد ، وكل ما يلحقك إذا ضيعته مزمنة (انظر اللسان - نم) .
 (٦) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٢٩ - ٣٠
 (٧) العقاب والاعتقاب التناوب (انظر اللسان - عقب) .

ويقول: (١)

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَنِيلِ زِمَامِهَا لِتَشْرَبَ مَا فِي الْحَوْسِ قَبْلَ الرِّكَابِ
وَمَا أَنَا بِالطَّائِرِ حَقِيبَةَ رَحْلِهَا لِأَرْكَبَهَا خِفًا وَأَتْرِكَ صَاحِبِهَا

أولئك هم الضيفان والجيران والأصحاب والرفقاء عند القوم .

أما الأراذل والايتام ، والمعاويج من أولى القرابة والأرحام ، فقد

تفنن القوم أيضا في اكرامهم ، والتواصي بهم .

(٢)

حَلُّوا لَدَيْكَ فَزَالَتْ عَنْهُمْ الرِّبَابُ (٣)

كَمْ مِنْ ضَرَائِكَ هَلَاكٍ وَأَرْمَلَةٍ

ويقول الأعشى: (٤)

وَأَيَّاهُمْ رَبْدَاءٌ حَثَّتْ رِثَالَهَا (٥)
رَحِيَةً بِالِإِذْنِ قَدْ أَرْحَاهَا (٦)

وَأَرْمَلَةٍ تَسْعَى بِنَعَثِ كَانِهَا
هَنَا نَا وَلَمْ نَعْنَنَّ عَلَيْهَا فَاصْبَحَتْ

(٧)

وَحَقِيقُهُمْ حَتَّى أَكُونَ الْمَسْوُودَا
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا مَا تَقُولُونَ سَيِّدَا

وَيَقُولُ حَاتِمُ بْنُ جُوَيْبَةَ
وَأَلْفِي لِأَعْرَاضِ الْعَشِيرَةِ حَانِظًا
يَقُولُونَ لِي: أَهْلَكْتَ مَا لَكَ فَاقْتَصِدْ

ومضى القوم في صلة الأرحام ، والجود على الأيتام ، والبر بأولى القربى إلى حد بعيد ، حتى عدلتهم نساؤهم فما غيروا لعدلهم ، ولمنهم فما استجابوا

للمومن . يقول حاتم: (٨)

رَحْمًا وَخَيْرَ سَبِيلٍ لِمَا لِي مَا وَعَلَا

لَا تَعْذِلْنِي عَلَى مَا لِي وَصَلْتِ بِهِ

ويقول ضمرة بن ضمرة النهشلي: (٩)

- (١) ديوان حاتم دار صادر وبيروت ص ٢٩ (٢) ديوان الخنساء ص ١٣
(٣) الضريك الفقير الجائع ، والجمع ضرائك وضركاء (اللسان - ضرك) .
(٤) ديوان الأعشى ص ٣٩٣ (٥) الربداء والرمداء: النعامة التي بلون الرماد ،
والجمع رُبْد (اللسان - ريد) ، والرأل كالدرج ولد النعام والجمع رثال
(اللسان - رال) . (٦) هنا: أعطى وأطعم وبابه ضربو فتح (اللسان - هنا)
(٧) ديوان حاتم دار صادر وبيروت ص ٤١ (٨) ديوان حاتم دار صادر وبيروت ص ٢٣
(٩) النوادر في اللغة لأبي زيد ص ٥٢

(١) بَكَرْتَ تَلُومَكَ بَعْدَهُنَّ فِي لَتْدَى بَسَلٌ عَلَيْكَ مَلَامَتِي وَعَيْتَابِي
 (٢) أَأَصْرَهَا وَبَنِي عَمِّي سَاغِبٌ فَكَفَاكَ مِنْ إِبْتِءٍ عَلَيَّ وَعَكَابٍ
 أَرَأَيْتَ إِنْ صرَّخَتْ بِلَيْلِهَا مَتْنِي وَخَرَجَتْ مِنْهَا عَارِيًا أَثْوَابِي
 (٣) هَلْ تَعْمِشُنَّ إِبْلِيَّ عَلَيَّ وَجُوهَهَا أَمْ تَعْصِبُنَّ رُؤُسَهَا بِسِلَابٍ

ولعل خير مثال على برهم باليتامى خبر حجية بن المشرب مع أبناء أخيه .
 وكان من حديث حجية ، أنه كان جالسا بفناء داره ذات يوم ، فخرجت
 جارية له بقعب فيه لبن ، فسألها أين تريد ، فقالت : بنى أخيك
 اليتامى . فوجم لذلك ، وأطرق من شدة الحزن ، وانتظر حتى أراح راعياها بله ،
 فأمرها أن يرداها نحو بنى أخيه . (٤)

ولما عاتبته امرأته في ذلك قال : (٥)

(٦) لَجْنَا وَلَجْتَ هُنَا فِي التَّفْضِيءِ وَلَطَّ الْحَبَابُ دُونَنَا وَالتَّنْقِيبُ
 تَلُومٌ عَلَيَّ مَا لِي شَفَارِي مَكَانُهُ إِلَيْكَ فَلُومِي مَا بَدَا لَكَ وَأَغْضَبِي
 رَأَيْتُ الْيَتَامَى لِأَسَدٍ فُورَهُمْ هَدَا يَا لَهُمْ فِي كُلِّ قَعْبٍ مَشْعَبٍ
 فَقُلْتُ لِعَبْدِنَا أَرِيحَا عَلَيْهِمْ سَاجِعٌ بَيْتِي مِثْلَ آخِرِ مُعْزِبٍ (٧)

(١) البَسَلُ - كالبحر - من الأضداد ، ومعناه حلال وحرام . وهو هنا -
 بمعنى (حرام عليك) . والواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء
 (انظر اللسان بسل)

(٢) الصر للناقة : تغطية أطبائها حتى لا يرضعها ولحمها (انظر أساس البلاغة
 ص ٣٥٣ - صرر) والابنة - كالهبة - هي الخزى والحياء (انظر نوادر أبي زيد
 الأضاربي ص ٣٤) والساغب الجائع . من سَغِبَ يسغِبُ - كالعَبِ يلعِبُ
 وسَغِبَ يسغِبُ كنصر ينصر سَغْبًا وسَغْبًا (اللسان - سغب) (٣) السَّلَابُ والسُّلْبُ
 كالكلاب والطرق - الثياب السود التي تلبسها النساء للحداد في المآتم
 (اللسان سلب) (٤) انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٧٦/٣

(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٧٦/٣ - ١١٧٧ (٦) لَطَّ الْحَبَابُ يُلَطُّهُ
 لَطًّا من باب رد - أرخاه وسدله (اللسان - لظط) (٧) المعزب الذي عزبت
 ابله أي بعدت وتفرقت . وعزب يعزب (كينصر) ، ويعزب (كيعزب) عزوبًا
 انظر اللسان عزب

أرأيت الى أي حد تعشق العرب في الجاهلية خلة الكرم والجلود
والسقاء !! حتى انهم لم يكونوا يرون خلة أفضل منها . يقول شاعرهم : (١)
وَلَمْ أَرَ كَالْمَعْرُوفِ مَا مَذَاقُهُ فَحَلُّوْا وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيْلٌ
وهل رأيت الى أي حد أغرموا بضيفهم وجارهم وأولى قرباهم !! لقد كانوا
يعدون ذلك من أعظم المفاخر . كما كانوا يعدون التقصير فيه من أكبر النقائص .

وخير دليل على ذلك ما كان من أمر الأعشى - ميمون بن قيس - الشاعر
وعلقمة بن علاثة . فقد هجا الأعشى علقمة بقوله : (٢)

تَبَيَّنْتُونِ فِي الْمَشْتَى مِلاَّ بَطُونِكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرثِي يَبْتَنُ خَمَائِصًا
فلما سمع علقمة هذا البيت ، رفع يديه الى السماء وقال : اللهم العنه
ان كان كاذبا ، أبحق نفعه هذا بجيراننا !! ثم بكى وقال :
ما هباني بشيء هو أشد علي من هذا . (٤)

وهكذا كان الكرم عند العرب في الجاهلية ، أرفع الخلال مكانة ، وأكثرها
شيوعا . حتى لا تكاد تجد بيتا من بيوتهم ، أو يامن أحيائهم ، يخلو من الجواد
والأضياء . كما لا تكاد تجد من شعرائهم مفتخرا بحميد الصفات ، الا وللكرم من
فخاره أكبر الأنصبا .

*

- (١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١١٨٢/٣
(٢) ديوان الأعشى ص ١٩٩
(٣) الغرث كالمرض - الجوع ، تقول غرث يغرث غرثا - وبابه تعب - (انظر
اللسان غرث)
(٤) انظر حلية المحاضرة للمظفر الحاتمي ٣٩٥/١ ، وانظر ديوان الأعشى
بتحقيق الدكتور محمد محمد حسين - ص ١٩٨

(٢) الشجاعة

كانت الشجاعة عند العرب صنو الكرم ، في تعشقهم لها ، وافتخارهم بها . واذ كانت الحياة في الصحراء الجداء ، وما كان يصحبها من قلة الزاد والماء ، وبعد المسافات بين مزارب الأقسام ، والقحط الذي تمنى به المراعى عاما بعد عام - ، اذ كان كل ذلك مما يجعل العرب يُفَرِّهُونَ باكرام الضيفان ، والجدود على الأرامل والأيتام والفقراء ، من لجيران وغير الجيران ، فان الدفاع عن القبيلة ، وحماية نمارها ومحارمها ، والذب عن حياضها - كان يفرض على القوم أن يتعشقوا الشجاعة والنجدة والفروسية ، وأن يعدوها هي الأخرى - من أكرم خلالهم وآثرها عندهم .

وكان للشجاعة عند القوم مظاهر متعددة ، في الطباع والجموم والأعمال والأقوال . ومن تلك المظاهر الأنفة والحمية ، واباء الذل والضميق يقول القتال الكلابى : (١)

فَمَا الشُّرُّ كُلُّ الشُّرِّ لِخَيْرِ بَعْدِهِ
عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنْ تَذِلَّ رِقَابُهَا

ويقول عنتره : (٢)

فَعَيْشُكَ تَحْتَ ظِلِّ الْعِزِّ يَوْمًا
وَلَا تَحْتَ لِمَذَلَّةِ الْفَعَامِ

ويقول : (٣)

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذَلَّةٍ
بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ
مَاءَ الْحَيَاةِ بِذَلَّةٍ كَجَهَنَّمَ
وَجَهَنَّمَ بِالْعِزِّ أَطِيبَ مِنْزِلِ

بل لقد كان القوم يفضلون القتل على الذل ، وكانوا يعدون المن على الأسير

(١) الاشباه والنظائر للخالد بن ٣٢/١ (٢) ديوان عنتره ع ١٨٤

(٣) ديوان عنتره ع ٢٠٥

ضربا من الذل . يقول تأبط شرا : (١)

هُمَا وَخَطْنَا إِمَّا إِسَارًا وَمِنْسِيٍّ
وَأَمَّا دَمٌ وَالْقَتْلُ بِالْحَرِّ أَجْدَرُ (٢)

ومن مظاهر الشجاعة عند القوم جرأة شبابهم ، وقوة الشكيمة عند فرسانهم . يُدعون إلى الوغى فيقتحمون - الشيب منهم والشباب - بضراوة تدعو إلى الإعجاب .

يقول طرفة : (٣)

قَدَّمَا تَنْضُو إِلَى الدَّاعِي إِذَا
خَلَّلَ الدَّاعِي بِدَعْوَى ثُمَّ عَمَّ (٤)
بِشَبَابٍ وَكُهُولٍ نَهَسِيٍّ
كَلْبُوثٌ بَيْنَ عَرِيْسِ الْأَجْمِ (٥)

تلك حال القوم في المعارك والحروب ، لآتراءهم يجبنون أو يُعَرِّدُونَ ، بل يخوضون غمارها وهم هاشون باشون . يقول عنتره : (٦)

وَقَدْ عَلِمْتُ بِنُوعَيْمِي بِأَنْسِيٍّ
أَهْسُ إِذَا دُعِيْتُ إِلَى الطَّعَانِ

وكان من مظاهر شجاعة القوم تأففهم من الظلم ، وعدم استكانتهم له . يقول عنتره : (٧)

أَثْنِي عَلَى يَمَّا عَلِمْتُ فَأَنْسِيٍّ
فَإِنَّا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظَلَمِي بَاسِلٌ
سَمِحٌ مَخَالِقَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
مَرٌّ مَذَاقُهُ كَطَمِّ الْعَلَقِمِ

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٧٩/١ ، والبيت - بدون نسبة - في شرح

التسهيل لابن عقيل ١ / ٤٠ .

(٢) إِسَارُومَنَةٌ ودم : بالرفع على قراءة من رأى حذف النون في خطتها للاستطالة ، وبالجر على قراءة من ذهب إلى أن حذفها كان للاضافة .

(انظر شرح ديوان الحماسة) ٧٩/١ - ٨٠ .

(٣) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١١٤ (٤) تننو أى تسرع وتتقدم غيرها من الخيل ، وخلص بالدعوة : خص (انظر ديوان طرفة - طبع القاهرة - ص ١٣٧)

(٥) التَّهْدِيدُ المتعاقبون الذين ينهدون لعدوهم أى ينهضون لقتاله ، نهوض الأسد في أجماتها والعريسة موضع الأسد من الجمرة . (انظر شرح الأعلام لديوان طرفة

طبع دمشق ص ١١٤) (٦) ديوان عنتره ص ٨٠ (٧) ديوان عنتره ص ٢٦

ويقول عمرو بن كلثوم: (١)

إِنَّا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسِ خَسْفًا أَبِينَا أَنْ نَقْرَ الْخَسْفِ فِينَا

ولقد اختط القوم لأنفسهم طريقا واضح المعالم ، يمنع عنهم الظلم ،
ويصد المظالم . وقد رسم شاعرهم ذلك الطريق بقوله: (٢)

مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذِّكْيَ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ
وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أَنْفِي ذَا يَالْهُمْدَانَ ظَالِمًا !

ولعل من أمثلة تأفف القوم من الظلم ، واستنكافهم عن الضيم ، ما

كان من قتل عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند الملك ، في الخبر المشهور (٣)

ومن مظاهر شجاعة القوم أيضا الصبر بمختلف ألوانه . الصبر

على الجوع والعطش ، والصبر على قطع المغازات ، واقتحام الصحراوات ،
والصبر على مقارعة الفرسان في الحروب ، والصبر على ما كانت تجره تلك
الحروب في الأموال والأشخاص من مآسٍ وويلات .

يقول عمرو بن الإطنابة: (٤)

أَبْتِ لِي عَفَّتِي وَأَبِي بَلَائِسِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ يَا لثَمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِكْرَاهِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطَلِ الْمَشِيحِ

- (١) شرح القصائد العشر للتبريزي - ص ٤٢٧
(٢) البيتان لعمرو بن بَرَّاقَة الهمداني في الموتلف والمختلف ص ٨٨ ، والأول
منهما لمالك بن حريم الهمداني في الاشتقاق لابن دريد ص ٤٢٧
(٣) انظر في ذلك الاغانى - ثقافة - ٤٧/١١ - ٤٨ ، والكامل في التاريخ
لابن الاثير - دار صادر وبيروت - ٥٤٨/١
(٤) معجم الشعراء ص ٩

وَقَوْلِي كَلَّمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ مَكَانِكَ تَحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي (١)
لَا تُدْفَعُ عَنْ مَأْتِرٍ مَا لِجَنَابَاتِ وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرَضٍ صَحِيحِ

أرأيت كيف كانا للفارس العربي يُكره نفسه على الصبر في ساحات

القتال ، بالرغم من هلعها وجيشانها مما كانت تراه من أهوال !!

بل لقد كان القوم منهم يُكرهون أنفسهم على الصبر والاقدام حتى إن سيوف أعدائهم

ورماحهم ، لاتصيبهم الا في صدورهم ونحورهم . يقول الحُصَيْنُ بن الحِمَامِ المُرِّي (٢)

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمِي كَلُومَنَا وَلَكِنَّ عَلَيَّ أَقْدَامَنَا يَقْطُرُ الدَّمُ

فاذا كان هذا هو شأن القوم - كل القوم - فلمن كانت الغلبة اذن ، وعلى

من كانت الدائرة تدور !؟

لقد كانت الغلبة من نصيب الأكثر في الميدان كرا ، وكانست

الدائرة تدور على الأقل في الهيجا صبرا .

يقول زُفَرُ بن الحَارِثِ (٣) :
سَقِينَاهُمْ كَأَسَا سَقُونَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبِرَا

وصبر القوم على ما كان يلم بهم من خطوب ، من جراء تلك المواقع والحروب ،

يوازي صبرهم على مآسى الحرب نفسها ، ومصاعبها ذاتها . يقول عمرو بن كلثوم (٤)

مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا عَلَى هَالِكٍ أَوْ أَنْ نَضِجَ مِنَّا لِقَتْلِ

ويقول دريد بن الصَّمَّةِ (٥) :

تَقُولُ أَلَا تَبْكِي أَخَاكَ وَقَدَّارِي مَكَانَ الْبِكَا لَكِنْ بَنَيْتِ عَلَى الصَّبْرِ

(١) جشأت نفسه تجشأ جشواً : ارتفعت ونهضت اليه وجاشت من حزن أو فزع
(اللسان جشاً) .

(٢) التاريخ ليعبي بن معين ٢٩/٣

(٣) أمالي الزجاجي ص ١٠ (٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٢٧٤

(٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/٢٢٨ وانظر حلية المحاضرة ١/٤٤٥

«وقالوا الاتبكي...»

ويقول الآخر: (١)

فَجِعُوا بِذِي الْحَسْبِ الصِّمِيمِ فَأَصْبَحُوا لِأَمْبِلِسِينِ وَلَا كَطَامًا وَجَمًا (٢)
حَتَّى كَانَ عَدُوَّهُمْ مِمَّا بَسَّنَى مِنْ صَبْرِهِمْ حَسْبَ الْمُصِيبَةِ أَنْعَمَا

وأما عبرهم على مصائب الزمان وحوادث الأيام ، فكثير كذلك . ومنه قول
خفاف بن ندبة: (٣)

فَتَعَلَّمِي أَنِّي أَمْرٌ ذُو مِرَّةٍ فِيمَا أَلَمَ مِنَ الْخَطُوبِ صَالِبٍ

وقول الحطيئة: (٤)

فَتَى غَيْرِ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَكْبَاتِ لَدُنِّهِ غَيْرِ جَزُوعٍ

وقول طرفة بن العبد: (٥)

وَتَشَكَّى النَّفْسَ مَا صَابَ بِهَا فَاصْبِرِي إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ

ومن مظاهر الشجاعة عند العرب حبهم للخفة والرشاقة والنشاط في جسام الرجال ،
وبعضهم للجسم الخامل الممتلئ الثقيل . وحبهم كذلك لليقظة والانتباه

وعبور الغمازات بلا دليل .

يقول أبو خراش الهذلي: (٦)

وَإِنِّي لَأَهْدِي الْقَوْمَ فِي لَيْلَةِ الدُّجَى وَأَرْمِي إِذَا مَا قِيلَ هَلْ مِنْ فَتَى يَرْمِي

ويقول أعشى باهلة: (٧)

طَاوَى الْمُصِيرِ عَلَى الْعِزَاءِ مَنْصَلَتْ بِالْقَوْمِ لَيْلَةَ لَأَمَاءٍ وَلَا شَجْرٍ (٨)

ويقول تابت شرا: (٩)

تَبَطَّنْتَهُ بِالْقَوْمِ لَمْ يَهْدِ نَيْلَهُ دَلِيلُكُمْ يَثْبُتُ لِي النِّعَتَ خَابِرٌ

(١) الأشباه والنظائر للخالدين ٩٠/١

(٢) العجلسون اليائسون والناثمون (انظرا لسان - بلس)

(٣) ديوان خفاف بن ندبة ص ٤٠ (٤) ديوان الحطيئة ص ٧٣

(٥) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٦٢ (٦) ديوان الهذليين ١٣٧/٢

(٧) الكامل في الألب للمبرد ٦٥/٤

(٨) المصير واحد المصران ، والعزاء الأمر الشديد ، ومنصلت كالسيف اذا جرد

من غمده - انظر الكامل للمبرد ٦٩/٤ (٩) المغنلية رقم ٢٧

وفى تلك الصحراء المترامية الأطراف ، وبين تلك الوديان المخيفة
وعبر تلك المسالك الوعرة ، كان على العربي أن يكون نشيطا خفيفا هاديا
صابرا مقداما . وتلك هي صورة الأبطال الشجعان عندهم . قالوا فى عامر بن
الطفيل : " كان لا يعطش حتى تعطش الابل ، ولا يضل حتى يضل النجم ، ولا يجبن
حتى يجبن الليل ، ولا يقف حتى يقف السيل " (١)

وقد كانت حياة القوم المضطربة الكثيرة الحركة ، تتطلب الخفة
والنشاط ، لذلك كرهت العرب فى الرجل أن يكون سمينا مكتنزا ، وراوا فى
السمين والاكتناز آثار النعمة والترف ، والركون الى الكسل والخمول . وأحبوا
فيه أن يكون نحىلا خفيف اللحم ، من أثر السهر واقتحام الأهوال ، وطى الرمال ،
والصبر على المكاره ساعة النزال . (٢)

يقول دريد بن الصمة : (٣)

كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ	بَعِيدٌ مِنَ الْأَقَاتِ طَلَاعُ أَنْجَسِدِ
قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِلْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ	مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابُ لَأَحَا دَيْثٍ فِي غَدِ
تَرَاهُ خَمِيصَ الْبَطْنِ وَالزَّائِحَ حَاضِرٌ	عَتِيدٌ ، وَيَعْدُو فِي الْقَمِيصِ الْمَقْدَرِ (٥)
وَإِنَّ مَسَّهُ الْإِقْوَاءُ وَالْجَهْدُ زَادَهُ	سَاحًا وَإِتْلَاقًا لِمَا كَانَ فِي الْيَدِ (٦)

ومن مظاهر الشجاعة عند القوم أيضا حب القوة فى الأبطال وحب الكثرة فى الرجال ،
فإذا اجتمع للقبيلة من أبنائها العدا الكثير ، وتمثلت فيهم القوة والضراوة
والفروسية ، فهم حريون كما كانوا يتصورون أن يكون النصر حليفهم .

يقول عبدالله بن رواحة - رضى الله عنه : (٧)

إِذَا نُدِعَى لِثَارٍ أَوْ لِحَارٍ فَنَحْنُ الْأَكْثَرُونَ بِهَا عَدِيدًا

- (١) انظر ديوان عامر بن الطفيل ص ١٠ (٢) الهجاء والهجاؤن للدكتور محمد حسين ص ٨٨
(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٨١٨/٢ - ٨٢٠
(٤) الكفش والكميش الخفيف السريع الحركة . وأضاف الكميش الى الازار على المجاز ،
(٥) العتيد الحاضر المعد ، والمقدد الممزق .
(٦) الاقواء نفاذ الزاد . يصفه بأنه لا يهضمه ضر ولا يلفته فقر ١٠٠ انظر شرح المرزوقى
لذلك
(٧) ديوان عبدالله بن رواحة - تحقيق الدكتور حسن محمد باجودة - ص ٩٠

ويقول سلامة بن جندل: (١)
يُنَجِّبُهُمْ مِنْ دَوَاهِي الشَّرَانِ أَزَمْتُ صَبْرَ عَلِيَّهَا وَقَبْضَ غَيْرِ مُحْسَبٍ (٢)

ويقول طرفه بن العبد: (٣)
دَلِقُ الْغَارَةَ فِي إِفْرَاعِهِمْ كِرْعَالِ الطَّيْرِ أَسْرَابًا تَمُرُّ (٤)

ويقول الأخر: (٥)
وَإِنَّا نَدْعُوا لِلنِّزَالِ يَوْمَ كَرِيهَةٍ سَتَرُوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفِرْسَانِ
وهكذا كانت الكثرة في الفرسان - كما يذكر أولئك الشعراء - من مظاهر
الشجاعة والقوة والفروسية . ذلك لأنها - بلا ريب - من مؤشرات النصر
والغلبة والتفوق .

ومن مظاهر الشجاعة عند العرب أيضا اهتمامهم بخيلهم وسلاحهم، وذلك
أكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر من متاعهم . والأمثلة على ذلك أكثر من أن
تحصروا . فقوم قيس بن الخطيم مثلا ، يتخذون من صبرهم وسيوفهم القواطع
معاقل يحتمون بها . يقول: (٦)
مَعَا قَلْبُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ مَعَ الصَّبْرِ مَنْسُوبِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ
وقوم بشر بن عمرو بن مرثد ، لا يعبثون بأن تكون ثيابهم متخرقة قديمة ،
ما دامت سيوفهم كاسية جديدة . يقول: (٧)

ديوان سلامة بن جندل ص ١١٨ (٢) القبض - كالحسم - العدا لكثير ، وأزمت
اشتدت (انظر شرح ذلك في ديوان سلامة بن جندل ص ١١٨)

(٣) ديوان طرفه - طبع دمشق - ص ٧١

(٤) الدلق - جمع دلوق - كرفوف - وهو المتقدم المسرع الى الغارة . والرجال
القطع والجماعات

(٥) تفسير أبيات المعاني ص ٨٣

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٣٧ ، والبيت منسوب لعبد الله بن رواحة رضي
الله عنه ، في ديوانه ص ٨٦ .

(٧) انظر المفضلية رقم ٧١

وَتَرَى جِيَادَ ثِيَابِهِمْ مَخْلُولَةً وَالْمَشْرِيفَةَ قَد كَسَوْهَا الْمَنْهَبَا

وطرفة بن العبد لا يفارق جنبه سيفه الماضي ، لاطمئنانه الى مضائه
وحزمه وعدم ترده . يقول : (١)

وَأَلَيْتَ لِابْنِكَ كَشْحِي بِطَانَةً
لِعَضْبٍ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مَهْنَدٍ
أَخِي ثَقِفْ لِابْنَتِنِي عَنْ ضَرْبَةٍ
إِذَا قَبِلَهَا لَأَقَالَ حَاجِزُهُ قَسِدٍ

وعنبرة الرماح معشوقاته ، اذا عشق الرجال الغانيات من النساء ، وصليل
سيفه يطربه ، وبريقه يهديه ، اذا حمى الوطيس وتلبدت بالنعق السماء .

يقول : (٢)
وَإِنِّي أَعَشَقُ السَّمْرَةَ الْعَوَالِيَّ
وَعَيْرِي يَعَشَقُ الْبَيْضَ الرَّشَاقَا

ويقول : (٣)

وَصَوْتُ حَسَامِي مُطْرِبِي وَبَرِيقُهُ
إِذَا اسْوَدَّ وَجْهَ الْأَفْقِ بِالنَّقَعِ مِقْبَاسِي

تلك أمثلة على عشق القوم لسيوفهم ورماحهم ، واهتمامهم بها ، وانشغالهم
بأمرها . أما الأمثلة على اهتمامهم بالخيول فكثيرة أيضا . بل ان اهتمامهم
بخيلهم كان يفوق اهتمامهم بغيرها . وذلك أنهم لم يكونوا يَعُدُّونَ مَالًا فِي
الجاهلية الاخيلا لخيول والابل . وكانت الخيل تتفوق على الابل بمزاياها
الكثيرة .

يقول ابن هذيل الأندلسي في " حلية الفرسان وشعار الشجعان " :

" ولم تكن العرب تعدا لمال في جاهلية الا لخيول والابل . وكان للخيول عندها

(١) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٤٢

(٢) ديوان عنبرة ص ٢٦٨

(٣) ديوان عنبرة ص ١٣٦

مَرْيَّةٌ عَلَى الْإِبِلِ ، فلم تكن تعدل بها غيرها ، ولا ترى لقوة والغزو والمنعة
بسواها . لأن بها كانوا يدافعون عن غيرها مما يملكون . ويمنعون حريمهم ،
ويحمون من وراء حوزتهم وبيضتهم ، ويغاورون أعداءهم ، ويطلبون ثأرهم ،
وينالون بها المغانم . فكان حبهم لها ، وعظيم موقعها عندهم «(١)

ولذلك فقد تفننوا في مدحها ، والتمسك بها والاهتمام بأمرها .
فهذا الأسعر الجعفي يجعلها الحصون الحقيقية لما يبنيه الناس من الحجارة ،
يقول : (٢)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى تَجَنُّبِي الرَّدَى أَنَّ الْحِصْنَ الْخَيْلَ لِأَمْدِ الْقَرَى

وهذا الرقاد بن المنذر الضبي ، يتمنى - إذا ما أدركت مهترته ، وأمكن
الانتفاع بظهرها - أن يشب ضرام الحرب بين الناس . إذ أنه سيخوض غمارها
وهو مطمئن . لا يسأل عن صلح ولا يريده . وكيف يريده وتحت فرس قويسة
جادة . يقول : (٣)

إِنَّا الْمَهْرَةَ الشَّقْرَاءُ أَرْكَبَ ظَهْرَهَا فَشَبَّ إِلَاهُ الْحَرْبِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ
إِذَا حَمَلْتَنِي وَالسَّلَاحَ مِثِيحَةً إِلَى الرَّوْعِ لَمْ أَصْبِحْ عَلَى سِلْمٍ وَائِلِ

وهذا طرفة بن العبد ، يفخر بارتباط الخيل ، حتى في سنوات الجذب الشديد ،
يقول : (٤)

نَمْسِكُ الْخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا حِينَ لَا يَمْسِكُهَا إِلَّا الصَّبْرُ

(١) حلية الفرسان وشعرا الشجمان لابن هذيل الاندلسي ص ٤٣

(٢) الموتلف والمختلف ص ٥٨

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٥٦٣/٢ - ٥٦٤ - ٦٦

(٤) ديوان طرفة - طبع دمشق ص ٦٨

وهذا الأجدع بن مالك الهمداني ، يتعفف قومه عن بيع خيلهم ، واذا عزر
المرعى أطعموها من طعامهم . يقول : (١)

نَقَفُوا الْجِيَادَ مِنَ الْبُيُوتِ وَمَنْ يَبِيعُ فَرَسًا فَلَيْسَ جَوَادُنَا بِمَبَاعٍ (٢)
وهذا خريبة بن الأشيم (٣) ، لا يقدر حصانه بمال ، ولا يقوم بثمن ، حتى وان كان

الثن ما يشتهي من وصال . يقول : (٤)

فَإِذَا سَمِعْتَ يَا نَنِي قَدْبِعْتَهُ
بِوَصَالِ غَانِيَةٍ فَقُلْ كَذِبٌ (٥)

وهذا أحيحة بن الجلاح الأوسي ، يسومه قيس بن زهير العبسي درعاه ، أو يستوهبه
اياها ، فلا يرفض طلبه وحسب ، ولكنه ينكره عليه ، ويعلنه بأن هبة السلاح
أو الخيل أو بيعهما منقصة وعيب . وذلك في مقطوعة يقول في آخرها : (٦)

فَمَاهِبَةُ الدُّرُوعِ أَخَا بَغِيضٍ (٧) وَلَا خَيْلِ السَّوَابِقِ بِالْبَدِيدِ

تلك أمثلة على شغف القوم بخيلهم وسلاحهم ، وغاية ذلك الشغف المحافظة
على ممتلكات الشجاعة والفروسية عندهم ، اذ أن ذلك كان رأس ما يهتمهم
وأعظم ما يشغلهم . فانه عدتهم في القتال ، وسلاحهم يوم النزال .

(١) الاصعيات ص ٦٩ (٢) ثقفوا الجياد أي نختصها بالطعام . فالقافية - كالهديّة
الطعام - يخص به الرجل ، وأقفاه به اختصه - (انظر اللسان - قفا)
(٣) خريبة - كحذيفة - والأشيم - كالعلم .
(٤) نوادر أبي زيد ص ٧٢ وانظر بصائر ذوى التمييز (٣٣٨/٤)
(٥) الكذب - بضم الكاف وضم الذاو وتضعيفها وسكون الباء وضم الذاو
الثانية : الكذاب (انظر المحكم لابن سيده ٤٩١/٦) .

(٦) ديوان أحيحة بن الجلاح ص ٦٧

(٧) بغيض بن عبس هم قبيلة قيس بن زهير .

يقول سعد بن مالك : (١)

والحربُ لا يبقى لجا
جمها التخيل والمِراح (٢)
إلا لفتى صبار في نجداتٍ والفرس الوقاح (٣)
والنثرة الحذاء وال
بيض المكلل والرماح (٤)
والكر بعد الفراد
كره التقدم والنطاح

*

- (١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٥٠٧/١ - ٥٠٣
- (٢) جاحم الحرب موقدها ومهيجها ومثيرها . وأراد : لا يصبر ذو الخيلاء
والمرح على الحروب .
- (٣) الصبار الشديد الصبر ، والنجدات الشدائد ، والفرس الوقاح -
الشديد الحافر .
- (٤) النثرة الدرع الواسعة المحكمة السرد ، والحذاء الجدلاء المحكمة
القتل .
- (انظر في ذلك شرح المرزوقي لديوان الحماسة ٥٠٧/١ وما بعدها) .

وكان من مظاهر الشجاعة عند القوم كذلك ، حب النجدة واجابة الصرخ . اذ لا يفعل ذلك الا الشجعان الأقوياء . ولا يتخلف عنه الا المبلدون الجبناء .

يقول عمرو بن معديكرب : (١)
أَعَاذِلُ إِنَّمَا أَفْتَى شَبَابِي
رُكُوبِي فِي الصَّرِيخِ إِلَى الْمَنَادِي (٢)

ويقول حاتم الطائي : (٣)
وَدَاعٌ نَعَانِي نَعْوَةً فَأَجَبْتَهُ
وَهَلْ يَدْعُ الدَاعِينَ إِلَّا لِمَبْلَدٍ

ويقول قيس بن الخطيم : (٤)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَفْضَلْ وَلَمْ يَلْقَ نَجْدَةً
مَعَ الْقَوْمِ فَلْيَقْعُدْ بِضَغْرِ وَيَبْعُدْ

ويقول طرفة : (٥)
وَإِنْ أَدَعِ لِلْجَلِيِّ أَكُنْ مِنْ حِمَاتِهَا وَإِنْ يَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهِدِ (٦)

وكانت السرعة في الخروج للنجدة عندهم ، في الأهمية كالنجدة ذاتها . فان لعنصر السرعة في القتال ، والنجدة بالذات ، أهميته الخاصة . والأفرد المعتدون بما نالوه ، وضاعت الفرصة للثأر منهم أو استنقاذ ما غنموه .

يقول بشر بن أبي خازم : (٧)
بِشَيْبٍ لَا تَخِيْمُ عَنِ الْمَنَادِي
وَمَرْدٍ لَا يَرُوعُهَا اللَّقَاءُ (٨)

- (١) معجم الشعراء ص ١٦
(٢) الصرخ من الأضداد ، فهو المستغيث والمغيث وصوت المستغيث (انظر اللسان صرخ) وهو هنا بهذا المعنى الأخير .
(٣) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٣٦
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ٧٣ (٥) ديوان طرفة - طبع دمشق ص ٣٩
(٦) الجلي الأمر العظيم - اللسان - جلد ٠ (٧) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٦
(٨) خام عن الأمر يخيم خيما - كباع يبيع بيعا - نكس ونكل وجين ، ومن مصادره خيمان - كفليان - وخيوم - كوجوم ، وخيام - كصيام - (انظر اللسان خيم)

(١)

ويقول الآخر :

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رَأَوْهُ مَابَيْنَ لَجْمِ مَهْرِهِ أَوْ سَافِعِ (٢)

وكان لطلب النجدة عند العرب وسائل وأمارات . فاما انطلق الصرخ بواغوثاه ، أو بيال بنى فلان ، أو بسواهما . (٣) واما أوقدوا نارا على جبل من جبالهم أو يفاع من أرضهم - ان أرادوا الفارة أو توقعوها ، فيهب اخوانهم لنجدتهم . (٤)

(٥)

وفي ذلك يقول السفاح التغلبي :

وَلَيْلٍ بَتُّ أَوْ قِدْفِي خَزَازِي
ضَلَّلْنَا مِنَ السَّهَاءِ يَوْكُنُّ لَوْلَا
هَدَيْتُ كِتَابِيَا مُتَحَيِّرَاتٍ
سَهَادًا لِقَوْمٍ أَحْسَبُهَا دِيَاتٍ

(٦)

ويقول عمرو بن كلثوم :

وَنَحْنُ غُدَاةٌ أَوْ قِدْفِي خَزَازِي
رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِيْنَا (٧)

ومن أعجب أمور القوم في تلك النجدة ، أنهم كانوا ينصرون أخاهم ، ظالما أو مظلوما . يقول بعض شعراء بلعنبر : (٨)

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلِيمًا قَالَ بَرَهَانَا

ومن مظاهر الشجاعة عندهم كذلك حب المغامرة والترحال ، واعتبارهم ذلك من مزايا الرجال الأشداء الأبطال .

(١) شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص ١٤

(٢) سافع أي أخذ بناصيته ، يقال : سفع بناصية الفرس ليركبه - اللسان سفع .

(٣) من صيحات الاستغاثة عندهم كذلك " واصرختاه " انظر اللسان - صرخ

(٤) انظر في الحديث عن نار الحرب ثمار القلوب ص ٥٢٩ ، ونهاية الارب -

للقلقشندي ص ٤٦٢ (٥) معجم البلدان - خزازي

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٤١٤

(٧) الرشد - كالجسم - الاعانة ، تقول رفته يرفده - كضربه يضربه - وأرفده

أيضا : اعانه . (انظر اللسان رfd)

(٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٩/١ ، وهو في شرح الحماسة للتبريزي =

يقول النمر بن تولب: (١)
خَاطِرٌ بِنَفْسِكَ كَيْ تَصِيبَ غَنِيمَةً ۖ إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحٌ
فَالْمَالُ فِيهِ تَجَلَّةٌ وَمَهَابَةٌ ۖ وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَقُبُوحٌ

ويقول معمر بن حمار البارقي لامرأته: (٢)
تَهَيَّبِكَ الْأَشْفَارَ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَكَمْ قَدَرًا يَنَا مِنْ رِدِّ لَيْسَ فِرُّ

ويقول الخنزي: (٣)
أَفِي الطُّوفِ خَفَّتِ عَلَيَّ الرَّدَى وَكَمْ مِنْ رِدِّ أَهْلِهِ لَمْ يَكْرِمْ

ومن مظاهرها الشجاعة عند العرب أيضا، اصرارهم على النار، مهما

كلف الأمر . يقول تابط شرا: (٤)
قَلِيلٌ غَرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُهُمْ ۖ دَمُ النَّارِ أَوْ يَلْقَى كَيْمَا مَسْفَعًا (٥)

ويقول مهليل: (٦)
لَيْسَ أَخُوكُمْ تَارِكًا وَتَرَهُ ۖ وَلَيْسَ عَنْ تَطْلَابِكُمْ بِالْمُفِيقِ (٧)

ويقول أيضا: (٨)
فَقْتَلَا بِتَقْتِيلِ وَعَقْرًا بِعَقْرِكُمْ ۖ جَزَاءُ الْعَطَاسِ لَيَمُوتُ مِنْ تَارِ (٩)

= طبعة بولاق - ٥/١ " قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ "

- (١) ديوان النمر بن تولب ص ٤٩ والبيتان منسوبان لعروة بن الورد في ديوانه ص ٤٣ بخلاف سير في الرواية (٢) حلية المحاضرة ٢٩٧/١ (٣) المصدر السابق ص ٢٩٧ (٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤٩٢/٢ (٥) غرار النوم قليله ، وقليل غرار النوم أى نومه قليل القليل فهو مسهد . والمسفع من الكمأة : الذى أشرب وجهه السمرة من دواء يبدله للسائم ، وتسياره فى الهواجر (انظر اللسان سفح ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي) (٦) جمهرة أشعار العرب ٥٨٠/٢ (٧) الاثاقه والفواق - كالسحاب : الصحو - (اللسان فوق) (٨) البيان والتبيين ٣/٢٢٠ ، والبيت بدون نسبة فى معجم مقاييس اللغة ٧٩/٤ - عقب - وصدرة فيه " فقتل بقتلانا وجز بجزنا " (٩) جزاء العطاس ، أى بسرعة كما بينا لعطس والتشميت من الوقت .

بل لقد كان ولوغ المرء منهم في دم واطره ، أشقى لفؤاده من الماء الخصر
في اليوم القاطظ . أنشد ابن دريد لامرأة من العرب ، ظفرت بقتلوا ابنها ،
فجعلت تذبح الرجل منهم وتلغ في لحمه ، فلما فرغت من ذبحهم قالت : (١)

وَمَا وَرَدُ ظَمَأِي حُلَّتْ عَنْ مَشَارِبِي عَذَابٌ وَقَدِشَفَ اللَّهَيْبُ فَوَانَهَا (٢)
بِأَنْتَعَمِ مِنِّي إِنْ شَرِبْتُ يَمَاءَهُمْ فَزَالَتِ النَّفْسُ اللَّهَيْبُ جَوَانَهَا (٣)

ولم يكن القوم لذلك يقبلون العقل في النحل والأوتار ، فقد كانوا (٤)

يعدون العقل عارا أي عار . يقول شاعرهم : (٥)
فَلَوْ أَنْجِيَا بِقَبْلِ الْمَالِ فِدْيَةً لَسَقْنَا لَكُمْ سَيْلًا مِنْ أَلْمَالِ مُفْعَمَا
وَلَكِنْ أَبِي قَوْمٍ أُصِيبَ أَخُوهُمْ رِضَا الْعَارِ وَاخْتَارُوا عَلَيَّ اللَّبْنَ لَدَمَا

ويقول الآخر : (٦)

وَقَالُوا نَدِيهِ مِنْ أَبِيهِ وَنَفْتَدِي فَكَلْتُ كَرِيمٌ مَا تَدِيهِ الْآبَاءِ عَرُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يَنْهَبُ دَثْرَهُ وَتَغْبِرُ أَقْوَالٌ وَتَبْقَى الْمَعَايِرُ (٧)

وتقول كبشة أخت عمرو بن معديكرب : (٨)

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَتَّارُوا وَاتَّدَيْتُمْ فَمَشُوا بِأَذَانِ النَّعَامِ الْمَصْلَمِ (٩)
وَلَا تَرْدُوا إِلَّا أَفْضُولَ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَمَلْتُمْ عَقَابِيهِنَّ مِنْ أَلْمِ (١٠)

- (١) شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص ٧٧
(٢) تقول حلاؤه عن الماء (بالهمزة) أي منعه (انظر اللسان حلاً وحلاً)
(٣) الجواد - كالجواد - لغة في الجواد - كالسهاد - وهو جهد العطش
(اللسان - جود)
(٤) النحل - كالقتل : الثأر (اللسان - نحل) . والعقل - كالقتل - الدية
(اللسان - عقل) . (٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٦/١ .
(٦) هو أحد بني كلب وكانوا عرضوا عليه دية ابنه فرفضها ، وأصر على قتل قاتل
ابنه وقتله (انظر الامتاع والموانسة لابن جيان ٢٩/٢)
(٧) الدثر كالدرب - المال الكثير (اللسان - دثر) .
(٨) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٨/١ (٩) الصلح كالضرب - قطع الانس من
أساسها و مشوا أي مسحوا . تقول إذا قبلتم الدية ولم تتاروا فلمسحوا بأذانكم
المجدعة - مثله بكم - كأذان النعام ، أو فمشوا - بفتح الميم - أي امشوا بمثل
ذلك انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٨-٢١٩ واللسان صلم .
(١٠) ارتملت أي تلطخت ، وكانت النساء ترد الماء بعد أن يصدر القوم ليفتسلن =

وَاسْتَهْتَرُوا الْقَوْمَ فِي النَّارِ أَيَّمَا اسْتَهْتَرُوا ، حَتَّى كَانُوا يَحْرَمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
الْخَمْرَ وَالنِّسَاءَ - وَهِيَ أَشْهَى مَا كَانُوا يَسْتَمْتَعُونَ بِهِ - حَتَّى يَأْخُذُوا بِثَارَاتِهِمْ .

يَقُولُ أَحَدُهُمْ : (١)

عَلَى وَتَشَهَا دَا لِنْدَا مَيَّ عَلَيَا الْخَمْرُ
وَنَا عِبَهَا جَهْرًا بِرَاغِيَةِ الْبِكْرِ (٢)

أَخَا لَتَنَاسِيرِ النَّسَاءِ مُحْرَمٌ
لَيْتَن لَمْ أَصْبَحْ دَاهِنًا وَلَفِيْفَهَا

وَيَقُولُ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ : (٣)

عَنْ لَخْمٍ حَتَّى زَارَكُمُ بِالْكِتَابِ

وَمِنَّا الَّذِي لَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً

وَيَقُولُ امْرُؤُ الْقَيْسِ (٤) :

عَنْ شَرِبَهَا فِي شَعْلِ شَاغِلِ

حَلَّتْ لِي الْخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأً

قَالَ الْأَعْلَمُ الشَّنْتَمَرِيُّ فِي شَرْحِهِ : « كَانَ لِمَا قَتَلْتَ بَنُو أَسَدِ أَبِيهِ ، حَرَمَ عَلَى نَفْسِهِ
الْخَمْرَ ، حَتَّى يَقْتُلَ قَتْلَةَ أَبِيهِ . فَلَمَّا غَارَهُمْ وَقَتَلَهُمْ حَلَّتْ لَهُ » (٥)

وَيَقُولُ أَحَدُ بَنِي ضَبَّةَ (٦) وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ النُّعْمَانَ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ ،

قَتَلُوا بَنِينَ لَهُ ، فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَأَدْرَكَ ثَارَهُ ، فَقَالَ : (٧)

فَقَرَّتْهَا مَتِي وَشَفَيْتُ صَدْرِي
فَسَاغِيَا لَشْرَابِي وَوَحَلْ نَذْرِي

أَلَمْ تَرَنِي ثَارَتْ بَنِي زِيَادٍ
بَنِي النُّعْمَانَ قَتَلْنَا جَمِيعًا

وَيَتَطَهَّرُونَ آمَنَاتٍ وَمَنْ كَانَ زَيْتًا خَرَعْنَا لِمَا حَتَّى تَرَدْنَا لِنِسَاءٍ فَهِيَ الْغَايَةُ فِي الذَّلِيلِ .

(شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢١٩/١) .

(١) هو مَرَضَاوِي بْنُ سَعُوْدَةَ الْمَهْرِي ، انظُرْ أَمَا لِي الْقَالِي ١٢٧/١ .

(٢) دَاهِنٌ ، هُمُ الَّذِينَ وَتَرَوْهُ ، وَلَفِيْفَهَا : جَمَاعَتُهَا وَأَخْلَاطُهَا وَحَلْفَاؤُهَا (اللسان لف) .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ص ٤٤ (٤) ديوان امرئ القيس ص ١٢٢

(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٢٢

(٦) ذَكَرَهُ الْأَمْدِيُّ فِي الْمَوْتَلَفِ وَالْمَخْتَلَفِ ص ١٥٩ أَنْ اسْمَهُ حُدَيْجٌ - كَرْهِيْرٌ .

(٧) الْمَوْتَلَفِ وَالْمَخْتَلَفِ ص ١٥٩ .

ولم يكن ذلك فعل أفراد معدودين من العرب وحسب، بل كان دأبهم جميعاً .
ذكر أبو عبيدة أن بنى سليم بعد يوم بَرْزَة - وكان لبنى كنانة على بنى
سليم قد « أحرموا النساء والدهن والخمر أو يدركوا ثأرهم من بنى كنانة » (١)

وكان القوم - رجالهم ونسأؤهم - يتواصون بطلب الثارات ،
ويرمون المتباطئين عنها بأخس الصفات . يقول الجراح الفطفاني ، يحرض
ابنى أخيه على الطلب بنأر أبيهما : (٢)

رَأَيْتَكُمَا يَا بَنِي أَخِي قَدْ سَمِنْتُمَا
وَأَمَكُمَا قَدْ أَصْبَحْتُمَا أَيْسَمًا
وَلَا يَدْرِيكَ لَأَوْتَارِيكَ إِلَّا الْمَلُوحَ (٣)
تَخِيرُ فِي خَطِّهَا أَيْنَ تَنْكِحُ

وتقول الخنساء : (٤)
لَأَنُومَ حَتَّى تَقُودُوا الْخَيْلَ بَيْسَةً
أَوْ تَرْحُضُوا عَنْكُمْ عَارًا يَجْلَلُكُمْ
يَنْبِذُنْ طَرِحًا بِمَهْرَاتٍ وَأَمَهَارٍ (٥)
رَحَضَ الْعَوَارِكُ حَيْضًا عِنْدَ طَهَارٍ (٦)

وتقول أم عمرو بنت وقدان : (٧)

- (١) انظر الأنوار ومحاسن الأشعار للشماطى ١٢٧/١
(٢) الأشباه والنظائر للخالدين ٨٧/١ ، ١٩٣/٢
(٣) الملوح: المغير من الحزن ، والصبر ، والترفع عن الترف والنعمة .
(انظر اللسان لوح)
(٤) ديوان الخنساء ص ٥٩
(٥) نَبَذَ الْحَمْلُ ، ولادته قبل اكتماله ، وكل طَرِحَ نَبَذَ . وبابه ضرب (انظر
اللسان نبذ) .
(٦) الرحض : الغسل ، وبابه فتح ونصر (اللسان - رحض) ، والعوارك الحيض
من النساء الواحدة عارك ومُعْرَك (اللسان - عرك)
(٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١٥٤٦/٣ ، وتفسيراً لبيات المعاني ص ١٢٧

إِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمْ فذروا السلاح ووحشوا يا الأبرق (١)
وخذوا المكاجلوا المجاسدوا لبسوا نقبا لنساء فيبس رهط المرهق (٢)

وهكذا كان دأب القوم ، لانسكت لهم هيجاء ، ولأنتطل لقتلهم نساء . فهم اما
مفار عليهم أو مغيرون ، وهم اما واترون أو موتورون . يقول دريد بن الصمة (٣)

فأما تريننا لاتزال بما وننا لدى وتريسعى بها آخر الدهر
يفار علينا واترين فيشتفى بنا ان اصبنا أو تغير على وتر

*

ولكن هذا الغلو في طلب الثأر ، حتى إنه ليبلغ درجة الهتر ،
لم يكن يمنع القوم - شجاعة منهم وكرما - أن يكرموا أسراهم ، ويمنوا عليهم .
يقول شاعرهم : (٥)

ولأنقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقلا لأعناق حمل المعارم
ويقول عمرو بن مالك العنزي - وكان أسرا حاتم طيبي (٦)

أحارتم إذا لانجيع أسيرنا فأنت طليق الجوع إن كان نالكا
أحارتم قد جربتنا فوجدتنا ليوثا لدى لهيجاء إننا كذلكا

(١) وحشوا أي اهجروا الناس وابتعدوا عنهم ، والأبرق مكان فيه حجارة سود
وبيض ، (٢) المجاسد جمع مجسد - وهو الثوب المشبع صبغا ، تقول اذا
ضيعتم دم أخيكم فتزيوا بزى النساء ، وخذوا آلاتهن بدل السلاح ، فيبس
القوم أنتم . والمرهق المضيق عليه (انظر في ذلك شرح ديوان الحماسة
للمرزوقي ٣/١٥٦٦ - ١٥٤٧)

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/٨٢٥ - ٨٢٦

(٤) الهتر - كالعمر - نهاب العقل ، والاستهتار مثله . تقول أهتر الرجل في
الامر واشتهت فيه ، فهو مهتر ومستهتر اذا أوقع به وأفرط فيه . كأنه خرف .
(انظر اللسان - هتر) (٥) فتح القدير للشوكاني ٥/٣٠ (٦) معجم الشعراء ص ٤٢

وأخبار من القوم على أسراهم أجل من أن تحصر ، وأشعارهم في ذلك مثل أخبارهم وأكثر . وكان أشد فخار القوم في منتهى على أسراهم ، - شجاعة منهم كما قلنا وكرما - حين يكون الأسير سيدا من سادات قومه .

ومظهر الشجاعة في ذلك أن قتل زعيم القوم أشقى لصدور الرجال ، وأن في المن عليه صبرا وكظم غيظ لا يلقاها الا الأبطال . أما الكرم فليس بحاجة الى ايضاح ، اذ أن فداء الزعيم غير فداء الأسرى الآخرين .

ومن أمثلة ذلك ما فعله عمرو بن كلثوم ، بحذيفة بن بدر . فقد أغار عمرو في بني تغلب على بني ذبيان ، وأسر سيدهم حذيفة بن بدر هذا ، وناشده بنو تغلب في قتله فأبى ، وناشده حذيفة في فداء نفسه بألف ناقة حمراء سوداء المقللة فأبى . وقال : " أنت سيد من سادات مضر ، وأنا أحب الصناعات الى مثلك " ثم أطلقه ورده الى قومه . (١)

وفي ذلك يقول حذيفة : (٢)

إِنِّي لَمُتُّنَ وَإِنْ كَانَتْ عَشِيرَتُهُ
خَزْرَ الْعَيُونِ عَلَى عَمْرٍو بْنِ كَلْثُومِ (٣)
إِنْ قَامَ مِنْ جِشْمٍ عَزَلٌ تَنَاشَدُهُ
قَتْلِي وَتَأْمُرُهُ بِالذَّمِّ وَاللُّثُومِ
فَاخْتَارَ مِنْتَهُ عِنْدِي وَقَالَ لَهُمْ
كُفُّوا فَمَا مِنْ رَجَا عَفْوِي بِمَحْرُومِ

وكذلك فعل الأحنس بن شهاب التغلبي ، ببيزيد بن بدر الفزازي حين أسره ، في أحدايام بني تغلب على بني فزارة . وبذلت بنو فزارة في يزيد من الدية ألف بعيير ، وبعثوا بذلك وفوهم . فقال الأحنس : " ما الذي هذلتم في صاحبكم

(١) انظر الانوار ومحاسن الاشعار ١٥٧/١ (٢) المصدر السابق ١٥٨/١
(٢) الخزر كالمرض - كسر العين نظرها خلقة او اصطناعا ، وهو اخزر كأنه ينظر بموخر عينه وقوم خزر (اللسان خزر) .

بأغنى من ذباب خيلكم" ثم دعا بيزيد فمن عليه ، وأطلقه وحمله ، وكان قبل ذلك مكرماله . (١)

وفى ذلك يقول بيزيد : (٢)
 جَزَى اللَّهُ عَنِّي وَالْجَزَاءُ بِكَفِّهِ أبا الفمراً عني لأخس بن شهاب
 تَدَا رَكْنِي مِنْ بَعْدِ بَوْمِ بِنِعْمَةٍ وَكُنْتُ سَيْرًا فِي جَنَاحِ عُقَابِ
 وَقَدَّعَرَضْتُ ذُبْيَانُ الْفَا كَأَنَّهَا هَضَابًا جَا تَرَهَى بِأَرْضِ رَبَابِ
 فَقَالَ لَهُمْ رُدُّوا الْقِلَاصَ فَمَا الَّذِي بَدَلْتُمْ يَا عَنِّي مِنْ جَنَاحِ ذُبَابِ

وكذلك فعلت بنو عبد القيس ، حين أسروا ربيعة بن مقروم ، ثم منوا عليه وأطلقوه ، وكان من سادات مضر المشهورين ، ومن شعرائهم المعدودين (٣)

هذه وتلك ، هي بعض مظاهر الشجاعة والنجدة ، والفروسيّة والمروءة عند القوم ، وهي لم تكن - كما رأينا - بمعزل عن مظاهر الكرم والجود والسخاء ، بل انها كلها كانت عندهم أصناء . يتحلى بها فرسانهم وشجعانهم وكرماؤهم ، ويتفاخر بها زعماءهم وعظماؤهم وخطبائهم وشعراؤهم . يقول عنتره : (٤)

إِنَا قَنَعُ الْفَتَى بِنَمِيمِ عَيْشِي وَكَانَ وَرَاءَ سَجْفٍ كَالْبِنَاتِ
 وَلَمْ يَهْجُمْ عَلَيَّ سِدَا الْمَنَابِيَا وَلَمْ يَطْعَنْ صَدُورًا لِصَافِنَاتِ (٥)

(١) انظر الانوار ومحاسن الاشعار ١٧٧/١ (٢) الانوار ومحاسن الاشعار ١٧٢/١

(٣) انظر الشعر والشعراء ٣٢٠/١

(٤) ديوان عنتره ص ١٣٠

(٥) السَّجْفُ - كالسَّجْفِ ، والسَّجْفُ - كالسَّجْفِ : السَّجْفُ (اللسان سجف)

(٦) الصافنات الخيل ، جمع صافن . وهو من الخيل ما قام على ثلاث قوائم وقلب

الرابعة (انظر اللسان صفن)

وَلَمْ يَقِرَّ الضُّيُوفَ إِذَا أَتَوْهُ وَلَمْ يَرَوْا السُّيُوفَ مِنَ الْكَمَاةِ
وَلَمْ يَبْلُغْ بِضَرْبِ الْهَامِ مَجْدًا وَلَمْ يَكُ صَابِرًا فِي النَّائِبَاتِ
فَقُلْ لِلنَّائِبَاتِ مَا نَعْتَهُ أَلَا فَاقْصِرْنَ نَدْبَ النَّائِبَاتِ
وَلَا تَنْدَبْنَ إِلَّا لَيْثَ غَابِ عَجَا فِي الْحُرُوبِ الثَّائِرَاتِ

وتقول الخنساء: (١)

نَعْمَ الْفَتَى كَانَ لِلْأَضْيَافِ إِذْ نَزَلُوا
وَسَائِلِ حَلِّ بَعْدَ النَّوْمِ مَحْرُوبِ (٣)
كَمْ مِنْ مُنَادٍ نَعَا وَاللَّيْلُ مُكْتَنِعٌ
نَفَسَتْ عَنْهُ جِبَالُ الْمَوْتِ مَكْرُوبِ (٣)
وَمِنْ أَسِيرٍ بِالشُّكْرِ جَزَاكَ بِي——
بَسَاعِدَيْهِ كَلُومٌ غَيْرُ تَجْلِيهِ سَبِ (٤)
فَكَتَمَهُ ، وَمَقَالَ قَلْتَهُ حَسَنٌ
بَعْدَ الْمَقَالَةِ لَمْ تَوْبِنِ بِتَكْذِيبِ (٥)

فالبطل الشجاع ، عندعنتره ، يتحلى بصفات خاصة هي مزيج من القوة والكرم
والنجدة والمغامرة ، والصبر والجرأة والاقدام . وقد اجتمع أكثر هذه
الصفات لصخر بن عمرو أخى الخنساء . كما وصفته بذلك - بل وزاد صخر
بفصاحته فى المقال ، وفكه الأسرى من الأغلل .

*

(١) ديوان الخنساء ص ١٤ (٢) الحَرْب - كالمرض - أن يسلب مال الرجل ، فهو
محروب وحريب (اللسان - حرب)

(٣) المكتنع الحاضر ، واكتنع الليل إذا حضردنا (اللسان - كنع)

(٤) التجليين جفا لدم وببسه ، تقول جلب الدم وأجلب إذا ببس (انظر اللسان
جلب) (٥) الابن - كالعقل - الاتهام والغيب . تقول ابن الرجل يا بنه - كمنصره
ينصره - ويا بنه كيضره : اتهمه وعابه (اللسان - ابن)

(٣) الغيرة

كان العرب في الجاهلية يعدون المرأة ذروة شرفهم ، وعنوان عرضهم .
ولذلك فقد تفننوا في حمايتها ، والمحافظة عليها ، والدفاع عنها
زوجة وأما ، وابنة ، وأختا ، وقريبة وجارة - حتى يظل شرفهم سليما
من الدنس ، ويظل عرضهم بعيدا عن أن يمس .

ولم يكن شيء يثير القوم كالاغتداء على نسائهم أو المساس بهن . ولذلك
فقد كانوا يتجشمون في سبيل الدفاع عنهن كل صعب ، ويركبون اليه كل وعرة ،
ولا يرضون - تضحية في سبيل ذلك - بأى غال ، سواء من الأموال أو الرجال .
وأصدق تمثيل لحال القوم قول أبى الطيب المتنبي ، الذى كان كأنه
يعنيهم حين قال (١) :

يَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جِسْمُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ

ولذا فقد كانت الغيرة على الأعراض تولد مع القوم ساعة يولدون ، وتترعرع
في نفوسهم وهم يترعرعون . لاتجدهم يتشبثون منذ صغرهم بشيء من جايهاهم
الأخريات ، كتشبثهم بالغيرة ، وكأنهم أرضعوها فعلا مع لبان الأمهات
وكان للغيرة عندا لقوم مظاهر كثيرة ، منها حبهم لعفة النساء
عامة ، ونسائهم على وجه الخصوص . ومنها حبهم لحيائهن وتسترهن ووقارهن
ووفائهن .

ففي عفتهم يقول سويد بن أبى كاهل : (٢)

تَسْمَعُ الْحَدَاثَ قَوْلًا حَسَنًا لَوْ أَرَادُوا غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَمِعْ

ومثله قول الآخر: (١)

تُؤَلِّمُ بِمَعْرُوفِ الْحَدِيثِ وَإِنْ تُرَدِّ
سِوَى ذَاكَ تَذَعْرَمِينَكَ وَهِيَ نَعُورُ

ويقول عمرو بن كلثوم: (٢)

وَتُدْبِيًّا مِثْلَ حَقِّ الْعَاجِ رَحْصًا
حَصَانًا مِنْ أَكْفِ اللَّامِسِينَا

وفي حياتهن يقول النابغة الجعدي: (٣)

وَمِثْلُ اللَّحْمِيِّ شَمِّ الْعَرَانِيِّنِ سَاكِنٌ
بِهِنَّ الْحَيَاءُ لَا يَشْعُنُ التَّقَافِيَا (٤)

وفي تسترهن يقول الحطيئة: (٥)

وَلَمَّا رَأَتْ مَنْ فِي الرِّجَالِ تَعَرَّضَتْ
حَيَاءً وَصَدَتْ تَتَّقِي الْقَوْمَ بِالْيَدِ

ويقول النابغة: (٦)

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرَدِّ إِسْقَاطُهُ
فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وفيوقا رهن يقول أبو قيس بن الأثلث: (٧)

خَفِيضَةٌ أَعْلَى الصَّوْتِ لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ
وَيَكْرُمُهَا جَارَاتُهَا فَيُزِرُّ نَهَا
وَلَانِمَةٌ خَرَّاجَةٌ حِينَ تَظْهَرُ (٨)
وَتَعْتَلُّ عَيْنَايَا نَهْنٍ فَتَعْذُرُ

وفي وفائهن يقول علقمة: (٩)

مُنْعَمَةٌ لَا يَسْتَطَاعُ كَلَامُهَا
إِنَّا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تَفْشِ سِرُّهُ
عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَنْ تَزَارَرَ رَقِيْبُهُ
وَتُرْضِي يَابِلَ الْبَعْلِ حِينَ يَكُوبُ

(١) كتاب (فعلت وأفعلت) لأبي حاتم السجستاني ص ١٢٩ ، وقد عزاه المحقق

في الهامش إلى القلاخ بن حزن المنقري أو مبدول الغنوي

(٢) شرح القصائد التسع لأبي جعفر النحاس - القسم الثاني - ص ٦٢٢

(٣) ديوان النابغة الجعدي ص ١٨٠

(٤) التقافي البهتان . تقول قفوته أقفوه قفوا وتقافيا : رميته بأمر

قبيح (انظر اللسان قفا) (٥) ديوان الحطيئة ص ١٤٧

(٦) ديوان النابغة ص ٣٤ (٧) ديوان أبي قيس ص ٧٢ (٨) امرأة سلفع : سليطة

جريئة (اللسان سلفع) وامرأة نمة : لاتمسك لاحاديث ولا تحفظها (اللسان - نم)

والمخارجة والتخارج المناهدة والمشاجرة (انظر اللسان خرج)

(٩) ديوان علقمة ص ٣٣

وكان من مظاهر الغيرة عند العرب كذلك ستر النساء ، ومنعهن من الظهور على الرجال حتى إن بعضهم كان يمنع امرأته من الظهور على أقرب محارمها . قال الخالديان في الأشباه والنظائر : « ويقال انه لم يُرفى الدنيا رجل كان أغير من مالك بن طوق . تزوج امرأة من بنى تغلب . فجاء أخوها يزورها ، فأقام سنة حتى وصل اليمن أدّى رسالة اليها (١) ورغم ما في هذا الخبر من مبالغة ، إلا أن فيه دلالة على غيرة القوم الشديدة . وكان بعض القوم يتحول عن الحى غيرة على حريمه . وخشية أن يراه من بالحقى من الرجال . يقول الأعشى - يصف رجلا بتلك الأوصاف : (٢)

إِذَا نَزَلَ الْحَيْحُ الْجَحِيشُ حَرِيدًا مَحَلَّ غَوِيًا غِيورًا (٣)

وكانا لقوم يفخرون بذلك بالطبع - ، يقول الأئمة الأودى : (٤)

نُقَاتِلُ أَقْوَامًا فَنَسَبِي نِسَاءَهُمْ وَلَمْ يَرْدُو عَزْلِنِسْوَتِنَا حِجْلًا

وكان من مظاهر الغيرة عند لقوم أيضا خوض غمار الوغى من أجل نسايتهم ، وقراع الأبطال لمنعهن ، والتواصى بالدفاع عنهن . يقول عمرو بن كلثوم : (٥)

يَقْدُنْ جِيَادَنَا وَيَقْلُنْ لَسْتُمْ بَعُولَتْنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَابِقِينَا بِخَيْرِ بَعْلِهِنَّ وَلا حِينِنَا

(١) انظرا لاشباه والنظائر (٦٤/١)

(٢) اللسان - حرد ، والبيت فى ديوان الأعشى ص ١٤٣ بخلاف يسير فى الرواية .

(٣) الجحيش الشحى عن الناس (اللسان - جحر) ، والحريد المنفرد المنعزل ، تقول حرد الرجل يحرد حرودا - كنزل ينزل نزولا : اذا ترك قومه وتحول عنهم (انظرا للسان حرد)

(٤) الاغانى ثقافة - ١٦٥/١٢

(٥) شرح القوائد التسع لأبى جعفر النحاس - القسم الثانى ص ٦٧٥

ويقول عمرو بن معد يكرب: (١)
 لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا يَفْحَصْنَ بِالْمَعْزَاءِ شَدًّا
 وَبَدَتْ لِمَيْسِرُ كَأَنَّهَا بَدْرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَسَّدَى
 وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا الَّتِي تَخْفَى وَكَانَ الْأَمْرُ جَدًّا
 نَازَلْتُ كُبَيْشَهُمْ وَلَمْ أَرْمِنْ نِزَالِ الْكَبْشِ بَدًّا (٢)

ويقول لقيط بن يعمر: (٣)
 يَا قَوْمِ لَا تَأْمَنُوا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا
 عَلَى نِسَائِكُمْ كَسْرَى وَمَا جَمَعَا
 وَأَشْرُوا تِلَادَكُمْ فِي حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ
 وَحِرْزِ نِسْوَتِكُمْ لِأَتِهَلِكُوا هَلَعَا

ومن مظاهر الغيرة عند لقوم نارا الفداء . وذلك أن ملوكهم كانوا اذا سبوا
 من قبيلة ، وخرجت اليهم السادات والزعماء في الفداء والاستيهاب . كرهوا
 أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن ، وأما في الظلمة فيخفي قدر ما يستبقون
 لأنفسهم من الصفي ، (٤)

كما يخفي قدر ما يجودون به هنا ، ويطلقونه بلا فداء . وقدر ما
 يأخذون عليه الفداء . فكانوا يوقدون نارا يتبينون بها كل ذلك (٥)

- (١) ديوان عمرو بن معديكرب ص ٦٨ - ٦٩
 (٢) الفحص - كالضرب - عدة الطلب ، وعدة حفرا لارض (اللسان - فحص) ،
 والمعزاء - كالبيداء - الارض الخربة الغليظة ذات الحجارة ، والجمع
 أما عز ومعز ومعزوات . والمعز المكان الذي تلك صفته (انظر اللسان -
 معز) .
 (٣) انظر ديوان لقيط بن يعمر ص ٤٧ لسبيت الاول و ٤٥ لسبيت الثاني
 (٤) الصفي - كالقوى - هو ما كان يختاره الرئيس من المعتم وبصطفيه لنفسه
 والصفية كالبلية - مثله . والجمع صفايا (انظر اللسان - صفا)
 (٥) انظر في نارا الفداء نهاية الارب للنويري ١١٢/١ ، ونهاية الارب
 للقلقشندي ص ٤٦٣

وفى ذلك يقول الشاعر: (١)
رَسَاءُ بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أَوَارَةٍ عَلَى النَّارِ إِذْ تَجَلَّى لَهُ فِتْيَاتُهُمَا

على أن بعضهم كانت غيرتهم أشد من ذلك وأكرم ، إذ كانت تدفعهم الى عتقهن وحملهن الى أهلن . وهو كما ترى مزيج من الغيرة والشجاعة والكرم .

(٢) ذكر التاريخ أن علقمة بن سيف ، أحد زعماء تغلب وأشرافهم فى الجاهلية ، أغار على اخلاط تميم فلقيهم بسفح ^(٣) متالع ، فأصاب النساء والأموال والاسرى .

ثم انه أعتق النساء وحملهن الى قومهن قبل أن يصل الى بلاده . فقالت امرأة منهم تذكره: (٤)

جَزَى الرَّحْمَنُ عَلْقَمَةَ بْنَ سَيْفٍ عَلَى النَّعْمَاءِ خَيْرَ جَزَاءٍ مُثَابِ
جَزَرَتْ نَوَاصِيًا مِّنَّا فَرَا حَسَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ طَاهِرَةَ الثِّيَابِ
وَأَطْلَقَتِ الْعِنَاةَ وَكَانَ يَوْمًا يَغْصُ الشَّيْخُ مِنْهُ بِالْمُرَابِ

ولقد كانت الغيرة تبلغ ببعضهم حدا العصبية الشديدة ، فإمّا تزوجت بناته فى بنى عمهن ، والاعظمن ، وحرمن من الزواج . وكانت النساء فى ذلك يتعصبن كالرجال .

(١) نهاية الارب للنويرى ١١٢/١ (٢) انظر الاشتقاق لابن دريد ص ٣٣٧

(٣) متالع جبل بناحية البحرين - أى شرقى الجزيرة العربية - وبسفحه عين ماء . انظر اللسان (- تلع) ، ومعجم البلدان - متالع .

(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ١/١٦٧ - ١٦٨

خطب دريد بن الصمة الخنساء ، تماضرت عمرو فردته قائلة : (١)
 « أترانى تاركة بنى عمى كأنهم عوالى الرماح ، ومُرْتَثَةٌ شيخ بنى جشم » (٢)

قال عمرو بن لجأ : (٣)

لَيْنٌ آثَرَتْ بِالْوَدِّ أَهْلَ بِلَادِهَا عَلَى نَارِجٍ مِنْ أَرْضِهَا لَانَلُومُهَا

وقال الأصمى (٤) « قالت بنوعيسى : ما صبر معنا فى حربنا من النساء
 الابنات العَمِّ ، ومن الخيل الا لكُمْتُ (٥) ، ومن الابل الا الحُمُرُ »

هذا بالرغم من اعتقادهم أن اولاد بنات العم قديكونون أضعف من غيرهم

صحة ، وأقل نجابة . يقول شاعرهم : (٦)
 فَتَى لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمِّ قَرِيبَةٌ فَيَضُوى وَقَدِضُوى سَلِيلُ الْقَرَائِبِ (٧)

ويقول الآخر : (٨)

أُنْذِرْ مَنْ كَانَ بَعِيدَ الْهَمِّ تَزْوِيجِ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ

ومن مظاهر الفيرة كذلك عند العرب عدم رغبتهم فى أن تتزوج أراملهم من بعد موتهم . قال لحد بنى يشكر : (٩)

أَخْبِرِ بِالَّذِى تُرِيدِينَ بَعْدِي وَالَّذِى تُضْمِرِينَ يَا أُمَّ عَقْبَةَ
 تَحْفَظِينَ بِنِى بَعْدِ مَوْتِي لِمَا قَدْ كَانَتْ بِنِى مِنْ حَسَنِ خَلْقٍ وَصَحْبَةٍ (١٠)
 أُمَّ تُرِيدِينَ نَاجِمًا وَمَالًا وَأَنَا فِي التَّرَابِ فِي سُحْقٍ غُرْبَةٍ

(١) انظر الشعر والشعراء ١/٣٤٣ (٢) الرثا الخلق البالى من كل شىء ، والمرث

الجريح الميئوس منه ، فكأنها أرادت أنه لضعفه كذلك (انظر اللسان - رثت)

(٣) ديوان عمرو بن لجأ ص ١٤٦ (٤) اختيار الممتع ص ٥٧

(٥) الكمية صفة للذكور والانثى والجمع كمت ، والكمته لون بين السواد والحمرة

والعرب يقول الكمية أقوى الخيل وأشدها حوافر (انظر اللسان - كمت)

(٦) الاشياء والنظائر للخالديين ١/٢٢٨

(٧) الضوى - كالأذى - الهزال والضعف فى الجسم . تقول : ضوى ضوى ضوى

كعمى يعمى عمى فهو ضا وضاوى (انظر اللسان - ضوا)

(٨) الاشياء والنظائر للخالديين ١/٢٢٩ (٩) ذيل الامالى والنوادر ص ٢٠١

(١٠) اراد تحفظينى - على الاصل - ثم خفف للضرورة (انظر فى ذلك الاكسيري فى علم

التفسير - للطوفى - ص ٤٦ - ٤٧) .

وقال الخمر: (١)

أَفَاطِمُ إِنِّي هَالِكٌ فَتَأَيَّمِي وَلَا تَجْزَعِي كُلَّالنِّسَاءِ تَتِيَّمِي (٢)

ومن ذلك أيضا عدم رغبتهم في تزويج بناتهم . وخير مثال على ذلك الخبر الذي رواه أبو علي القالي في أماليه عن أحدهم . وكان له ثلاث بنات عضلهن ومنعهن الكفا .

فقلن لبعضهن : إن أقام أبونا على هذا الرأي ، فارقنا وقد نهب حظ الرجال

منا . ثم تواطأن ليطالعنَّه على ما في نفوسهن . فكان ما قالت الأولى : (٣)

أَيَزْجُرُ لَهَيْنَا وَنُلْحَى عَلَى الصَّبَا وَمَا نَحْنُ وَالْفِتْيَانُ إِلَّا شَقَائِبُ

وكان ما قالت الثانية :

أَلَا أَيُّهَا الْفِتْيَانُ إِنْ فَتَاتَكُم نَهَاها سَمَاعُ الْعَاشِقِينَ فَحَنَّتِ

وكان ما قالت الثالثة :

فَمَا هُوَ إِلَّا الْحِلُّ أَوْ طَلَبُ الصَّبَا وَلَا بَدِينَهُ فَأَتِيرَكِيهِ تَفْعَلُ

فلما سمع أبوهن ذلك ، وعرف تواطؤهن زوجهن . (٤)

وكانت الغيرة عند العرب على الأعراس كذلك من أسباب وأد البنات ، نقل

أبو حيان التوحيدي في «الامتاع والموانسة» عن أحد القضاة قوله : (٥)

(١) معجم مقاييس اللغة ١٦٦/١ - أيم

(٢) الأيامي - كاليتامي - الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء - والمفرد

أَيِّم - كئيب للرجل والمرأة . وأمت المرأة تئيم ايما - كباعت تبيع

بيعا - وأيوما - كوجوما وتأيمت : إذا مات زوجها أو قتل وأقامت لا

تتزوج . (انظر اللسان - أيم) .

(٣) صبا يصبو صبوةً وصبوا وصبوا . وتصابى تصابيا : هال إلى الجهل والفتوة

واللهو من الغزل - اللسان - صبا

(٤) انظر أمالي القالي ١٠٥/٢

(٥) هو القاضي أبو حامد المروري (ت ٣٦٢هـ)

« وكان وأد البنات عندهم أنفى للمعاير ، وأطرد للقبائح » (١)
 وذكر القرطبي في تفسيره أن من أسباب الوأد مخافة الحاجة والاملاق أو خشيعة
 السبى والاسترقاق . (٢)

وكانت المرأة في الجاهلية ، فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما ، « اذا
 حملت حفرت حفرة ، وتمخضت على رأسها . فان ولدت جارية رمت بها في الحفرة ،
 وردت التراب عليها . وان ولدت غلاما حبسته » (٣)

وفى ذلك يقول الراجز : (٤)

سَمِيَتْهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صَهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيَتْ (٥)

وخطب الى عقيل بن علقمة ابنته - وكان من أغير العرب - فقال : (٦)

إِنِّي وَإِنْ سِيقَ إِلَى الْمَهْرِ أَلْفٌ وَعَبْدَانٌ وَذُودٌ عَشْرٌ (٧)

أَحْبَابُهَا رِيٌّ إِلَى الْقَبْرِ

وكما كانت الفيرة تدفع الأزواج الى بغض وواج نسايتهم من بعد موتهم
 بتوصيتهم ، وأخذ العهد عليهن ، وتدفع الآباء الى بغض وواج بناتهم
 بوأهن أو عضلهم ، كانت كذلك تدفع الأبناء الى بغض وواج أمهاتهم الأراامل .

(١) انظر الامتاع والموانسة ٩٣/١

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣٣٢/١٩ (٣) تفسير القرطبي ٣٣٣/١٩

(٤) التقفية في اللفة ص ٢١٤

(٥) الزميت - كالحليم - والزميت - كالكبير : الحليم الساكن الوقور

والاسم الزماتة - كالشماتة - وقد تزمت فهو زميت (اللسان - زميت)

(٦) زهر الآداب ٤٨٤/١ ، وانظر تفسير القرطبي ١١٨/١٠

(٧) الذود من الابل هو القطيع من الثلاثة - الى العشرة (انظر أساس البلاغة ص ٢٠٩ ذود)

ذكر الجاحظ أن احداهن أرادت أن تزوج رجلا يسمى أوسا ، وكانت
أما لثلاثة فتية أكبرهم يسمى أوسا أيضا . فلما رأى الفتية الرجل بفناء

أمهم للخطبة قالوا :
 أم أَوْسٍ نَكَّحَتْ أَوْسًا أَعْجَبَهَا حِدَارَةٌ وَكَيْسًا (١)
 أَصَدَّقَ مِنْهَا لَجْبَةً وَتَيْسًا (٢)
 فلما سمع الرجل رجزهم هرب وترك أمهم لهم (٣).

ولعل من مظاهر الغيرة عند القوم أيضا الشك في نساءهم اذا ولدن لهم
بنين - يخالفون ألوانهم وأشكالهم . روى أبو عبيدة فيما ذكر القالسي
في أماليه - قال : " تزوج رجل من بنى عامر بن صعصعة امرأة من قومه ،
فخرج في بعض أسفاره ، ثم قدم وقد ولدت امرأته ، وكان خلفها حاملا .
فنظر إليها ابنه فاذا هو أحمر غضب ، (٤) أَرَبُّ الْحَاجِبِينَ (٥) . فدعاها
وانتضى السيف وأنشأ يقول : (٦)

لَا تَمْشِطِي رَأْسِي وَلَا تَفْلِينِي وَحَاذِرِي ذَا الرِّيقِ فِي يَمِينِي (٦)
وَأَقْتَرِبِي دُونِكَ أَخِيرِي نِي مَا شَأْنُهُ أَحْمَرُ كَالْهَجِينِ
خَالَفَ لَوَانَ بَنِي الْجُـ وَنِ (٧)

- (١) الحدارة والحدر : امتلاء الجسم بالفتوة والشباب مع جمال وصباحة .
تقول حدر يحدر كنصر ينصر - وحدر يحدر - كصعب يصعب - فهو حادر :
أي مبتلى ريان حسن لخلق جميل . (انظر اللسان - حدر) ، والكيس -
كالقتل - الخفة والتوقد والذكاء ، والفتنة (اللسان - كيس) .
(٢) واللجة واللجة واللجة واللجة واللجة : الشاة والمعزى
اذا قلَّ لبنها (اللسان - لجب) (٣) انظر البيان والتبيين ٤/٣٤-٣٥
(٤) الغضب - كالدر - الأحمر الشديد الحمرة ، وأحمر غضب : شديدا لحمرة
(اللسان - غضب) . (٥) الزيب كالقلق - طول الشعر وكثرته في الذراعين
والحاجبين والعينين (اللسان - زيب) (٦) الريق - كالسيل : القوة ، وفي
السيف اللعان والبريق (اللسان - ريق) (٧) الجون - كالكون - من الضداد ، فهو الأسود والابيض والأحمر . وجمع ذلك
كله جُون - بالضم (انظر اللسان - جون) .
(٨) انظر هذا الخبر في أشعار النساء للعرزباني ص ١٢٥

فقال تجيبه :

إِنَّ لَهُمْ مِنْ قَبْلِي أَجْدَادًا بِيضَ الْوَجُوهِ كَرَمًا أَنْجَادًا (١)
مَا ضَرَّهُمْ إِنْ حَضَرُوا مَجَادًا أَوْ كَافَحُوا يَوْمَ الْوَعَى الْأَنْدَادًا
أَلَا يَكُونُ لَوْنِهِمْ سَكْوَادًا

تلك أمثلة على بعض مظاهر الفيرة عند العرب في الجاهلية ، ونقول بعض مظاهرها ، لأن استقصاء كل مظاهرها عسير . فقد كانت الفيرة من أهم سجايا القوم ، وكانت تتمثل فيهم جميعا ، من الشمال الى الجنوب . بل وكانت تقوم بسببها كثير من المعارك والحروب

ذكر المورخون أن سبب حرب الفجار الأولى بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان - أن فتية من قريش وبنى كنانة تحرشوا بامرأة من بنى عامر ، من قيس عيلان ، فى سوق عكاظ ، فصاحت : يا آل عامر ! فثار القوم وحملوا لبعضهم السلاح ، وجرى بينهم القتال . ووقعت بينهم دماء . (٢)

لقد كان القوم - لغيرتهم الشديدة - يستهينون بكل غال . وذلك فى سبيل الدفاع عن أعراضهم . وما كان أسرع أن يُحمل السلاح وينشب القتال وتُراق الدماء ، حتى وان كان السبب - كما رأينا - عبث بعض الصبية ، أو تصرف بعض السفهاء .

تلك هى الخلال الحميدة التى اجتمع عليها العرب فى الجاهلية ، أو كادوا ، وهى الكرم والشجاعة والفيرة . فماذا كان عندهم غيرهن من الخلال والقيم والمكارم ؟! ذلك ما نود أن نبينه - باذن الله - فى الفصل القادم .

(١) الكرم - جمع كريم ، كاللأم جمع أديم والعمد جمع عمود (انظرا للسان - كرم) والانجا بجمع نجد - كدرب ، أو نجد - كظن - وهو الرجل السريع النجدة والشديدا لبأس (انظرا للسان - نجد)
(٢) انظرا لاغانى - دار الثقافة ٦٢/٢٢ ، والكامل فى التاريخ لابن الاثير دار صادر وبيروت ٥٨٨/١ - ٥٨٩

الفصل الثاني

—

القيم الرفيعة والخلال الحميدة الأخرى
في الشعر الجاهلي

الفصل الثاني

القيم الرفيعة والخلال الحميدة الأخرى في الشعر الجاهلي

رأينا في الفصل السابق ، كيف أن العرب في الجاهلية . كما يبدو من أشعارهم وأخبارهم - قد اجتمعوا - أو كادوا - على خلال بعينها ، هي الكرم والسجاعة والغيرة . ولكن كثيرا من القوم ، كانوا يتحلون بخلال أخرى تعدن قيمهم ومآثرهم . فما هي تلك الخلال ، وكيف صورتها أشعارهم ! هذا هو ما نود أن نعرض له في هذا الفصل .

العفة ..

كانت العفة بأنواعها من أهم تلك الخلال ، فعفة في المطاعم والأموال ، وعفة في المغانم ، وعفة في النظرات والشهوات . أما تلك التي في المطاعم والأموال ، فيمثلها قول أبي قيس - ابن الأثلث : (١)

وَإِنْ أَنْتُمْ أَمَعَرْتُمْ فَتَعَفَّفُوا وَإِنْ كَانَ فَضْلُ الْخَيْرِ فِيكُمْ فَأَفْضِلُوا

كما يمثلها قول الحادرة : (٢)

إِنَّا نَعِفُّ فَلَا نَرِيبُ حَلِيفِنَا وَتَكْفَشِحُ نَفْسِنَا فِي الْمَطْعَمِ

(١) ديوان أبي قيس ص ٨٣

(٢) ديوان الحادرة ص ٥١

وقد كانت العرب تتماح بذلك وتتندر به . قال قتيبة بن مسلم لأعرابي نزل به : (١) أي بيت قالته العرب أعف؟! قال : قول طفيل الغنوي :

وَلَا كُونَ وَكَأَنَّ الزَّادِ أَحْبَسَهُ
لَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ الزَّادَ مَا كَوَّلُ (٢)

(٣)

فأما عفة القوم في المعانم فيمثلها قول عمرو بن كلثوم :

فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا
وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفِّدِينَ (٣)

كما يمثلها قول عنتره : (٤)

هَلَا سَأَلَتِ الْخَيْلُ يَا ابْنَةَ مَا لِيكَ
يُخْبِرُكَ مِنْ شَهْدَا لَوْ قِيعَةَ أَنْ نَسِي
فَأَرَى مَعَانِمَ لَوْ أَشَاءُ حَوَيْتَهَا
وَيَصْدُنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرَمِي
أَنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
أَغْشَى الْوَعْدُ وَأَعْفُ عِنْدَا لِمَنْعَمِ

على أن فخار القوم بعفتهم في الأموال والعنائم ، لا يقاس إذا ما قورن
بفخارهم بغض الأبصار عن المحارم ، وحفظ النظرات عن الجارات ، والتعفف عن
الشهوات .

تقول الخنساء : (٥)

وَلَا يَقُومُ إِلَيَّ بِنِ الْعَمِّ يَشْتَمُهُ
وَلَا يَدِبُّ إِلَيَّ الْجَارَاتِ تَخْوِيئًا (٦)

ويقول حاتم الطائي : (٧)

لَا نَطْرُقُ الْجَارَاتِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ
وَلَا يَلْطَمُ ابْنُ الْعَمِّ وَسْطَ بَيْوتِنَا
مِنَ اللَّيْلِ الْإِبَاءَ الْهَدِيَّةِ تَحْمَلُ
وَلَا تَنْصَبِي عَرْسَهُ حِينَ يَغْفُلُ

(١) انظر الاغانى - دار الثقافة - ٢٨١/١٥
(٢) الموكاء - كالوعاء - هو كل سير او خيط يشد به السقاء أو الوعاء (انظر تهذيب اللغة ١٠/٤١٥) . (٣) شرح المعاني لسبع للزوزنى - دار مكتبة الحياة ص ٢٦٨ . (٤) ديوان عنتره ص ٢٨-٢٩
(٥) ديوان الخنساء ص ٤٠ (٦) التخييد: سرعة السير (انظر اللسان - خود)
(٧) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٧٦ .

(١)

ويقول :

وَجَارَتِهِمْ حَصَانٌ مَا تَزَنِّي ^{وَوَه} وَطَاعِمَةُ الشِّتَاءِ فَمَا تَجُوعُ

ويقول أيضا: (٢)

إِذَا مَا بَيْتٌ أَخْتَلُ عَرَسَ جَارِي ^{وَوَه} لِيُخْفِيَنِي الظَّلامُ فَلَا خَفِيَّتُ
أَأَفْضَحُ جَارَتِي وَأَخُونَ جَارِي ^{وَوَه} فَلَا وَاللَّهِ أَفْعَلُ مَا حَيِيَّتُ

وكما كان حاتم لا يطرق أبواب جيرانه في الليل ، الا ليغذوهم ويطعمهم ويهدى اليهم ، فكذلك كان يفعل عنتره ، مع احتراسه بضرورة وجود الجار

نفسه في البيت . يقول : (٣)

أَغْنَى فِتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِيهَا ^{وَوَه} وَإِذَا غَزَا فِي الْحَرْبِ لَا أَغْشَاهَا

وكما كان حاتم أيضا لا يتصّبى عرس جاره أو قريبه ، فكذلك كان يفعل

الطفيل الغنوى ، مع الاتفاق في دعوة كل منهما على نفسه بالهلاك اذا فعل

ما يرييب .

يقول طفيل : (٤)

وَلَا أَخَالَفُ جَارِي فِي حَلِيلَتِهِ ^{وَوَه} وَلَا ابْنَ عَمِّي ، غَالَتْنِي إِذْ نَزَعْتُ

ان الدبيب الى جلائل القوم ، البعيد منهم والقريب ، والصديق والغريب ،

والحريد الفريد أو الجار ، كان يعده القوم خسة أي خسة ، ونقيصة أي نقيصة ، وعارا أي عار .

يقول النمر بن تولب : (٥)

وَلَا لِبُعِيدِنَوِي عَنِّي وَلِجَارِي ^{وَوَه}
لَقَدْ مَضَى نَمْرُ عَارٍ مِنْ الْعَارِ ^{وَوَه} حَتَّى يُقَالَ لَنَا وَرَبِّتُ فِي جَدْنِي

(١) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت ص ٦٧ (٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) ديوان عنتره ص ٨٦ (٤) ديوان طفيل الغنوى ص ٥٨

(٥) ديوان النمر بن تولب ص ٦٦

غض البصر من العفة :

ليس هذا وحسب ، فان مخالطة المحارم من النساء ، والدبيب اليهن ،
قد يترفع عنه أكثر الناس لعفة أولخشية . أما كشف أستارهن بجـارح
النظرات ، وهتك أعراضهن بخائنة الأعين ، وفضح أسرارهن باستراق السمع
اليهن ، والتلذذ بأحاديثهن ، فلا يترفع عنه الاغيف ، ولا يتسامى عنه الا
شريف .

(١) وما أجمل قول عروة بن الورد في ذلك :

وَإِنْ جَارَتِي أَلُوْتُ رِيَّاحَ بَيْتِهَا تَخَافْتُ حَتَّى يَسْتَرِ الْبَيْتَ جَانِبَهُ

وكذلك قول عنتره: (٢)

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَا وَاهَا

وأيضاً قول قيس بن الخطيم: (٣)

وَمَا لَمَعَتْ عَيْنِي بِغِرَّةِ جَارَتِي وَلَا وَنَعَتْ بِالذَّمِّ حِينَ تَبَيَّنَ

وأجمل من ذلك كله قول حاتم: (٤)

وَمَا ضَرَّ جَارًا يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ فَأَعْلَمِي يُجَاوِرُنِي إِلَّا يَكُونُ لَهُ سِتْرٌ
بِعَيْنِي عَنْ جَارَاتِ قَوْمِي غَفْلَةً وَفِي السَّمْعِ مِنِّي عَنْ حَدِيثِهِمْ وَقَسْرٌ

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٣٠ (٢) ديوان عنتره ص ٨٦

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٠٧

(٤) ديوان حاتم - دار صادر وببيروت - ص ٥١

الترفع عن الدنيا من العفة :

ولم تقتصر خلال القوم الحميدة على العفة في المطاعم والمغانم والنساء ،
ولكن كان منهم من اعتف عن الدنيا ، أي الدنيا ، وترفع عن الغباثت أي الخبائث .
فهذان الأسم الكلبى والمثقب العبدى ، يتصامان عن الخنا وعن البذى من
القول .

يقول الأسم : (١)

أَسْمُ عَنِ الْخَنَا إِنْ قِيلَ يَوْمًا وَفِي غَيْرِ الْخَنَا أَلْفَى سَمِعًا

ويقول المثقب : (٢)

وَكَلامِ سَيِّئٍ قَدْ وَقُرْتُ عَنْهُ أَذْنَاىَ وَمَا بَى مِنْ صَمِّمٍ

وهذا عمرو بن معد يكرب يربأ بنفسه عن الخلاق الفاحشة ، فهو ماجده من
قوم أماجد

يقول : (٣)

وَأَوَى إِلَى فَرْعِ جَرْتُومَةٍ وَعَزَّ يَفُوتِ يَدِ النَّاهِشِ
تَمَتَّعْتُ ذَاكَ وَكَنتُ أَمْرًا أَصْدُ عَنِ الْخَلْقِ الْفَاحِشِ

وهذا عمرو بن الأهتم ، يعتف قومه عن الخبيث كله - حتى وان عظم الفقر
والجوع .

يقول : (٤)

أَنَا بَنُو مَنْقَرٍ قَوْمٌ ذُوو حَسَبٍ فِينَا سِرَاةُ بَنِي سَعْدِ وَنَادِيهَا
جَرْتُومَةٌ أَنْفٌ يَعْتَفُ مَقْتَرَهَا عَنِ الْخَبِيثِ وَيُعْطَى الْخَيْرَ مُثْرِيهَا

(١) معجم الشعراء ص ٢٥٨ (٢) ديوان المثقب ص ٣٣٠

(٣) الاصمعيات ص ١٧٨ (٤) تاج العروس - عف

تحريم الخمر من العفة :

ولعل من أهم مظاهر العفة عند بعض القوم ، والترفع عن الخبائث (١)
ودنايا الأمور ، تحريمهم على أنفسهم شراب الخمر . يقول عفيف بن معد يكره

وَقَاتِلَقِ هَلْمِ إِلَى التَّمَايِسِ فَقَلَّتْ عَفْفَتِ عَمَّا تَعْلَمِينَ نَا
وَوَدَعْتُ الْقِدَاحَ وَقَدْ أُرَانِي بِهَا فِي النَّهْرِ مَشْغُوفًا رُهَيْنَا
وَحَرَمْتُ الْخَمْرَ عَلَى حَتَّى أَكُونَ بِقَعْرِ مَلْحُودٍ دَفِينَا

قال ابن حبيب في المحبر : " وبهنا سمي عفيفا ، وكان اسمه شراحيل " (٢)

ويقول قيس بن ضبابة الكنانى : (٣)

رَأَيْتُ الْخَمْرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا خِصَالُ كُلِّهَا دَنَسٌ نَمِيمٌ
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي طَوَالَ النَّهْرِ مَا طَلَعَ النَّجُومُ

ويقول صفوان بن أمية : (٤)

رَأَيْتُ الْخَمْرَ صَالِحَةً وَفِيهَا مَنَاقِبُ تَفْسِدُ الرَّجُلَ الْكَرِيمَا
فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي وَلَا أَشْفِيهَا أَبَدًا سَقِيمَا

وكيف لا يحرم العقلاء من القوم الخمر ، وقد عاقروها فعرفوا مفاصلها ،
وشربوها فاستيقنوا من خبائثها ! فهي - كما يقول عامر بن الظرب العدواني (٥)

(١) أمالي القالي ٢٠٥/١ ، وانظر كذلك اختيار الممتع في علم الشعر وعمله

ص ٦٣ (٢) المحبر لابن حبيب ص ٣٣٩

(٣) معجم الشعراء ص ٤٣٤ (٤) أمالي القالي ٢٠٤/١

(٥) المحبر لابن حبيب ص ٣٣٩ ، وانظر أمالي القالي ٢٠٤/١

سَأَلَتْ لِفَتَى مَا لَيْسَ فِي يَدِهِ نَهَابَةً بِعُقُولِ الْقَوْمِ وَالْمَالِ
بل انها تفعل أكثر من ذلك ، ان تُدَنِّيَ الكَرِيمَ ، وَتُسَفِّهِ الحَلِيمَ ، وتجعل
الماجد كاللئيم ، والصحيح كالسقيم . يقول عبدالله بن جدعان : (١)

شَرِبْتُ الخَمْرَ حَتَّى قَالَ صَاحِبِي : أَلَسْتَ عَنِ السَّفَاوِ بِمُسْتَفِيهِ
وَحَتَّى مَا أَسَدُ فِي مَنْامٍ أَنَا مُبِهُ سَوَى التُّرْبِ السَّحِيهِ
وَحَتَّى أَغْلِقَ الحَانُوتَ رَهْنِي وَأَنْكَرْتُ لَعْدُومِنَا لَصَدِيهِ

بل ان الخمر تفعل بشاربها أكثر من ذلك ، ان يصبح يتعثر في مشيه
تعثر العرجان ، ويصبح لا يميز حجاما من الحجوم أولونا من الألوان .

يقول عمرو بن قميئة : (٢)
فَأَوَّلَ اللَّيْلِ فَتَى مَا جَسَدُ وَأَخِرًا لِلَّيْلِ ضِبْعَانِ عَنُورُ
قَاتَكَ اللَّهُ مِنْ مَشْرُوبَةٍ لَوْ أَنَّ ذَا مِرَّةٍ عَنكَ صَبُورُ

ويقول امرؤ القيس : (٣)
وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسَبَ الخَيْلَ حَوْلَنَا نِقَادًا وَحَتَّى نَحْسَبَ الجُونَ أَشْقَرًا (٤)

وليت الأمر يقف بالشاربين عند التعثر وعدم التمييز ، ان كان هيناً ،
ولكن الخمر تفعل بالسكارى أكثر من ذلك بكثير . ان تجعلهم أمواتا وهم أحياء ،
وتقتلهم من غير أن تسيل لهم دماء .

(١) المحبر لابن حبيب ص ٢٤٠ (٢) ديوان عمرو بن قميئة ص ١٢٦ - ١٢٧
(٣) ديوان امرؤ القيس ص ٧١ (٤) النقاد - كالعباد ، والنقد -
كالذهب - صفار الفنم (انظر للسان - نقد ، وأساس البلاغة - ص ٦٥٠ - نقد)
وشى جُون - بالفتح - أسود فيه حمرة . والجمع جُون - بالضم - (انظر أساس
البلاغة - ص ١٠٦ - جون) .

يقول زهير فيهم: (١)

أَمْشَى بَيْنَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نَفُوسُهُمْ وَلَمْ تَقْطُرْ بِمَاءٍ

لهذا وذاك ، حرم العقلاء من العرب في الجاهلية ، شرب الخمر . وافتخروا بذلك كما رأينا ، وتماحوا به كذلك . قال زهير: (٢)

أَخِي ثِقَةٌ لِاتِّهَلِكُ الْخَمْرُ مَا لَهُ وَلَكِنَّهُ قَدِيهِلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ

الصدق :

ومن خلال الحميدة عند القوم كذلك ، الصدق والوفاء . أما الصدق ، فقد جعلوه سجية اللبيب الماجد ، كما جعلوا الكذب من صفات الدنيي الخائب يقول طرفة: (٣)

وَالصِّدْقُ يَأْلَفُهُ اللَّيِّبُ الْمُرْتَجَى وَالْكَذِبُ يَأْلَفُهُ الدُّنْيِيُّ الْأَخِيْبُ

وكان مما كتب أكرم بن صيفي ، إلى الحارث بن أبي شمر الفسائي، قال :
" وشر الخصال الكذب " (٤)

وتواصى القوم بالصدق ، وتناهوا عن الكذب جاعلين ذلك من كريم خلائهم

وحميد خصالهم : فقال عدي بن زيد: (٥)
إِنَّا أَنْتَ فَأَكْهَنُ الرِّجَالِ فَلَاتَلْعَ وَقُلْمِثْلَمَا قَالُوا وَلَا تَفْرِيزِيدِ (٦)

(١) ديوان زهير ص ٣٣ (٢) ديوان زهير ص ١٤١

(٣) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١٠٨ (٤) المعمرين والوصايا ص ٣٣

(٥) جمهرة أشعار العرب ٤٩٧/٢

(٦) الولع - كالضرب - الكذب ، تقول ولع يلع ولعا - كفتح يفتح فتحا - وولعانا - كغليان - : انا كذب . (انظر اللسان - ولع) .

وقال زهير : (١)

وَفِي الْجِلْمِ إِهْمَانٌ وَفِي الْعَفْوِ دَرَبَةٌ وَفِي الصِّدْقِ مَنَاجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ فَاصْدُقْ (٢)

ووقف على مجلس لقمانا لحكيم يوما رجل فقال له : أأست الذي كنت ترعى معى فى مكان كذا وكذا ؟! قال لقمان : بلى . قال الرجل : فما بلغ بك ما أرى ؟! قال : « صِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ، وَالصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْنِينِي »

وحفظ العرب هذا القول ، وتندروا به وتناقلوه . (٣)

وآثر القوم الصدق حتى فى أشعارهم . اذ يقول شاعرهم : (٤)

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

قلة الحلف والبر باليمين :

ومن خلال القوم الكريمة أيضا قلة الحلف ، والبر بأيمانهم اذا حلفوا . قال الشوكانى فى فتح القدير : « وقد كانت العرب تتماح بقلة الأيمان ،

حتى قال قائلهم :
قَلِيلُ الْأَيِّمِ حَافِظٌ لِيَمِينِهِ وَإِنْ نَدَرْتَهُ مِنَ الْإِيَةِ بَسْرَتِ (٥)

(١) ديوان زهير ص ٢٥٢ (٢) الايمان : اللين والمصانعة (اللسان - نهن) والدرية - كالبردة : الضراوة والجرأة (اللسان - درب)
(٣) انظر اللسان - لقم (٤) ينسب لطرفة فى ديوانه طبع القاهرة ص ٢١٦ وينسب لأحدبى أشجع فى الموتلف والمختلف ص ٨٢ ، وينسب لسان فى العمدة ١١٤/١ وهو فى ديوانه ص ١٦٩ (٥) انظر فتح القدير ١/٣٣٠ ، والبيت فى اللسان - ألا - وروايته فيه : وانسبقت منه الآية . والآية - كالبلية - والآلوه كالخطوة - والآلوه كالمرؤة - والآلوه بالكسر اليمين ، والجمع آليا (اللسان - ألا) .

الوفاء :

أما الوفاء ، وهو من السجايا الكريمة التي انتشرت بين القوم - فقد كان متعدد الأشكال والالوان ، فوفاء لمن يجاورون ، ووفاء لمن يعاهدون ، ووفاء لمن يحبون ، ووفاء لمن يصطفونهم لثقتهم ويختصونهم لأماناتهم ، ووفاء لمن يصطنعون لديهم معروفا ، ووفاء بأى عهد، وبأى ميثاق .

فأما وفاؤهم لجيرانهم ، فليس أدل عليه مما رأيناه فى الفصل السابق من شفهم بحماية الجار ، واعزازه ، واكرامه واطعامه ، حتى كانوا - كما قال امرؤ القيس : (١)

فَقَدْ أَصْبَحُوا وَاللَّهِ أَصْفَاهُمْ بِهِ أَبْرَ بَيْثَاقٍ وَأَوْفَى بَجِيرَانِ
وحتى أصبح جارهم أمينا على نفسه وماله .. يقول سويد بن أبي كاهل : (٢)

لَا يَخَافُ الْغَدْرَ مَنْ جَاؤَهُمْ أَبَدًا مِنْهُمْ وَلَا يَخْشَى الطَّبْعَ (٣)
ويقول قيس بن الخطيم : (٤)

وَهَلْ يَحْذَرُ الْجَارَ الْغَرِيبَ فَجِيعَتِي وَخَوْنِي وَبَعْضَ الْمُقْرِفِينَ خْتُونِ (٥)
وأما وفاؤهم لمن يعاهدون ، فأمثلته كثيرة ، ومنها قول عدى بن زيد : (٦)

وَمَا خَنْتُ ذَا عَهْدٍ وَأَبْتُ بَعْدَهُ وَلَمْ أَحْرِمِ الْمَضْرِبَ إِذْ جَاءَ قَانِعًا (٧)
ومنها قول الحطيئة : (٨)

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبَنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدَّوْا
ومنها قول عمرو بن كلثوم : (٩)

- (١) ديوان امرؤ القيس ص ٨٤ (٢) المفضلية رقم ٤٠
(٣) الطبع العيب والدنس ، والتغير (انظر اللسان - طبع)
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٠٢ (٥) القراف - كالقتال - ، والمقارفة : المخالطة (اللسان - قرف) (٦) الاضداد للاصمعي ص ٤٩ ، وهوفى الاضداد لابن السكيت ص ٢٠٢ وصدرة فيه : وَمَا خَنْتُ ذَا وَصَلٍ وَأَبْتُ يَوْمَئِذٍ .
(٧) أب بالعهد : خانه ونهب به . من أبى شمس أى غابت (انظر اللسان - أب) ، والقنوع كالأقنوع - السؤال ، والقانع : السائل ، وقنع اليه : سألته . من قنعت الماشية للمرتع : أى مالت اليه (انظر اساس البلاغة ص ٥٢٤ - قنع)
(٨) ديوان الحطيئة ص ١٤٠ (٩) شرح القصائد التسع لأبى جعفر النحاس - القسم الثانى ص ٦٥٨ .

على أن خير مثال على رعاية بعض القوم لأماناتهم ، ووفائهم بعهودهم ،
حديث عبد الله بن جُدعان . وكان أحد كبار سادات قريش في الجاهلية ، وأحد
كبار حكمائها وكرمائها وأثريائها . (١)

وكان من وفائه أن العرب كانت إذا قدمت عكاظاً ، دفعت أسلحتها إليه حتى
يفرغوا من أسواقهم وحجهم . ثم يرها عليهم إذا ظعنوا من مكة إلى مزارب
أقوامهم .

فلما هاجت حرب الفجار بين كنانة وهازن ، جاء حرب بن أمية - أحد
سادات قريش - إلى عبد الله بن جُدعان ، وقال له : احتبس قبلك سلاح هوازن .
فقال له ابن جُدعان : أبا الغدر تأمرني يا حرب !! والله لو أعلم انه لا يبقى
منها سيف الأضربُ به ، ولا رمح الاظننتُ به ، ما أمسكتُ منها شيئاً . (٢)

إن أداء الأمانة عند القوم ، كان من أعظم مظاهر الوفاء ، ولذا فقد كانوا
يتفاخرون بذلك - تفاخرهم بأكرم الخلال . يقول النابغة : (٣)

سَأرعى كُلَّ مَا اسْتَوْبِعْتُ جُهْدِي وَقَدِيرَعَى مَانَتِهِ الْأَمِيهِ (٤)
ويقول زهير : (٥)

وَحَفِيظِي لِلْأَمَانَةِ وَأَصْطَبَارِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ رَبِّبِ الزَّمَانِ (٦)

وأما وفاء العرب لمن كان يصطنع اليهم معروفاً ، فخير أمثلته حديث دريد
ابن الصمة ، مع ربيعة بن مُكِّم - أحد زعماء بنى فراس من كنانة - ، وكان
فرساناً من جشم ، ومعهم دريد ، قد عرضوا لربيعة بن مكدم ومعه طعينته .
فقارعهم ربيعة حتى صرعهم . ودريد ينظر معجباً ، فلما أدركه وجد رمحه
قد كسر من مقارعة الفرسان ، فأعطاه رمحه ، وعاد ليضمد فرسان بنى جشم
ويوارى صرعاهم .

(١) انظر نسب عدنان زوقحطان للمبرد ص ٢٢ (٢) انظر الاغانى - دار الثقافة ٦٦/٢٢

(٣) ديوان النابغة ص ٢٥٧ (٤) الجهد كالدرج ، والجهد كالدهن : الطاقة

(انظر اللسان جيد) . (٥) ديوان زهير ص ٣٤٨
(٦) الريب - كالسيب والعيب : صرف الدهر ، والجمع : ريب - كعقوب - (اللسان
ريب) .

ثم لم يلبث بنو كنانة ، رهط ربيعة بن مكدم ، أن أغاروا على بنى جشم ، فقتلوا وانتصروا وغنموا وأسروا . وكان دريد بن الصمة من بين أسراهم ، فأخفى نسيبه . فبينما هو عندهم محبوس ، إذ جاءت نسوتهم يتهادين إليه ، فلما رأينه صاحت احداهن : هلكتم وأهلكتم . ماذا جر علينا قومنا !! هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة .

ثم ألفت ثوبها عليه وقالت : يا آل فراس . . أنا جارة له منكم . هذا صاحبنا يوم الوادي . وأنشدت :

سَجَزِي دُرَيْدًا عَنْ رَبِيعَةَ نِعْمَةً وَكُلُّ امْرِيٍّ يُجْزِي بِمَا كَانَ قَدَمًا

وكانت تلك المرأة ، هي الظعينة التي كانت مع ربيعة بن مكدم يوم ناك . فلما أصبح القوم أطلقوا دريدا ، فكسته الظعينة ، وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافا عن حرب بنى فراس حتى هلك . (١)

وهكذا كان القوم قد أغرموا بالوفاء ، حتى لم يكن المرء منهم ينقض ما عقد ، خشية العار ، وما كان أبغضهم للعار . وقد وفى بعضهم حتى بالكلمة ينطقها ، وإن كان فى الوفاء بها ألم نفسه ، وعدم شفاء غيظه .

ذكر ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، أن الحارث بن عباد - أحد زعماء بكر بن وائل ، أسر مهلهلا - زعيم تغلب - فى أحد أيام حرب البسوس ، وهو لا يعرفه . وكان مهلهل قد قتل بجير بن الحارث بن عباد . فقال له الحارث تدلنى على ربيعة بن عدى المهلهل وأنت آمن ؟! فقال المهلهل : إن دلتك على عدى ، فأنا آمن ولى ندى ؟! قال : نعم . قال للمهلهل : فأنا عدى . فجزنا صيته وخلاه .

وفى ذلك يقول الحارث: (١)
لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِفْ عَدِيًّا إِذْ أَمَكَّنْتَنِي الْيَدَانِ

الى هذا الحد كان العرب فى الجاهلية ، قد عشقوا الوفاء ، وكرهوا الفـدر ،
بل وتندروا بشيم الأوفياء ، ومدحهم ، وشهروا بالفادرين وفضوهم .

وكان من وسائل تشهيرهم بأهل الغيرة ، أنهم كانوا اذا غدر أحدهم
بجاره ، أو قدوا له نارا بيمنى أيام الحج ، على جبل من جبالها ، ثم صاحوا :
هذه غدره فلان . وفى ذلك تقول امرأة من بنى هاشم: (٢)
فَإِنْ نَهَيْكَ فَلَمْ تَعْرِفْ عُقُوقًا وَلَمْ تُوقِدْنَا بِالْغَدْرِ نَارًا

حفظ السر:

وكان من جبايا القوم الحميدة أيضا حفظ السر وكنمه . يقول مصرف بن الأعلم: (٣)
فَأَيْدِيَّ وَمَا لَكَ لِلصِّدِّيقِ وَلَا تَضَعِ سِرَّ الْأَمِينِ وَكُنْ كَذَلِكَ تَصْنَعُ

وتقول أم الضحاك لمحاربة: (٤)

يَقُولُ خَلِيلُ النَّفْسِ أَنْتِ مُرِيْبَةٌ كَلَانَا لِعَمْرِي قَدْ صَدَقْتَ مُرِيْبٌ
وَأَرْيَبْنَا مِنْ لَا يُوْدَى أَمَانَةً وَلَا يَحْفَظُ الْأَسْرَارَ حِينَ يَغِيْبُ

ويقول قيس بن الحداينة الخزاعي: (٥)

وَلَا يَسْمَعُنَّ سِرِّي وَسِرِّكَ نَالِيَةً أَلَّاكُلُ سِرِّ جَاوِزَانِيْنِ شَائِعُ

(١) انظر الشعر والشعراء ٢٩٨/١ (٢) انظر نهاية الارب للنويرى ١١٧/١

(٣) معجم الشعراء ص ٣٠٧ (٤) الامالى لابى على لقالى ٨٧/٢

(٥) معجم الشعراء ص ٢٠٢

وكان القوم مولعين بأن تظل أسرارهم دفيننة لا تشيع ، لافى الأقارب ولا

فى غيرهم .

يقول تميم بن مقبل : (١)

وَلَقَدْ أَرَانَا لِأَيْشِيعُ حَدِيثُنَا فِي الْأَقْرَبِينَ وَلَا لِي الْجَنَابِ

كما كانوا يعدون حفظ السر أمانة ، لا يلبق بالكرام أن يضيعوها ، مهما طال

عليها الزمن ، ومهما تجشموها فى حفظها من الصعاب .

يقول قيس بن الخطيم : (٢)

يَا عَمْرُو أَوْ تَسِدِ الْأَمَانَةَ بَيْنَنَا فَأَنَا الذِّبَانُ خَنْتَهَا يَرَعَاهَا
يَا عَمْرُو وَلَيْسَ أَخُو الْأَمَانَةِ بِالَّذِي مَارَاهُ مِنْ خَطَّةٍ أَفْشَاهَا
يَا عَمْرُو إِنَّ أَخَا الْأَمَانَةِ كَأَيْسَمٍ لَوْ يَسْتَطِيعُ بِجِلْدِهِ أَخْفَاهَا

وكانا لقوم يخشون من ذبوع الاسرار - غير الهوان بهتك الحجب والأستار -

تزييدا للناس عليهم فى الأخبار . ولذلك لم يكونوا يألون جهدا فى حفظها

فى المكان الأمين ، والمقر الكنين .

يقول عامر بن الطفيل : (٣)

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلِ لِسْرِكَ جَنَّةً تَعَرَّضْتَ أَنْ تَرُوى عَلَيْكَ الْعَجَائِبُ

ويقول قيس بن الخطيم : (٤)

إِنَّا جَاوَزْنَا الْإِنْتِنِينَ سِرًّا فَإِنَّهُ
وَإِنْ ضَيَّعَ الْإِخْوَانُ سِرًّا فَإِنَّنِي
بِكُونِ لَهُ عِنْدِي نَأْمَا ضَمِنْتُهُ
بِنَشْرِ وَتَكْثِيرِ الْحَدِيثِ قَمِيئًا (٥)
كَتُّومٍ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِيئًا
مَقْرَبِ سُونََاءِ الْفَوَارِ كَنِيئًا

(١) ديوان تميم بن مقبل ص ٣ (٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٥٢

(٣) الموتلف والمختلف ص ٣٠ (٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٠٥-١٠٦

(٥) تقول هوقمين - كفتن - ، وقمن بالفتح - وقمين . بكذا ، وأن يفعل كذا : أى حرى وجدير وخليق (انظرا للسان - قمن) .

الصمت وحفظ اللسان عن لبذأة :

وكان من سجايا القوم الحميدة أيضا حب الصمت ، وقصرا للكلام على النطق
بالمعروف . وحفظ اللسان عن لبذأة . ومن أمثالهم : " رعى الصمت أحسن
من رعى المنطق " (١)

يقول أحيحة بن الجلاح: (٢)

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى مَالٌ يَكُنُّ رِجْلِي يَشِينُهُ
وَالْقَوْلُ ذُوخَلٌّ إِذَا .. مَالٌ يَكُنُّ لَبِّي يَعِينُهُ

ويقول مصرف بن الأعمى: (٣)

وَأَعْفُ عَنْ قَذْفِ الْعَشِيرَةِ بِالْحَنَا وَأَصْدِ ذَا الضَّغْنِ الْأَدَّ فَيَضْرَعُ

وتقول الخرنق بنت بدر بن هفان: (٤)

إِنِّي شَرُّوا يَهْبُوا وَإِنْ يَسْذَرُوا يَتَوَاعَطُوا عَنْ مَنْطِقِ الْهَجْرِ

ويقول ذوالاصبع المدواني: (٥)

وَاللِّسَانِي عَلَى الْأَدْنَى بِمَنْطَلِقِ بِالْفَاحِشَاتِ وَلَا تَكْتَبِي بِمَأْمُونِ

وكانا الكريم منهم يأنفان يرد على البذأة باللبذأة ، ولكنه كان - كما

قال شاعرهم: (٦)

إِنَّا قَبِلْتِ الْفَحْشَاءَ أَغْضَى كَانَهُ ذَلِيلٌ بِلَاذِلٍّ وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَهُ

(١) مجمع الامثال ٢٥/٢ مثل رقم ٢٤٧٠

(٢) البيان والتبيين ٥/١ ٢٧٥/٢٦ - ٢٧٦ والبيتان في ديوان أحيحة بتحقيق

الدكتور حسن محمد باجودة ص ٨٣ " خير للفتى "

(٣) معجم الشعراء ص ٣٠٦

(٤) ديوان الخرنق ص ٣١ (٥) المفضلية رقم ٣١

(٦) هوقيس بن عناق الفزاري أدرك الاسلام كبيرا وأسلم - انظر معجم الشعراء

وحق للقوم أن يخشوا من هذرا الانسان ، وسقطات اللسان ، فبذلك تكشف العوارت ،
ويُستدل على لعيبات والسوءات . يقول طرفة : (١)

وَإِنَّ لِسَانَ الْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَصَاةٌ - عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلٌ

ومن أجل ذلك كانا لقوم يتآمرون بترك الفاحش من القول . يقول عدى بن زيد (٢)
وَقُلِّبَ الْمَعْرُوفُ فِيمَنْ قَالَهُ وَأَمْنَعَنْ نَفْسِكَ مِنْ قَيْلِ الْفَنَدِ (٣)
ويقول الآخر : (٤)

وَلَا تَنْطِقِ الْعَوْرَاءَ فِي الْقَوْمِ سَادِرًا فَإِنَّ لَهَا فَا عِلْمَ مِنَ الْقَوْمِ وَأَعْيَا (٥)

ومن أجل ذلك أيضا عفا كرام القوم عن الفحش في الهجاء ، حتى كان أحسن
الهجاء ، فيما ذكر العلماء ، ما تنسده العذراء في خدرها فلا يقبح منها (٦) .

بل لقد نهب بعض كرامهم الى أبعد من ذلك . اذ حرموا الهجاء فيما بينهم
كما فعلت قريش . قال ابن سلام : " وكان مما تنكر قريش ، ووقعا قب عليه ، أن
يهجو بعضهم بعضا " (٧) .

ولذلك فقد كانوا يقطعون لسان ابن الزبير ، حين غدوا يوما ، فوجدوه قد
كتب على باب دار الندوة : (٨)

أَلِهَى قَصِيمًا عَنِ الْمَجْدِ الْأَسَاطِيرِ وَرِشْوَةً مِثْلَ مَا تَرَشَى السَّفَاسِيرِ (٩)
وَأَكَلَهَا اللَّحْمَ بَحْتًا لِخَلِيطِ لَهْ وَقَوْلَهَا رَحَلَتْ عَيْرٌ مَضَتْ عَيْرٌ

- (١) ديوان طرفة طبع دمشق ص ٨٥ (٢) ديوان عدى ص ٤٣
(٣) الفند الخرف ، وضعف الرأي ، والكذب - انظر اللسان فند .
(٤) انظر معجم مقاييس اللغة ١٨٥/٤ - عور (٥) العوراء : الكلمة القبيحة والفعلة
القبيحة (اللسان عور) (٦) انظر حلية المحاضرة ٣٦٥/١ (٧) طبقات فحول
الشعراء ٣٣٦/١ (٨) انظر طبقات فحول الشعراء ٣٣٥/١ - ٣٣٦
(٩) السفاسير : السامرة . قال الجوهرى : قال أبو عبيد : السفاير - كالعربيد -
بالفارسية : السمار (الصاح ٦٨٧/٢ - سفسر) .

الترفع عن جليس السوء :

ولعل من بغض القوم للفاحش من لقول والفعل ، ترفعهم عن جليس السوء .
فقد كانوا يرون طباعه تنتقل انتقال الجرب بين الابل .

يقول عدى بن زيد : (١)

إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدَى

ويقول طرفة : (٢)

وَقِرَافٍ مِنْ لَا يَسْتَفِيقُ دَعَاةً وَعِدَى كَمَا يَعِدَى الصَّحِيحُ الْأَجْرَبُ

القناعة :

وكان من سجايا العرب الحميدة أيضا القناعة ، والترفع عن الحسد
والمسألة ، مهما بلغت بهم الفاقة ، ومهما عضهم الجوع .

يقول تأبط شرا : (٣)

قَلِيلُ الْخَارِ الزَّادِ إِلَّا تَعَلَّةٌ فَدَنَزُّ الشَّرِيفِ وَالْتِصَالِ مَعَا (٤)

ويقول كعب بن سعد الغنوي : (٥)

جَمُوعٌ خِلَالِ الْخَيْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِذَا جَاءَ جِيَاءٌ بَيْنَهُمْ نَهْوَبُ
فَتَى لَا يَبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ إِذَا نَالَ خِلَاتِ الْكِرَامِ شُحُوبُ

وعدا القوم هذه القناعة من مفاخرهم ، وعدوها من مآثرهم . ولذا يقول

السنفري : (٦)

وَإِنْ مَدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذَا جَشِعَ الْقَوْمُ أَعْجَلُ
وَأَغْدُو خَيْصَ الْبَطْنِ لَا يَسْتَفِرُّ نَبِي إِلَى الزَّادِ حِرْصًا أَوْ فَوْا لَمْ يُوَكَّلْ

(١) ديوان عدى ص ١٠٢ (٢) ديوان طرفة طبع دمشق ص ١٠٨ (٣) شرح ديوان الحماسة
للمرزوقي ٤٩٤/٢ (٤) التعللة كالمتقدمة : التعليل والتصيير ، والشرفوف واحد
لشراييف - كفضروف وغضاريف وهي اطراف الاضلاع (الصحاح ١٣٨٧/٤ - شرف) ، ونشر
أي برز من الهزال ، والمعنى كالي واحد الامعاء
(٥) نقدا لشعر ص ١١٦ (٦) الاشباه والنظائر للخالديين ١٥/٢

ويقول عمار بن ثقيف الهلالي: (١)

هَلْ أَنْتِ مَخْبِرَتِي مَا شَأْنُ عَمَّارِ
كَأَنَّهُ نَارُهُ أَوْ نِضْوُ اسْفَارِ
فَأَنْبِي حُنْدٌ لِلضَّيْفِ وَالْجَارِ
أَوْ يَلْبَسُ الْخَلْقَ الْمَرْقُوعَ مِنْ عَارِ

يَا رَبِّ قَائِلَةٌ يَوْمًا لِجَارَتِهَا
قَالَتْ أَرَى رَجُلًا بَادٍ أَشَاجِعُهُ
إِمَّا تَرِينِي لِجِسْمِي غَيْرَ مُحْتَشِدٍ
وَمَا عَلَيَّ الْحَزَّ أَنْ تَعْرِى أَشَاجِعُهُ

وتداعى القوم الى تلك القناعة ، وتواصوا بها ، وعدوا الفنى غنى

النفس لاغنى المال .

يقول قيس بن الخطيم: (٣)

وَفَقِرَ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاؤُ
وَأَغْنَى النَّفْسِ مَا اسْتَفْنَى غَنَى

وَأَغْنَى النَّفْسِ مَا اسْتَفْنَى غَنَى

ويقول الممزق العبدى: (٤)

فَإِنَّمَا مَا لَنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي

هُوَ عَلَىكَ وَلَا تَوَلَّعَ بِإِشْفَاقِ

الترفع عن المسألة من القناعة والعفة:

وكان القوم يعشقون القناعة - عفة من ناحية ، وترفعوا عن السؤال من

ناحية أخرى . يقول مصرف بن الأعلم: (٥)

لِلدَّهْرِ حِينَ يَعْضُنِي أَتَشْعَعُ

وَيَقِلُّ مَا لِي مَا عَلِمْتِ فَلَا أَرَى

ويقول الشنفرى: (٦)

عَلَى مِثْلِ طَوْلِ امْرُؤٍ مَطْطُولٍ

وَاسْتَفَّ تَرَبُّبَ الْأَرْضِ كَيْ لَا يَرَى لَهُ

ويقول الآخر: (٧)

مِنَ الدَّهْرِ خَيْرٌ مِنْ نَوَالٍ لِي بِسَمِ

لَطَى ثَلَاثٍ وَأَصْطَبَارٌ عَلَى ذِي

(١) الأشباه والنظائر للخالد بن ١٢٥/١ - ١٢٦

(٢) نقه من مرضه نقهها - كتعب تعبها - ونقه نقهها - كدخل دخولا - فهوناقة
أنا صح وهو في عقب علتها (انظر الصحاح للجوهري ٢٢٥٣/٦ - نقه) ، والنضو الهزيل
(انظر الصحاح ٢٥١٧/٦ - نضا) . (٣) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٠١

(٤) شرح المفضليات لابن الأنباري ص ٦٠١ (٥) معجم الشعراء ص ٣٠٦

(٦) الأشباه والنظائر للخالد بن ١٦٧/٢ (٧) الأمل والمأمول للجاحظ ص ١٥

ولعل من ذلك أيضا أنفة القوم عن السؤال بشعرهم . يقول النهشلي
 في كتابه "المتع" : " وكانت العرب تأنف عن الطلب بالشعر" (١) . ولذا -
 فقد عاشوا أزمانا طويلة ، لا يعرفون السؤال بالشعر ، حتى كان الأعشى - ميمون
 ابن قيس - ، فوقع ذلك فيهم . يقول ابن سلام : " أول من سأل بشعره الأعشى (٢)
 وفي ذلك يقول شاعرهم : (٣)
 وَأَنْتَى أَمْرًا لَا أَسْأَلُ النَّاسَ مَا لَهُمْ بِشِعْرِي وَلَا تَعْبًا عَلَيَّ الْمَكَاسِبُ

الترفع عن الحسد :

ولعل من حب القوم للقناعة ترفعهم عن الحسد ، وترفعهم عن مد أعينهم
 الى أموال غيرهم . يقول الغطمش الضبي : (٤)
 وَأَنْتَى وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّي عَاتِبًا لَمُقَانِفٌ مِنْ دُونِهِ وَوَرَاءَهُ
 وَإِذَا كُنْتِي نَوْبًا جَمِيلًا لَمْ أَقُلْ يَا لَيْتَ أَنْ عَلَيَّ مِثْلَ رِدَائِهِ

ويقول أبو قيس - ابن الأثلث : (٥)
 وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلَا تَحْسَدْنَهُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ فَاعْدِلُوا
 ولقد عرف القوم من طول تجربتهم ، وواسع خبرتهم ، أن الحاسدين ليس لهم
 من حسدهم الا الشقاء ، فهم لا يستجلبون به شيئا لأنفسهم ، ولا يمنعون خيرا
 نزل بغيرهم . ولذلك فقد كان من وصايا حكمائهم الترفع عن تلك الخلقة
 الذميمة .

يقول عامر بن الظرب العدواني : " واياكم والحسد ، فانه شوم ونكد" (٦)
 ويقول أكرم بن صيفي : " من حسد من دونه قل عذره ، ومن حسد من فوقه فقد
 آتعب نفسه " (٧) .

- (١) اختيار المتع ص ٢٢٩ (٢) طبقات فحول الشعراء ٦٥/١ ، ٦٧
 (٣) اختيار المتع ص ٣٣٠ (٤) الاشباه والنظائر للخالد بن دينار ٩/١
 (٥) ديوان أبي قيس ص ٨٣ (٦) المعمرين والوصايا ص ٦٠
 (٧) المعمرين والوصايا ص ٢٣ .

وفى ذلك يقول شاعرهم : (١)

وَلَا تَهْلِكَنَّ النَّفْسَ كَرِبًا وَحَسْرَةً عَلَى الشَّيْءِ سَدَاهُ لِغَيْرِكَ قَادِرُهُ
فَإِنَّكَ لَا تَعْطِي أَمْرًا حَظَّ غَيْرِهِ وَلَا تَمْنَعُ الشَّقَّ الَّذِي لَغِيثٍ مَا طَرَهُ

الفطنة والكياسة ، والحيلة والفراسة :

ومن خلال القوم الحميدة أيضا الفطنة والكياسة ، والحيلة والفراسة .

يقول خفاف بن ندبة : (٢)

أَدْعُ الدَّنَاءَةَ لِأَلَيْسَ أَهْلِهَا وَلَدَى مَنْ كَيْسَ الزَّمَانِ نَصِيبُ

وأخبار الفطنة والكياسة عند القوم كثيرة . حتى ان بعضهم كان يفهم الأمر

بالاشارة الغامضة . ومن ذلك ما كان يفعله بعض الأسرى حين يريدون ان ينذروا

قومهم من غزو آسريهم .

أرسل أحدهم الى قومه أبيتا تامنها :

إِنَّا لَذَنَابٌ قَدْ اخْضَرَّتْ بَرَاثِنُهَا وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ بَكَرٌ إِذَا شَبِعُوا

ففهم قومه انه كفى بالذئاب عن القوم المغيرين ، وباخضرار البراثن عن

اخضرار الأرض تحت الأقدام بظهور العشب ، واعتدال الجو وامكانية الغزو . كما

فهموا من قوله : والناس كلهم بكر اذا شبعوا - تأكيده على استعداد القوم

لغزوهم ، كما كانت بكر بن وائل تفعل بتميم . (٣)

وأعجب من ذلك فهم القوم على قرع العصا . وخيرا مثلته حديث سعد

ابن مالك بن قيس بن ثعلبة - جد طرفة بن العبد - ، وأخيه عمرو بن مالك

مع النعمان بن المنذر .

(١) واسمه مَعْلَسُ بْنُ لَقِيْطٍ - انظر معجم الشعراء ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٢) ديوان خفاف بن ندبة ص ٤١ (٣) انظر بلوغ الأرب للأوسى ١/٣٢٧

وكان النعمان قد بعث عمرا يرتاد له الكلاء ، فأبطأ عليه فغضب منه ،
وأقسم ليقتلنه ان جاء حامدا للكلاء أو ذاما له . وتهدد سعد بن مالك ان كلم
أخاه بشيء ليقطن لسانه . فاستأذنه سعد فأن يقرع العصا لأخيه ، فانن
له .

فقرع بهامرة ، وأشار بها أخرى ، ثم رفعها ثم وضعها ، ففهم المعنى
وأخبره بما أراد ، ونجا من القتل . (١)
وفى ذلك يقول سعد بن مالك : (٢)

قَرَعْتُ الْعَصَا حَتَّى تَبَيَّنَ مَا جِئْتُ بِهِ	وَلَمْ تَكْ لَوْلَا ذَاكَ لِلْقَوْمِ تَقَرُّعٌ
فَقَالَ رَأَيْتُ الْأَرْضَ لَيْسَتْ بِمَعْرُوحٍ	وَلَا سَارِحٍ مِنْهَا عَلَى الرَّعْيِ شَبَعٌ
سِوَا فُلَاجِدْبٍ فَيَعْرِفُ جَدْبَهُمْ	وَلَهَا بِهَا غَيْثٌ غَزِيرَةٌ مَرَعٌ (٣)
فَنَجَى بِهَا حُوبًا نَفْسٍ كَرِيمَةٍ	وَقَدْ كَانَ لَوْلَا ذَاكَ لَفِيهِمْ يِقْطَعُ (٤)

وأعجب القوم بتلك الفطنة التي تحلى بها كثير منهم ، وتما د حوابها .
فقال أوس بن حجر : (٥)

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ لَكَ الظَّنَّ مَ كَأَنَّ قَدْرَ أَيْ وَقَدْ سَمِعَ (٦)

وقال أيضا : (٧)

جَوَادُ كَرِيمٌ وَأَخُو مَا قَطِطِ نِقَابٌ يَحْدُثُ بِالْفَنَائِيبِ (٨)

ومما يدخل في باب الفطنة عند القوم أيضا الحيلة . وكانوا يحبون ان يتحوطوا

- (١) انظر البيان والتبيين ٣/٣٩ (٢) بلوغ الأرب للأوسى ١/٣٤-٣٥
(٣) المريع - كالخصيب - الوادى الخصيب . تقول مرع بالضم - وأمرع ،
أى أكلاء فهو ممرع (انظر الصحاح للجوهري ٣/١٢٨٣ - ١٢٨٤ - مرع) .
(٤) الحوابة النفس (الصحاح للجوهري ١/١١٧ - حوب) .
(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ (٦) الالمعى واليلمعى : الذكى لمتوقد (الصحاح
١٢٨١/٣ - لمع) . (٧) مجمع الامثال ١/١٨١ مثل رقم ٣٧
(٨) المأقط الحازى الذى يتكهن ويطلق بالحصى (الصحاح ٣/١١٦١ - مقط)
والنقاب - كالنكاح - الرجل العلامة (الصحاح ١/٢٢٨١ - نقب) .

فى كل أمر من أمورهم . ورأس ذلك قولهم فى أمثالهم : " أَنْ تَرِدَا لِمَاءِ بِيَمَاءِ
أَكَيْسٍ " .. يقول شاعرهم : (١)

أَنْ تَرِدَا لِمَاءِ بِيَمَاءِ أَرْفَقُ لَأَنْتَبَ لِيْ قَدْ قَلْتُ لِلْقَوْمِ اسْتَقُوا

ولم يكن القوم يحتاطون فى امر الماء وحسب ، بل وكانوا يجرون على ذلك فى
المال أيضا . يقول قيس بن الخطيم : (٢)

فِيَّ أَنْ تَكُ قَدْ أُوتِيتَ مَا لَا تَكُنُ بِهِ بَطْرًا وَالْحَالُ قَدْ تَتَحَوَّلُ
ويقول المتلمس : (٣)

وَحَبْسُ الْمَالِ خَيْرٌ مِنْ بَغَاةٍ وَضَرْبٌ فِي الْبِلَادِ بَغِيرُ زَادٍ
وَاصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ عَلَى الْفَسَادِ

ليس هذا وحسب ، بل كانت الحيطة أيضا عندهم تتمثل فى معاملتهم
بعضهم لبعض . يقول عبید بن الأبرص : (٤)

فَقَدْ يَعُونُ حَبِيبًا شَانِيًا وَيَرْجِعُنُ شَانِيًا حَبِيبًا
ويقول الثمر بن تولى (٥) :

أَحِبُّ حَبِيبَكَ حَبًّا رُوِيْدًا فَدَلَا يَعُولُكَ أَنْ تَصْرَمَ مَا
وَأَبْغَضُ بَغِضِكَ بَغْضًا رُوِيْدًا إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا

على أن خيرا مثله الحيطة عند القوم يقظتهم وانتباههم ، وحرصهم فى الغدوات
والروحات وتجافى جنوبهم عن المضاجع خشية الفارات ، وعدم غفلتهم عن

(١) مجمع الأمثال ٢/٣٣٠ مثل رقم ٣٥٨٤ (٢) ديوان قيس بن الخطيم ص ٨٣

(٣) العقد الفريد ٦/١٦٠

(٤) ديوان عبید بن الأبرص ص ١٤ (٥) مجمع الأمثال ١/٢٠٩ مثل ١١١١/٢٠١٨ مثل ٣٥٢٨

سلاحهم استعدادا لكل المفاجآت • يقول ابن خلدون في مقدمته :
 " فهم دائما يحملون السلاح ، ويتلقتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون
 عن الهجوع الاغرا را في المجالس وعلى الرجا لوفوق الأفتاب • ويتوجسون للنبآت
 والسهيعات » (١)

الفصاحة :

ومن خلال القوم الحميدة أيضا في ذلك الزمان ، حبهم للفصاحة وذلك
 اللسان (٢) وبغضهم للفهاهة والتأتأة واللججة والعى وعدم البيان (٣)
 يقول شاعرهم : (٤)

فَلَمْ تَلْقِنِي فَمَّا وَلَمْ تَلْقُ حَجْتِي مَلْجَلْجَةً أَبْغَى لَهَا مِنْ يَقِيمِهَا
 ويقول عمرو بن أهبان : (٥)

إِذَا نَازَعَ الْقَوْمَ الْحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ عَيْبًا وَلَا عَيْبًا عَلَيَّ مِنْ يَفَاعِدِ
 ويقول الخصفي المعاري : (٦)

وَهُمْ يَدْعُمُونَ الْقَوْلَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ بِكُلِّ خَطِيبٍ يَتْرُكُ الْقَوْمَ كَطَمَا
 يَقُومُ فَلَا يَعْجِبُ الْكَلَامَ خَطِيبِنَا إِذَا الْكَرْبَ أَنْسَى الْجِبْسَ أَنْ يَتَكَلَّمَ (٧)

وربط القوم لذلك بين فصاحتهم وشجاعتهم ، بين ألسنتهم وأسلحتهم ،
 وحرصوا على أن تكون ألسنتهم كسيوفهم أو أحد ، فان لهاوقعا كوقعها أو
 أشد .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٥ (٢) ذلقا للسان ذلقه وذلقته : حدته وفصاحته • تقول
 ذلقيدلق ذلقا - كمرض يمرض مرضا - وذلق ببالضم كبصر - ذلقا - بالسكون •
 انظر اللسان - ذلق • (٣) التأتأة : التردد عند نطق التأتآت ، والعى بالكسر
 عدم الابانة ، والفهاهة - كالحجاجة : مثله • واللججة والتلجج : التردد في
 الكلام (انظر اللسان - تأتأ ، عيا ، فه ، ليج) •
 (٤) معجم مقاييس اللغة ٤/٤٣٥ هـ - (٥) معجم الشعراء ص ٢٧ (٦) المفضلية رقم ٩١ (٧) الجبس - كالجسم - الجبان الفم العى (انظر
 الصحاح للجوهري ٣/١٠ - ٩ - جبس) •

يقول سويد بن أبي كاهل: (١)

وَلِسَانًا صَيْرَفِيًّا صَارِمًا كَذِبَابِ السِّيفِ مَا مَسَّ قَطَعًا (٢)

ويقول طرفة بن العبد: (٣)

وَتَوَدُّ عَنْكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ الْعَرِيضِ مُوضِحَةً عَنِ الْعَظْمِ (٤)
بِحَسَا سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمِ الْأَصِيلِ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ (٥)

فإذا اجتمع للمرء منهم ، عرض نقي ، وسيف صقيل ، ولسان قوى ، وروح
عسول (٦) فليس عليه بعد ذلك ، أن تنزل بساحته الحوادث والنوائب ،
وأن تُجْمع عليه بكل ذى ظفر وناب ، فقد أعد لهن سلاحا يُهبأ ، ويحسب له
ألف حساب .

يقول عبدا لقيس بن خفاف البرجمي: (٧)

وَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبِ تِ عَرَضًا بَرِيًّا وَعَضْبًا صَقِيلًا
وَوَقَعَ لِسَانِي كَعْدِ السِّنَا نِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقَنَاةِ عَسُولًا

*

- (١) البيان والتبيين ١/١٦٧ ، والبيت فى الصحاح للجوهري ٤/١٣٨٦ - صرف -
(٢) الصيرفي - والصيرف: المحتال المتصرف فى الامور (الصحاح للجوهري
٤/١٣٨٦ - صرف) .
(٣) ديوان طرفة طبع دمشق - ص ٩٦
(٤) المخيلة - كالقبيلة: الخيلاء والتكبر والزهو . والرجل العريض الذى
يعترض فيما لا يعنيه . والموضحة الشجة توضح عن وضع العظم أى بياضه .
(٥) الاصيل من الكلام: البليغ النافذ الذى له اصل وقوة . ويعنى به الهجاء
المقذع - ، وأرغب الكلم أى أعمق الجراح .
(٦) عسل الرمح يعسل عسلا كضرب يضرب ضربا - وعسولا وعسلانا : اشتد اهتزازهم
واضطرب ، فهو عاسل وعسال وعسول (اللسان عسل) .
(٧) درة الفواصص ص ١٩

ولما كان اللسان عندا لقوم من الأهمية والخطورة بهذا الشأن ، فقد قدموا الخطباء والشعراء على غيرهم ، وتناقلوا أقوالهم وأشعارهم . وان كان اعجابهم بالشعراء أكبر ، واهتمامهم بالشعر أكثر . وذلك لأنه كما قال الحاقمي في حلية المحاضرة : « أبداع مطالع ، وأنصح مقاطع ، وأطول عنانا ، وأفصح لسانا . وأنور أنجما ، وأنفذ أسهما ، وأشرد مثلا ، وأسير لفظا ومعنى » (١)

ولذا كان الشاعر عندهم - كما قال أبو عمرو بن العلاء : « يُقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر ، الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخّم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم . ويهيّب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم . وبها بهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم » (٢)

وكيف لا يكون الشعراء كذلك ، وقد كانت قوافيهم من الجمال بحيث تهز أعطاف الممدوحين وتطربهم ، ومن لشدة بحيث تصعق الأعداء وترعبهم ، ومن البيان والتبيين ، بحيث يظل القوم يتندرون بها سامعين ومنشدين . يقول تأبط شرا : (٣)

وَإِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِهِ لَابِنِ عَمِّ الصَّدَقِ شَمْسِ بْنِ مَالِكٍ
أَهْزُبُهُ فِي نَدْوَةِ الْحَيِّ عَطْفُهُ كَمَا هَزَّ عَطْفِي بِالْهَجَانِ الْأَوَارِكِ (٤)
وتقول الخنساء : (٥)

وَقَافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنَانِ تَبْقَى وَيَنْهَبُ مِنْ قَالِهَا
نَطَقَتَا بِنَ عَمْرٍو فَسَهَّلَتْهَا وَلَمْ يَنْطِقِ النَّاسُ أَمْثَالَهَا

(١) حلية المحاضرة لابن المتوفى الحاقمي ١٢٤/١ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ٢٤١/١
(٣) حلية المحاضرة ١٢٥/١ (٤) عطف الرجل - بوزن الجسم : جانبه من لدن رأسه الى وركبه (انظر الصحاح للجوهري ١٤٠٥/٤ - عطف -)
(٥) ديوان الخنساء ص ١٢٢

ويقول حيان بن ربيعة الطائي: (١)

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ أَنَّ قَوْمِي
ذَوُو جِدٍّ إِذَا لَبِسَ الْحَدِيدُ
وَأَنَا نِعْمَ أَحْلَسُ الْقَوَافِي
إِذَا اسْتَعْرَا التَّنَافِرُ وَالنَّشِيدُ (٢)

ويقول الأعشى: (٣)

وَعَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً
قَدْ قَلَّتْهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا !

ويقول المسيب بن علس: (٤)

فَلَاهِدِينَ مَعَ الرِّيحِ قَصِيدَةً
مِنِّي مُغْلَفَةً إِلَى الْقَعَقَاعِ (٥)
تَرِدُ الْمِيَاهُ فَلَا تَزَالُ غَرِيبَةً
فِي الْقَوْمِ بَيْنَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعِ

على أن عبيد بن الأبرص ، لم يعجبه أن يكون شاعرا بعيدا لغوره ، ولكنه افتخر بأنه فاضل فصيح النثر ، بل إن غيابه في هذا وذاك ، أمهر من غيابه الحوت في لجج البحر .

يقول: (٦)

سَلِ الشُّعْرَاءَ هَلْ سَبَّحُوا كَسَبِحِي
بِحُورِ الشُّعْرَاءِ وَغَاوِمَا مَغَاصِي
لِسَانِي بِاللَّيْثِ وَبِالْقَوَافِي
وَبِالْإِسْبَاحِ مَهْرٌ فِي الْغِيَاصِ
مِنَ الْحُوتِ الَّذِي فِي لُجِّ بَحْرِ
يُجِيدُ السَّبْحَ فِي لُجِّ الْمَغْطِ

وهكذا عشق القوم الفصاحة ، ومجدوا الفصحاء ، ذوى الألسنة الذلقة الطليقة ، حتى كانوا يقولون : « انما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فاذا نطق نطق ببيان ، واذا قاتل قاتل بجنان » (٧)

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٨٨/١ - ٢٨٩

(٢) احلاس القوافي أصحابها وأربابها ، وأصل الحلس (كالجسم) : البرذعة وما يلي ظهر الدابة . ولذا يقال للفرسان احلاس الخيل - لملازماتهم ظهورها (انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٨٩/١) .

(٣) ديوان الأعشى ص ٧٧ (٤) حلية المحاضرة ١٢٤/١

(٥) المغلفة : سرعة السير ، والمغلفة : الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد

(انظر الصحاح للجوهري ١٧٨٣/٥ - غلل) . (٦) ديوان عبيد ص ٧٦-٧٧

(٧) الشعراء لابن قتيبة ٢٣٧/٢

حب الحق والعدل وبغض الظلم والجور:

ومن خلال الحميدة التي كانت عندكرام القوم أيضا ، حب الحق والعدل والانصاف والصفح والتسامح ، وبغض الجور والظلم ، والباطل ، واللجاجة

فيه . يقول سويد بن أبي كاهل : (١)

عَرَفْتُ لِلْحَقِّ مَا نَعَيْتُ بِهِ عِنْدَمُرِّ الْأَمْرِ مَا فِينَا خَرَعُ

ويقول عامر بن الطفيل : (٢)

أَلَمْ تَعَلِّمِي أَنِّي إِنْ أَلِفْتُ قَادِنِي إِلَى الْجُورِ لَأَنْقَادُ وَالْإِفْجَائِرُ

وكانا لقوم يدركون ما للحق من مزايا ، فهو قوى أبلج كالضياء . تقوم قوته كل معوج ، وتعديل كل مائل ، ويمحو بلجه ظلما الباطل . يقول

الشاعر : (٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْحَقَّ تَلْقَاهُ أَبْلَجًا وَأَنْكَ تَلْقَى بَاطِلَ الْقَوْلِ لَجَلَجًا

ويقول قيس بن الخطيم : (٤)

مَتَى مَا تَقْدُّ بِالْبَاطِلِ الْحَقِّيَابَهُ وَإِنْ قَدْتِ بِالْحَقِّ الرَّوَاسِيَ تَنْقَدِ

وكما كانا لقوم يعرفون للحق مزاياه ، كانوا أيضا يعرفون لجاجة الباطل

وأناه ، يقول دريد بن الصمة في وصاياه : (٥) " وَلَا تُحْضِرُوا نَادِيَكُمْ السَّفِيهَ ،

وَلَا تَلْجُوا بِالْبَاطِلِ فَيَلْجُ بِكُمْ " .

(١) المفضلية رقم (٤٤) (٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٥

(٣) الاشتقاق لابن دريد ص ٢٦٠

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ٧٤

(٥) السعمرون والوصايا ص ٢

ويقول عامر بن الطرب العدواني: (١) " من جمع بين الحق والباطن لم يجتهدا له ، وكان الباطل أولى به " . ويقول: (٢) " وخذوا على أيدي سفها تكسب تقلل جرائركم " .

وكانت للقوم في حبهم للعدل والانصاف ، وبغضهم للظلم والاحسان ، مظاهر كثيرة . منها توأصيهم بالعدل ، وتفأخرهم به . يقول عدى بن زيد: (٣)

وَبِالْعَدْلِ فَانطِقْ إِنْ نَطَقْتَ وَلَا تَلْمُ وَذَا الذَّمِّ فَانْمِمْ وَذَا الْحَمْدِ فَاحْمَدِ

ويقول عنتره: (٤)

وَنَحْنُ الْعَاقِلُونَ إِذَا حَكَمْنَا وَنَحْنُ الْمَشْفِقُونَ عَلَى الرَّعِيَّةِ

ويقول الأعشى: (٥)

حَكَمْتُ مَوْنِي فَقَضَى بَيْنَكُمْ أَبْلَجٌ مِثْلُ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ
لَا يَأْخُذُ لِرِشْوَةٍ فِي حُكْمِهِ وَلَا يُبَالِي غَبْنَ الْخَاسِرِ

حلف الفضول :

ومن أهم مظاهر حب الحق والعدل ، وبغض الجور والظلم عند القوم ، حلف الفضول ، الذي تداعت لعقده قبائل من قريش في الجاهلية .

وكان من أسبابه أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل من بني

سهم ، فلوى الرجل بماله (٦) ، وأكل حقه ، فلهو أعطاه متاعه ، ولا هو أعطاه ثمنه . فقام هذا الرجل على الحجر ، وقيل على أبي قبيس ، حين أخذت قريش مجالسها في نديتها حول البيت وصاح بأعلى صوته: (٧)

- | | |
|----------------------------|--|
| (١) المعمرون والوصايا ص ٦٠ | (٢) المصدر السابق ص ٦٠ |
| (٣) ديوان عدى بن زيد ص ١٠٧ | (٤) ديوان عنتره ص ١٢٥ |
| (٥) ديوان الأعشى ص ١٩١ | (٦) لواء بدينه لباننا أي مطلقه (الصاح |
| للجوهرى ٢٤٨٦/٦ - لوى) | (٧) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١٠٠-٩٩/٢ |

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتِهِ
وَمُخْرِمٍ أَشْعَثَ لَمْ يَقْضِ حَرَمَتَهُ
بِبَطْنِ مَكَّةَ نَارِي الدَّارِ وَالنَّفْرِ
بَيْنَ الإِلهِ وَبَيْنَ الحَجْرِ وَالْحَجْرِ
أَمْ نَاهَبُ فِي ضَلَالٍ مَالٍ مُعْتَبِرٍ !

فلما نزل أعظمت ذلك قريش ، وتداعت قبائلها الى حلف الفضول . وساروا ،
كما ذكر العلماء - " الى دار عبدالله بن جدعان فتحالفوا هناك " (١) " وتعاهدوا
على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ،
الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلم حتى تدفع عنه مظلمته " (٢)

وفى ذلك يقول الزبير بن عبدالطلب : (٣)

إِنَّا لَفُضُولٌ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاتَفُوا
أَلَا يَتَّقِيهِمْ بَبْطْنِ مَكَّةَ ظَالِمٌ
فَالجَارُ وَالْمُعْتَرِفِيهِمْ سَالِمٌ (٤)

الانصاف :

وكان من مظاهر ميل القوم للعدل أيضا ، حبهم الانصاف حتى مع اعدائهم

وشائئيبهم .

يقول أوس بن حجر : (٥)

لَا تَطْهَرُنَّ نَمَّ أَمْرِي قَبْلَ خَبْرِهِ
وَبَعْدَ بَلَاءِ المَرْءِ فَانْمِ أَوْ أَحْمَدِ
ويقول أكتم بن صيفى فى وصاياها : (٦) " لاتمنعنكم مساوى رجل ، من ذكركم

محاسنه " .

ومن مظاهر ذلك أيضا انصافهم فى الحديث عن قوة اعدائهم ، وعدم تحقير

شأنهم ، حتى كانت لهم قصائد تسمى " المنصافات " ، صدقوا فيها عن اعدائهم وعن
أنفسهم ، فيما ذكروه من شجاعة وصبر فى النزال ، وفيما عددوه لأعدائهم
ولأنفسهم من حميدا لخصال . (٧)

(١) مروج الذهب للمسعودى ٢/٢٧٧ (٢) شفاء الغرام ٢/٩٩

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ١/٢٦٠

(٤) المعتبر : الذى يتعرض للمسألة ولايسأل (الصاح للجوهري ٢/٧٤٤ - عرر)

(٥) ديوان أوس ص ٢٧ (٦) المعمرون والومايا ص ١٥

(٧) انظر خزانة الادب للبغدادي - طبعة بولاق - ٣/٥٢٠

يقول شاعرهم: (١)
 أُسُودٌ شَرِيٌّ لَأَقْتِ أُسُودَ خَفِيَّةٍ
 تَسَاقُوا عَلَى حَرْدٍ بِمَاءِ الْأَسَاوِدِ (٢)

ومن تلك المنصفات قول المفضل النكري: (٣)

مَشِينَا شَطْرَهُمْ وَمَشَوْنَا إِلَيْنَا
 وَقَلْنَا الْيَوْمَ مَا تَقْضَى الْحَقُوقُ
 وَكَمْ مِنْ سَيِّئِنَا وَمِنْهُمْ
 بِذِي الطَّرْفَاءِ مَنْطِقَهُ شَهِيدُ
 فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوهُمَا
 فَارَاحَتْ كُلُّهَا تَثْقُ بِفُسُوقِ (٤)
 فَأَبَكَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبَكُوا
 نِسَاءً مَا يَسُوعُ لَهُنَّ رِيْسُوقُ

الصفح والتسامح :

أما الصفح والتسامح عند القوم فأمثلته كثيرة ومظاهره متعددة . ومن

ذلك حبهم للصفح عن كل مخطيء أيا كان . يقول المثقب العبدى: (٥)

وَلِبَعْضِ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ ذِي الْخَنَا أَبْقَى وَإِنْ كَانَ ظَلَمَ

ومنهم حبهم للصفح عن مجاهل قومهم ، مهما بدا منهم من عيوب أو وقع منهم من جرائم . يقول الحارث بن وعلة النهلى - ووتره قومُه بأخيه ، وقتلوه

فجعوه فيه :- (٦)

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمِيمَ أَخِي
 فَإِذَا رَمَيْتُ بِصَيْبِنِي سَهْمِي
 فَلَيْتَ عَفْوَتُ لَأَعْفُونَ جَلَلًا
 وَلَيْتَ سَطَوْتُ لَأَوْهِنَنَّ عَظْمِي

ويقول الآخر - وقد قتل أخوه ابناله ، فقدم إليه ليقتراد منه ، فألقى

السيف وهو يقول: (٧)

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأَسَاءً وَتَعَزِيَةً
 أَحَدِي يَدِي أَمَا بَتْنِي لَمْ تَسِرِدِ
 كَلَاهِمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدِ صَاحِبِهِ
 هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلِيْدِي

(١) الأضداد لابن الأثير ص ٢٢٩ (٢) الحرد - كالدرج : القصد والتعمد

(٣) انظر الصحاح للجوهري ٤٦٤/٢ - حرد (٣) الأصمعيات ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٤) التاق - كالارق : الشبع والامتلاء ، تقول تثق يتاق تاقا - كمرض

بمرض مرضا (الصحاح للجوهري ١٤٥٣/٤ - تاق) ، والفواق - كالبيكاه

التنفس بصعوبة من الامتلاء (انظر الصحاح ١٥٤٦/٤ - فوق)

(٥) ديوان المثقب ص ٣٣٢ (٦) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٠٤/١

(٧) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٠٧/١ .

ولعل من أهم مظاهر حبهم للصفح والتسامح سعيهم جاهدين ، لايقاف الحروب والصلح بين المتحاربين . والحديث في ذلك يطول ، والأمثلة عليه - يضيق عن حصرها المجال . ويكفي أن نتمثل قول عبيد بن الأبرص : (١)

وَإِنِّي لَأُظْفِي نَارَ الْحَرْبِ بَعْدَ شُبُوبِهَا وَقَدْ أَوْقَدْتُ لِلْغَى فِي كُلِّ مَوْقِدٍ

وقول المثقب العبدى : (٢)

أَبِي أَصْلَحَ الْحَبِيبِينَ بَكْرًا وَتَغْلِبًا وَقَدْ رَعِشْتَ بَكْرًا وَخَفَ حُلُومُهَا (٣)

الحكومة :

تلك أمثلة على حب القوم للحق والعدل والانصاف والتسامح ، ورد الجور والبغى والظلم والباطل . وكان القوم لعدم وجود حكومة - بلفظة عصرنا - يمتثلون أوامرهم ويتحاكمون التيظمها وقوانينها ، ولعدم سيادة دين معين يحتكمون الى شرائعه ، قد انتدبوا من بين رجالهم حكاما ، يرجعون اليهم في مختلف أمورهم وشئونهم ؛ في المواريث والحقوق والجوار ، في التنافر والتناحر والشجار ، في النحل والدماء والأوتار ، في المنازل والمراعى والمياه ، وفي غير ذلك من أمور الحياة .

ولما كان الأمر بهذه الخطورة ، فقد كانوا لا يحكمون الأهل الشرف والصدق ، والامانة والسيادة والرياسة ، والسن والمجد والتجربة والفتنة والكياسة (٤) يقول الاقوه الأودى : (٥)

لَا يَصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لَأَسْرَاةَ لَهُمْ وَلَا سِرَاةَ إِنَّا جِهَالُهُمْ سَادُوا
تَهْدَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

(١) ديوان عبيد ص ٥٥ (٢) ديوان المثقب ص ٢٥٧ (٣) الرعش - كالأمم - لرعدة تقول رعش كمرض - وارتعش : ارتعد ، وأرعشه الله . (٤) انظرا لصاح للجوهري ١٠٠٦/٣ - رعش (٤) انظر تاريخ اليعقوبي ٢٥٨/١
(٥) الشعروالشعراء لابن قتيبة ٢٣٣/١

فكانوا اذا حزبهم أمر من تلك الأمور ، وغم عليهم الحق فيه ، فلم يتبينوه ، أو أخفاه عارفوه وعالموه ، نفروا الى رجل من أولئك

فحكموه . وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى : (١)
فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءٌ

الحلم والرزانة والحزم والوقار :

ومن لقيم الرفيعة والخلال الحميدة ، التي كانت عندا القوم أيضا ، الحلم والرزانة والحزم والوقار . ومن أمثلة ذلك قول الخنساء ترثي أخاها

صخرا : (٢)

ظَفِرٌ بِالْأُمُورِ جَلْدٌ نَجِيبٌ وَإِذَا مَا سُمِّيَ لِحَرْبٍ أَبَاحَا
وَبِحِلْمِهَا إِذَا الْجَهْلُ اعْتَرَاهُ يَرُدُّعُ الْجَهْلَ بَعْدَمَا قَدْ أَشَاحَا

وقول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أيضا : (٣)
لَقَدْ كَانَ أَمَا جِلْمُهُ فَمُسْرُوحٌ عَلَيْنَا وَأَمَا جِهْلُهُ فَعَزِيبٌ
حَلِيمٌ إِذَا مَا سُورَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقَتْ حَبِي لَشَيْبٍ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غُلُوبٌ (*)

وكان لتلك الخلال عندا القوم مظاهر متعددة ، اذا تحلى بها المرء منهم ، كان حليما أو رزينا أو حازما أو وقورا . ومن تلك المظاهر الترفع عن الضغائن والأحقاد .

يقول عنتره : (٤)
لَا يَحْمِلُ الْحَقْمَنُ تَعْلُوَ بِهِ الرَّتَبِ وَلَا يَنَالُ الْعُلَمَانُ طَبْعَهُ الْغَضَبِ

(١) ديوان زهير ص ٧٥

(٢) ديوان الخنساء ص ٢٧ (٣) نقد الشعر ص ١١٥

(٤) ديوان عنتره ص ٩٨

(*) انظر في معنى "حبي" وضبطها هامش (٢١) ص ٣٩٦ من هذا البحث .

ويقول الأعشى: (١)

وَإِنِّي لَتَرَأَى الضَّيْنَةَ قَدْ أَرَى قَذَاهَا مِنَّا لِمَوْلَى فَلَا أَسْتَثِيرُهَا
وَقُورٌ إِذَا مَا الْجَهْلُ أَعْجَبَ أَهْلَهُ وَمِنْ خَيْرِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ وَقُورُهَا

إذ أن متابعة الضفائن ، ومسايرة الغضب - إرواءً لظمأ النفس ، وشفاءً لأحقاد الصدور - لا يبقى في المرء خيراً يرتجى . يقول عمرو بن كلثوم - وقد حضرته الوفاة : " ولاخير فيمن لاروية له عند الغضب " (٢)

ومن تلك المظاهر أيضا قذع النفس عن الهوى ، وإلا أوردت صاحبها هلكته ، وسلبته حلمه وسماحته وحكمته . يقول عنتره: (٣)

إِنِّي أَمْرٌ سَمِحٌ الْخَلِيقَةَ مَا جِدُّ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا (٤)

ويقول عمرو بن معديكرب: (٥)

وَكَيفَ تُرِيدَانِ تَدْعَى حَكِيمًا وَأَنْتَ لِكُلِّ مَا تَهْوَى تَبُوعٌ

ومنها أيضا ثقل أحلام القوم ورسوخها ، فلا تهزها النائبات ، ولا تلـسـوى أعناقها الحادثات . يقول سويد بن أبي كاهل: (٦)

وَوَزْنَا الْأَحْلَامَ إِنْ هُمْ وَازَنُوا صَادِقُوا الْبَأْسَ إِذَا الْبَأْسُ نَصَعُ

ويقول عدى بن الرقاع: (٧)

أَبَتْ لَكُمْ مَوَاطِنَ طَيِّبَاتٍ وَأَحْلَامَ لَكُمْ تَزِنُ الْجِبَالَ

ومنها كذلك اتسام حلم البعض بالدوام والاستمرار والبقاء ، وافتخارهم بمصابرة غيرهم من الحكماء . يقول عمرو بن معديكرب: (٨)

- (١) ديوان الأعشى ص ٤٢٣ (٢) الأغاني - دار الثقافة - ٥٤/١١
(٣) ديوان عنتره ص ٨٦ (٤) اللجاج - كالحجاب ، واللجاجة - كالحجاجة - كالحجاجة
والملاجة : التمدد في الخصومة تقول : لج يلج - بالفتح ، كعض بعض
وللمخاطبة لججت وعضت (انظر الصحاح لجج ، غضض) .
(٥) ديوان عمرو بن معديكرب ص ١٢٩ (٦) المفضلية رقم ٤٠
(٧) الصناعتان لأبي هلال العسكري ص ١٢٠ (٨) الوحشيات ص ١٦٨ ومعجم الشعراء ص ١٧

وَيَبْقَى بَعْدَ حَلْمِ الْقَوْمِ حَلْمِي وَيَفْنَى قَبْلَ زَادِ الْقَوْمِ زَادِي

ويقول خفاف بن مالك - أحد بني تميم (١):

نُرِيحُ فُضُولَ الْحَلْمِ وَسَطَ بِيوتِنَا إِذَا الْحَلَمَاءُ عَنْهُمْ الْحَلْمُ أَعْرَبُوا

ومن مظاهر الحلم والرزانة عندا القوم كذلك بعد شبابهم عن الطيش ، وتشبههم بالكهول ، وذلك في كل ما يتسم به الكهول ، من حلم ورزانة وتجربة وحكمة ،

ورجاحة في العقول . يقول تميم بن مقبل (٢):

وَشَبَابُنَا مِثْلُ الْكُهُولِ وَكَهْلُنَا إِذَا شَابَ قِنَعَا سِ مِنْ الْقَوْمِ أَجْلِحُ (٣)

ومنها كذلك الترفع عن السفهاء واللؤماء ، ايمانهم بأن ذلك يزرى

بالكرام ، ولا يليق بالعقلاء ، يقول شمر بن عمرو الحنفي (٤):

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى اللَّثِيمِ يُسَبِّئُنِي فَمَضَيْتُ ثَمْتُ قَلْتُ لِأَعْيُنِي

على أن ذلك لم يكن يمنع من تأديب أولى الجهل والسفاه ، والا تكدر صفو

الحلم وقل غناؤه . يقول النابغة الجعدي (٥):

وَلَا خَيْرَ فِي حَلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَائِرُ تَحْيِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدُرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرِدَ الْأَمْرُ أَصْدُرَا

ثم ان من مظاهر حلم القوم أيضا ، ورزانتهم ووقارهم - ثناقلهم عن الخفة

والطيش عندا الفرح ، وتودتهم في معالجة الأمور وعدم رعدتهم عند الترح .

يقول شاعرهم (٦):

(١) الموتلف والمختلف ص ١٥٤ (٢) ديوان تميم بن مقبل ص ٥٥

(٣) رجل قنعاس - كجلباب شديد منيع (اللسان - قنعس) ، وأجلح هنا من التجليح وهو الاقدام الشديد والتصميم في الأمر ، والمضى فيه (انظر اللسان

جلح) (٤) الاصعيات ص ١٢٦ .

(٥) الشعر والشعراء ٢٨٩/١ ومعجم الشعراء ص ١٩٥

(٦) الاضداد لابن الأثير ص ١٩٨

وَلَا يَنْسِينِي الْحَدَثَانُ عَرْضِي وَلَا أَلْقَى مِنَ الْفَرْحِ الْإِزَارَا

وتقول الخنساء في صخر أخيها: (١)

فَتَى كَانَ ذَا حِلْمٍ أَصِيلٌ وَتَوَدُّهُ إِذَا مَا الْحَبْبَى مِنْ طَائِفِ الْجَهْلِ حَلَّتْ (٢)

ويقول طفيل الغنوي: (٣)

لَقَدْ أَرَدَى الْفَوَارِسُ يَوْمَ نَجْدٍ
وَلَا فَرِحَ بِخَيْرِيَانِ أَنْتَاهُ
وَلَا وَقَافِيَةِ وَالْخَيْلُ تَرْدِي
وَلَا مَا غَيْرُ مَنْعِ الْمَتَاعِ
وَلَا جَزَعِ مِنَ الْحَدَثَانِ لَاعٍ (٤)
وَلَا خَالَ كَأَنْبُوبِ الْيَرَاعِ

اجلاله العلماء والسادة الزعماء:

ومن ذلك أيضا اجلالهم لعلمائهم وساداتهم وزعمائهم ، وطاعتهم لهم ،
وتوقيرهم بالسهم . يقول الحطيئة: (٥)

وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلِّ حَايِثٍ
وَيَقُولُ كَعْبُ بْنُ سَعْدِ الْغَنَوِيُّ: (٦)

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلِهِ
إِذَا مَا تَرَاةَ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا
مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهْيَبٌ
فَلَمْ تُنْطِقِ الْعَوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبٌ

(١) ديوان الخنساء ص ١٨

(٢) الْحَبْبَى - كالي وكالْعَلَا .. أي بكسر الحاء وضمها - جمع جَبُوةٌ وَجَبُوةٌ -
بكسر الحاء وضمها - وهما يُحْتَبَى به .. أو هي عملية الاحتباب وهو الجلوس
بوضع خاص (انظر اللسان حبا) .

(٣) الوحشيات ص ١٢٥ (٤) تقول : لاع يلاع وهاع يهاع : أعيبن ، ورجل
هاع لاع أي جبان (انظر الصحاح للجوهري ١٢٨٢/٣ - لوع) .

(٥) ديوان الحطيئة ص ١٤٠ (٦) نقدا الشعر ص ١١٦

ويقول طرفة: (١)

نَزَعُ الْجَاهِلِ فِي مَجْلِسِنَا فَتَرَى الْمَجْلِسَ فِينَا كَالْحَرَمِ

ومن ذلك أيضا تقدير القوم للعقل ، وتكريمهم للعقلاء ، واعتبار العقل من

أهم مَضَعِ الجسم . يقول شاعرهم: (٢)

وَلَاخَيْرَ فِي حَسَنِ الْجُؤْمِ وَنُبْلِهَا إِذَا لَمْ تَزِنْ حَسَنَ الْجُؤْمِ عَقُولُ

وصدق هذا الشاعر ، إذ ماذا تفيد عبالة الخلق إذا عريت من نباهة الخلق؟!

وماذا يفنى القوام الرشيق ، والوجه الصبيح والجسم المتين ، إذا حرمت

من العقل السليم الراجح الرزين؟!

الركة والعاطفة :

هذا ، وبودي أن أختم الحديث عن سجايا العرب الحميدة في الجاهلية ،
 وخلالهم الكريمة ، وقيمهم الرفيعة ، بما كانوا يتمتعون به من رقة حانية ،
 وعاطفة جياشة ، وذوق رفيع ، وساحة وهشاشة وبشاشة - رغم شدتهم وشجاعتهم ،
 وقوتهم وضراوتهم ، وتقشفهم وفروسياتهم . وما أشبه ذلك

أما مظاهر تلك الرقة والعاطفة فكثيرة ، منها تلك الدعوى الساخنة
 التي كانت تَجُمُّ بها عيونهم لظعن من يحبون ، أو هجران من يعشقون ، وذلك
 الأرق المُمِضُ الذي كان يعترى نفوسهم لفراق أحبا بهم وبعادهم .

يقول بشر بن أبي خازم: ()
 تَعَنَّي الْقَلْبُ مِنْ سَلْمَى عَنَّا فَمَا لِلْقَلْبِ مَذْبَانُوا شَفَاءُ
 فَلَمَّا أَدْبَرُوا ذَرَفَتْ لَمُوعِي وَجْهَلٌ مِنْ ذَوِي الشَّيْبِ الْبُكَاءُ

(١) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١١١ (٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣ / ١١٨١

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١

فاذا كانا البكا - كما يقول - جهلا وخفة وطيشا ، فلماذا يبكي اذن
الارقة أصيلة وعاطفة فطرية ، غلبتا حلمه وطفنتا على وقاره .

ويقول امرؤ القيس : (١)
فَقَاضَتْ لَمَوْعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَيَّ لِنَحْرِحْتِي بَلْ لَمَعِي مِحْمَلِي

الى هذا الحد كانت الرقة والعاطفة تبلفنان بالمرء منهم ، اذا جاشت
نفسه لفراق من يحب أسى وحسرة عليه ، أو اذا انقضت من تذكره والحنين اليه .

وكانت عرصات الديار ، وما ترك الأحبة خلفهم من آثار ، كالنوى (٢)
والأواري (٣) والأثافي والاحجار ، أشد ما يثير المحبين ، وَيُذَكِّي عَوَاطِفَهُمْ
ويهل سموعهم .

يقول المرقش الأفسر : (٤)
أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَا عَيْنِيكَ يَسْفَحُ غَدَا مِنْ مَقَامِ أَهْلِهِ وَتَرَوْحُوا !

ويقول طرفة : (٥)
مَتَى تَرِيَوْمًا عَرَضَةً مِنْ دِيَارِهَا وَلَوْ فَرَطَ حَوْلِ تَجَمُّ الْعَيْنِ وَتَهَلُّ

ليس هذا وحسب ، بل لقد كانت تلك الرقة والعاطفة تبلفنان ببعضهم درجة
الهلاك أو الخبال ، أو تَرْجِيحِ الموت على جفوة الأحبة حتى عند أصبر الرجال
وأشجع الأبطال .

وطرفة والمرقش وعنترة ، أمثلة حية على ذلك . فقد قضى المرقش
الأكبر من وجده بابنة عمه - كما رأينا - (٦) وأصاب طرفة من تعلقه بسلمى

- كما يقول - ، خيال لا يزول : (٧)

فَوَجَدِي بِسَلْمَى مِثْلُ وَجْدِ مَرْقَشٍ بِأَسْمَاءَ إِذْ لَاتَسْتَفِيقُ عَوَاذِلُهُ
قَضَى نَحْبَهُ وَجَدًّا عَلَيْهَا مَرْقَشٌ وَعَلَّقَتْ مِنْ سَلْمَى خَبَالًا مَا طَلُّهُ

(١) ديوان امرؤ القيس ص ٩ (٢) النوى كالجرح - والنثى - كالجسم - ، والمنأى
كالعين - : الحفير حول الخباء أو الخيمة يدفع عنها السيل والجمع أكلأء ، ونوى -
كأبار ، ووجوه - ونثى - على تباع ككسرة الكسرة (اللسان نأى) .

(٣) الأواري - كالمساعي جمع أرى وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه (شرح
المفضليات ص ٥٢٠) (٤) نقدا لشعر ص ٥٦ (٥) ديوان طرفة طبع القاهرة ص ١١٤

(٦) انظر في ذلك شرح لمفضليات لابن الانبارى ص ٤٥٩ وغيرها .

(٧) ديوان طرفة - طبع القاهرة ص ١٢٩ .

أما عنتره (بن عمرو) بن شداد ، المعروف بصولاته وجولاته، وبطولاته و ضرباته
الشداد ، فان رفته وعاطفته تدفعانه الى تفضيل الهلاك على جفوة الحبيب ،

يقول: (١)
 وَهَلَاكِي فِي الْحَبَّاءِ هَوْنٌ عِنْدِي مِنْ حَيَاتِي إِذَا جَفَانِي الْحَبِيبُ

وعلى غراره يقول طرفه: (٢)
 لَعْمَرِي لَمَوْتُ لَأَعْقُوبَةَ بَعْدَهُ لِذِي الْبَيْتِ أَشْفَى مِنْ هَوِي لَأَيُّوبَ إِلَهُ

فيال ضراوة عنتره ، ويال جراءة طرفه ، ويال قوتها وشجاعتها وشدتها
التي كانا يزعمان !! ويال اقدامها وصبرها على مقارعة الفرسان!

يقول عنتره: (٣)
 وَمُنْجِحِ كَرِهَ الْكَمَاةُ نِزَالَهُ لَامِعِينَ هَرَبًا وَلَا مَسْتَسْلِمَ
 جَادَتْ لَهُ كَفَى بِعَاجِلِ طَعْنَتِهِ بِمُتَّقِفِ صَدَقِ الْكُؤُوبِ مَقْسُومَ

ويقول طرفه: (٤)
 وَلَقَدْ نَفَى عَنِّي الرَّجَالَ جِرَائَتِي وَصَبْرِي وَإِقْدَامِي عَلَيْهِمْ وَمَحْتَدِي

هذا الصبر وهذا الاقدام ، وتلك الجراءة وذلك الاقتحام ، كانت سمات البطلين
وقت النزال والالتحام .

فاذا داعى الرقة دعاها ، واذا صرخ العاطفة ناداهما ، رأيتهما
أسرع من يجيب ، ووجدتهما يفضلان الموت على فراق الحبيب .

الساحة والبشاشة :

أما ساحة القوم وبشاشتهم ، فقد تمثلت في الكثيرين منهم - رغم ما كانوا
يتصفون به من الشدة والقسوة ، والغلظة والجفوة . وكانوا أكثر ما يحبون أن
تكون تلك الساحة والبشاشة في وجوه الرؤساء والسادة والزعماء والقادة .

- (١) ديوان عنتره ص ١٠٨ (٢) ديوان طرفه طبع القاهرة - ص ١٢٩
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى دار مكتبة الحياة ص ٢٤٩ - ٢٥٠
(٤) ديوان طرفه طبع دمشق ص ٤٧ .

يقول حذافة بن غانم، في عبدالمطلب بن هاشم: (١)
 بَوَّ شَيْبَةَ الْحَمْدِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ يُضِيئُ ظِلَامَ اللَّيْلِ كَالْقَمَرِ الْبَدْرِ

ويقول مالك بن حريم الهمداني: (٢)
 وَمِنَّا رَيْسٌ يَسْتَضَى بِنُورِهِ سَنَاً وَحِلْمًا فِيهِ فَاجْتَمَعَا مَعَا

ويقول أسجع السلمى: (٣)
 إِذَا غَابَ عَنَّا الْفَجْرُ خَضْنَا بِوَجْهِهِ نُجَى لِّلَّيْلِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَنَا الْفَجْرُ
 بل وعشقوا أن تكون تلك الساحة والبشاشة في القوم جميعا - لا الرؤساء
 وحسب - ، يقول الحطيئة: (٤)

مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَاءِ بِيضُ وُجُوهِهِمْ إِذَا ضَجَّ أَهْلُ الرُّوعِ سَارُوا وَهُمْ وَقَرَّ
 ويقول قيس بن عاصم المِنْقَرِي (٥)
 خُطْبَاءٌ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ بِيضُ الْوُجُوهِ مَصَاقِعُ لِسَانٍ (٦)

الذوق الرفيع :

ومما تمتع به القوم في ذلك الزمان أيضا من خلال الحميدة ، وكانوا يعدونه من قيمهم العالية ، الذوق الرفيع . وليس يجهد أحد تذوقهم لمظاهر الجمال التي كانت تعج بها منازلهم ومرابعهم وصحراواتهم ، والتي كانت تزخر بألوانها أمواهم وروابيهم وواحاتهم . لقد كان تذوقهم لذلك الجمال ، مثار التندير ومضرب الأمثال .

على أن خير الأمثلة على ذوقهم الرفيع ، ما كانوا يتعشقونه في النساء من

(١) ثمار القلوب - للثعالبي - ص ٩٧ (٢) الأضغيات ص ٦٦

(٣) حلية المحاضرة ٣٩٩/١ (٤) ديوان الحطيئة ص ٣٠٣

(٥) أمالي القالي ٢٣٩/١

(٦) مصاقع جمع مصقع - كمعزز - ، وخطيب مصقع : أي هليغ (الصاحح ١٢٤٤/٣ صقع)

ضروب الجمال والحسن البديع .

فقد عشقوا فيهن بياض الوجوه ونقاها ، ونضارة الخدود وبهاها .

يقول طرفة : (١)

وَوَجْهِ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِدَائَهَا عَلَيْهِ نَقِيَّ اللُّونِ لَمْ يَتَخَدَّرْ

ويقول النابغة : (٢)

أَلَمَحَّةٌ مِنْ سَنَا بَرَقِ رَأْيِ بَصْرِي أَمْ وَجْهٌ نَعْمٌ بَدَالِي أَمْ سَنَا نَارِ

ويقول أيضا : (٣)

وَ الطَّيِّبُ يَزِدَادٌ طَيِّبًا أَنْ يَكُونَ بِهَا فِي جِيدٍ وَاضِحٍ الخُدَيْنِ مِعْطَارِ

وعشقوا فيهن سواد الشعر وفحومته ، واسترساله وكثرتة . يقول امرؤ القيس : (٤)

وَفَرَعٌ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فَاحِمٍ أَثِيثٌ كَفَنُو النَخْلَةَ المَتَعَثِكِلِ (٥)

ويقول طرفة : (٦)

وَعَلَى المَتْنَيْنِ مِنْهَا وَارِدٌ حَسَنًا لَنَبْتِ أَثِيثٌ مَسْبِكِرٌ (٧)

وعشقوا فيهن الشفاه الكُمَّة القَرْمِزِيَّة (٨) ، والأسنان المؤشرة البيضاء

النقية . (٩) . يقول طرفة : (١٠)

بَايِنٌ وَتَجَلُّو إِذَا مَا ابْتَسَمَتْ عَن شَتِيَّتِ كَأَقَاحِ الرَّمْلِ غُرِّ (١١)

(١) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ١١ (٢) ديوان النابغة ص ٣٣٥

(٣) ديوان النابغة ص ٣٣٥ (٤) شرح المعلقات لسبع للزوزنى - دار مكتبة الحياة ص ٥٢

(٥) الفرع الشعر التام ، والفاحم الشديد لسواد ، والاثيث الكثير ، والعشكول القنو ، والنخلة المتعشكلة التي خرجت عنها كيلها اى قنوانها (انظر شرح المعلقات لسبع للزوزنى دار مكتبة الحياة ص ٥٢-٥٣ .

(٦) ديوان طرفة طبع دمشق ص ٥٤ وانظر مثل ذلك في ديوان النابغة ص ٣٥

(٧) المتنان ما اكتنف الصلب من اللحم ، والواردا لشعرا المنسدل الساقط على المتنين ، وهمى واردا لانه ورد العجيزة . والاثيث الملتف الكثير الاصول .

والمسبكر الممتد الطويل (انظر شرح الأعلام الشنتمرى لهذا البيت من ديوان طرفة)

(٨) القَرْمِزِيَّة القاف والميم وسكون الراء - فارسي معرب : هو صبغ ارمنى احمر (انظر تاج العروس - قهرمز) (٩) تاشيرا الاسنان : تحزيرها وتحديد اطرافها

(انظر الصحاح ٥٢٩/٢ - اشر) (١٠) ديوان طرفة طبع دمشق ص ٥٧

(١١) باين اى ضمة كاملة البدن ، وتجلو تَبْدَى ، والشتيت الثغرا المتفرق

الاسنان . (راجع شرح الأعلام الشنتمرى) .

بَدَلَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ بِرَدِّ أبيض مصقول الأشر (١)

وعشقوا فيهن جريانا الرقيق وعذوبته ، وطيبه وبرودته ، ولدانته وحلاوته .
يقول طرفة : (٢)

وَإِذَا تَضَحَّكَ تَبَدَّى حَبِيْبًا كَرَضَابِ الْمِسْكِ بِالْمَاءِ الْخَصْرِ (٣)

وعشقوا فيهن غير ذلك من مظاهر الجمال ، ما يضيق عن حصره المجال . كرى
الاردا ، وخموص البطون ، ونهود الائداء ، واتساع العيون (٤) . وأن
يكن - الذي ذلك - ممتلئات الحُجُول ، زحيلات الخصور ، مخضبات البنان ،
مزينات النحور ، طيبات لرائحة ، بضات الجسوم ، عروبات ، بنات نعمة ،
لا يحملن الهموم . (٥)

وباختصار نقول ان نوقم الرفيع قد رسم للمرأة صورة غاية في الحسن
والجمال . فهي جميلة بضة حلوة وضيئة ، خريدة ريانة بهية كالدرة المضيئة .
تماما كما قيل : (٦)

بَدْرٌ صَيْفٍ بَيْنَ الْمَضَارِبِ لَحَا تَغْيِيفِ السُّتْرِ دُونَنا وَالْوِشَاحِ
دُرَّةٌ حَيْثَمَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَّ مِنْ حَيْثَمَا شَمَّ فَاحَا

- (١) انظر في بياض الاسنان وتحزيرها وسواد الشفاه أيضا ديوان طرفة - طبع
دمشق - ص ٨ ، ٩ ، وديوان النابغة ص ٣٦ ، ٣٧ ، وديوان عمرو بن
معديكرب ص ١٣٨ (٢) ديوان طرفة طبع دمشق ص ٥٧
(٣) رضاب المسك قطعه ، والماء الخصر : البارد .
(٤) انظر ديوان النابغة ص ٣٨ ، ٣٩ ، وديوان علقمة ص ١٠٥ ، وديوان
طرفة - طبع دمشق - ص ٥٢ ، ٥٨ ، ٩١
(٥) انظر ديوان حميد بن ثور ص ١٧ ، وديوان علقمة ص ٥٣ ، وديوان النابغة
ص ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ١٨٤ ، وديوان طفيل الغنوي ص ٧٥ ، وديوان طرفة
طبع دمشق - ص ٥٤ ، ٥٨ ، وغيرها .
(٦) الثاني بالانسبة في تفسير أبيات المعاني ص ٢١ .

تلك هي بعض القيم الرفيعة التي سادت عرب الجاهلية ، من كرم
ومروءة وغيره ونجدة وشجاعة ، وخفة ونشاط، وصبر وعفة وقناعة . ومن بر
وصدق وحفظ سر وأمانة ووفاء ، وترفع عن الدنيا والمخازي وأنفة
واباء .

ومن حنكة ورزانة وحيطة وفراسة ، وحلم ووقار وفطنة وكياسة .
ومن ذوق رفيع ورقة وساحة ، وعدل وانصاف وحكمة وفصاحة .

وقد مثلنا لكل ذلك من أشعارهم ، بما نحسب أنه يؤدي الغرض أو يزيد ،
وفي دواوينهم ومصادر شعرهم الفناء لمن يريد أن يستزيد .

* * *

* *

*

الفصل الثالث

—

القيم الوضعية والخلال الذميمة

في الشعر الجاهلي

الفصل الثالث القيم الوضيعة والخلال الذميمة في الشعر الجاهلي

ان الذي يقرأ ما كتبناه في الفصلين السابقين ، دون أن يقرأ ما في هذا الفصل ، يتبادر الى نهنه أن العرب كانوا في الجاهلية أسمى ما يكون نفوسا ، وأكرم ما يكون أخلاقا ، وأسلم ما يكون طريقة ، وأرفع ما يكون قيما . وذلك لما رآه عندهم من القيم العالية المجيدة ، والأخلاق السامية الحميدة ، التي تحلى بأكثرها بعضهم ، وتحلى ببعضها أكثرهم .

فإذا ما قرأ هذا الفصل عادت الى نهنه الصورة الحقيقية المتوازنة لذلك المجتمع ، إذ أنه سيجد القوم ، كما ساد بينهم كثير من القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة ، فقد فنا بينهم كذلك كثير من القيم الوضيعة والأخلاق الذميمة .

فكما كان منهم الأوفياء والأثفيا والصادقون ، كان منهم -
الغدارون واللؤماء والكتابون . وكما كان منهم الأمناء وكتمة السر وحفظة

العهود ، كان منهم الخونة واللصوص والبغلاء والأثانيون . وكما كان منهم الشجعان والفرسان والأنجاد وحفظة الغيب والمخلصون ، كان منهم الجبناء والمُخَذَّلون والمُثَبِّطون ، وكذلك الوشاة والنمامون والمنافقون والمغتتابون .

وكما كان عندهم البر والصلة وحب الخير والتواصي به ، والاعتقاد بالبررة والأخيار ، كان عندهم العقوق وقطع الأرحام والسبق إلى الشر والسوء والاثتار بهما ، والاعجاب بالغواية والأشرار .

وكما كان عندهم العدل وحب الحق والأنصاف ، كان عندهم الجور والزيف عن الحق والانحراف .

وكما كان فيهم الحلم والوقار والرزانة ، واحترام الحلماء والحكماء ، وطاعتهم الطاعة العمياء ، وتوقيرهم التوقير الشديد ، كان فيهم الغواية والجهالة والسفاه ، وعصيان كل ذي نظر صائب أو رأى سعيد .

وكما كان عندهم الحيطة والاحتراس ، وحب العدالة والمساواة ، وبذل المعروف لكل الناس ، كان عندهم سوء التصرف في المال بالاتلاف والتبذير ، واحترام الغنى واحتقار الفقير ، والاعتقاد في الشدائد ،

(١) الاعتقاد : أن يفلق الرجل الباب على نفسه ، فلا يسأل أحدا حتى يموت جوعا (انظر تهذيب اللغة للزهري ٢/٢٢٥ ، واللسان - عفة ، وتاج العروس - عفة)

والتفاخر بالآباء ، والتناحر والمنافرات ، والتمييز بين الناس بسبب
العنصر أو اللون أو الأمهات ، وغير ذلك من لسقطات والكبوات .

وكما شاعت بينهم المروءة والنجدة ، واغاثة الكسير والمحتاج
والملهوف ، شاع فيهم الفارة والعدوان ، واستباحة حمى كل ضعيف .

وكما وجد بينهم الاتزان والتسامح والرحمة وكظم الغيظ ، وحب
العدل الى حد بعيد ، وجد بينهم الصلف والفطرس ، والغلظة والقسوة ،
وقتل الأيرى بلا داع أو التمثيل بهم ، وغير ذلك من مظاهر الظلم الشديد .

وكما كان عندهم العفة وغيض البصر ، والعزة والرجولة ، وحفظ
اللسان عن البذاءة حتى في الهجاء ، كان عندهم التعايب واختلاس
النظرات والتذلل ، والفحش في القول والبذاءة وقلة الحياء .

وكما كان عندهم الفيرة الشديدة ، التي كانت تؤدي بهم الى
عَضُّ النساء ، ووَاد البنات ، كان عندهم نكاح المقتة^(١) واستلاطة الرجال^(٢)
ونكاح الاستبضاع^(٣) وغيرها من الدنيا والنقائص والسيئات .

(١) وهو أن يخلف الرجل أباه على امرأته - انظر ص (٤٣٨) من هذا البحث .

(٢) الاستلاطة : أى الزاق الرجل بهم وهوليس منهم . تقول استلاطوه أى -
ألزقوه بهم والتاط بهم أى نُعى من أبنائهم والتصق بهم وهوليس
منهم - (انظر اللسان - لوط)

(٣) وهو أن يطلب الرجل من امرأته أن تستبضع من رجل آخر ، طلبا للولد أو
نجابة الولد - انظر ص (٤٣٧) من هذا البحث .

وكما كان عندهم المنتديات النظيفة ، والمجالس الشريفة ،
والاجتماعات العفيفة ، التي تعقد لبحث الخطير من الأمور ، واصلاح ذات البين ،
أواكرام الضيف والجار ، أو للأحاديث الجادة والمسامرات البريئة ، كانت
عندهم مجالس الخمر ومنتديات الشراب ، التي تحييبها القيان المتبذلات
بعضفهن ورقصهن ولهوهن وعبثهن ، وتبذلهن وفجورهن ، وطوفهن على الندامى
بالكنوس ، التي تسلب الأبواب وتدير الر*وس .

وكما كان عندهم الحرص على التستر والتخفى ، وعدم ذبوغ أسرارهم
فى الناس ، وشدة الحياء من انكشاف صلاتهم وعلاقاتهم بالنساء خاصة ، وشيوع
أخبارهم الشخصية بوجه عام ، كان عندهم التمهر والتفحش ، والمجاهرة
بالمعاصى والفجور ، والنعى على أنفسهم^(١) بهتك الأعراس والأستار والاعتداء
على الحرمات ، وغير ذلك من خسيس الفعال ومعيب الأمور .

نعم .. لقد عجز المجتمع العربى فى الجاهلية بكل تلك القيم ،
وتمثلت فيه كل تلك الخلال ، رفيعها ووضيعها ، وعاليها ودانيها ،
وأصيلها وبخيلها ، وحميدها ورذيلها ، وكريمها ونميمها .

وقد رأينا أنفا من أشعار القوم ، أمثلة كثيرة على رفيع القيم

(١) النعى على النفس بالفواحش : اظهارها واعلانها والتحدث بها (اللسان - نعى)

وحميدا لخلال ، أما القيم الوضيعة والخلال الذميمة ، فاليك من الأمثلة الشعرية عليها ، ما يتسع له المجال ..

القدر :

ففي انتشار القدر بين بعض القوم يقول امرؤ القيس :^(١)

إِنَّا قَلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْرُضِيَّتُهُ وَقَرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بَدَلَتْ آخِرًا
كَذَلِكَ جَدِّي مَا أَصَاحِبٌ صَاحِبًا مِنَ النَّاسِ لِأَخَانِنِي وَتَغْيِيرًا

ويقول بشر بن أبي خازم :^(٢)

فِيَا عَجِبًا عَجِبْتُ لَالٍ لَأَمْ أَمَا لَهُمْ إِذَا عَقَدُوا وَفَاءً

ويقول أوس بن حجر :^(٣)

وَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ خِفَافَ الْعَهْوِ يَكْتَرُونَ لَتَنْقَلُوا

وخيرا الأمثلة على وجود القدر بينهم ، ما وردنا من خبر عمرو بن هند ، وكان من حديثه أن غزا ذات يوم قوما ، ولكنه لم يصب شيئا وعاد منفضا .^(٤) فمر في طريق عودته بطيبي ، وكان بينه وبينهم عهد . فقال له أحد بطانته :^(٥) " أَبَيْتَ اللَّعْنَ .. أَصَبَ مِنْ هَذَا الْحَى شَيْئًا . قَالَ لَهُ : وَيْلَكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ . قَالَ : وَإِنْ كَانَ . فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَصَابَ نَسْوَةً وَأَنْوَادًا " ^(٦)

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٩ (٢) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢

(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٨/١

(٤) أنفض القوم وأرملوا بمعنى: أي نفذ زأهم ولم يبق منه شيء (انظر اللسان - نفص ، رمل) .

(٥) هو زرارة بن علس ، أحد سادات تميم ، وكان ذلك بدء العداوة بينه وبين طيبي (انظر ديوان حاتم الطائي - مطبعة المدني - ص ١٦٩) .

(٦) الذود - كالطود : القطيع من الابل فوق الثلاث والجمع أنواد (انظر اللسان - نود) .

(١) وفى ذلك يقول قيس بن جرّوة - أحد بنى طى - يهجو عمرو بن هند :

غَدَرْتُ بِأَمْرِ أَنْتَ كُنْتَ اجْتَذَبْتَنَا إِلَيْهِ وَشَرَّ الشَّيْمَةِ الْغَدْرُ بِالْعَهْدِ

*

وإنا كنا لقوم ينظرون الى الغدر نظرة ازدراء ، فقد كان بعضهم يعده شجاعة ، ويعد الذين لا يغدرون من الجبناء . قال النجاشى يهجو بنى العجلان : (٢)

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّتِي وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

وقد ذكر الخالديان فى الأشباه والنظائر، أن القوم استعدوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه - على النجاشى لما هاجم بذلك . فقال عمر - وهو يعلم ما فى الشعر من قذع (٣) ، ولكنه أراد تطيبب خواطر القوم : " ليت الخطاب وأهل بيته ، وجميع بنى عدى بن كعب ، بهذه الصفة ، لا يغدرون ولا يظلمون" (٤)

اللوم وافناء الأسرار :

وعرف بعض القوم كذلك اللوم ، يقول أوس بن مغراء : (٥)

يَشِيْبُ عَلَى لَوْمِ الْفَعَالِ كَبِيرُهَا وَيَغْذَى بِثَدْيِ اللَّوْمِ مِنْهَا وَلَيْتُهَا

ورأى بعضهم فى الأبناء الذين يكتمون الأسرار ويحفظونها ضللا ، وأى ضلال . يقول الشاعر : (٦)

(١) انظر الخبر فى الأغانى - ثقافة - ١٨٦/٢٢ وما بعدها ، وشرح العيون

فى شرح رسالة ابن زيدون - لابن نباتة المصرى - ص ٤٣١ ، وبيت

الشعر فى الأغانى ١٨٩/٢٢ .

(٢) العمدة لابن رشيق ٥٢/١ وأنار الهوامل والشوامل ص ١٦ وجماعة ابن الجوزى ٤٥٢/١

(٣) القذع - كالمرض : الخنا والفحش فى القول والشيمة والإساءة (اللسان

قذع) . (٤) انظر الأشباه والنظائر للخالديين ٣٦/١

(٥) نقد الشعر ص ٢٠٥ (٦) فصل المقال ص ٥٨

وَلَا أَحْفَظُ الْأَسْرَارَ لَكِنْ أَنْمُهَا وَلَا أَدْعُ الْأَسْرَارَ تَغْلِي عَلَى قَلْبِي
وَإِنَّ أَضَلَّ النَّاسِ مَنْ بَاتَ لَيْلَةً تَقْلِبُهُ الْأَسْرَارَ جُنْبًا إِلَى جُنْبٍ

اللموصية :

أما اللوصية فقد كانت دأب بعض القوم فى ذلك العصر أيضا .
وخير أمثلتهما ذكره ابن قتيبة فى الشعروالشعراء ، عن السليك بن
السلكة وصاحبه قال : (١)

« فَأَتَوَاجُوفُ مُرَادٍ ، وَهُوَ بِالْيَمَنِ • فَاذَا فِيهِ نَعْمٌ كَثِيرٌ • فَقَالَ سَلِيكَ
لَهُمَا : كَوْنَا مَنَى قَرِيبَا حَتَّى آتَى الرَّعَاءُ ، فَأَعْلَمَ لَكُمَا عِلْمَ الْحَى ، أَقْرَبُ
هُوَ أَمْ بَعِيدٌ • فَاِنْ كَانُوا قَرِيبَا رَجَعْتَ إِلَيْكُمَا • وَإِنْ كَاهُوا بَعِيدَا قَلْتَ لَكُمَا
قَوْلَا أُجَى بِهِ إِلَيْكُمَا ، فَأَغْيِرَا عَلَى مَا يَلِيكُمَا •

فانطلق حتى أتى الرعاء ، فلم يزل بهم يتسقطهم حتى أخبروه خبر
الحى ، فإنا هو بعيد . فقال لهم السليك : ألا أغثيكم ؟! قالوا : بلى .
فرفع عقيرته (٢) ، يتفنى :

يَا صَاحِبِيَّ الْأَلْحَى بِالْوَادِي وَالْأَعْبِيدُ وَأَمْ بِهِ مِنْ أَدْوَادِ (٣)
أَتَنْظُرَانِ قَلِيلًا رَيْثَ غَفَلْتَهُمْ أَمْ تَعْدُونِ فَإِنَّا لَرِيحُ لِلْعَادِي

(١) الشعروالشعراء لابن قتيبة ٣٦٦/١
(٢) العفيرة - كالفضيلة : منتهى الصوت (اللسان - عفر)
(٣) الأدواد جمع ذود ، وهو من الأبل ما بين الثلاثة إلى العشرة (اللسان - ذود)
أما أم فيجوز أن يكون الخنا لمنبعث من النار التى يوقدها الرعاء ، ويجوز
أن يكون الخصب الذى ترعى فيه الأبل ، ويجوز أن يكون غير ذلك
(انظر القاموس المحيط - مطبعة السعادة - ٧٧/٤ - فصل الهمزة - باب الميم)

فلما سعا ذلك اطربنا الابل ، فذهب بها .»

البخل :

وكما انتشرت اللصومية ، انتشر البخل بين بعض القوم أيضا . يقول
بشر بن أبي خازم : (١)

إِذَا مَا جِئْتَهُمْ تَبَغَى قَرَاهِمُ وَجَدْتُ الْخَيْرَ عِنْدَهُمْ عَسِيرًا
ويقول الآخر : (٢)

وَقَدْ عَلِمَ الْمَعْرُوفُ الطَّارِقُ نَ يَا نَكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقَرُّ
إِنَّا مَا انْتَدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَانَتْ قَدْ وَلَدَتْكَ الْحُمُرُ

وانا كان القوم - كما رأينا سابقا - يرحبون بالأضياف ويكرمونهم ،
ويَهشون لمقدمهم ويسامرونهم ، فقد كان بعضهم يهجو الأضياف ويمن عليهم
بما قراهم به (٣) . او كان اذا نزل به الضيف اعتراه الوجوم ، وامتعض
امتعاض المرزا المهموم . يقول الحطيئة : (٤)

تَشَاغَلَ لَمَّا جِئْتُ فِي وَجْهِ حَاجَتِي وَأَطْرَقَ حَتَّى قَلَّتْ قَدَمَاتِ أَوْعِي
وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَنْعَاهُ جِئْتُ رَأَيْتُهُ يَفُوقُ فَوَاقِ الْمَوْتِ حَتَّى تَنْفَسَا (٥)

ومن عجب أن يهجو الحطيئة البخلاء بمثل هذه الأشعار ، وهو الذي سارت
ببخله الأخبار كل مسار .

-
- (١) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩٠
(٢) هو أشعر الرقبان الأمدى - كما في نوادر اللغة لأبي زيد - ص ٧٣
(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢١٦/١
(٤) ديوان الحطيئة ص ٢٨٢
(٥) الفواق - كالديوار - الحشرة والتنفس بصعوبة

يقول الأصمعي: " وخرج الحطيئة يوما من خبائه وبيده عصا ، فقال له رجل :
ما هذه ؟! قال: عجرا* من سلم* (١) . قال: انى ضيف . قال : للضيف أعددتها . (٧)"

وإذا كان القوم يكرمون ضيفهم مادام فيهم ، ويتبعونه الكرامة
إذا رحل عنهم ، فقد كان بعضهم يطرد ضيفه طردا ، ولا يخجل من ذكر ذلك
والتفاخر به . يقول أحد بنى تميم : (٣)

وَصَاحِبٌ قُلْتُ لَهُ بِنُصْحٍ قُمْ فَأَرْتَجِلْ قَدْ ضَاءَ ضَوْؤُ الصُّبْحِ
فَقَامَ يَهْتَزُّ اهْتِزَازَ الرُّمْحِ

ولعل هذا البخل كان السبب المباشر فى انتشار اللصوية والصعلكة التى
رأينا ، وذلك فيما يقرر الصعاليك أنفسهم ، يقول عروة بن الورد: (٤)

لَعَلَّ انْطَلَقِي فِي لِبَادٍ وَعَزِمْتِي وَسُدِّي حِيَا زَيْمِ الْمَطِيَّةِ بِالرَّحْلِ (٥)
سَيُدْفَعُنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ يُدَافِعُ عَنْهَا بِالْعُقُوقِ وَبِالْبُخْلِ (٦)

وفى ذلك يقول ابن نايقا فى كتابه الجمان " ولذلك كان صعاليك العرب
ولصومهم وأرباب الغارة منهم ، يرون أن ما يحوونه بالنارة ، وينالونه
بالسَّرِقِ والسَّلَّةِ (٧) ، انما ذلك مال منعت منه الحقوق ، ودفع عنه بالبخل
والعقوق" (٨) .

(١) العُجْرَة - كالعقدة ضبطا ومعنى . والجمع عُجْرٌ . وعجرا* من سلم : عصا
من هذا الشجر المعروف، فيها عُجْرٌ (أساس البلاغة - ص ٤٠٩ - عجر) .

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن ص ٢٦٥

(٣) الموتلف والمختلف ص ١٩٦ (٤) الجمان فى تشبيهات القرآن ص ٢٦٧

(٥) الحيازيم جمع حَيْرُوم وهو الصدر (انظر القاموس المحيط - مطبعة السعادة
٩٦/٤ - حزم)

(٦) الهجمة من الابل - كالضربة : أولها أربعون التى ما زادت ، أو ما بين السبعين
الى المائة (انظر المصدر السابق ١٨٨/٤ - هجم)

(٧) السرقة - كالمرض ، والسرق - كالظن : السرقة (انظر أساس البلاغة - ص ٢٩٤

سرق) والسلة مثله ولكن فى خفية (المصدر السابق ص ٣٠٥ - سلل) .

(٨) الجمان فى تشبيهات القرآن ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

الأثانية :

وكما كان البخل موجودا عند البعض - كما رأينا - كانت
الأثانية أيضا . قال شاعرهم : (١)

لَا أَشْتَهِي رَنْقَ الْمِيَاهِ وَلَا الَّذِي يُخَاضُ وَتَفْشَاهُ الْمَطْرِدَةُ الْجَرْبُ (٢)
وَلَا أَشْتَهِي لِامْتَارِبِ أَحْسَرِزَتْ عَلَيَّ لِلنَّاسِ حَتَّى لَيْسَ فِي مَائِهَا عَتَبٌ (٣)

وكان هذا يكون في المياه وفي المراعى وأما كذا لكلاً وغيرها مما هو من
ضرورات الحياة لدى الناس .

الجبن وضعف المروءة :

أما الجبن والتخاذل وقلة الهمة وانعدام النجدة ، وضعف
المروءة وما أشبهه ، فقد كان أيضا من سمات بعض القوم . يقول كعب بن
سعد الغنوى : (٤)

وَدَاعٍ نَعَا هَلْ مَن يَجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ

ويقول بشر بن أبى خازم : (٥)

وَأَنْكَاسُ غَدَاةِ الرَّوْعِ كُشِفٌ وَإِنَّا مَا الْبَيْضُ خَلِينَ الْخُدُورَا (٦)

(١) الوحشيات ص ٣٠٥ (٢) رنق الماء رنقا - كضرب ضربا - ، ورنوقا ، ورنق رنقا
كمرض مرضا - ، فهو رنق - كفتن - ، ورنق - بالسكون = أى مكدر من تراب
وقذى ونحو ذلك (اللسان - رنق) .

(٢) العتب - كالمريض : الفساد (انظر اللسان - عتب) والتسكين ضرورة .

(٤) معانى القرآن للاخفش ٤٩/١ ، والنوادر فى اللغة لأبى زيد ص ٣٧

(٥) ديوان بشر بن أبى خازم ص ٩٠ (٦) الانكاس جمع نكس - كعلج - وهو
الرجل الضعيف (انظر الصحاح للجوهري ٩٨٦/٣ - نكس) .

ويقول بيهس العذرى: (١)

إِنَّا أَنْتَ أَكْثَرْتَ الْإِخْلَاءَ صَادَفْتِ
 وَإِنَّا أَنْتَ لَمْ تَبْرَحِ تُؤَدِّي أَمَانَةَ
 بِهِمْ حَاجَةٌ بَعْضُ الَّذِي أَنْتَ مَا نِعُ
 وَتَحْمِيلُ أُخْرَى أَفْرَحْتِكَ الْوَدَائِعُ (٢)

الغيبة والنميمة :

وكذلك ظهر بينا لقوم الوشاة والنمامون ، والمغتابون والمنافقون ؛

يقول النابغة: (٣)

لَيْتَن كُنْتُ قَدْ بَلَغْتَ عَنِّي وَشَايَةً
 لِمَبْلَغِكَ الْوَاشِيِ أَغْشَى وَأَكْذَبُ

ويقول جنيد المرّي: (٤)

وَلَوْ أَنَّ وَاشِيًا لِي مَامَةً دَارُهُ
 وَدَارِي بِأَعْلَى حُضْرَمُوتٍ اهْتَدَى لِيَا

ولقد كان للوشاة والنمامين على القوم أثر واضح ، وأذى شديد، جعلهم

يتحاذرون منهم ، يقول الأعشى: (٥)

وَمَنْ بَطِخِ الْوَاشِيَيْنِ لَا يَتْرَكُوا لَهُ
 صَدِيقًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُقْرَبَا

ومن أقوالهم في ذلك: " ما أدرك النمام نارا ، ولا معا عارا " (٦)

(١) المؤتلف والمختلف ص ٨٦ والبيت الثاني في الأضداد لابن الأنباري ص ١٩٧،

١٤١ " أفدحتك " (٢) أفدحتك أي أثقلتك (انظر اللسان - فرح)

(٣) ديوان النابغة ص ٧٧ (٤) شرح لتسهيل لابن عقيل ١٧/١

(٥) ديوان الأعشى ص ١٦٧ (٦) الامتاع والموانسة ١٤٨/٢

النفاق :

وأما المنافقون فكانوا يظهرن على القوم بسما تهم المعروفة ، يبدون
المحبة والود ، ويخفون الضغينة والحقد ، ويبادرونهم بالتحية ، ويضمرون
لهم الأذى . يقول سويد بن أبى كاهل : (١)

وَيُحْيِيَنِي إِذَا لَأَقَيْتُهُ وَأَنَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعُ

(٢)

ويقول أوس بن حجر :

وَلَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدُ بِالَّذِي يَسُوكُ إِنْ وَلَّى وَيَرْضِيكَ مَقْبِلًا

(٣)

ويقول المنقب العبدى :

لَا تَرَانِي وَلَا تَعَا فِي مَجْلِسِي فِي لُحُومِ النَّاسِ كَالسَّبْعِ الضَّرْمِ (٤)
إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْثُرُ لِي حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غَبْتُ شَتَمَ (٥)

وضح القوم بالنفاق والمنافقين ، وآذاهم منهم تلون الحرباء وروغان
الثعالب ، وعهود الذئاب وأمانة العقارب . فتحوطوا منهم وتجنبوهم ،
أو كاشفهم وفاضلهم . ففي التحوط يقول عمرو بن الأهم : (٦)

وَإِنَّ مِنْ لَصْدِيقِ عَلِيكَ ضَغْنًا بَدَأَ لِيَّ إِنِّي رَجُلٌ بِصِيرٍ
بِأَدْوَاءِ الرِّجَالِ إِذَا التَّقِينَا وَمَا تُخْفِي مِنَ الْحَسَكِ الصُّدُورِ (٧)

(١) الأشباه والنظائر للخالد بن ١٧٨٢

(٢) الشعراء لابن قتيبة ٢٠٨١

(٣) ديوان المنقب العبدى ص ٢٢٩ - ٣٣٠

(٤) الضرم - كالكرم - شدة الجوع ، وضم الأسد - كعلم وغضب : اشتد

حر جوفه من الجوع فهو ضم (اللسان - ضم).

(٥) الكثر : كالضرب - التبسم - تقول: كثر الرجل يكثر كثيرا - كضرب

يضرب ضربا - اذا بفت أسنانه من التبسم (اللسان - كثر).

(٦) المفضلية رقم ١٣٣ (٧) الحسك - كالمرض - والحسكة والحسيكة :

الحقد (اللسان - حسك).

وفى المكاشفة يقول الآخر : (١)

تُدَلِّي بُوْدِي إِذْ لَا قِيَتْنِي كَذِبًا وَأَنْ أُغِيبَ فَأَنْتِ الْهَامِزُ لِلْمِزَّةِ

وفى المفاصلة يقول المثقب العبدى : (٢)

فَمَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقِّ فَأَعْرِفُ مِنْكَ غَنِيًّا مِنْ سَبِينِي
وَالْأَفَاطِرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي عَدُوًّا أَتَقِيكَ وَتَتَّقِينِي

العقوق وقطية الرحم :

أما العقوق وقطية الأرحام ، فقد تعددت عند بعض القوم مظاهرها ، ومنها ظلم الأقارب وقطع صلتهم والامانة اليهم ، كما قيل : (٣)

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصِلُ الْبُعْدِيَّ وَيَشْقِيهِ الْاَقْرَبُ الْاَقْرَبُ

ويقول طرفة : (٤)

فَأَنْتِ عَلَى الْاِدْنَى شِمَالِ عَرِيَّةٍ شَامِيَّةٍ تَزْوِي لَوَجْوهَ بَلِيلِ (٥)

(١) معجم مقاييس اللغة ٦/٦٦ - همز ، وانظر بواشر ذوى التمييز ٥/٣٤٣

(٢) ديوان المثقب ص ٢١١ - ٢١٢

(٣) الصناعتان ص ١٣٣ (٤) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٨٣

(٥) العريّة التي لا شمس معها ، والبليّل الباردة ، وتزوي الوجوه أى تقبضها من شدة بردها .

ومنها حربهم لأقربائهم وقتالهم لهم ، وذلك لأنفه الأسباب ، كاتقاء اللوم
وتجنب الاغتياب . يقول شاعرهم : (١)

إِذَا وَصَلَ النَّاسُ أَرْحَامَهُمْ فَإِنَّا نَقْطَعُهَا ظَالِمِينَنا
وَلَوْلَا اتِّقَاءُ كَلِمِ الْعُدَاةِ لَكُنَّا لِأَرْحَامِنَا وَأَصْلِينَا

ومنها هجاء الوالدين والأقارب ، كما كان يفعل الحطيثة . إذ يقول في أمه (٢)

تَنَحَّى فَاجْزِئِي مِنَّا بَعِيدًا أَرَاكِ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَنا
أَعْرَبًا لَا إِذَا اسْتَوَيْتِ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَنا

ويقول في أبيه وعمه وخاله : (٣)

لِحَاكِ اللَّهِ ثُمَّ لِحَاكِ حَقًّا أَبًا وَلِحَاكِ مِنْ عَمٍّ وَخَالَ
فَنِعْمَ الشَّيْخُ أَنْتَ عَلِيٌّ لِمَخَارِي وَبِئْسَ الشَّيْخُ أَنْتَ لَدَى الْعَالِي
جَمَعْتَ لِلْوَمِّ - لِأَحْيَاكَ رَبِّي وَأَبْوَابَ السَّفَاهَةِ وَالضَّلَالِ

ومن مظاهر العقوق عند القوم أيضا ضرب الآباء ، أو حتى قتلهم . يقول الراجز : (٤)

رَبِّيْتَهُ حَتَّى إِذَا تَمَعَّدَا وَصَارَ نَهْدًا كَالْحِصَانِ أَجْرَدَا (٥)
كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أَجْلَدَا

ويقول مالك بن فهم ، وقدرماه ولده بسهم مات منه : (٦)

أَعْلَمَهُ الرَّمَامَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

- (١) الأشباه والنظائر للخالد بن ١١٦/١ (٢) ديوان الحطيثة ص ٢٧٧
(٣) ديوان الحطيثة ص ٢٧٦ (٤) الاشتقاق لابن دريد ص ٣١
(٥) التمعدد : الغلظة والشدة ، والقوة ، يقال : تمعدد الغلام : إذا شب
وقوى (اللسان - عدد ، معد) والنهد - كالضرب - المشرف الجسيم
(اللسان - نهد) . (٦) الاشتقاق لابن دريد ص ٤٩٧ ، ٥٤٣

وعجيب أمر أولئك الناس ، يفعلون كل ذلك بأهلهم ونوى قرابتهم ،
 وهم الذين يقولون في أمثالهم : « الأهل إلى الأهل ، أسرع من السيل إلى
 السهل » (١)

الشر والضر :

وعَلِقَ بعض القوم الشرعامة ، وتواصوا به بين بعضهم أيضا .
 حتى قال قائلهم : (٢)

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ فَضْرًا نَمَّا يَرْجَى الْفَتَى كَيْمَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

ولما حضرت دُوَيْدُ بن نَهْدِ الوفاة قال لبنيه : « أوصيكم بالناس شرا ، لا
 تقبلوا لهم معذرة ، ولا تُثْقِلُوا لهم عثرة ، أوصيكم بالناس شرا ، طعنا
 وضربا ، قصروا الأعنة ، واشرعوا الأسنة ، وارعوا الكلاء وان كان على الصفا .
 وما احتجتم اليه فصونوه ، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم ،
 فان غش الناس يدعوا إلى سوء الظن ، وسوء الظن يدعوا إلى الاحتراس » (٣)

وبمثل ذلك أيضا أقربيا منه ، أوصى الحطيئة وهو على فراش الموت (٤)

(١) انظر في ذلك بصائر التمييز للفيروزبادي ٨٣/٢
 (٢) الجنى الدانى ص ٢٦٢ (٣) الوصايا والمعمرين ص ٢٦
 (٤) انظر ديوان الحطيئة ص ٣٥٥-٣٥٧ ، والشعر والشعراء ١/٣٣٣

فبئست تلك من وما يا . ان بعض القوم كان يميل الى الشر والعدوان، ولكن
بعد أن يستنفد وسائل العلم والاحسان . يقول الفند الزمانى: (١)

وَبَعْضُ الْجَلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ لِلذَّلَّةِ إِذْ عَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لَا يَنْجِيكَ إِحْسَانُ

ويقول الآخر: (٢)

وَإِنِّي لَأَبَى الشَّرِّ حَتَّى إِذَا دَنَا
وَأَرْكَبُ ظَهْرَ الشَّرِّ حَتَّى يَلِينُ لِي
وَحَلَّ بِدَارِي قَلْتُ لِلشَّرِّ مَرْجَبًا
إِذَا لَمْ أَجِدْ لِأَعْلَى الشَّرِّ مَرْكَبًا

أما أن يبداً الناس بالشر والايذاء ، ويوصى بنيه بالتسلط والاعتداء ، ويعُدُّ
ذلك من كريم الفعال وحميد الخصال ، ففيه دلالة واضحة على أن بعض النفوس
فى ذلك العصر كانت قد غرقت فى السفاهة الى حد بعيد، وأن بعض الطبائع ،
كانت قد تشربت اللوم الشديد .

رد السيئة بمثليها :

وفضَّل بعض القوم أيضاً أن يردوا الظلم بالظلم ، والجور بالجور ،
والجهالة بالجهالة . يقول عمرو بن الأَهم: (٣)

وَأَنْ قَصِدُوا الْمُرَّ الْحَقَّ فَاقْصِدْ
وَأَنْ جَارُوا فَجِرْ حَتَّى يَصِيرُوا

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣٨١

(٢) اختيار المعتم للنهشلى ص ٣٨٣

(٣) المفضلية رقم ١٢٣

ويقول لبيد : (١)

إِنَّا اقْتَصَدُوا فَمَقْتَصِدْ أَرِيْبُ وَإِنْ جَارُوا سِوَاءَ الْحَقِّ جَارًا

فأين هذا وذاك من قول عامر بن الطفيل (٢)

أَلَمْ تَعَلِّمِي أَنِّي إِنَّا الْإِلْفُ قَانِي إِلَى الْجَوْرِ لَا أَنْقَادُوا الْإِلْفُ جَائِرٌ

ويقول عنتره : (٣)

وَإِنَّا بُلِيَّتٌ بَطَالِمٌ كُنْ ظَالِمًا وَإِذَا لَقِيتَ ذُوِي الْجَهَالَةِ فَاجْهَلِي

ويقول عمرو بن كلثوم : (٤)

أَلَا لِأَجْهَلِنَ أَحَدَعَلِينَا فَجْهَلِ فَوْقَ جْهَلِ الْجَاهِلِينَا

فأين هذا وذاك من قول المثقب : (٥)

وَلَبَعْضُ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَن ذِي لُخْنَا أَبْقَى وَإِنْ كَانَ ظَلَمَ

العصبة القبلية :

واختار قوم الغواية مع رهطهم ، على الرشاد مع غيرهم ، كما اختار بعضهم نصرتهم مع الظلم ، على النصح والارشاد والحلم . يقول دريد بن الصمة (٦)

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنَ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيَّتٌ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشَدَ

- (١) ديوان لبيد ص ١٦٧ (٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٥
(٣) ديوان عنتره ص ٢٠٥ (٤) شرح لقماندا التسع لأبي جعفر النحاس القسم الثاني - ص ٦٧٩ (٥) ديوان المثقب ص ٣٣٢ (٦) الأصعيات ص ١٠٧

ويقول الآخر: (١)

أَلَمْ تَرَ قَوْمِي إِنْ نَعَاهُمْ أَخُوهُمْ
أَجَابُوا وَإِنْ يَغْضِبُ عَلَيَّ الْقَوْمَ يَغْضِبُوا

على أن أصرح مقال وأصدق مثال على ذلك قول قريظ بن أنيف: (٢)

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلَيَّ مَا قَالَ بَرهَانَا

السرف والتبذير:

وبالغ قوم من القوم في الكرم ، والجود والسخاء ، وهي من أرفع القيم وأكرم الخصال ، فتحولت الى خصال نميمة ، وهي التبذير والسرف واتلاف المال . يقول تميم بن مقبل: (٣)

فَأَخْلِفُ وَأَتْلِفُ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ
وَكُلُّهُ مَعَ النَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكِلُهُ

وبالغ آخرون في نكك ، حتى لامهم قومهم وعدلوههم ، بل وتحاموهم وأفردوهم وتجنبوهم . يقول عمرو بن كلثوم: (٤)

لَاتَلُومِيَنِي فَإِنِّي مُتْلِفٌ
كُلُّ مَا تَحْوِي يَمِينِي وَشِمَالِي
لَسْتُ إِنْ أَطْرَفْتُ مَا لَأَفْرِحًا
وَإِنَّا أَتْلَفْتَهُ لَسْتُ أَبَالِي (٥)

(١) هو حريث بن محفظ المازني - انظر تطبيقات فحول الشعراء ١٩٤/١

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٩/١

(٣) ديوان تميم بن مقبل ص ٢٤٣

(٤) معجم الشعراء ص ٧

(٥) الطرف - كالجسم - والطريف والطارف من المال: المستحدث المستفاد وأطرف الرجل أعطاه ما لا أعجبه والاسم الطرفة - بالضم - (انظر اللسان - طرف).

(١) ويقول طرفة :

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخَمُورَ وَلذَّتِّي
وَالْحَيَّانُ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا
وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمَتَلَدِي
وَأَفْرَدْتِ إِفْرَادًا لِبَعِيرِ الْمَعْبُدِ

ولم يكن افراد القوم لطرفة ، و تحاميه ، بسبب تشرا به للخمور ، ومقارفته
للملذات ، فقد كان هنا دأب كثير من القوم ، ولكن افراده وتجنبه و تحاميه
كان بسبب تبذيره الشديد ، واضاعته لكل طارف من ماله أو تليده .

احترام الفنى و احتقار الفقير :

ذلك أن القوم كانت عندهم خصلة نسيمة أخرى ، وهى احترام الفنى
وتقريبه وتعظيمه ، واجلاله وتسويده وتقديمه ، وان يكن دنى النفس ،
لثيم الطبع ، قليل العقل ، كثير العيوب . واحتقار الفقير وابعاده ،
واخماله ، وافراده و تحاميه واهماله ، وان يكن العاقل الكريم الذكى
الارمب .

يقول شاعرهم : (٢)

أَرَى كُلَّمَنْ أَتَى بَرِي ذَا مَهَابَةٍ
وَمَنْ يَفْتَقِرُ بَدْعًا لِلثَّيْمِ وَيَمْتَهِنُ
وَإِنْ كَانَ مَذْمُومًا لثَيْمًا نَقَائِبُهُ
غَرِيبًا وَتَبْغِضُنْ تَرَاهُ أَقَارِبُهُ

(١) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٣١

(٢) المجتنى لابن دريد ص ٦٩

(١)

ويقول أوس بن حجر :

وَأَنْسَى رَأَيْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ
خَفَافَ الْعَهْودِ يَكْثُرُونَ التَّنْقِلَا
بَنِي أُمِّ ذِي الْعَمَالِ الْكَثِيرِ بَرُونَهُ
وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدًا لَأَمْرُجِحِفَلَا (٢)

(٣)

ويقول الأعمى البكري :

وَيَزُرِّي بِعَقْلِ الْمَرْءِ قِلَّةَ مَالِهِ
وَإِنْ كَانَ أَقْوَى مِنْ جَالِ الْوَأَحْيَلَا

(٤)

وخير ما يمثل ذلك قول عروة بن الورد :

دَعَيْتَنِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي
رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمُ الْفَقِيرُ
وَأَبْعَدَهُمْ وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِمْ
وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسْبٌ وَخَيْرٌ (٥)
وَيُقْصِيهِ النَّدَى وَتَزْدَرِيهِ
حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وَيُلْفِي ذُو الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ
يَكَادُ فَوَادُ مَا جِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلُ ذَنْبِهِ وَالذَّنْبُ جَمٌّ
وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبُّ غَفُورٌ

الاعتفاد :

وكنت أحسب أن الصبر والتقشف ، والمهارة في الكسب عند القوم ،
قد كفتهم حوائجهم ، وجنبتهم اليأس والجزع عند نزول الشدائد ،
ولكنني وقعت على خصلة من خصالهم الذميمة ، غيرت فيهم ذلك الظن منسى ،
تلك هي عملية الاعتفاد .

(١) الشعروالشعراء ٢٠٨/١٦ (٢) الجحفل من الرجال: العظيم القدر(الصاح
١٦٥٢/٤ - جحفل) . (٣) هو عمرو بن مالك من قيس بن ثعلبة - انظر معجم
الشعراء ص ٢٠ (٤) ديوان عروة بن الورد ص ٩١ - ٩٢
(٥) الخير - بالكسر - : الأمل والشرف (انظر اللسان - خير .)

وهي أن يغلق الرجل على نفسه وأولاده - زمن الجذب - بابيه حتى يموتوا جوعاً . قال الأزهرى فى تهذيب اللغة : (١)

" وقال شمر : قال محمد بن أنس : كانوا اذا اشتد بهم الجوع ، وخافوا أن يموتوا ، اغلقوا عليهم بابا ، وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ، ليموتوا جوعاً . قال : ولقى رجل جارية تبكى فقال لها : مالك ؟! قالت : نريد أن نعتفد " .

وفى ذلك يقول الشاعر : (٢)

وَقَائِلَةٌ نَا زَمَانُ اَعْتِفَادُ وَمَنْ ذَاكَ يَبْقَى عَلَى اَلْعِتْفَادِ

فياحسرة على أولئك المعتفدين الهلكى الجياح !! ، وأين منهم ذوو الأموال وأرباب المتاع ؟! ، أين منهم الذين كانوا يفتقون عيون الفحول من أنعامهم أو يحمون ظهورها ، أو يبحرون آذان أغنامهم ، وسيبونها ، أو يفعلون بها ما أشبه من الأفعال الرعناء السخيفة ، لأنها بلغت عندهم مبالغ هائلة ، وأعدادا مخيفة ؟! أين هؤلاء من هؤلاء ؟! ولماذا لم يدركوهم وينقذوهم ؟! بل أين منهم الذين كانوا يتباهون باتلاف المال ذلك الاتلاف المقيت ، ويتفاخرون بتبذيره ذلك التبذير الشديد ، حتى

(١) تهذيب اللغة للأزهرى ٢/٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) تهذيب اللغة ٢/٢٢٥ ، وانظر اللسان - عغد ، وتاج العروس - عغد .

انهم لم يكونوا يُبقون - كما يزعمون - على أي طرف أو تليد ١٩ .

المنافرات :

وليت نميمات الخصال كانت تقف لدى بعض القوم عند ذلك الحد ،
فهناك منها ما تجاوز كل حد . ومن ذلك التفاخر بالأنساب والأحساب ،
والتمايز بسبب العنصر أو اللون ، أو غير ذلك من الأسباب .

وقد كان القوم يقفهون في منافراتهم ومفاخراتهم ، حكاما من ملوكهم
أو ساداتهم ، ومن ذلك ما دار بين يزيد بن عبد المدان - من منجج - ،
وعامر بن لطفيل - من هوازن - ، وفي ذلك يقول يزيد : (١)

لَاتَجْعَلَنَّ هَوَا زَنَا كَمَنْجِجٍ مَا النَّبْعُ فِي مَغْرِسِهِ كَالْعَوْسِجِ (٢)
وَلَا الصَّرِيحُ الْمُخَضُّ كَالْمَمْرِجِ

ومن ذلك أيضا ما كان من زعماء بعض القبائل عند كسرى ، حين طلب اليهم
أن يتفاخروا بين يديه ويتنافروا ، ففعلوا ، اذ قام عن كل خطيب وشاعر ،
فعددا مفاخر القوم وخيرهم وحسبهم ونسبهم ، وما أشبه ، فأجازهم
كسرى ولم يفضل منهم أحدا على أحد . (٣)

(١) انظر الاغانى - دار الثقافة - ٨١٢

(٢) النبع - كالدرج - شجر من اشجار الجبال تتخذ منه القسي (تهذيب اللغة

٨٣) ، والعوسج : شجر من شجر الشوك - (انظر اللسان - عسج) .

(٣) انظر نهاية الارب - للقلقشندي ص ٤٥٦

وكانا لقوم اذا جلسوا لتلك المناقرات والمفاخرات ، صعدوا
خدونهم ، وأشاروا برماحهم وعصيهم ، وخطوا على الأرض بقسيهم . كل ذلك
يفعلون تعازما وتعاليا .

(١)
يقول الحطيئة :

أَمْ مِنْ لِقَوْمٍ مُّضْجِعِينَ ، قَسِيهِمْ
مِثْلَ خَدُونِهِمْ عِظَامِ الْمَفْخَرِ

التمييز بسبب العنصر أو الأمهات :

أما التمييز فهو من أحط القيم ، وأرذل الفعال ، وكان القوم
يتفاخرون به ، يقول المتلمس : (٢)

أَحَارِثُ إِنْ أَلُو تَشَاطُ بِمَا وَنَا
تَزِيلُنْ حَتَّى مَا يَمْسُ دَمُ نَمَا (٣)

أرأيت كيف ان دم القوم - لو قتلوا معا - لاتقبل الاختلاط ، فلا يختلط
دم الشريف بدم الوضيع ، ولام الكريم بدم البخيل ، ولام الحر بدم العولى ،
ولام الاصيل بدم الدخيل ..

فيال العجب ! ويا للكبر ! ويا للافتراء ! ، يقول رجل من بنى شيبان
" كنت أسيرا مع بنى عم لى ، وفينا جماعة من مواليها ، فهايدى لتغالبة

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٦٨ (٢) لسان العرب - شيط - ، وانظرا الصحاح للجوهري
١١٣٩/٣ - شيط - أيضا ، ولكن بدون نسبة . (٣) شاط فلان الدماء أى خلطها
انظرا الصحاح ١١٣٩/٣ - شيط .

فضربوا أعناق بنى عمى ، وأعناق الموالى ، على وَهْدَةٍ من الأرض (١) ، فكنت والله أرى دم العربى ينماز من دم المولى ، حتى أرى بياض الأرض بينهما فاذا كان هجينا ، قام فوقه ولم يعتزل عنه « (٢)

وإذا كانا القوم تتميز بماؤهم فى مهاتهم - كما يزعمون - فما ظنك بهم فى حياتهم ! لقد ميزوا بين الناس وجعلوا بعضهم فوق بعض . فهذا نخيل وهذا أصيل ، وهذا هجين وهذا نضار ، وهذا أمه من السبايا ، وهذا أمه من الأحرار .

بل لقد وصل الأمر ببعضهم الى استعباد أبنائه ، اذا كانت أمهاتهم من الأماة . يقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء : (٣) « وكانت العرب فى الجاهلية ، اذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده » . وما حديث عنقرة (بن زبيبة) مع أبيه عمرو بن شداد (*) ، بمجهول لأحد من الناس

وإذا كانا القوم قد استعبدوا أبناء الأماة ، فقد أنزلوا أبناء السبايا منزلة أقل وأدنى . يقول شاعرهم : (٤)

(١) الوهدة - كالوقعة - المكان المظمتن والجمع وَهْدٌ ووهاد - كضرب وعراك - (انظر الصحاح ٥٥٤/٢ - وهدة) .

(٢) الشعر والشعراء ١٨٣/١ (٣) الشعر والشعراء ٢٥٠/١

(٤) هو عمرو العبدى كما ذكر الابشيهير فى المستطرف ٨٥/٢ .
(*) فى أبى عنقرة خلافة يد كما هو معروفه أهو عمرو أم شداد أم معاوية .

نَهَيْتُمْ أَنْ تَحْمِلُوا فَوْقَ خَيْلِكُمْ هَجِينَا لَكُمْ يَوْمَ الرَّهَانِ فَيُدْرِكُ
وَهَلْ يَسْتَوِي الْمَرْءُ أَنْ هَذَا ابْنُ حُرَّةٍ وَهَذَا ابْنُ آخِرٍ ظَهَرَا مَتَشَرَكًا (١)

ولكن بعض القوم قد غضب لهؤلاء ، فذكر بعض مزايياهم ، وأعلن بعض
سجايياهم ، يقول لقيط بن معمر : (٢)

وَكَمْ قَدْتَرَى فِينَا مِنْ ابْنِ سُبَيْتٍ إِذَا لَقِيَ الْأَبْطَالَ يَطْعَنُهُمْ شَرًّا (٣)
وَيَأْخُذُ بِيَانَ لَطْعَانَ بِكَفِّهِ فَيُورِثُهَا بَيْضًا وَيُصَدِّرُهَا حُمْرًا

التمييز بسبب اللون :

وكان أخطر ما يميز به القوم في ذلك الزمان ، الاختلاف في الألوان .
فكان السواد لأهله سبة أي سبة ، وهوانا أي هوان .

وكان السواد منهم ومن مواليهم يشعرون بذلك ، ولكنهم لا يطبقون
له دفعا أوردا ، إلا أن يكونوا من النباهة والبطولة ، بحيث يفرضون
احترامهم على القوم فرضا . يقول عنتره : (٤)

وَإِنْ كَانَ جِلْدِي يُرَى أَسْوَدًا فَلِي فِي الْمَكَارِمِ عِزٌّ وَرَتْبَةٌ
ويقول أيضا : (٥)

خُلِقْتُ مِنَ الْحَدِيدِ أَشَدَّ قَلْبًا فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْ بَيْضٍ وَسُمْرٍ
أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي خَبَّرَتْ عَنْهُ يَلَاقِي فِي الْكَرْبَةِ أَلْفَ حُرٍّ

(١) متشرك : أي مشترك (انظر اللسان - شرك)

(٢) المستطرف للإبشيبي ٨٦/٢ ، ولقيط بن معمر أو ابن يعمر سواء

(٣) الشَّرُّ الشدة (انظر اللسان - شزر) .

(٤) ديوان عنتره ص ٩٦ (٥) ديوان عنتره ص ٢٥٩

وكان اجتماع القوم على احتقار السواد ، يدفع السود دفعا الى
المكارم والنباهة ، والبطولة والفصاحة ، حتى ينالوا منازلهم ، ويحققوا
آمالهم . يقول عنتره : (١)

دَعْنِي أَجِدَّ إِلَى الْعُلَيَاءِ فِي الطَّلَبِ وَأَبْلُغِ النَّايَةَ الْقَصْوَى مِنَ الرُّتَبِ
لَعَلَّ عَيْلَةً تَضْحِي وَهِيَ رَاضِيَةٌ عَلَى سَوَادِي وَتَمَحُو صُورَةَ الْغَضَبِ

ويقول سحيم : (٢)

أَشْعَارُ عَبْدِ بَنِي الْحَصَايْنِ قَمْنٌ لَهُ يَوْمَ الْفَخَارِ مَقَامُ الْأَصْلِ وَالْوَرَقِ
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ سُودًا لِلَّوْنِ نَيْ أَبْيَضِ الْخَلْقِ

التمييز بين الاخوة بنو العلات :

ولعل من التمييز الذي ساد القوم أيضا ، وكان من القيم لها بططات ،
والفعال الخسيات ، تمييزهم بين الاخوة بنى العلات (٣)
يقول الأسود بن يعفر : (٤)

(١) ديوان عنتره ص ١١١

(٢) ديوان سحيم ص ٥٥

(٣) بنو العلات : الاخوة لأب واحد ونساء شتى .

(٤) نقدا لشعر ص ٤٢

هُمُ الْأُسْرَةُ الدُّنْيَا وَهُمْ عَدُوُّ الْحَصَى
وَإِخْوَانُنَا مِنْ أَمْنَا وَأَبِينَا

ويقول متمم بن نويرة: (١)

وَكَلَّفْتَنِي فِي النَّاسِ بَعْدَ ابْنِ أُمِّهِ
كَسَائِقَةٍ إِحْدَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَبْلِ (٢)

بل لقد كانوا يظلمون اخوانهم من غير أمهاتهم ، ويهضمون حقوقهم .
ومن أمثلة ذلك ما فعله عمرو بن هند ، حين قرب أخاه قابوس بن هند ،
وأقطعه وولاه ، وأهمل أخاه عمرو بن مامة (٣) ، وحرمه وأقصاه .

وفي ذلك يقول عمر بن مامة هذا: (٤)

أَلْبَيْنُ أُمَّكَ مَا بَدَا وَلَكَ الْخُورْنَقُ وَالسِّدِيرُ
فَلَا مَنَعَنِي مَنَابِتُ الضَّمْرَانِ إِذْ مَنَعَ الْقَصُورُ
أَنْتَى بَنِي الْعَلَاتِ تَقْضَى دُونَ شَاهِدِنَا الْأُمُورُ

- (١) معجم الشعراء ص ٤٣٣
(٢) الخبل - كالضرب - فساد الأعضاء ، والجمع خُبُول (انظر اللسان - خبل)
(٣) وقيل عمرو بن أمامة
(٤) انظر ديوان طرفة بن العبد بشرح ابن السكيت - مخطوطة دار الكتب
المصرية رقم ١٥٢ أبش ، ورقم ٩٦ أبش - ورقة ٢ لكل منهما .

الظلم والقسوة والغلظة :

ولم يكن الظلم فى علاقات القوم ببعضهم ، ينتهى عند ظلم اخوانهم
أو التمييز بينهم . ولكنه تعداه الى ظلم كل من يستأيعون ، والاعتداء
على كل من يستضعفون ، واستباحة حمى كل من به يظفرون .

وذلك فى قسوة قاسية ، وغلظة غليظة ، وتسلط شديد ،

ونفوس كأنها نحتت من الصخر أو قدت من الحديد . يقول عامر بن الطفيل: (١)

وَنَحْنُ صَبَحْنَا حَتَّىٰ أَسْمَاءَ بِالْقَنَا وَنَحْنُ تَرَكْنَا حَتَّىٰ مَرَّةً مَا تَمَّا
بَقَرْنَا الْحَبَالَىٰ مِنْ شَنْوَةَ بَعْدَمَا خَبَطْنَ فِيهِ الرِّيحَ نَهْدًا وَخْتَمًا (٢)

فهل بعد بقر بطون الحبالى من قسوة أو ظلم !! أهل بعد الطرب لنواح
الشكالى وصياح الأيتام وعويل الأرامل من قسوة أو ظلم !!

ومن مظاهر الظلم أيضا عند القوم تجاوز الحد فى الثأر والقود .

فما لقتل بالقتل من العدل ، ولكن الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ، وهكذا .
أما أن يقتاد لواحد بمائة ، فليس من العدالة فى شىء . يقول عامر بن الطفيل: (٣)

قَتَلْنَا مِنْهُمْ مِائَةً بِشَيْخٍ وَصَفَدْنَا هُمْ عَصَبًا قِيَامًا

(١) ديوان عامر بن الطفيل ص ١١٧ - ١١٨

(٢) حى أسماء يعنى بنى فزارة ، ومرة بن عوف بن سعد ، وشنوة ونهد وختم
من القبائل اليمنية . وفيه الريح يوم كان لبنى عامر على تلك القبائل

انظر ديوان عامر بن الطفيل ص ٦ (٣) ديوان عامر بن الطفيل ص ١١٢

ويتناول مالك بن العجلان ، فيتعدى فى عقل مولى له ، قتل فى يوم سميحة ،
الذى كان بين الأوس والخزرج ، فيقول - فيما ذكر ابن سلام فى طبقات الفحول:^(١)
" لاأخذ فيه الأديبة الصريح " .

وكان القوم يعدون مثل ذلك من مفاخرهم ، بل ويتمنون به ،
يقول زهير:^(٢)

جَرِيٌّ مَتَى يَظْلَمُ يَعاقِبُ بِظُلْمِهِ سَرِيْعًا وَالْأَيْدِ بِالظُّلْمِ يَظْلَمُ

فهو يحمد فى ممدوحه من صفات الأسد الجرأة والضراوة ، اللتين تجعلانه
يبدأ بالظلم من لم يبدأ به ، فضلا عن أن ينتقم ممن يظلمه .

ويقول جرير بن خالد التغلبي:^(٣)

مَنْعَنَا حِمَانًا وَأَسْتَبَاحَتْ رَمَاحُنَا حَمَى كُلِّ قَوْمٍ مَسْتَجِيرٍ مَرَاتِعَهُ

ويقول عمرو بن معد يكرب:^(٤)

سَبَى الْأَطْفَالَ وَأَجْتَزَّ النَّوَاصِي مِنْ الْأَبْطَالِ وَأَنْتَفَّ الدِّيارَا

ويقول المرار الفقسي:^(٥)

وَكَاثِنٌ تَرَكْنَا مِنْ كَرَائِمِ مَعْشَرٍ لَهْنٌ عَلَى آبَائِهِنَّ عَوِيْلٌ

ويقول المتنخل الهذلي:^(٦)

لَأَيْسَلِمُونَ قَرِيحًا حَلَّ وَسَطَهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ وَلَا يَشْرُونَ مِنْ قَرِحُوا^(٧)

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢١٦/١ (٢) ديوان زهير ص ٢٤

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٥١٧/١

(٤) ديوان عمرو بن معد يكرب ص ٩٨

(٥) الصناعتان لأبي هلال العسكري ص ٦٥

(٦) التنقيفة فى اللغة ص ٢٧٦

(٧) القرح - كالضرب - والقرح بالضم - عض السلاح ونحوه - والقرح -

الجريح (اللسان - قرح) - والشوا - الأبقاء - وكذلك الشوى (اللسان - شوا) .

فيال قسوة القلوب .. وياال غلظة الأكباد . وياال جفوة النفوس ، وياال ظلم
العباد للعباد !.. يفعل القوم كل ذلك ، ثم يتفاخرون به . فهم يعتدون على
الأمنين ، وهم يستبيحون حمى الآخرين . وهم يبدؤون الناس بالمشاركة والحرب ،
وهم يظلمونهم بسبب وبدون سبب . وهم اذا غزوا قوما ينتسفون الديار ،
ولايبقون على صغار أو كبار .

والأسوأ من ذلك أن يُجهزوا على الجريح من أعدائهم ، وأن يطربوا
لسماع عويل الأيتام على آباءهم . فهل رأيت قيما أحسن من تلك القيم !.. أو
غلظة أقسى من هذه الغلظة !.. ، لقد صدق مهلهل حين قال :
(١)

يُبْكِي عَلَيْنَا وَمَا نُبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَطُ أَكْبَادًا مِنَ الْأَبْلِ

بل انهم أغلظ أكبادا من الجلاميد ، وأقسى نفوسا من الحديد .

ربط لسان الأسير الشاعر :

وكان من ظلم القوم أنهم ربما ربطوا لسان الأسير الشاعر ، امعانا
في ايذائه واغاطته وعقوبته . يقول عبد يغوث : (٢)

أَقُولُ وَقَدْ شُدُّوا لِسَانِي بِنَسْعَةٍ أَمْعَشَرَّ تَيْمٍ أَطْلِقُوا عَنْ لِسَانِيَا

(١) حلية المحاضرة ١ / ٢٩٢

(٢) شرح أب الكاتبص ١١٢

وكانوا ربما مثلوا بالأسرى وقتلوهم شر قتلة . ومن ذلك ما فعله بنوعامر
بمعبد بن زرارة حين أسروه . قال أبو الفرج: " فبعثوا بمعبدالى رجل
بالطائف كان يعذب الأسرى ، فقطعه إرباً إرباً حتى قتله " (١)

المعاينة بشق ثياب المتحابين :

وكان عند القوم من لقيم الهابطة أمور أخرى كثيرة غير ذلك . منها
التعابث فى الغزل بشق الثياب والبراقع ، وشدة المغالبة على اظهار
المحاسن . قال أبو عبيدة " وكان من شأنهم اذا جلسوا للغزل أن يتعابثوا
بشق الثياب ، وشدة المعالجة على ابداء المحاسن " (٢)

وفى ذلك يقول سحيم - عبد بنى الحساس : (٣)

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ دَاءِ مَنْيَّرٍ وَمِنْ بَرَقِعٍ عَنِ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسِ
إِذَا شَقَّ بَرْدُ شَقِّ بِالْبُرْدِ بَرَقِعٌ دَوَالِيكَ حَتَّى كَلْنَا غَيْرَ لِابْسِ

التذلل والخضوع :

ومن ذلك أيضا التذلل والخضوع الذى كان يتمثل فى بعضهم بين
يدى الملوك ، أو الاستكانة للذل والمهانة التى خالفت المعهود من طباعهم .

(١) الاغانى - دار الثقافة ٩٥/١١

(٢) ديوان سحيم - عبد بنى الحساس - ص ١٥ ، وانظر كذلك الاغانى - ثقافة

(٣) ديوان سحيم ص ١٦

(١) ففى التذلل والخضوع يقول النابغة :
 فَإِنْ أَكْ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ مَظْلُومٌ وَأَنْ تَكْ غَضْبَانًا فَمِثْلُكَ يَعْتَبُ

(٢) ويقول أيضا :

فَلَا لِعَبْدٍ بِأَلْعَبْدِ الَّذِي لَيْسَ مَعْتَبًا وَلَا أَنْتَ يَا رَبَّ لِأَلْدَا لِمَصْمُومٍ

أما الخضوع والاستكانة والصبر على المذلة والمهانة ، فقد تمثلت فى بعض القوم أيضا ، كما كان من شأن عتيب . وعتيب هذا هو أبو حنيفة من اليمن . وكان من حديثه فيما ذكر العلماء - أن أحدا لملوك أغار على قومه . فسبى الرجال وأسره واستعبدهم . فكانوا يقولون : إذا كبر صبياننا لم يتركونا حتى يفتكونا . وظل هذا التخاذل شأنهم حتى هلكوا .

(٣) وفى ذلك يقول عدى بن زيد :

تَرْجِيئَهَا وَقَدْ وَقَعَتْ بِقَسْرِ كَمَا تَرْجُو أَمَا غَرَّهَا عَتِيبُ

على أنه كان قد شاع بين بعض القوم من وضع القيم ما هو أخطر من هذا التذلل أو ذاك الخضوع ، اللذين خالفا ما عهد عنهم من الأثفة والعسرة

(١) ديوان النابغة ص ٧٨

(٢) العتب - كالضرب - الموجدة ، والاعتاب والعتبى : رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العاتب (اللسان - عتب) .

(٣) ديوان النابغة ص ١٩٥

(٤) انظر البيت ، والخبر فى اللسان - عتب .

والاباء . أما ما هو أخطر منهما وأشد هبوطا ووضاعة وخسة وشناعة ، فهو
 نهاب الفيرة من بعض النفوس ، وانعدام المروءة .. وكانتا من أكرم
 خصالهم وأرفع قيمهم ..

نكاح الاستبضاع :

وأهم مظاهر نهايتها وانعدامها ما شاع بينهم من أنكحة
 كنكاح الاستبضاع وهو أن يطلب الرجل الى زوجته أن تستبضع من غيره . وكان
 نكاح الاستبضاع قد عرف بينهم . وفيه تقول أم المؤمنين عائشة رضيا لله
 عنها ، فيما أخرج الامام البخارى فى كتاب النكاح ، من حديث عروة بن
 الزبير : " كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمئنها : ارسلنى الى
 فلان فاستبضعى منه . ويعتزلها زوجها فلا يمسه حتى يتبين حملها من
 ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب .
 وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد " (١)

نكاح الحوامل :

وربما كان من هذا الباب تزوجهم من بعض المطلقات أو الأراامل ، وهن
 حوامل . وإغضاؤهم على نسب المولود على فراشهم ، وهم يعلمون أنه من
 الزوج الأول ، وذلك أيضا مما كانوا يفعلونه طلبا للولد ، أو حبا فى
 الكثرة أو النجابة . (٢)

(١) انظر جامع الاصول - لابن الأثير الجزرى - ١٢/١٣٧ - حديث رقم ٨٩٥٨
 (٢) انظر فى ذلك الحيوان للجاحظ ١٠٨/١ ، ومجمع الأمثال للميدانى ١٨٧
 مثل ٩٦٩

فأين هذا الدنو والاسفاف ، والتخلي عن كل أثر من مروءة أو غيرة أو عفة ،
من ذلك الغلو في ستر النساء حتى كان بعضهم يحرمها من رؤية أخيها من أمها
وأبيها !

ومما ساد بين بعضهم كذلك من الأثكحة الفاسدة ، النكاح الذي
عرف عندهم بنكاح المقت . وهو أن يخلف الرجل أباه على امرأته .^(١) قال
القرطبي في تفسيره :^(٢) " وقد كان في العرب قبائل ، قد اعتادت أن يخلف
ابن الرجل على امرأة أبيه ."

وفي ذلك يقول أوس بن حجر :^(٣)

وَالْفَارِسِيَّةُ فِيهِمْ غَيْرُ مَنْكُورَةٍ
فَكَلَّمَهُمْ لِأَبِيهِ ضِيْزَنَ سَلْفٍ^(٤)

الفحش وبذاءة اللسان :

وإنا أغفلت من خلال القوم النميمة وقيمهم الهابطة - شيئا ،
أونسيته ، فلا أغفل فحش بعضهم في الكلام ، وبذاءة ألسنتهم ، سواء في
الغزل أو في الهجاء ، أوحثي في المسامرات والأحاديث .

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ص ١١٢ ، والمحبر لابن حبيب ص ٣٢٥ ، والغانى لأبي
الفرج ١١٧/٣ ، ونهاية الأرب للنويري ١٢٠/٣ (٢) تفسير القرطبي ١٠٣/٥
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٧٥ (٤) الضيّن: الذي يزاحم أباه في امرأته ،
وذلك مما كانت تفعله المجوس (انظر تاج العروس - ضرن).

ولهم من الأشعار والأرجاز التي تطفح بذلك وتغصُّ به الكثیرُ
والكثیر . ولكنني أعتذر عن ذكر شيء منها في بحثي هذا . وسأكتفي بالإشارة
إلى مواضعها من مصادر شعرهم ، ليرجع إليها من يشاء .

فلقد أسفَّ النايفة مثلاً ، وهويتحدث عن المتجردة امرأة النعمان
ابن المنذر وقد أحصى عليه ابن قتيبة ذلك في الشعر والشعراء (١٦٦/١) . كما
أفحش امرؤ القيس في حديثه الذي أبان فيه عما دار بينه وبين أحد صويحباته ،
وقد أحصى ابن قتيبة أيضاً عليه ذلك في المصدر ذاته (١٣٥/١) . (٢) وأفحش
تأبط شراً في حديثه عن الفول ، ومراودته أياها عن نفسها كما زعم . (٣)
وأفحش كل من الحطيئة وسحيم في غزلهما . (٤) وكذلك كان يفعل
الأغلب العجلى الرجز . حتى قال فيه الأمدى : " وله في المفاحشات ما ليس
لشاعر " (٥) . وقد ذكر له أبو الفرج بعض تلك المفاحشات في أغانيه (٦)

-
- (١) انظر في فحش النايفة أيضاً ديوانه ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، والأغاني ٥/٢١
ومعجم مقاييس اللغة ٦٧/٢ - حصف - ، ولسان العرب - خثم وغيرها .
(٢) انظر أيضاً ديوان امرئ القيس ص ١٢ ، ١٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٥٩ ، وغيرها .
(٣) انظر الشعر والشعراء ٣١٤/١ ، وانظر كذلك الأغاني - دار الثقافة -
١٤٨/٢١ - ١٤٩ .
(٤) انظر ديوان الحطيئة ص ١٤٧ ، وانظر ديوان سحيم ص ٢٠ ، ٢١ ، وانظر
كذلك في فحش سحيم ووقاحته الأغاني - دار الثقافة - ٣٣٤/٢٢ .
(٥) الموتلف والمختلف للأمدى ص ٣٣ .
(٦) انظر الأغاني - دار الثقافة ٣٤/٢١ .

ومن ذلك أيضا الشعر الوقح القبيح الذي دار - فيما ذكروا - بين
 مسيلمة الكذاب وسجاح المتنبية^(١) وكذلك الشعر الذي رد به أنس بن مدرك
 الخثعمي - قاتل السليك من السلكة - على من طالبه بعقله^(٢) وغير
 ذلك كثير. (٣)

الفحش في الهجاء:

وكان لبعض القوم كذلك في الهجاء فحش وبذاءة شديداً، تتسامى
 عن ترديها الشفاه، ويأنف من ذكرهما اللسان. ومن ذلك هجاء النابغة
 الذبياني لبني عبيس. (٤) وخطاب لبيد بن ربيعة للنعمان بن المنذر،
 مُعَرَّضاً بالربيع بن زياد العبيسي، والذي قال في أوله: (٥)

مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَأَتَاكُلُ مَعَهُ

ومن ذلك أيضا الفحش الذي رد به المرار الفقعسي الأدي على المساور بن
 هند العبيسي - وكان هجا بني أسد. (٦)

- (١) انظر الاغانى ٣٦٧/٢٥ ، والدرة الفاخرة ١/٢٢٥
 (٢) انظر الشعر والشعراء ٣٦٨/١ ، وانظر كذلك الاغانى ٣٥٧/٢٠
 (٣) انظر الأضداد لأبي حاتم السجستاني ص ١٥٠ ، والحيوان للجاحظ ٤٠/٣
 ٤١ ، والاشتقاق لابن دريد ص ١٨ ، ومعجم مقاييس اللغة
 لابن فارس ٤٣٢/٢ - ركب ، والأشباه والنظائر للخليليين ٢/٢٤٤ ٢٥٤ ٢٦
 والصاحح للجوهري ٥٨٣/٢ - أير ، وفصل المقال لأبي عبيد البكري ص:
 ٣٥٨ ، ٣٨٧ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٨٧ ، ولسان
 العرب لابن منظور - أير - وغير ذلك كثير.
 (٤) انظر ديوان النابغة ص ٢١٤ (٥) ديوان لبيد ص ٣٤٣
 (٦) انظر الشعر والشعراء ٣٤٨/١ - ٣٤٩ .

ومنه أيضا هجاء سالم بن دارة ، لبني فزارة ، والذي قتلوه بسببه .
 (١) ومنه كذلك ما دار بين بني فزارة وبني هلال بن عامر ، حين تنافروا بين
 يدى أنس بن مدرك الخثعمي . (٢)

ومنه ما دار بين النابغة الجعدى ، وليلى الأخيلية من تهاج ، وقد أحصى
 عليهما ابن قتيبة بعض ذلك . (٣) ومنه أيضا ما دار بين حسان بن ثابت
 والخنساء فى سوق عكاظ ، حين قدم النابغة الخنساء على حسان . فنال
 منها حسان بلسانه ، فردت عليه أعنف رد ، ونالت منه بمثل قوله أو
 أشد . (٤)

.. وغير ذلك .. (٥)

-
- (١) انظر الشعر والشعراء ٤٠٧/١ ، وانظر كذلك التقفية فى اللغة ص ١٤٨
 (٢) انظر الدرر الفاخرة ٨٦/١ ٨٧
 (٣) انظر الشعر والشعراء ٤٤٩-٤٤٨/١ ، وانظر كذلك ديوان النابغة الجعدى
 ص ١٢٤ ، ص ١٢٦ .
 (٤) انظر الشعر والشعراء ٣٤٤/١
 (٥) انظر ديوان العباس بن مرداس ص ٣٧ ، والمفضلية رقم ٨٩ ، والأصعيات
 ص ٢٣٥ ، ٣٣٦ ، وأب الكاتب لابن قتيبة ص ٣١٧ ، والدرر الفاخرة
 للأصبهاني ٨٧/١ ، ٨٨ ، ١١١ ، والموتلف والمختلف للأمدى ص ١١٠ ، ٢٤ ،
 ١١٥ ، ١٩٥ ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٣١ ، والأشباه
 والنظائر للخالديين ٢٦/٢ ، والمنصف لابن حنى ١٣١/٢ ، ومعجم مقاييس
 اللغة ١٧/١ ، ٤٥/٣ ، واختيار الممتع للنهشلى ص ٢٩٢ ، وشرح أب
 الكاتب للجواليقى ص ٣٠٠ ، وضرائر الشعر لابن عصفور الأشبيلية
 ص ٢٠٤ ، ٢١٠ ، وغيرها .

التعهر والفجور :

على أن الأسوأ من ذلك ، والأقبح والأفحش ، التعهر والفجور ،
والمجاهرة باقتراف مختلف الفواحش ، الذي كان يهذى به بعضهم ، كما مرئ
القيس ، والأعشى - ميمون بن قيس ، والمنخل اليشكري ، وعبد بنى
الحساس ، وغيرهم .

وأعجب العجب أن يجهر هؤلاء بما كانوا يفعلون ، وأن يفخروا بما
كانوا يقتربون ، كل ذلك فى وقاحة ودونها وقاحة السفهاء ، وصراحة
لاتعرف الوقار ولا الحياء . ويكفى للتمثيل على ذلك - أن نقرأ قول
امرئ القيس : (١)

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضْتُ لِنَوْمٍ نِيَابَهَا لَدَى السِّتْرِ الْإِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ (٢)

ثم يكمل ما دار بينه وبينها من أقوال وأفعال ، لا يُقَدِّم على قولها الا المتعهرين ،
ولا يجاهر بها الا المتفحشون . وفى ديوان امرئ القيس من تعهره وفجوره ،
ونعيه على نفسه بالفواحش ، ما هو أسوأ من هذا بكثير . (٣)

ومن العجب أن يستجيد بعض العلماء ، شعر امرئ القيس الذى
تعهر فيه ، بحجة أن فحاشة المعنى ، ليست مما يزيل جودة الشعر . ذلك
ما نهى اليه قدامة بن جعفر فى نقدا الشعر . (٤) وصدق الذى قال :
وللناس فيما يعشقون مذاهب .

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٤
(٢) نَضًا ثَوْبَهُ عَنْهُ نَضُوًّا : خَلَعَهُ وَأَلْقَاهُ عَنْهُ ، وَبِجُوزِ تَشْدِيدِهِ لِلتَّكْثِيرِ
(انظر الصحاح للجوهري ٢٥١٧٦ - نضا) .
(٣) انظر ديوان امرئ القيس ص ١٢ ، ٣٠ ، ٣١ ، وغيرها وانظر الموشح
للمرزبانى ص ٤١ ، وَاللِّسَان - نعى .
(٤) انظر نقدا الشعر ص ١٩ .

وكان الأعشى - كذلك - من المتعهرين ، والأمثلة على تعهره فى شعره كثيرة ، ومنها قوله : (١)

فَدَخَلْتُ إِذْ نَامَ الرَّقِيبُ فَبِتُّ دُونَ ثِيَابِهَا

ثم يكمل قصته معها ، فى وقاحة صارخة ، مستخدما لذلك المعانى الهابطة ، والألفاظ الجارحة .

علماً أن ذلك لم يكن كل تعهر الأعشى ، وكل فجوره ، فقد كانت له جولات فاجرة أخرى كثيرة . فهو يخالس أرباب البيوت غفلاتهم ، ليتصببى زوجاتهم . (٢) وهو يدب الى المحارم اذا سجا الليل وخيم الظلام ، دبب اللصوص الى الأخبية والأمتعة والسوام . (٣) وهو يفخر بهتك الأستار ، وشرب الخمر واشاعة القمار ، وغير ذلك من فحش وتعهر وفجور . يقول : (٤)

فَقَدْ أَخْرَجَ الْكَاعِبَ الْمَسْتَرَاةَ مِنْ خِدْرِهَا وَأَشْبَعَ الْقِمَارَا

ويقول أيضا : (٥)

فَقَدْ أَشْرَبَ الرَّاحَ قَدْ تَعَلَّمِيْنَ .. يَوْمَ الْمَقَامِ وَيَوْمَ الطَّمَنِ
وَأَقْرَرْتُ عَيْنِي مِنَ الْغَانِيَاتِ .. إِمَّا نِكَاحًا وَإِمَّا أَرْزَانًا

الى غير ذلك من لفحش الذى لا يسف اليه الا أمثال الأعشى من المتعهرين .

(١) ديوان الأعشى ص ٣٠٣ (٢) انظر ديوان الأعشى ص ١٠٩

(٣) انظر ديوان الأعشى ص ٧٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧

(٤) ديوان الأعشى ص ٩٥ (٥) ديوان الأعشى ص ٦٧

أما عبد بنى الحساس، المعروف بسحيم، فقد عرفنا جانباً من
تعمره وفحشه، حتى اضطر القوم إلى التخلص منه وقتله (١) ونعم ما فعلوا.

وأما المنخل اليشكري، فيكفي للتدليل على تعمره وتهتكه هو
الخر - أن نستعيد بعض قصيدته التي مطلعها: (٢)

إِنْ كُنْتُ عَاذِلْتِي فِسِيرِي نَحْوَ الْعِرَاقِ وَلَا تَحْوِوْرِي

والتي يقول فيها:

وَلَقَدْ نَخَلْتُ عَلَى الْفَتَاةِ - الْخِدْرُ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
الْكَاعِبِ الْحَسَاءِ تَرْفُلُ - فِي الْمَقْسِ وَفِي الْحَرِيرِ

ثم يكمل بوصف فجوره وعبثه وتبذله وتهتكه وشربه وغير ذلك (٣)

مجالس الشراب:

على أنه إذا كان التعمر والمجاهرة بالفواحش، ست يعرض القوم
كمن مثلنا بهم - فقد كانت مجالس الشراب ومعاقرة الكئوس، والفرق

(١) انظر في ذلك الأشباه والنظائر للخالد بن دينار ٢٤/٢ - ٢٥

(٢) الصعبيات ص ٥٨

(٣) انظر الصعبيات ص ٥٨ - ٦١، ونقد الشعر لقدامية بن جعفر ص ٣٦ - ٣٧،
والأغاني لأبي الفرج ١١/١٣ - ١٤، ومعجم الشعراء للمرزبان ص ٣٠٣

في الملذات، سمت الكثيرين منهم أيضا . وكانوا يعدون ذلك من مفاخرهم
وقيمهم التي يعتزون بها .

وفي ذلك يقول عمرو بن أحمر (١)

مِنْ دُونِهِمْ إِنْ جُنْتَهُمْ سَمْرًا عَزَفُ الْقِبَانِ وَمَجْلِسُ غَمْرٍ
وَجَرَادَاتٍ تَغْنِيَانِهِمْ وَعَلَيْهِمَا الْيَاقُوتُ وَالشُّذْرُ (٢)

ويقول طرفة: (٣)

نَدَامَا كَبَيْضِ كَالنَّجُومِ وَقَيْنَةَ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بَرْدٍ وَمَجْسِدِ
رَحِيبٍ قَطَابُ الْجَبِينِهَا رَفِيقَةَ بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ
إِنَّا نَحْنُ قَلْنَا أَسْمِعِينَا انْبَرَّتْ لَنَا عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةٌ لَمْ تَشُدِّدْ

نعم . . لقد كان القوم يعدون معاقرة الخمر من مفاخرهم، حتى جعلها
طرفة قرينة لشهود حلقة القوم ، وصنوا للاجتماع لبحث المعضلات من
الأمر . يقول: (٤)

وَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْقِنِي وَإِنْ تَقْتِنِصْنِي فِي الْحَوَانِ نَيْتِ تَصْطَدِ
وجعلها حاتم الطائي أهم غايات القوم ، ومبعث قراهم وصراعهم .
يقول: (٥)

أَمَّا وَيْ إِيَّا مَاتُ فَاسْعَى بِنَطْفَةٍ مِنْ الْخَمْرِ رِيًّا فَانْضَجْنَ بِهَا قَبْرِي (٦)
فَلَوْ أَنَّ عَيْنَ الْخَمْرِ فِي رَأْسِ شَارِفِي مِنْ الْأَسَدِ وَرِدِّي لَاعْتَلَجْنَا عَلَى الْخَمْرِ (٧)

(١) ديوان عمرو بن أحمر ص ٩٢ (٢) الشُّذْرُ بفتح الشين المعجمة ، وسكون الذال
المعجمة أيضا : القِطْعُ من الذهب ، أو اللؤلؤ (انظر اللسان - شذر)

(٣) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٢٩ - ٣٠ (٤) ديوان طرفة ، دمشق - ص ٢٩

(٥) ديوان حاتم - دار صادر وبيروت - ص ٤٥ (٦) النطفة - كالدمية :

الصافي من الخمر ، قليلا كان أو كثيرا - كالنطفة من الماء ، والجمع نَطْفٌ
وِنَطَافٌ (انظر اللسان - نطف) . (٧) الاعتلاج والعلاج: الصراع والقتال

والممارسة (انظر اللسان - عالج) .

وإذا أردت أن تعرف إلى أي حد اهتم القوم - أو قل بعض القوم
بمقارعة الخمر ، ومقارفة الملذات ، فاقرأ قول طرفة : (١)

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ مِنْ مِّنْ حَاجَةِ الْفَتَى	وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي
فَمِنْهُمْ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشْرِبَةٍ	كُمَيْتِ مَتَى مَا تَعَلَّ بِالْمَاءِ تَزْبِيدِ
وَكَرِيٍّ إِنْ نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا	كَسَيْدِ الْغَضَّانِبِئِهِ الْمَتَّوْرِدِ (٢)
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنِ مُعْجِبِ	بِبَهْكَنَةِ تَحْتَ لَطَّافِ الْمُمَدِّدِ (٣)

ولبشر بن أبي خازم في ديوانه مثل مقال طرفة هذا أو قريب منه . (٤)

فهل رأيت القيم التي يحيا من أجلها كثير من القوم ؟! ثم هل رأيت
أي منزلة أنزلوا الخمر والملذات ؟! ، لقد جعلوها من أصناف الشجاعات
والمروءات والنجيدات .

هذه وتلك ، هي بعض الفعال الخسيسة ، والخصال الذميمة ، التي
شاعت بين العرب في الجاهلية ، على تفاوت في مقارفة القوم لها ، واختلاف
في وجهات نظرهم نحوها .

فمنها ما كان بعضهم يعده قيما يعتزبها ويفخر بإتيانها ، ومنها ما كان
أكثرهم يعده كذلك . وهذه وتلك لا تخرج عن كونها فعلا دنية شنيعة ،

(١) ديوان طرفة - طبع دمشق - ص ٣٣ - ٣٤

(٢) المضاف المكروب الذي أحاط به العدو ، والمحنب الفرس الذي في يديه
انحناء وهو ما يمدح به .

(٣) يوم الدجن يوم نديورث والباس غيم وهو أحسن أيام لهوهم ولذلك
خصه . والبهكنة من الفتيات التامة - الخلق الحسن .

(٤) انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١١٩

وقيما هابطة وضیعة .

وعشقُ القوم لها ، وتعلقهم بها ، مع ما رأينا لهم من رفیع
القیم وحمیدا للفعال ، وعالی الهمم وکريم الخصال - يدل بشكل جلی ،
على أن المجتمع الجاهلی ، كان قد فقد توازنه ، وأصبح فی حاجة ملحة
إلى إصلاح جذری .

** ** *

تلك هی معتقدات العرب فی الجاهلیة ، الدینیة منها
والخرافیة . وتلك هی قیمةم الاجتماعیة ، وعاداتهم وأخلاقهم ،
حمیدها ونمیمها ، ورفیعها ووضیعها
وتلك هی الشواهد الثمریة على وجود كل ذلك عندهم ، بل
وفشوه بینهم ، وجودا وفشوا تركا لتلك الظاهرة ، فی كل جانب
من جوانب حیاة القوم ، بممات ظاهرة .
أما تلك المعتقدات والقیم ، من حیث الحق والباطل ، والخیر
والشر ، والاستقامة والانحراف ...
وأما تلك الأشعار ، من حیث الناحیة الأدبیة ، والخصائص
الفنیة ، جمالا وقبحا ، وقوة وضعفا ، وجودة ورداءة ...
فموضع هذا كله ، السفر الثانی من هذا البحث
بمشیئة الله تعالی .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمین